أ.د. محمّد سهيل طقّوش

تاريخ الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين



دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف: مسجد أحمد بن طولون في القاهرة، والمدرسة العزيزية في حلب.

تاريخ
الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين

تأليف

الدكتور محمّد سهيل طقّوش

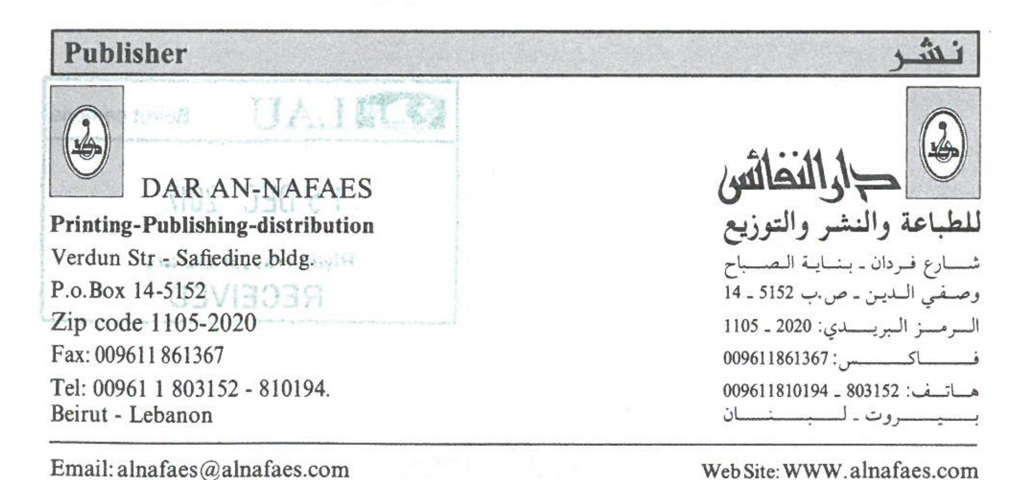
أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين
تأليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م
ISBN 978 - 9953 - 18 - 456 - 2



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ ثلاث إمارات إسلامية استقلَّت عن دولة الخلافة العباسية خلال مرحلة ضعف الخلافة وضياع هيبة الخلفاء، بدءاً من العصر العباسي الثاني وما بعده، وهذه الإمارات هي الإمارتان الطولونية والأخشيدية في مصر، والإمارة الحمدانية في الموصل وحلب.

والواقع أن العصر العباسي الثاني تميز بظاهرة انتقال الدولة العباسية من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، وقد أتاح ذلك قيام إمارات انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي، ودخول شعوب جديدة أعجمية في المجتمع الإسلامي تمكَّنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت تأثيرهم ما أدَّى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، وفقدوا الاحترام الذي كان يتمتع به أسلافهم، خلفاء العصر العباسي الأول.

والواقع أن عوامل عدة تفاعلت على الساحة السياسية في العصر العباسي الثاني، هيَّأت لبروز الحركات الانفصالية، لعل أهمها:

كانت رقعة الدولة قد اتَّسعت اتساعاً كبيراً بحيث تعذَّر إدارتها من مركز الخلافة، وذلك بفعل عدم ملاءمة تطور وسائل النقل مع هذا الاتساع من جهة ونمو الشعور القومي من جهة أخرى.

لجأت الدولة تجاه هذا الواقع، إلى تنفيذ سياسة مضادة ترتكز على التجزئة. فقد قسَّم هارون الرشيد أراضي دولته بين ولديه الأمين والمأمون، واقتدى به بعض من جاء بعده من الخلفاء، وقد أضعفت هذه التجزئة قوة الدولة.

نتج عن هذه التجزئة ظاهرتان متعارضتان، الأولى تسعى إلى تركيز السلطة والمحافظة على الوحدة، والثانية تعمل على الانفصال الإقليمي مستغلة أوضاع الشعوب الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة، لتحقيق انفصالها. وانتهى الأمر إلى انتصار النزعة الثانية التي مهدت لقيام الإمارات الإنفصالية.

لقد حملت دولة الخلافة العباسية أثناء قيامها، بذور الانفصال حين تطلعت الشعوب غير العربية للحصول على مبدأ المساواة مع العرب، وتجاوبت الخلافة مع هذه التطلعات ما أدى إلى تقوية الروح الشعوبية لدى الشعوب غير العربية، ودفعها إلى إقامة دول انفصالية عنصرية، لكنها حافظت في الوقت نفسه على الولاء لمنصب الخلافة، وعليه فإن مطالبة هذه الشعوب بتطبيق مبدأ المساواة، كان يخفي وراءه هدفاً سياسياً.

وكان لأسلوب الحكم في الولايات النائية دور في تغليب نزعة الانفصال. فقد عمد خلفاء بني العباس، في عهد تصاعد نفوذ الأتراك بخاصة إلى تعيين بعض قادتهم حكاماً على هذه الولايات، وأهملوا في الوقت نفسه مراقبتهم ومحاسبتهم فعمد هؤلاء إلى تعيين نواب عنهم لإدارة الولايات باسمهم فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة، يشاركون في رسم السياسة العليا للدولة. ومن الطبيعي في هذا الوضع الشاذ أن يسعى النواب إلى اقتناء المال لإرضاء الخلفاء والقادة وحتى أنفسهم، فيزيدون الضرائب ويشتطون في جبايتها الأمر الذي يؤدي إلى وقوع الظلم على الناس، فيترقبون من يرفع عن كاهلهم هذا الظلم ويصلح أوضاعهم الاقتصادية، حتى إذا وُجد الرجل القوي في إحدى الولايات، استغل هذه الأوضاع السيئة وأعلن انفصاله.

وفَقَدَت بعد اندلاع ثورة الزنج فكرة جمع العالم الإسلامي تحت قيادة سياسية واحدة، أهميتها، وحلّت محلها فكرة تحقيق المصالح الإقليمية للشعوب المختلفة التي انضوت تحت لواء الخلافة، بحيث يتلمس كل شعب شخصيته العنصرية الشعوبية، ويحاول أن ينمّيها، وأن يرتفع إلى مستوى الانفصال، حتى جاء وقت حكمت فيه كل عنصرية نفسها بنفسها. وقد شجّعت بعض الأطراف الداخلية هذا الاتجاه الشعوبي مثل المعارضة العلوية، والمعارضة الخوارجية، ووقفت الخلافة عاجزة عن مقاومة هذه التيارات.

لم تفكر الإمارات التي انفصلت سياسياً عن الخلافة، بالانفصال الديني عنها لأن الخلافة تمثل في نظر المسلمين ضرورة دينية لاستمرار الوحدة الإسلامية، وتشكل رمزاً يربط أجزاء العالم الإسلامي المختلفة، باستثناء ما كان من أمر الدولة الفاطمية، التي لم تعترف أصلاً بحق العباسيين بالخلافة. واستوعبت الخلافة هذه الظاهرة، فحرصت على التوفيق بين نزعات الشعوب ومطالبها السياسية والاقتصادية وبين مبدأ الوحدة، لكنها عجزت عن تحقيق التوازن بين القوة المركزية في بغداد، وبين القوى اللامركزية النامية في أقاليم الأطراف، ما أدّى إلى قيام الإمارات الانفصالية. واعترف الخلفاء بهذا الأمر الواقع وارتضوا أن يبني كل شعب مستقبله

في إطار الحضارة الإسلامية، وأن يشارك بطريقة أو بأخرى في بناء الدولة الإسلامية بقدر كفاءته.

وتبقى مناطق الثغور كوحدات تقوى وتضعف وفقاً لتطور العالم الإسلامي، وحاجته للدفاع أو الهجوم، وتتأثر عادة بالخطر الخارجي وقوة الخلافة.

وكان للعراق وضعه الخاص المرتبط بالخلافة، حيث ظلّت تحكمه حكماً مباشراً أو يُحكم باسمها حين يشتد ساعد العناصر المتطلعة إلى النفوذ حتى فَقَدَ الخليفة أخيراً نفوذه في العاصمة أمام تصاعد نفوذ الأتراك.

أسس أحمد بن طولون الإمارة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ - ٩٠٥م)، وهو من المماليك الأتراك، تزوَّجت والدته، بعد وفاة والده، الأمير بايكباك التركي الذي عيَّنه الخليفة المعتز والياً على مصر في عام (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م)، فأرسل أحمد ليتولى حكمها بالنيابة عنه، وساعدته الظروف السياسية والاقتصادية المتدهورة في تثبيت أقدامه فيها. كما أسند إليه الخليفة المهتدي ولاية الثغور الشامية على أثر وقوع الاضطرابات فيها. وأضحى ابن طولون حاكم مصر من قبل الخليفة مباشرة بعد وفاة كل من بايكباك وخلفه يارجوخ، في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م).

وشرع أحمد بن طولون في القيام بأعمال عمرانية تُعبِّر عن مدى اهتمامه الشديد بمصر، ومتطلعاً من خلالها إلى إقامة إمارة خاصة به ومنفصلة عن الخلافة، فأسس ضاحية للفسطاط هي القطائع اتخذها عاصمة لإمارته، وبنى فيها مسجده المشهور، وقوّى الجبهة الداخلية من خلال تنمية موارد الثروة، ومضاعفة الدخل في ميادين الانتاج، وأصلح أقنية الري، والسدود الخربة، وحظّر على الموظفين قبول الهدايا.

تجمَّع لأحمد بن طولون نتيجة هذه الإصلاحات أموال ضخمة أعانته على إنشاء جيش قوي يدين له بالولاء، ويساعده في تحقيق مشروعاته الانفصالية والدفاع عنها.

ولعل المشكلة الكبيرة التي واجهت الأمير الطولوني هي علاقته بأبي أحمد المُوفَّق طلحة، الذي سيطر على الشؤون العامة في بغداد، وقاد حركة إصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية، لذلك سعى جاهداً للقضاء على الإمارة الطولونية التي انفصلت عن الإدارة المركزية، وبدأت تتطلع نحو ضمِّ بلاد الشام، لكن محاولاته باءت بالفشل. وحصل أحمد بن طولون على تقليد من الخليفة، بفضل علاقته الحسنة به، بحكم مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى ثغورها.

وحاول أحمد بن طولون، في غمرة هذا الصراع مع المُوفَّق طلحة، إلى نقل مقر الخلافة إلى مصر مستغلاً الجفاء الذي نشأ بين هذا الأخير وبين الخلافة، إلا أنه فشل في ذلك. ويبدو أن المُوفَّق طلحة لم يركن إلى الهدوء، وسعى جاهداً إلى

إزاحة خصمه، فعزله عن مصر وبلاد الشام وولّى إسحاق بن كنداج على أعماله، فتراجعت نتيجة ذلك قوة أحمد بن طولون، ثم دخل الطرفان في مفاوضات من أجل إحلال السلام بينهما، لكن المنية وافت أحمد بن طولون قبل أن تنتهي، وذلك في عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م).

خلف خمارويه أباه أحمد، وقد ورث مهمة الدفاع عن الإرث الطولوني في مصر والاحتفاظ ببلاد الشام، مع استمرار عداء الخلافة العباسية للطولونيين. وفشلت محاولات المُوفَّق طلحة في خلعه أو التغلب عليه في ساحة القتال، وبخاصة بعد اندحاره أمام القوات الطولونية في معركة الطواحين على نهر أبي فطرس جنوبي فلسطين في عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م). وأضحت الإمارة الطولونية في عهده قوة تملأ مكانها بجدارة. وعلى الرغم من هذه الانتصارات التي حقَّقها، فقد مال إلى السلام، وبادر بطلب الصلح مفتتحاً بذلك مرحلة جديدة من العلاقات مع الخلافة العباسية. وضمنت المعاهدة التي وُقِّعت بين الجانبين، للطولونيين، الولاية على مصر وبلاد الشام والثغور، طوال ثلاثين سنة مقابل دفع جزية هزيلة. وتدعَّمت هذه العلاقات الجيدة بالمصاهرة عندما تزوج الخليفة المعتضد ابنة خمارويه قطر الندى.

توفي خمارويه في عام (٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) مقتولاً على يد بعض غلمانه، فاضطربت الإمارة الطولونية بعد وفاته، واستمرت بالانحدار خلال السنوات العشر الأخيرة من عمرها، وذلك بسبب تدخل الجند، وتنافس الأمراء، حتى انتهت على يد الخليفة المكتفي الذي دخلت قواته إلى مصر في عام (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م). فدمَّرت مدينة القطائع باستثناء الجامع، وعاد هذا البلد إلى حكم الخلافة المباشر.

عادت مصر إلى أحضان الخلافة العباسية، لكن هذه الخلافة أصابها الوهن مرة أخرى في عهد الخليفة المقتدر، وظهر عجزها في المحافظة على سلطتها في ولاياتها ومنها مصر. ورافق ذلك ظهور خطر خارجي تمثل في محاولات الفاطميين غزو هذا البلد، فتطلب الوضع وجود حاكم قوي يملأ الفراغ، ويتصدى للأخطار، ويجعل من مصر دولة حاجزة أمام الزحف الفاطمي. فولى الخليفة محمد بن طغج بن جف على مصر في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، وكلَّفه بهذه المهمة، فأسَّس الإمارة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م).

اهتم محمد بن طغج أولاً بتقوية مركزه في الداخل منتهجاً نهج أحمد بن طولون، ونجح في التصدي لحملات الفاطميين التي هاجمت مصر في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)، وحافظ في الوقت نفسه على علاقته الطيبة مع الخلافة العباسية التي أضافت إلى أملاكه، بلاد الشام، ولقَّبه الخليفة بـ«الأخشيد».

كانت الخلافة العباسية آنذاك تشهد تطورات سريعة بفعل الصراع من أجل الحصول على منصب أمير الأمراء. فدخل الأخشيد في دوامة هذا الصراع، فهزم ابن رائق في العريش في عام (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، لكنه آثر تقديم المصلحة العامة على مصلحته الخاصة، فعقد صلحاً مع ابن رائق تنازل له بموجبه عن الأراضي الواقعة شمالي الرملة، ثم سيطر على كامل بلاد الشام بعد وفاته في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤٢م)، واعترف الخليفة المتقي بوراثية ولايته على مصر، وأقرَّه على بلاد الشام.

واصطدم الأخشيد بسيف الدولة الحمداني، أثناء توسعه باتجاه الشمال، إلا أنه تراجع على الرغم من انتصاره لأنه أدرك ضرورة وجود قوة إسلامية في شمالي بلاد الشام كقوة الحمدانيين، للتصدي لاعتداءات البيزنطيين.

وحاول الأخشيد نقل الخلافة إلى مصر، مقتدياً بأحمد بن طولون، مستغلاً استبداد الأمراء الأتراك بالخليفة المتقي وإحجام الحمدانيين عن مساعدته، إلا أنه فشل في ذلك أيضاً لأن الخليفة أبى أن يترك عاصمته.

توفي الأخشيد في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، فاستولى كافور على زمام السلطة بوصفه وصياً على ولديه الصغيرين أنوجور وعلي، واستطاع خلال مدة وصايته الطويلة أن يحافظ على تماسك الدولة، لكن وفاته في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)، واضطراب الأوضاع في مصر، نتيجة ذلك، دفعت الفاطميين للإغارة على مصر، ونجحوا في دخولها في العام التالي، وقضوا على الحكم الأخشيدي.

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية التي أقامت بضواحي الموصل. وقام حمدان بدور هام في الأحداث السياسية التي وقعت في هذه المدينة منذ عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م)، واستولى في عام (٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، على قلعة ماردين في الجزيرة الفراتية العليا عن طريق التعاون مع الخوارج، فحاربه الخليفة المعتضد في عام (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) وتغلَّب على قواته، وهرب حمدان من الموصل تاركاً المدينة تحت حكم ابنه الحسين، وعلى الرغم من أنه وقع أسيراً في يد الخليفة، فقد عفا عنه بعد أن هزم ابنه الحسين الخوارج. ومنذ ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين تظهر على مسرح الأحداث السياسية. ففي عام (٢٩٣هـ/ ٩٠٦م) قلَّد الخليفة المكتفي أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان، أخا الحسين، الموصل، كما قلَّد أخاه إبراهيم ديار ربيعة في عام (٣٠٧هـ/ ٩١٩م).

أناب عبد الله ابنه الحسن في حكم الموصل، وتمكَّن هذا من بسط سلطته على الجزيرة الفراتية بكاملها، بالإضافة إلى شمالي بلاد الشام، والتجأ إليه الخليفة المتقي بعد أن تعدَّدت هجمات البريدي وإخوته على العراق، فخلع عليه في (شعبان

٣٣٠هـ/ نيسان ٩٤٢م) ولقَّبه ناصر الدولة، وعيَّنه أميراً للأمراء، كما لقَّب أخاه علياً سيف الدولة.

تعرَّضت الأسرة الحمدانية إلى عداء البويهيين بعد أن دخل هؤلاء مدينة بغداد في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م). فقد شنَّ معز الدولة البويهي حرباً على الحمدانيين انتهت بإخضاعهم، وظل ناصر الدولة في إمارته يدفع الجزية لهم، ويخطب باسمهم إلى أن قبض عليه ابنه أبو تغلب في عام (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، فحجر عليه وسجنه وتسلَّم الحكم بعد صراع أسري، وقُتل أثناء صراعه مع أمير الرملة دغفل بن مفرج والفاطميين في عام (٣٦٩هـ/ ٩٧٩م).

كان بوسع أخيه أبي طاهر إبراهيم الاحتفاظ باستقلاله بعد أن استعاد الموصل في عام (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) غير أن الأكراد طمعوا في إزالة إمارته، وفَقَدَ إخوته وذريته هذا الاستقلال بعد أن أخضعهم البويهيون. وزالت الإمارة الحمدانية في الموصل في عام (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) على يد محمد بن المسيب العقيلي.

والواقع أنه لن تكون لهذه الأسْرة إلا مكانة متواضعة في التاريخ لولا أن أحد أفرادها وهو سيف الدولة، أخو ناصر الدولة، انتهز الظروف المؤاتية، فأنشأ لنفسه إمارة في شمالي بلاد الشام تتوسط الطريق بين العراق ومصر.

أدرك سيف الدولة أنه يتعذَّر عليه التمكين لنفسه في العراق بوصفه عامل الخليفة وساعده الأيمن في ظل صراع الأتراك وطموح البويهيين وتوثُّبهم، كما دبَّ الجفاء بينه وبين أخيه ناصر الدولة، فلفت نظره إلى بلاد الشام، فذهب إليها وسيطر على حلب في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٥م) بعد أن انتزعها من أيدي الأخشيديين وحاول أن يبسط سلطانه على دمشق، إلا أنه اصطدم بقوة الأخشيديين بقيادة كافور ليتفرغ بعد ذلك للمشكلة التي كرَّس جهوده من أجلها أيام حكمه، وأعني النضال ضد البيزنطيين. وقد دفعه وضع إمارته الجغرافي بوصفها إمارة ثغور إلى سلوك هذا المسلك، في ظل الاستفاقة التي شهدتها الامبراطورية البيزنطية، وأتاح لها القيام بغارات على بلاد الشام. وبعد أن اكتسحت قسماً من أرمينيا وصلت إلى الحدود الممتدة بين جبال طوروس وملطية وأرضروم، وكان المسلمون آنذاك قد شُغلوا بنزاعاتهم الداخلية، فعجزوا عن صدِّ البيزنطيين، عندئذ تشجَّع الأباطرة، أمثال نقفور فوكاس، ويوحنا زمسكيس، فتجاوزوا آسيا الصغرى، وهاجموا الممتلكات الإسلامية في قيليقيا وبلاد الشام وأعالي الرافدين، فكان على سيف الدولة وحده أن يتحمل عبء القتال. وعلى الرغم من أنه لم يمتلك قوة عسكرية وفيرة العدد إلا أنه استطاع أن يُجدِّد أمجاد المسلمين الأوائل في صدامهم مع البيزنطيين، ويقاوم هؤلاء طوال

عشرين عاماً، ويغزو أراضيهم في غارات بالغة الجرأة. ولكن هذه الغارات لم تؤثر في قوة بيزنطية التي بقيت بمنجاة من التدمير، وسمحت لها بالرد، فاستعادت قيليقيا وشمالي بلاد الشام مع أنطاكية، وطرسوس في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)، واستقر الخط الفاصل بين الدولتين في الشرق على تلال الضفة اليمنى لنهر العاصي، والتفَّ حول حلب شمالاً وراح يحاذي الفرات الأوسط عند السفوح الشرقية لجبال طوروس حتى بلغ ينابيع دجلة تقريباً، وألقت القوات البيزنطية الحصار على حلب التي اعترفت في إحدى مراحل الصراع بولائها لبزنطية.

وبدخول الفاطميين على الخط السياسي، أعلن سيف الدولة طاعته لهم، وأيَّد محاولاتهم غزو مصر، وبالتالي فإنه اتبع مذهب العلويين، لكنه احتفظ بسيادته التامة على جميع أرجاء إمارته. وإلى جانب جهاده العسكري ونضاله السياسي، اهتم سيف الدولة بالناحية الثقافية اهتماماً بالغاً. فقد رعى الفنون والعلوم والشعر والأدب، فازدهر عهده بطائفة من مشاهير العلماء والكتَّاب والشعراء كأبي الفتح بن جنِّي النحوي، وأبي الطيب المتنبي، واشتهر كثير من الأمراء الحمدانيين بالشعر كأبي فراس الحمداني، ابن عم سيف الدولة، وكان سيف الدولة نفسه يجيد الشعر.

توفي سيف الدولة في حلب في عام (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، فخلفه ابنه سعد الدولة ثم حفيده سعيد الدولة، اللذان احتفظا بحلب حتى عام (٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) عن طريق تحالفهما مع البيزنطيين دفعاً لخطر الفاطميين الذين قضوا أخيراً على حكم الحمدانيين في حلب في عام (٤٠٧هـ/ ١٠١٧م).

إن الدراسات التي تتناول تاريخ الإمارات التي انفصلت عن جسم الخلافة العباسية في الشرق الإسلامي، قليلة جداً وتكاد تكون نادرة، لذلك فإن كل محاولة للإقدام على دراسة هذه المرحلة سوف تكون شيقة ومثمرة، وبخاصة أنها تُعدُّ جزءاً من تاريخنا الإسلامي يجب أن نذكره دائماً.

اعتمدت في هذه الدراسة على مصادر أساسية ومراجع متنوعة مبيَّنة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل بما اعتمدت عليه وأنجزته أن يخدم الحقيقة التاريخية ويُذخر المكتبة العربية والإسلامية بالمعلومات الجديدة والمفيدة.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارئ بعناوينها، فقد قسَّمتها إلى أربعة أبواب تضمَّنت أربعة عشر فصلاً.

خصَّصت الباب الأول لتاريخ الإمارة الطولونية، والباب الثاني لتاريخ الإمارة الأخشيدية، والباب الثالث لتاريخ الإمارة الحمدانية في الموصل، والباب الرابع لتاريخ الإمارة الحمدانية في حلب.

عالجت في الفصل الأول الأوضاع السياسية في الدولة العباسية وأثرها في قيام الإمارات المستقلة. وبعد أن تحدثت عن طبيعة العصر، تطرقت إلى وضع العنصر التركي الدخيل على المجتمع العباسي وازدياد نفوذه، فهيمن على مقدرات الخلافة وسُمي العصر العباسي الثاني باسمه، ونجح هذا العنصر في تأسيس إمارات انفصالية اقتطعها من جسم الخلافة.

وتطرقت في الفصل الثاني إلى شخصية أحمد بن طولون التركي الأصل مؤسس أول إمارة تركية، وهي الإمارة الطولونية في مصر، وما صادفه من مشكلات داخلية. وبعد أن عرَّفت بشخصيته بيَّنت الظروف السياسية التي أتاحت له تولي حكم الديار المصرية والانفصال عن جسم الخلافة العباسية، وما واجهه من حركات معارضة قضى عليها قبل أن ينصرف إلى الأعمال الإنشائية وتحصين الجبهة الداخلية وتأسيس جيش قوي يدين أفراده بالولاء له، وقد سخَّره في تحقيق مشروعاته التوسعية في بلاد الشام ومواجهة الخلافة العباسية التي حاولت القضاء عليه وانتزاع مصر منه. فبنى القطائع، وطوَّر الحياة الاقتصادية، فأمَّن بذلك مداخيل وافرة أنفقها على تطوير القوة العسكرية. وشجَّع أحمد بن طولون حركة الجهاد الإسلامي ضد البيزنطيين، مدفوعاً بحبه للجهاد، وخرج إلى منطقة الثغور من أجل ذلك، إلا أنه لم يحقق أي إنجاز يُذكر.

وتضمَّن الفصل الثالث سجلاً بالأوضاع الخارجية في عهد أحمد بن طولون وأهمها تمدُّده باتجاه بلاد الشام وما صادفه من عقبات من جانب الخلافة العباسية بخاصة. وعدَّدت دوافع هذا التمدد وبيَّنت نزعاته الجهادية ضد البيزنطيين.

وعالجت في الفصل الرابع الأحداث السياسية والعسكرية في عهد خمارويه الذي خلف أباه أحمد. لقد واجه هذا الأمير، بعد اعتلائه السلطة، ثورات عدة لعل أهمها ثورة أخيه العباس، وقد قضى عليها، ثم تطرقت إلى علاقته مع الخلافة العباسية التي تراوحت بين العدائية والجيدة، بالإضافة إلى علاقته مع الامبراطورية البيزنطية، والمعروف أن خمارويه حرص على استمرار حركة الجهاد الإسلامي ضد البيزنطيين متبعاً خطى والده، إلا أنه لم يُحقق أي إنجاز يذكر.

وبحثت في الفصل الخامس في الأحداث التي أدَّت إلى تصدع الإمارة الطولونية بعد وفاة خمارويه ومن ثم زوالها على يد الخلافة العباسية التي ما فتئت تناهض الطولونيين حتى قضت على حكمهم واستعادت مصر

وتطرقت في الفصل السادس إلى الأوضاع السياسية في مصر قبيل قيام الإمارة الأخشيدية من واقع صراع الولاة الذين تعاقبوا على حكم هذا البلد، والذين كانت

الخلافة العباسية تعينهم، وقد أدَّى ذلك إلى حدوث الفوضى والاضطراب. وبدأت في هذه المرحلة الانتقالية، بين زوال الإمارة الطولونية وقيام الإمارة الأخشيدية، الغزوات الفاطمية لمصر بهدف الاستيلاء عليها الأمر الذي زاد المشكلات الداخلية تعقيداً وتردي الوضع الاقتصادي. وكانت البلاد بحاجة إلى رجل قوي ينتشلها من المأزق السياسي والاقتصادي والأمني ويتصدى للخطر الفاطمي، ولم يكن ذلك الرجل سوى محمد بن طغج الأخشيد.

وبحثت في الفصل السابع أصل الأخشيديين الأتراك وأعمال الأخشيد قبل أن يتولى مصر، والظروف التي أتاحت له حكم هذا البلد وتأسيس إمارة وراثية. وبعد أن ثبَّت أقدامه في الحكم دعَّم وضعه الداخلي ليواجه بصلابة ما قد يقتضيه من مشكلات خارجية وأهمها الخطر الفاطمي والتمدد باتجاه بلاد الشام. وانخرط الأخشيد في الصراعات حول منصب أمير الأمراء والتوسع في بلاد الشام، إلا أنه كان يفضل دائماً المصلحة الإسلامية العامة على مصلحته الشخصية. فتفاهم مع خصومه على الرغم من انتصاره عليهم، مثل ابن رائق وسيف الدولة الحمداني. وكانت علاقته جيدة مع الخلافة العباسية، وحاول أن ينقل المقر الخلافي إلى مصر مستغلاً ما كان يواجهه الخليفة المتقي من ضغوط من جانب أمراء الأمراء، فاجتمع به خارج الرقة من أجل ذلك، غير أن الخليفة أبى أن يترك عاصمته بغداد. وواجه الأخشيد ضغوطاً متزايدة من جانب الفاطميين إلا أنه واجهها بالقوة تارة وبالدهاء تارة أخرى. أما علاقته بالامبراطورية البيزنطية، فكانت سلمية إجمالاً بفعل ما أحاط بوضعه من مشكلات شغلته عن المضي في الجهاد.

وتحدثت في الفصل الثامن عن أوضاع الإمارة الأخشيدية في عهد خلفاء الأخشيد وحتى سقوط الإمارة في يد الفاطميين. خلف الأخشيد ولداه أنوجور وعلي على التوالي في ظل وصاية كافور عليهما بفعل صغر سنهما، ثم استبدَّ هذا بالسلطة بعد وفاتهما بحجة أن أحمد بن علي، الوارث الشرعي، كان صغيراً وغير صالح للحكم. غير أن أحمد هذا اعتلى السلطة بعد وفاة كافور بمساعدة أعيان مصر وقادتها. وخرج عليه والي الشام الأخشيدي الحسن بن عبيد الله بن طغج، فأخذ البيعة لنفسه واستولى على ما كان لكافور من أموال في الرملة. وشهدت مصر في أواخر عهد الإمارة وضعاً اقتصادياً متدهوراً وصراعاً داخلياً على السلطة، بالإضافة إلى اضطرابات الجند بسبب التأخر الدائم في دفع رواتبهم، وثورات عاتية قام بها ولاة بلاد الشام وفلسطين، كما تعرَّض الأخشيديون لغارات القرامطة المدمرة؛ الأمر

الذي أضعف الإمارة وأتاح للفاطميين الاستيلاء على مصر وإسقاط الحكم الأخشيدي.

ودوَّنت في الفصل التاسع تاريخ الحمدانيين الأوائل الذين تعاقبوا على حكم الموصل والجزيرة الفراتية منذ ظهور زعيمهم حمدان بن حمدون على المسرح السياسي وابنه وخليفته الحسين، وعلاقتهما مع الخلافة العباسية التي تراوحت بين التعاون المثمر والعداء الشديد.

وعالجت في الفصل العاشر تاريخ الحمدانيين من خلال نشاط ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله، مؤسس الإمارة الحمدانية في الموصل. اشترك ناصر الدولة في النزاعات الداخلية على الساحة السياسية في بغداد لتحسين وضع إمارته وقبيلته، غير أن سلوكه السياسي الذي ينم عن بداوة متأصلة بحيث لم يتمتع مطلقاً بصفات رجل الدولة؛ لم يتح لإمارته الارتقاء إلى مستوى الدولة. وتعرَّض ناصر الدولة، في أواخر أيامه، للامتهان من قِبل أولاده الذين تنازعوا على السلطة، فسُجن، وتوفي في سجنه مقهوراً.

واحتوى الفصل الحادي عشر سجلاً بالأحداث التي شهدتها الإمارة الحمدانية في الموصل خلال عهد خلفاء ناصر الدولة وحتى القضاء عليها من قِبَل العقيليين.

- وعالجت في الفصل الثاني عشر أحداث تأسيس الإمارة الحمدانية في حلب على يد سيف الدولة، أخي ناصر الدولة، وما واجهه من مشكلات داخلية، وبحثت في علاقته مع الأخشيديين التي كانت عدائية بفعل الصراع على بلاد الشام.

وتطرقت في الفصل الثالث عشر إلى العلاقات بين سيف الدولة والبيزنطيين التي اتسمت بالعدائية دائماً. وتوسعت بيزنطية في عهده باتجاه شمالي بلاد الشام في ظل الصحوة السياسية التي شهدتها خلال حكم الأسرة المقدونية، فسيطرت على قيليقيا والثغور الشامية وطرقت أبواب حلب، وفرَّ سيف الدولة منها، غير أن نقص المؤنة والعلف، بالإضافة إلى تجدُّد النشاط البلغاري المعادي في البلقان أجبر الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس، الذي قاد حركة التوسع والانتشار، على الارتداد عن حلب، لكنه استولى على أنطاكية. وعاد سيف الدولة إلى حلب ليعيد بناء ما تهدم ويستعد لجولة أخرى مع البيزنطيين، غير أنه توفي قبل أن يحقق غايته.

ودوَّنت في الفصل الرابع عشر تاريخ الإمارة الحمدانية في حلب بعد وفاة سيف الدولة وحتى زوالها على يد الفاطميين. والواقع أن خلفاء سيف الدولة لم يكونوا على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وقد استبدَّ غلمان سيف الدولة بالشؤون العامة، مثل قرغويه وبكجور ومنصور بن قرغويه. وتنازعت بلاد الشام في عهدهم

دولتان كبيرتان هي الامبراطورية البيزنطية، التي نجحت جيوشها في دخول حلب وفرضت وصايتها على الإمارة من خلال معاهدة مذلة، والدولة الفاطمية الطامعة بضم بلاد الشام كلها إلى مصر، وقد نجحت في تحقيق ذلك، فسيطرت على حلب وعيَّنت حاكماً فاطمياً عليها، فقضت بذلك على الإمارة الحمدانية.

وأنا على ثقة بأن القارئ سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة، كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ. د. محمد سهيل طقوش

البَابُ الأوّل

الإمارة الطولونية

٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م

الفصل الأول: الأوضاع السياسية في الدولة العباسية وأثرها في قيام الإمارات المستقلة.

الفصل الثاني: أحمد بن طولون، مؤسس الإمارة الطولونية: الأوضاع الداخلية.

الفصل الثالث: أحمد بن طولون، مؤسس الإمارة الطولونية: الأوضاع الخارجية.

الفصل الرابع: خمارويه بن أحمد بن طولون.

الفصل الخامس: تصدع الإمارة الطولونية وزوالها.

الفَصْلُ الأَولُ

الأوضاع السياسية في الدولة العباسية وأثرها في قيام الإمارات المستقلة

طبيعة العصر

تراوحت الأوضاع السياسية في الدولة العباسية في القرنين الثالث والرابع الهجريين بين القوة والضعف والفوضى والاضطراب، وقد ساعد ذلك على قيام الإمارات المستقلة ومن بينها الطولونية والأخشيدية والحمدانية. وقد اختلف العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ في ظله قيام الإمارات المستقلة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) عن العصر العباسي الأول في كثير من مظاهره. فقد امتاز العصر الأول بقوة الخلافة وتركيز السلطة في أيدي الخلفاء الذين اتصفوا بالبراعة السياسية وقوة الشخصية، واستطاعوا أن يحافظوا على العلاقات الوثيقة مع الشعوب التي ساندتهم في مرحلة التحضير للثورة، كما أبدوا كفاءة نادرة في كبح جماح العناصر المتوثبة والمتطلعة إلى النفوذ والسلطان باستثناء ما حصل في الأندلس وبعض أقاليم شمالي إفريقيا[١]، وتمكَّنوا من إقامة نوع من التوازن بين التيارات السياسية المختلفة التي ظهرت بعد قيام الدولة.

وكان الوزراء على رأس الحكومة، وهم عضد الخليفة وساعده الأيمن في إدارة شؤون الدولة، ومسؤولون من الناحية العملية عن سياسة الدولة الداخلية والخارجية، يولَّون ويعزلون الموظفين.

وعلى الرغم من هذه القوة التي تمتعت بها الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول، وهيمنة خلفائها؛ فقد واجهت الدولة في هذا العصر مشكلات وصعوبات ذلَّلها الخلفاء، في حين عجز أسلافهم في العصر العباسي الثاني وما يليه من عصور عن مواجهتها عندما استفحلت. وترتَّب على عجز الخلفاء ظهور الفتن الداخلية التي

---

(١) استقلَّ عبد الرحمٰن الداخل بالأندلس. وقام عبد الرحمٰن بن حبيب عامل إفريقيا بثورة على الأمويين، واعترف به العباسيون أميراً مستقلاً. وشهد المغرب قيام الدولة الرستمية في تاهرت، والأدارسة في المغرب الأقصى، والأغالبة في تونس.

أضعفت السلطة المركزية، ما أدَّى إلى قيام إمارات الأطراف التي استقلَّت استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي[١]، نذكر من هذه المشكلات:

- انتقال الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم ودخول شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي مثل الأتراك، تمكَّنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت تأثيرهم ما أدَّى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، ففقدوا الاحترام الذي كان يتمتع به أسلافهم خلفاء العصر العباسي الأول[٢].

ويبدو أن مرد هذا التغيير يكمن في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها دولة الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول، وقد حملت معها بذور الانفصال.

- كانت رقعة الدولة متَّسعة اتساعاً كبيراً حتى تعذَّرت إدارتها من مركز الخلافة وذلك بفعل عدم ملاءمة تطور وسائل النقل مع هذا الاتساع من جهة، ونتيجة لنمو الشعور العنصري من جهة أخرى. فلجأت الدولة، تجاه هذا الواقع إلى تنفيذ سياسة مضادة ترتكز على التجزئة. فقد قسَّم الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) الدولة بين ولديه الأمين والمأمون. يشمل القسم الأول أمصار المغرب الإسلامي، ويتضمن القسم الثاني أقطار المشرق الإسلامي. وجرت العادة أن يعهد الخليفة بولاية العهد إلى اثنين يلي أحدهما الآخر. وكانت إدارة المغرب تعهد إلى ولي العهد الأول، وإدارة المشرق إلى ولي العهد الثاني. واتبع الخلفاء العباسيون، بعد هارون الرشيد، سياسة التجزئة هذه. نتج عن هذه التجزئة ظاهرتان متعارضتان، ظاهرة تسعى إلى تركيز السلطة والمحافظة على الوحدة، وظاهرة تعمل على الانفصال الإقليمي مستغلَّة أوضاع الشعوب الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة لتحقيق انفصالها. وانتهى الأمر إلى انتصار النزعة الانفصالية التي مهَّدت لقيام الإمارات المستقلة.

- حملت الخلافة العباسية، أثناء قيامها، بذور هذا الانفصال حين تطلعت الشعوب غير العربية إلى الحصول على مبدأ المساواة التامة مع العرب وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية بعد أن حُرمت منه في مراحل سابقة. وعملت الخلافة العباسية

(١) من مظاهر اعتراف الإمارات الانفصالية بسلطة الخليفة الدينية:
- الدعوة للخليفة على المنابر.
- ضرب اسم الخليفة على النقود قبل اسم الأمير المستقل.
- إرسال قسم من الخراج إلى بيت مال الخلافة.

(٢) محمود، حسن أحمد، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي: ص٢٨٥.

على تنفيذ هذا المطلب ما أدَّى إلى تقوية الروح الشعوبية لدى الشعوب غير العربية ودفعها إلى إقامة إمارات انفصالية عنصرية، لكنها حافظت مع ذلك على الولاء لمنصب الخلافة، واعترفت بسلطان الخليفة الروحي. وعليه فإن مطالبة هذه الشعوب بتطبيق مبدأ المساواة كان يُخفي وراءه هدفاً سياسياً.

- كان لأسلوب الحكم في الولايات النائية دور في تغلُّب نزعة الانفصال. فقد عمد خلفاء بني العباس، وبخاصة في عهد تصاعد نفوذ الأتراك، إلى تعيين بعض قادتهم حكاماً على الأقاليم، وأهملوا في الوقت نفسه مراقبتهم ومحاسبتهم. وبحكم الأوضاع الفوضوية السائدة في الإدارة المركزية آنذاك، عمد هؤلاء إلى تعيين نواب عنهم لإدارة أقاليمهم باسمهم، فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة يشاركون في رسم السياسة العليا للدولة، ويشتركون في المؤامرات، وينعمون بحياة القصور.

ومن الطبيعي، في ظل هذا الوضع الشاذ، أن يسعى النواب إلى اقتناء المال لإرضاء الخلفاء والقادة وحتى أنفسهم. فعمدوا إلى زيادة الضرائب، واشتطُّوا في جبايتها حتى وقع الظلم على الناس، فراحوا يترقبون من يرفع عن كاهلهم هذا الظلم ويصلح أوضاعهم الاقتصادية، حتى إذا وُجد الرجل القوي في إحدى الولايات، استغل الأوضاع السيئة ضارباً على وتر الحالة الاقتصادية والاجتماعية، فيلتف الناس حوله ويُعلن انفصاله.

- وشكَّلت حركة الزنج، التي قامت في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، المرحلة الحاسمة في تاريخ دولة الخلافة العباسية، إذ أضحت القوى الانفصالية قوية جداً بحيث أدَّت إلى تفكُّكها. فقد انفصل شمالي إفريقيا عن دولة الخلافة منذ وقت طويل، وخلال الحروب الطويلة مع الزنج، وبعدها بوقت قصير، انفصلت أقاليم كثيرة أخرى. وأتاح الوضع الصعب الذي وجد فيه الخلفاء أنفسهم، الفرصة للقادة الطموحين لإقامة حكوماتهم الانفصالية في أنحاء مختلفة من الدولة. ويبدو أن نجاحهم توافق مع رغبات الطبقة التي وقع عليها الظلم في تلك البلدان، بالإضافة إلى الطبقة الوسطى من الفلاحين والحرفيين والتجار والملَّاك. فالتطور الصناعي لم يتم بسرعة كافية لامتصاص اليد العاملة الوفيرة، وتراجعت الزراعة بسبب الحروب وأعمال اللصوصية، كما تراجعت حركة الجهاد كثيراً، ولم تعد مخرجاً للعاطلين عن العمل، وبالتالي تواجد في كل مكان الكثير من الشباب الذين انضموا إلى الحركات الانفصالية. وأدَّى ازدياد أعمال السلب والنهب وانتشار اللصوصية إلى تخوُّف الطبقة الوسطى من القلاقل الاجتماعية، ما دفع أفرادها إلى مساندة الحكام القادرين على ضمان الأمن الضروري لنشاطهم الاجتماعي والحفاظ على استقرارهم.

- بعد قيام الدولة العباسية، كانت الولايات الإقليمية تحت إدارة الخلفاء المباشرة أو تحت إدارة ولاة مخلصين لهم. وتغيَّر في العصر العباسي الثاني كل شيء. إذ فقدت فكرة جمع العالم الإسلامي، تحت قيادة سياسية واحدة، أهميتها، وحلَّت محلها فكرة تحقيق المصالح الإقليمية للشعوب المختلفة التي انضوت تحت لواء الخلافة، بحيث يتلمَّس كل شعب شخصيته العنصرية الشعوبية، ويحاول أن ينمِّيها، وأن يرتفع إلى مستوى الانفصال، حتى جاء وقت حكمت فيه كل عنصرية نفسها بنفسها. وقد شجَّعت بعض الأطراف الداخلية هذا التوجه الشعوبي، مثل المعارضة العلوية والخوارجية. ووقفت الخلافة عاجزة عن مقاومة هذه التيارات. لكن الخلافة بوصفها نظاماً أساسياً، كان وجودها في نظر المسلمين بعامة، ضرورة دينية لاستمرار الوحدة الإسلامية العامة، ذلك أنها تُشكِّل رمزاً يربط أجزاء العالم الإسلامي المختلفة، وأن الشعوب التي تمسكت بانفصالها السياسي لم تفكر بالانفصال الديني عنها، باستثناء ما كان من أمر الخلافة الفاطمية التي لم تعترف أصلاً بحق العباسيين بالخلافة.

واستوعبت الخلافة من جانبها هذه الظاهرة، فحرصت على التوفيق بين نزعات الشعوب ومطالبها السياسية والاقتصادية وبين مبدأ الوحدة، لكنها عجزت عن تحقيق التوازن بين القوة المركزية في بغداد وبين القوى اللامركزية النامية في الأقاليم ما أدّى إلى قيام الإمارات الانفصالية.

تجاه هذا الواقع، لم يجد الخلفاء العباسيون مفراً من الاعتراف بهذا الأمر، وأُتيح لكل شعب، في ظل هذا الواقع الجديد الذي ارتضاه، أن يبني مستقبله في إطار الحضارة الإسلامية، وأن يشارك بطريقة أو بأخرى في بناء الدولة الإسلامية بقدر كفاءته.

وفي هذا العصر الذي تغلَّبت فيه اللامركزية في شؤون الحكم، نجد اختلافاً سياسياً بين المشرق الإسلامي ومغربه. ففيما كانت الأقاليم المشرقية، أثناء تنمية اتجاهها العنصري الانفصالي، تحرص على البقاء ضمن دائرة الخلافة، تكنُّ الاحترام لها، وتعترف بسلطانها الروحي، وتعمل جاهدة أن يكون قيامها بتأييد منها، لينهض ذلك دليلاً على وجود السيادة العباسية العليا؛ اتجهت الإمارات الانفصالية في المغرب نحو الانفصال التام مستجيبة لمطالب العنصرية لأحزاب المعارضة.

وتولَّت الإمارات الانفصالية مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي كل في ناحيتها، ورفعت هذا العبء عن كاهل الخلافة، كما مدَّت نفوذ العالم الإسلامي إلى أطراف

جديدة ربما لم تكن الخلافة المركزية بقادرة على تحقيق ذلك، وتصدَّت أيضاً للهجمات المنقَّذة على العالم الإسلامي.

وتبقى مناطق الثغور[١] كوحدات تقوى وتضعف وفقاً لتطور العالم الإسلامي وحاجته للدفاع أو للهجوم، وتتأثر عادة بالخطر الخارجي وقوة الخلافة، فقامت الإمارة الحمدانية في مناطق الثغور الجزرية والشامية، أما ثغور ما وراء النهر فقد وقع عبء الدفاع عنها على عاتق الإمارات الانفصالية التي قامت في إيران وخراسان.

وكان للعراق وضعه الخاص المرتبط بالخلافة حيث ظلَّت تحكمه مباشرة أو يُحكم باسمها حين يشتد ساعد العناصر المتطلعة إلى النفوذ حتى فَقَدَ الخليفة أخيراً نفوذه في العاصمة أمام تصاعد نفوذ الأتراك، تماماً كما فَقَدَه من قبل في الأقاليم، ليصبح منصب الخلافة مجرد رمز تجتمع الدولة حوله.

وأخيراً، تميَّز العصر العباسي الثاني بتهاوي الروابط بين الخلافة وبين مصادر قوتها في الأقاليم[٢] ما أدَّى إلى ضعفها. وفَقَدَ الخليفة صفته كرأس الهرم التنظيمي لذلك النظام الذي سيطر على الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، وبالتالي فَقَدَ تلك الهيبة التي اكتسبها في نفوس الناس، وكان نتيجة ذلك أن تعرَّض للامتهان.

استخدام الأتراك في أجهزة الدولة الإسلامية

كان الأمويون أول من استقدم الأتراك من بلادهم بعد اعتناقهم الإسلام، واستخدموهم في الجيوش وأجهزة الدولة. فقد نقل عبيد الله بن زياد ألفين من سبي بخارى إلى البصرة وأسكنهم في محلة البخارية وهي سكة بالبصرة، كلهم يجيد الرمي بالنشاب[٣]. وانضم الكثير من الجنود الأتراك إلى جيوش المسلمين أثناء الفتوح، كما استعان بهم القادة العرب. فقد شكَّل سعيد بن عثمان، والي معاوية

---

(١) انظر فيما يتعلق بطبيعة مناطق الثغور، الباب الرابع الفصل الثالث عشر.

(٢) لقد تهاوت هذه الروابط بفعل عوامل داخلية خاصة بالبيت العباسي ونزاعاته الأسرية، وبفعل عوامل خارجية نشأت مع بروز العصبية في الأقاليم وتطلعاتها المحلية أمام تراجع العنصر العربي بسبب تفرق العرب في الأمصار واختلاطهم بالشعوب التي خضعت لهم، ولاشتعال العصبية فيما بينهم، ففقدت الخلافة تأييد العنصر العربي، كما فقدت تأييد العنصر الفارسي بعد الضربات التي أنزلتها به.

(٣) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان: جـ١ ص٣٥٥، ٣٥٦.

على خراسان[١]، جيشاً من سكان بلاد ما وراء[٢] النهر من الأتراك[٣].

واستخدم الأمويون الكثير من الجواري والغلمان الأتراك للعمل في قصور الخلفاء، ونجد بعض الجواري محظيات لدى هؤلاء، من ذلك أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك كانت أمه محظية لدى الوليد «فقد أصاب قتيبة بالصغد[٤] جارية، فقال: أترون ابن هذه يكون هجيناً؟ فقالوا: نعم يكون هجيناً من قبل أبيه، فبعث بها إلى الحجاج، ثم بعث بها الحجاج إلى الوليد، فولدت له يزيد بن الوليد»[٥].

وبعد استقرار الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور برز عدد من الشخصيات التركية الذين كان عددهم يزداد شيئاً فشيئاً بتوافدهم على دار الخلافة، فاستخدمهم الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول في قصورهم وإئتمنوهم على أسرارهم، وأسندوا إليهم أمر سلامتهم الشخصية.

كان أبو جعفر المنصور أول خليفة عباسي اتخذ الأتراك بطانة وموظفين، فقرَّب حمّاداً التركي ووثق به وجعله من خاصته وأمناء سره. وبلغت ثقته به حداً أنه كان لا يأمن أحداً على أسرار سجلات الدولة غيره، وكان يصرُّ المفتاح في كم قميصه، فإذا غاب حمّاد أو خرج كان الذي يليه سلمة الخادم[٦].

وتبوَّأ مبارك التركي منصباً رفيعاً في قيادة الجيش، وقام بدور بارز في القضاء على ثورة الحسين بن علي في معركة فخ[٧] عام (١٦٩هـ/ ٧٨٦م)، وبنى حصناً في قزوين سُمي باسمه، وأسكنه بقوم من مواليه وبني جلدته[٨].

ونفر أبو جعفر المنصور من استخدام العرب في قصوره، ولم يرضَ بأن يعمل في خدمة قصره أو حرمه، أحد من العرب[٩]، وفضَّل عليهم عناصر أخرى كالأتراك.

---

(١) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق أزاذ وار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمهات البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس. الحموي: جـ٢ ص٣٥٠.

(٢) بلاد ما وراء النهر يُراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان. المصدر نفسه: جـ٥ ص٤٥.

(٣) اللميلم، عبد العزيز محمد: نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء: جـ١ ص٢٠٠.

(٤) الصغد: كورة عجيبة قصبتها سمرقند وهي من أطيب أرض الله، كثيرة الأشجار، غزيرة المياه، متجاوبة الأطيار. الحموي: جـ٣ ص٤٠٩.

(٥) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك: جـ٦، ص٤٧٦.

(٦) الطبري: جـ٨ ص١٠٣.

(٧) فخ: إحدى ضواحي مكة.

(٨) الحموي: جـ٥، ص٥١.

(٩) الطبري: جـ٨ ص٩٩.

وهو أول من ولّاهم الحجابة[١]، إنه اختار حمّاداً التركي حاجباً له بعد أن توطدت دعائم الدولة[٢]، كما ولّاه السواد، وأمره أن ينزل الأنبار ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال على المسلمين إلا قطع يده، فأخذ حمّاد ماهويه الواسطي، جد سليمان بن وهب، فقطع يده[٣].

واستخدم المهدي عدداً من الأتراك في قصوره مثل شاكر التركي، وهو أحد قادة الجيش في فارس، وفرج الخادم الذي برز في عهد هارون الرشيد فيما بعد، ويحيى بن داوود الخرسي الذي ولّاه إمارة مصر في عام (١٦٢هـ/ ٧٧٨م)[٤]. وأدّى الجند الأتراك في عهده دوراً بارزاً في محاربة الخوارج عندما ثاروا بقيادة عبد السلام اليشكري في عام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م) في باجرما[٥].

ودخل الكثير من ملوك الأتراك في طاعة العباسيين منذ عهد الخليفة المهدي، مثل ملوك كابل وطبرستان[٦] والصغد وطخارستان[٧] والخرلخية (القُرلق) وسجستان[٨] وغيرهم، ولا شك بأن هؤلاء كانوا يُرسلون بعضاً من أتباعهم ليعملوا في خدمة الدولة العباسية.

وبرز في عهد الهادي مبارك التركي، وحمّاد التركي. وتوسّع هارون الرشيد في استخدام الأتراك في قصوره ودوائره وجيشه، فكان أبو سليم فرج الخادم التركي أحد قادة جيشه، وقد طلب منه الخليفة تعمير مدينة طرسوس وإكمال بنائها، وذلك

---

(١) الحجابة: موضوعها حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه، والحاجب هو من يحجب السلطان عن العامة.

(٢) اللميلم: جـ١ ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) الجهشياري، محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتاب: ص١٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ص١٥١. الطبري: جـ٨ ص١٤٣.

(٥) ابن خياط، خليفة: تاريخ خليفة بن خياط: ص٢٩٢. وباجرما: قرية من أعمال البليخ قرب الرقة من أرض الجزيرة. الحموي: جـ١ ص٣١٣.

(٦) طبرستان: بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، والغالب عليها الجبال، أهم مدنها: دهستان وجرجان وأستراباذ وآمل، وهي قصبتها، وسارية وشالوس، وطبرستان هي المعروفة بمازندران، وتقع جنوبي بحر قزوين. المصدر نفسه: جـ٤ ص١٣.

(٧) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشمل عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، وهي طخارستان العليا والسفلى، فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون، وبينها وبين بلخ ثمانية وعشرون فرسخاً، وأما السفلى فهي أيضاً غربي جيحون إلا أنها أبعد من بلخ وأقرب في الشرق من العليا. المصدر نفسه: ص٢٣.

(٨) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة واسم مدينتها زرنج، بينها وبين هراة عشرة أيام، وهي جنوبي هراة وأرضها كلها رملة سبخة. المصدر نفسه: جـ٣ ص١٩٠.

في عام (١٧٠هـ/٧٨٦م)[١]، ومسرور الخادم الذي يُعدُّ بحق من أقرب الناس إلى هارون الرشيد الذي وثق به ثقة تفوق الوصف، وقد أسند إليه مهمة التخلص من أبرز شخصية برمكية في دار الخلافة العباسية، وأقربها إلى نفس الخليفة، وهو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، فنفَّذ مسرور المهمة بدقة. كما أسند إليه أعمال البريد والإخبار، بعد أن نكَّب بالبرامكة. فكان يتقلَّد البريد والخرائط، ويخلفه عليه ثابت الخادم[٢]. ونذكر فرج الرخجي كأحد القادة الأتراك البارزين في عهد هارون الرشيد، وقد قلَّده الأهواز[٣]. كما كان للأتراك دور فعَّال في القضاء على ثورة الوليد بن طريف الشاري، وقد قتله يولبا التركي الذي كان في عداد الجيش بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني[٤]، بالإضافة إلى القضاء على الصعاليك الذين قاموا بتخريب سيسر، حيث أمر الرشيد بترميمها وتحصينها ورتَّب فيها ألف رجل من الصغد[٥].

وضمَّت حاشية هارون الرشيد بعض الأتراك، واستخدم الجواري من فرغانة[٦] وأشروسنة[٧] وغيرهما، وأضحى بعضهن محظيات، مثل ماردة بنت شبيب، أم المعتصم، التي تُعدُّ من أحظى النساء لدى الرشيد، وهي تركية[٨].

وتوسع المأمون في استخدام الأتراك في قصوره وجيوشه، واستقدمهم من بلاد ما وراء النهر بعد أن دخلوا في الإسلام. وازدحمت وفودهم على بابه، وكان يبالغ في إكرام من يرد بابه من ملوك الأتراك[٩]. ووصل بعض هؤلاء الأتراك إلى مناصب قيادية، نذكر منهم طولون، والد أحمد، وكاوس وقد عيّنه المأمون والياً على أشروسنة، وابنه الأفشين حيدر الذي يُعدُّ من كبار قادة المأمون وأحد الذين

---

(١) الطبري: جـ٨ ص٢٣٤. وطرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. الحموي: جـ٤ ص٢٨.

(٢) الجهشياري: ص٢٦٥.

(٣) المصدر نفسه. والأهواز، كان اسمها في أيام الفرس خوزستان، وهي سبع كور بين البصرة وفارس. الحموي: جـ١ ص٢٨٤، ٢٨٥.

(٤) الطبري: جـ٨ ص٢٥٦.

(٥) اللميلم: جـ١ ص٢٠٨. وسيسر بلد متاخم لهمذان وهو بين همذان وأذربيجان. الحموي: جـ٣ ص٢٩٧.

(٦) فرغانة: مدينة وكورة واسعة في بلاد ما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان. المصدر نفسه: جـ٤ ص٢٥٣.

(٧) أشروسنة: بلدة كبيرة في بلاد ما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند. المصدر نفسه: جـ١ ص١٩٧.

(٨) ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ: جـ٦ ص٧٦.

(٩) البلاذري، الإمام أبو الحسن: فتوح البلدان: ص٤١٨.

قدَّموا خدمات جليلة للدولة بما قاموا به من قمع العديد من الثورات.

وصل الأتراك إلى دار الخلافة في بغداد بإحدى الطرق الآتية:

- الأسر في الحروب.
- الشراء.
- الهدايا التي كان يرسلها ولاة الأقاليم في بلاد ما وراء النهر على شكل رقيق إلى الخليفة.
- الهجرة باتجاه الغرب نحو الأراضي الإسلامية.
- الدعوة والتجنيد، فكان المأمون يُرسل الدعاة إلى بلاد الأتراك يدعونهم إلى الإسلام ويُرغِّبونهم فيه[١]. وكان يكتب إلى عماله على خراسان بغزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل بلاد ما وراء النهر، وحثَّ المأمون أخاه المعتصم على استخدام الأتراك في جيشه وجلبهم[٢].

بويع للمعتصم بالخلافة في ظل ظروف من الصراع العنيف بين العرب من ناحية والفرس، الذين حظوا بعطف المأمون خلال السنوات الأولى من خلافته من ناحية أخرى، بالإضافة إلى اختلال التوازنات بين العناصر التي تكوَّنت منها الدولة العباسية. فقد ساءت العلاقات بين العباسيين والخراسانيين منذ انتقال المأمون من مرو، وظهر أثر ذلك في القضاء على بني سهل وقيام الحركات المناهضة للدولة ذات الخلفيات الفارسية، وبالتالي استحالة التوفيق بين تطلعات الخراسانيين ومصالح العباسيين، وبدأت ثقة المعتصم بالفرس تضعف.

ومن جهة أخرى، لم يركن المعتصم إلى العنصر العربي، ولم يثق بالعرب نظراً لكثرة تقلُّبهم واضطرابهم وقيامهم ضد الخلفاء، بالإضافة إلى أنهم فقدوا كثيراً من مُقوِّمات قوتهم السياسية والعسكرية فأصبحوا أقل خطورة وأضعف شأناً.

حملت هذه المعطيات المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي، وقد توافقت طباعه النفسية وصفاته الجسدية، من حيث القوة والشجاعة ومتانة الجسم، مع صفات أخواله الأتراك كأمة عنيفة محاربة شديدة البأس. وأضحى لهذا العنصر أثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية، على الرغم من أن الأتراك لم يكونوا أهل حضارة عريقة. وأصبح الحرس التركي يمثل دعامة من دعائم الخلافة أيام حكمه، من واقع الحفاظ على دولته والإبقاء على خلافته في ظل الصراع العربي ـ الفارسي، فاستخدم الأتراك في الجيش على نطاق واسع

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان: ص٤١٨.

(٢) البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل: كتاب البدء والتاريخ: جـ٢، ص٢٩٧.

وجعلهم تحت إمرة قادة منهم، مُسدِّداً بذلك ضربة عنيفة للقادة والجند العرب، ولسياسة أبي جعفر المنصور التقليدية التي كانت تستهدف حفظ التوازن في الجيش بين الفرق العربية والفرق الأعجمية[1]، وأسكن المعتصم الأتراك مدينة سامراء التي بناها خصيصاً لهم.

ازدياد نفوذ الأتراك وأثره على الخلافة

انتقلت عاصمة الخلافة إلى سامراء التي ظلَّت ما يقرب من خمسين عاماً حاضرة دولة الخلافة العباسية، وأضحت مقراً للعصبية التركية الجديدة. ومنذ عهد المعتصم أخذت تظهر على مسرح الحياة السياسية شخصيات تركية أدَّت دوراً كبيراً في الحياة العامة، أبرزها الأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيف وسيما الدمشقي، وقد خدموا الدولة وساندوها في حروبها الداخلية ضد الحركات المناهضة التي نشبت في أجزائها المختلفة، وفي حروبها الخارجية ضد الامبراطورية البيزنطية. ومع مرور الزمن بدأ هؤلاء الأتراك يتجهون إلى تكوين كيان خاص بهم سواء في كنف الخلافة أو منفصلاً عنها، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة حين أدركوا أن الخلافة لا يمكنها الاستغناء عن خدماتهم.

وتُعدُّ خلافة الواثق بن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م) مرحلة انتقال بين عهدين: الأول هو عهد سيطرة الأتراك على مقدرات الدولة مع بقاء هيبة الخلافة، والثاني هو عهد سيطرة الأتراك مع زوال هيبة الخلافة وهبوط مكانة الخلفاء[2].

لقد ثبَّت الأتراك في عهد الواثق أقدامهم في الحكم، وحصل رؤساؤهم على نفوذ كبير حتى اضطر الخليفة أن يخلع على أشناس لقب السلطان معترفاً له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية، فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطاناً[3]، وأسند إليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر، كما عهد إلى إيتاخ بولاية خراسان والسند[4] وكور دجلة[5].

نتيجة لهذا التوسع في الصلاحيات ازداد نفوذ الأتراك داخل العراق وخارجه فهيمنوا على دار الخلافة وأحكموا سيطرتهم الفعلية على كافة أقاليمها، ثم خطوا خطوة أخرى حين اعتقدوا أنه لا بد من السيطرة على شخص الخليفة حتى يستمر

(١) الدوري، عبد العزيز: العصر العباسي الأول: ص٢٣٢.
(٢) محمود والشريف: ص٣٢٩.
(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن: تاريخ الخلفاء: ص٢٦٣.
(٤) السند: بلاد بين الهند وكرمان وسجستان. الحموي: ج٣ ص٢٦٧.
(٥) اليعقوبي: ج٢ ص٤٤١.

سلطانهم بوصفه مصدر هذا السلطان، فأحاطوا به يراقبون تحركاته، ويشاركون في المناقشات السياسية، ومن أجل ذلك، لم يذهبوا إلى ولاياتهم، وأنابوا فيها عمالاً عنهم. فقد أناب أشناس، محمد بن إبراهيم الأغلب على أعماله في غربي الدولة، وأناب إيتاخ عنه في خراسان، عنبسة بن إسحاق الضبي[1]. وقد شكل هذا التدبير خطوة سياسية على طريق انفصال الولايات عن الإدارة المركزية، إذ طمع الوكلاء بولاياتهم، واستقلوا بها منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية، وعدم معرفة الخليفة بما يجري في الولايات لاطمئنانه إلى من ولَّاهم من الأتراك.

وخطا الأتراك خطوة إضافية من أجل تشديد قبضتهم على الخلافة، فأخذوا يتدخلون في اختيار الخلفاء وتوليتهم، وكان الواثق هو آخر الخلفاء الذين تمَّت توليتهم، على التقليد الذي كان متبعاً من قبل، وعندما مات الواثق لم يعهد لابنه محمد بفعل صغر سنه، فنشب الصراع بين فئتين رئيسيتين بشأن اختيار الخليفة. تألفت الفئة الأولى من كبار رجال الدولة من أبناء البيت العباسي والوزير محمد بن عبد الملك الزيات وكبير القضاة أحمد بن أبي دؤاد، وهم أهل الحل والعقد في بيعة الخليفة، وقد رشَّحوا محمد بن الواثق. وتمثَّلت الفئة الثانية بقوة الأتراك النامية التي كانت تعمل على تثبيت نفوذها بزعامة وصيف التركي، وقد رشَّحت هذه الفئة جعفر بن المعتصم، ونجحت في فرضه، وتلقَّب بـ«المتوكل»[2].

شكَّلت هذه الحادثة سابقة خطيرة في تولية الخلفاء بعد ذلك، إذ أضحى القادة الأتراك أهل الحل والعقد، لا تتم الخلافة إلا بموافقتهم ورضاهم، يرفعون الرجل الذي يرتضونه، والعكس صحيح، فأحكموا بذلك قبضتهم على شؤون الخلافة، يُصرِّفون الأمور بإرادتهم.

وهكذا تولى المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م) الخلافة بقوة الأتراك، وشعر هؤلاء بأن الخليفة عاجز عن الاستغناء عن خدماتهم، ما ساقهم إلى مزيد من العنفوان. وعقد الخليفة لإيتاخ على الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة مكافأة له، وألقى القبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وصادر أمواله وأملاكه ثم سجنه حتى مات[3].

ولم يلبث هذا الخليفة أن أدرك حقيقة موقف الأتراك الضاغط على الخلافة، وشعر باستبدادهم بشؤونها، وقلَّة احترامهم لشخصه، فقرر تحجيمهم، وبدأ بإيتاخ الذي تطاول عليه في مجلس شرابه فتمكَّن من إبعاده عن مناصبه وسجنه، وتوفي في

(١) اليعقوبي: ج٢ ص٤٤١.
(٢) الطبري: ج٩ ص١٥٤، ١٥٥.
(٣) المصدر نفسه: ص١٥٦، ١٥٧.

سجنه عام (٢٣٥هـ/ ٨٥٠م)[١].

وحتى يقطع على الأتراك طريق التدخل في اختيار خلف له، عمد المتوكل إلى عقد البيعة لأبنائه الثلاثة بولاية العهد، وهم محمد المنتصر وأبو عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد، وقسَّم البلاد بينهم متبعاً ذلك التقسيم الذي جرت عليه الخلافة في عهد الرشيد. فولَّى المنتصر المغرب كله، والمعتز المشرق كله، وأقطع المؤيد أجناد حمص ودمشق وفلسطين، ثم أضاف للمعتز، في عام (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، خزن الأموال في جميع البلاد، ودور الضرب، وأمر أن تضرب الدراهم باسمه[٢].

كان من الطبيعي أن يدرك الأتراك خطورة وأبعاد هذه الخطوة، فاشتدَّ غضبهم على الخليفة، وعدُّوا إبعادهم عن مناصبهم وعن الاشتراك في قرار اختيار الخليفة، خطوة أولى في سبيل القضاء عليهم، لذلك أضحت مؤامراتهم ودسائسهم لا تنقطع.

وشعر المتوكل في هذا الجو الخانق بالضيق، ولما كان وجوده في سامراء يجعله في قبضتهم، وإذ لم يكن قادراً على تلبية مطالبهم الملحَّة بالحصول على المال، فقد حاول اجتناب سيطرتهم بأن انتقل إلى دمشق وجعلها حاضرة له، لعله يجد فيها من يقف إلى جانبه من العنصر العربي، لكن الظروف الداخلية والمناخية لم تساعده على البقاء فيها، واضطر للعودة إلى سامراء بعد أن قضى فيها ثلاثة أشهر[٣].

وبلغ العداء بين الخليفة والأتراك في هذه المرحلة نقطة اللاعودة. وكان لا بدَّ لأحدهما من أن يتخلَّص من الآخر، وكان هؤلاء هم الأسرع في التحرك، فتمكَّنوا من قتل الخليفة بمساعدة ابنه المنتصر الذي نقم على والده لأنه حاول تغيير ولاية العهد بتقديم المعتز عليه، بالإضافة إلى التعارض في الرأي السياسي بينهما في مجال العلاقة مع الطالبيين[٤].

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين، إذ لم يُقتل منهم من قبل إلا الأمين بعد هزيمته في الحرب مع أخيه المأمون، وأدَّت إلى تثبيت أقدام الأتراك في السلطان والنفوذ، كما كانت إنذاراً موجهاً لكل عباسي يريد أن يعتلي الخلافة أن يختار أحد أمرين، إما الإذعان التام لأهوائهم أو القتل. وقد أثارت حادثة القتل موجة من النقمة ضد تسلط الجند التركي، فقامت في سامراء، في عام

(١) الطبري: جـ٩ ص١٦٩، ١٧٠. (٢) المصدر نفسه: ص١٧٥ ـ ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٢١٠. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: جـ٤ ص٣٢.

(٤) المسعودي: المصدر نفسه: ص٣٦ ـ ٣٩. نقم المنتصر على أبيه بسبب شدَّته على الطالبيين حيث كان يتعاطف معهم، وكان يرى فيهم قرابة يجب ألا تُنتهك حرمتها.

(٢٤٨هـ/ ٨٦٢م)، حركة شعبية، عبَّرت عن استنكار العامة لعبثهم بالخلافة[١].

وتُعدُّ هذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم، فإنه اعتمد في خلافته على قوم لا خلاق لهم ولا مبادئ، ونهاية لمجد الخلافة ونقطة البداية لتحكم الأتراك وتسلطهم حتى أضحى الخلفاء فيما بعد رمزاً من دون سلطة حقيقية، واقتصر نفوذهم على السكة والخطبة حتى قيل: «قنع فلان من الأمر الفلاني بالسكة والخطبة، يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة»[٢].

تولى المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢م) الخلافة ويداه ملوَّثتان بدم أبيه، فكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الأتراك في عهده، وهم الذين شاركوه في الجريمة، والواقع أنه لم يكن له شيء من الأمر إلا مظهر اسمي اقتصر على السكة والخطبة.

وما هي إلا أيام معدودات حتى تلقَّى المنتصر أمراً من الأتراك، ابن الخصيب ووصيف وبغا، بعزل أخويه المعتز والمؤيد عن ولاية العهد، وقد خشوا من أن يلي أحدهما الخلافة بعد المنتصر فيأخذهم بدم والده، بالإضافة إلى أنهم أرادوا اختيار من يشاؤون للخلافة، ولم يتجرأ الخليفة على الاعتراض وأذعن للأمر وهو كاره، وأجبر أخويه على خلع نفسيهما[٣]، ويدل ذلك على مدى ما وصلت إليه الخلافة من الضعف والانحلال.

وهكذا استفاق المنتصر على خطورة التسلط التركي، فكرههم وحاول التخلص من زعمائهم، وكان يسميهم «قتلة الخلفاء»، فتنبَّه هؤلاء لهذا الخطر المحدق بهم، فتخلَّصوا من الخليفة بواسطة الطبيب الطيفوري الذي سمَّه بمشرط حَجَمَه به[٤].

اجتمع الأتراك بعد موت المنتصر وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش وتعاهدوا على توحيد كلمتهم واتفقوا على استبعاد أبناء المتوكل لخشيتهم منهم، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م)، وتقاسموا الوظائف الكبرى في الدولة، فقد استكتب الخليفة أحمد بن الخصيب، وعقد لأتامش على مصر والمغرب واتخذه وزيراً، كما جعل شاهك الخادم على داره وكراعه وحرسه وخاص أموره، وقدَّمه وأتامش على سائر الناس[٥].

بدأ عهد المستعين بحدوث اضطرابات وتطاحن على السلطة، فنشبت ثورة في

(١) الطبري: جـ٩ ص٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٢) ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ص٣٢.

(٣) الطبري: جـ٩ ص٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٥١. المسعودي: جـ٤ ص٥٠ ـ ٥١.

(٥) الطبري: المصدر نفسه: ص٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠.

سامراء باسم المعتز، واصطدم العامة بالأتراك في حرب شوارع انتهت بانتصار الأتراك، وهاج الناس في بغداد نتيجة استبدادهم، فاجتمعت العامة بالصراخ والنداء بالنفير[١]، لكن الأتراك سيطروا على الموقف.

تعرَّضت وحدة الأتراك بعد أن انتصروا على العامة إلى الاهتزاز، إذ انشقُّوا على أنفسهم، ووقع التحاسد بينهم. فقد استاء كل من وصيف وبغا من تعيين أتامش في الوزارة وإطلاق يده ويد شاهك في بيوت الأموال وفي أمر الخلافة، فدبَّروا مؤامرة للتخلص منه[٢].

استغل الخليفة المستعين هذه الخلافات وراح يتخلَّص من زعمائهم، فنفى أحمد الخصيب إلى جزيرة كريت، وقتل أتامش وباغر، ثم فرَّ إلى بغداد خشية من أصحابهما للاحتماء بأهلها، واصطحب معه وصيف وبغا وشاهك. وأدَّت عودة الخليفة إلى بغداد إلى تجدد الصراع بين العرب والفرس من جهة والأتراك من جهة أخرى. وقدم وفد من وجوه الأتراك إلى بغداد يطلبون منه العفو والعودة معهم إلى سامراء، إلا أنه رفض العودة معهم، فعادوا إلى سامراء وأعلنوا خلعه وبايعوا المعتز، وبات العالم الإسلامي يشهد خليفتين، واحد في بغداد والآخر في سامراء. ونشبت الحرب الأهلية بين الخليفتين، فكانت بغداد وجوارها مسرحاً لها، لكن الأتراك نجحوا في استعادة وحدتهم، فأضحى موقف المستعين حرجاً وضعيفاً وبخاصة بعد أن استقطب المعتز موسى بن بغا، واستمال أبو أحمد الموفق الذي عقد له المعتز على حرب المستعين، كلاً من وصيف وبغا، فانفضَّ عنه محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد بعد أن أدرك حراجة موقفه، فآثر عندئذ التنازل عن الخلافة لصالح المعتز وخرج إلى منفاه بواسط، لكن الأتراك خشوا من بقائه حياً، لذا عمدوا إلى قتله[٣].

وانتهى الصراع بعد أن تكبدت الخلافة خسائر فادحة في الأموال والأرواح. وعادت إلى سامراء مركزها الأول، وكُر الدسائس والمؤامرات التي يحيكها الأتراك، وأضحى الخليفة ألعوبة في يدهم، وتحت تصرفهم، إذا شاؤوا خلعوه وإذا أرادوا أبقوه[٤].

لم تكن ظروف الخلافة في عهد المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) بأفضل

(١) الطبري: جـ٩ ص٢٦٢، ٢٦٣.
(٢) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ: البداية والنهاية: جـ١١ ص٣، ٤.
(٣) الطبري: جـ٩ ص٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٨، ٢٨٠. المسعودي: جـ٤ ص٧٩.
(٤) ابن طباطبا: ص٢٤١، ٢٤٣.

حالاً، ذلك أن الخليفة الذي عاد إلى سامراء، وقع تحت تأثير النفوذ التركي. ومن جهة أخرى، ازداد استبداد الأتراك وكثرت اضطراباتهم، ومطالبتهم بالمال، وعجز الخليفة عن تلبيتها ما أدَّى إلى إقدامهم على خلعه وتنصيب أخيه المؤيد، لكن الخليفة أجبر أخاه على خلع نفسه ثم قتله، وتخلَّص من بعض الزعماء الأتراك مثل وصيف وبغا بوصفهما مسؤولين عن الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين المستعين[١].

وأدرك الأتراك مرامي الخليفة، فتحركوا للمحافظة على حياتهم ومكتسباتهم، وكان على رأسهم صالح بن وصيف وبايكباك، فدخلوا عليه وهو مريض، وجرُّوه وعليه قميص ممزق ملطخ بالدم، فأقاموه وسط دار الخلافة وراحوا يلطمونه على وجهه وهو يبكي، وانتهى الأمر بقتله بعد تعذيبه، وأسندوا الخلافة إلى محمد بن الواثق ولقَّبوه بالمهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م)[٢].

كان المهتدي ورعاً تقياً[٣] شديد الرغبة في الإصلاح، فبدأ بنفسه، فتجرَّد من أبهة الحياة وزخرفها، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحرَّم شرب الخمر، ونهى عن القيان، وأظهر العدل، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع، فيخطب بالناس ويؤمهم، وأشرف على الدواوين، وراح ينظر في المظالم، فبنى قبة لها أربعة أبواب سمَّاها قبة المظالم، كان يجلس فيها للعام والخاص[٤]، فثقلت وطأته على العامة والخاصة، فاستطالوا خلافته حتى اعتراهم الضجر.

توقَّع المهتدي أن تؤتي سياسته الإصلاحية ثمارها، لكن الأوضاع العامة داخل الدولة وخارجها لم تسمح بذلك. فقد ثار العامة في بغداد ضد حكمه ونادوا بأبي أحمد، ثم تبعهم الجند بسبب التأخر في دفع أرزاقهم[٥]. وأذكى الطالبيون نار الثورة في كثير من الأقاليم، فظهر الحسن بن علي في طبرستان، وزيد بن علي بالكوفة[٦]، ونشبت ثورة الزَّنج التي هدَّدت كيان دولة الخلافة العباسية زهاء أربعة عشر عاماً، وثار الخوارج في الموصل بقيادة مساور، كما ثار أحمد بن عيسى الشيخ، والي فلسطين والأردن.

لكن علَّة الخلافة كانت تكمن في هيمنة الأتراك عليها، فأضحى التخلص منهم

(١) اليعقوبي: جـ٢ ص٤٦٨ ـ ٤٧٠.
(٢) الطبري: جـ٩ ص٣٨٩، ٣٩٠.
(٣) ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد: الأنباء في تاريخ الخلفاء: ص٩٨.
(٤) المسعودي: جـ٤ ص٩٦.
(٥) الطبري: جـ٩ ص٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٩ ـ ٤٠٦.
(٦) المصدر نفسه: ص٤١٠ ـ ٤٢٣.

ضرورة مُلحَّة لنجاح الإصلاح واستعادة الخلافة لهيبتها، لذلك قرَّر الخليفة أن يضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض، فبعث إلى بايكباك بأن يتولى قيادة الجيش على أن يقتل موسى بن بغا، فأعلم بايكباك موسى بذلك، واتفقا على التخلص منه[١].
والتفَّ الأتراك حول موسى بن بغا الذي قاد المعركة ضد الخليفة ومات هذا بعد نهاية المعركة بقليل[٢].

بايع الأتراك، بعد قتل المهتدي، أبا العباس أحمد بن المتوكل ولقَّبوه بالمعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م)[٣]. ونتيجة لازدياد الخلافات الداخلية بينهم، طلب الأتراك من الخليفة أن يولي أحد إخوته إمرة الجيش، فولى أخاه أبا أحمد طلحة المُوفَّق، ويُعدُّ هذا الرجل نبراس الفاعلية في انعاش الخلافة منذ عهد المعتمد، فهو الرجل الذي جمع الأمور كلها في يده، وأبقى للخليفة الخطبة والسكة وإمرة المؤمنين.

شهد عهد المعتمد مشكلات عدة أقضَّت مضاجع الخلافة وأدَّت إلى تراجع قوة الأتراك، لعل أهمها ثورة الزنج[٤] التي قامت في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م). انطلقت هذه الحركة الثورية التي قادها علي بن محمد، الفارسي الأصل، من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها، وتمثَّل عمادها بالعرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم من الزنج وأهل القرى والعرب الضعفاء وعشائر عربية ثائرة على السلطة.

كانت بدايتها ناجحة انسجمت أهدافها السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع أفعالها، لكن النزعة الفوضوية التي طبعتها، وهي في قمة مواجهتها، أدَّت إلى تقلص أبعادها الاجتماعية، وقد زاد من تلك النزعة افتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضِّح العلاقة بين القيادة والأتباع، كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يُحرِّر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أُطرها الثورية كانت محلية ومحدودة ولم تكن لديها تطلعات شاملة، لذلك فشل علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي، كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء على الرغم من عددهم الكبير.

(١) الطبري: ج٩ ص٤٥٦ ـ ٤٦٩.
(٢) ابن الأثير: ج٦ ص٢٨٢ ـ ٢٨٧.
(٣) الطبري: ج٩ ص٤٧٤.
(٤) راجع فيما يتعلق بحركة الزنج كتابنا تاريخ الدولة العباسية: ص١٧٢ ـ ١٧٩.

ومن جهة أخرى، فإن سرعة تطور الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته وتُمكِّنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة، لذلك كان من الطبيعي أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنساني والثوري ما دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية التي تشتَّتت استطاعت أنْ تكوِّن إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد.

اتخذت حركة الزنج طابعاً عسكرياً هجومياً، فهزَّت أركان الدولة هزاً عنيفاً، فاضطر المعتمد إلى تكليف أخيه أبي أحمد طلحة المُوفَّق بالتصدي لها وعقد له على الكوفة وطريق مكة والحرمين وبغداد واليمن والسواد وكُوَر دجلة والبصرة والأهواز وفارس وديار مضر وقنسرين والعواصم، وعلى حرب الزنج[١].

انتشر الزنج في جنوبي العراق يثيرون الخوف والرعب في نفوس السكان، ووصلوا في تقدمهم جنوباً إلى البحرين والأحساء والبادية، واستولوا على الجعفرية والمهلبية، ودخلوا البصرة فقتلوا سكانها وأحرقوا مسجدها، وسقطت في أيديهم مدن كثيرة من بينها الأبلة التي أحرقوها والأهواز وعبَّادان التي استباحوها والنعمانة الواقعة بين واسط وبغداد وقد أحرقوا سوقها، وسقطت كذلك رامهرمز وواسط[٢].

واجه المعتمد، بالإضافة إلى ثورة الزنج، تمرد أحمد بن عيسى الشيخ الذي تغلَّب على دمشق ومعظم بلاد الشام وطمع في مصر، وامتنع عن حمل الأموال إلى خزانة الدولة فأرسل إليه الخليفة جيشاً بقيادة أماجور التركي فهزمه واستولى على دمشق، ففرَّ أحمد إلى أرمينيا وخضعت الشام كلها لأماجور[٣].

وقف قادة الأتراك أمام هذه الاضطرابات والفتن عاجزين، فقد هزمهم الزنج في أكثر من معركة، كما لم يستطيعوا القضاء على حركة الصفَّاريين الانفصالية التي قامت في المشرق الإسلامي، في الجزء الجنوبي من إيران، وإعادتهم إلى طاعة الخلافة، ما أثبت عجزهم. وكان أبرز هؤلاء موسى بن بغا الذي رأى نفسه عاجزاً عن ضبط الأمور وبخاصة في ولاياته الشرقية، فطلب إعفاءه من منصبه في المشرق، فاستجاب الخليفة لطلبه وولَّى أبا أحمد طلحة المُوفَّق مكانه[٤].

وإلى جانب الإمارة الصفَّارية واجه المعتمد ظهور إمارات انفصالية أخرى مثل الطاهرية والطولونية. وقامت الاضطرابات في مصر والمشرق الإسلامي والعراق، وأحدث الخوارج اضطرابات في منطقة الموصل، وتشجَّع البيزنطيون فأغاروا على

(١) ابن الأثير: ج٦ ص٢٩٤، ٣٠٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٥ ـ ٢٩٨، ٣٠٨ ـ ٣١٠، ٣٦٦.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٩٠، ٢٩١.
(٤) ابن كثير: ج١١ ص٣٢.

مناطق الحدود حيث الدفاعات كانت ضعيفة لانهماك الخلافة بمشكلاتها الداخلية. وتوفي المعتمد في هذا الجو المشحون بالفوضى والاضطرابات.

تولّى أبو العباس بن الموفق الخلافة بعد وفاة المعتمد وتلقَّب بالمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢م). سلك نهج والده في حروبه وأعماله الإدارية بهدف استمرارية إنعاش الخلافة وتثبيت هيبتها، واستمر في عهده تراجع نفوذ الأتراك.

واجه المعتضد، خلال حياته السياسية، مشكلات عدة تمثّلت بتحديد علاقته بالإمارات الانفصالية، ونشوء الحركة القرمطية التي شكّلت بداية قوة العنصر العربي والتي اتخذت، في بادئ أمرها، طابعاً دينياً قبل أن تتطور إلى حركة سياسية خطيرة.

نشأت الحركة القرمطية في سواد العراق في عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م) في عهد الخليفة المعتمد[1]، ثم انتقلت إلى الشام والبحرين واليمن وذلك في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلها حركة الزنج. والراجح أن توجُّهها الاجتماعي - الاقتصادي قد غلب على توجُّهها الديني على الرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية المتعلقة بالشريعة الإسلامية[2].

ويُعدُّ حمدان بن الأشعث، المعروف بقرمط، وهو من أهل الكوفة، أحد دعاة القرامطة الأوائل، وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزنج. وتقترن الحركة القرمطية في البحرين باسم أبي سعيد الجنّابي الفارسي وابنه أبي طاهر. وظهر القرامطة بالشام وتقدموا نحو دمشق واجتاحوا الرصافة وأحرقوا جامعها واستباحوا أهلها، ثم وصلوا إلى دمشق وهزموا واليها، وتغلّبوا على جيوش الخلافة أكثر من مرة[3].

إلا أن الخلافة نجحت في إلحاق الهزيمة بالقرامطة عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م) بسواد الكوفة حتى ضعف أمرهم وأُسر الكثير من زعمائهم، من بينهم أبو الفوارس الذي عُذِّب حتى الموت[4]، لكن مبادئهم استمرت في الانتشار حتى اتسعت اتساعاً كبيراً.

توفي المعتضد بعد أن جاهد في إخماد الفتن، وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ - ٩٠٨م)[5] الذي سار على هدي أبيه. وتفاقم في عهده أمر الحركات

(١) العش، يوسف: تاريخ عصر الخلافة العباسية: ص١٥٥.

(٢) استندت الدعوة القرمطية، المنبثقة عن الحركة الإسماعيلية، على فكرة الباطنية، بمعنى أن لكل ظاهر باطناً. فآيات القرآن ظاهرها يعطي معنى، وباطنها يعطي معنى آخر يختلف كلياً عن المعنى الظاهري، وأن الإمام العلوي وريث النبوة والمطلع على الأسرار الإلهية، هو وحده الذي يستطيع أن يُؤوِّل آيات القرآن.

(٣) ابن كثير: جـ١١ ص٨١.

(٤) الطبري: جـ١٠ ص٩٤ - ٩٦.

(٥) المصدر نفسه: جـ١٠ ص٨٧.

الانفصالية والثورية من إسماعيلية وقرامطة، وبذل جهداً كبيراً في قمعها، فنكّل بالقرامطة وأقرَّ سلطان الخلافة على بلاد الشام، وأزال نفوذ الطولونيين من مصر وأعادها إلى حظيرة الدولة.

لم يُعمِّر المكتفي طويلاً، فقد توفي ولما تمضِ ستة أعوام على خلافته، فعادت الخلافة من بعده إلى ضعفها بفعل الخلافات الأُسرية داخل البيت العباسي، وتفاقم الحركات الانفصالية، ما أتاح للأتراك مُتنفَّساً استعادوا معه قوتهم، وعادوا إلى نهجهم السابق في اختيار خلفاء ضعاف لاستمرار نفوذهم، فعارضوا ترشيح عبد الله بن المعتز لمنصب الخلافة لأنه كان كفئاً، واختاروا أبا الفضل جعفر بن المعتضد، وكان في الثالثة عشرة من عمره، فولّوه الخلافة ولقَّبوه بالمقتدر[1].

لم يكن المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢م) على مستوى الأحداث الشائكة التي أحاطت به، ولما شبَّ عكف على لذاته وترك أمور الدولة في يد مؤنس، الخادم التركي. وبرزت في عهده ظاهرة تدخل النساء في شؤون الدولة، وانتشرت في أيامه الفتن في الداخل والخارج، فثار رجال الجيش بفعل سوء الأوضاع الداخلية وفساد الحكم، وخلعوه عن العرش وبايعوا عبد الله بن المعتز ولقَّبوه الراضي[2] بالله. ويبدو أن بعض القادة الأتراك ممن استمروا على ولائهم للمقتدر، مثل مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب، خال المقتدر، نجحوا في إعادته إلى السلطة وسجنوا عبد الله بن المعتز[3].

عادت الأمور إلى ما كانت عليه من الفوضى والإسراف في المال من جانب الحاشية والخدم، كما زاد تسلط النساء، فاشتكى الجيش من هذا الحال، ووقعت الوحشة بين الخليفة ومؤنس الخادم، وانتهى الأمر بقتل الأول في (٢٧ شوال ٣٢٠هـ/ ٣١ تشرين الأول ٩٣٢م) ومبايعة محمد بن المعتضد بالخلافة الذي لُقِّب بالقاهر بالله[4].

لم تكن خلافة القاهر القصيرة (٣٢٠ - ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ - ٩٣٤م) خيراً من خلافة المقتدر، فقد استمر شغب الجند، وغدا منصب الخلافة مرة أخرى هدفاً للازدراء. وحاول مؤنس الخادم الاتفاق مع الوزير ابن مقلة، الخروج على الخليفة لكن القاهر الذي رأى في القادة الأتراك أعداءً لدولته، استطاع أن يتخلّص من هذا القائد

(١) الطبري: جـ١٠ ص١٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص١٤٠.

(٣) مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم: جـ١ ص٢٣٣ - ٢٤١.

(٤) المصدر نفسه. المسعودي: جـ٤ ص٢١٤.

التركي[١]، وعلى الرغم من قوة القاهر وقسوته، فإن القادة تمكَّنوا أخيراً من القبض عليه وخلعوه وسملوا عينيه، ولم يُسمل قبله أحد من الخلفاء، وبايعوا أبا العباس أحمد بن المقتدر، ولقَّبوه الراضي بالله[٢].

ضُعف الوزارة وأثره على الخلافة

شهد عهد المقتدر تدهور مركز الوزارة والخلافة معاً على الرغم من أن الوزير، في بداية عهده، كان يتدخل بقوة في تعيين الخليفة، واتسم هذا العهد بسرعة تعيين وعزل الوزراء تبعاً لرغبات سيدات القصر والحاشية وبخاصة والدة المقتدر حتى بلغ عدد الوزراء اثني عشر وزيراً كانت مدة حكم كل منهم قصيرة.

واستمرت في عهد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م) كثرة تعيين وعزل الوزراء نتيجة لتدخل الغلمان والأتراك، بالإضافة إلى عجز الوزير عن توفير الأموال اللازمة لنفقات الأتراك وقصور الخليفة، وكان مصيره القتل أو المصادرة أو العزل. والواقع أنه ساد تلك المرحلة الاضطراب والفتن المتنقلة في الداخل والخارج، واستشرى الفساد في الشؤون الإدارية ما أدَّى إلى عجز الوزراء عن تأمين النفقات المطلوبة منهم. لذلك بذل هذا الخليفة محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك، انتهت بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلّده على مقاليد الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة، فهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز، ولم يعد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم، وأزال نفوذ الوزراء. وتوقف الصراع بين الخلافة والأتراك الذي شغل جانباً كبيراً من العصر العباسي الثاني.

ابتدأ هذا المنصب بالظهور في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) على حساب منصب الوزارة، ذلك أن الراضي استعان في إدارة شؤون دولته بوزراء كانوا ضعافاً عجزوا عن النهوض بأعباء الوزارة، وفقدوا ما كان لهم من نفوذ حتى أصبحوا عُرضة للتنكيل والمصادرة. ومن جهة أخرى، تراجع نفوذ الأتراك بفعل التفكُّك الذي ساد بينهم، والتنافس على مركز الصدارة، وتفشِّي الحسد بين قادتهم.

شعرت الخلافة، نتيجة هذه الأوضاع المتردية بضعف الوزراء، وبعجز الأتراك، وبفراغ الخزانة، فأخذت تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من العراق لتستعين بهم على إنقاذ الموقف الذي بلغ درجة خطيرة من التدهور. فاستدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وسلَّمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في سلطات

---

(١) السيوطي: ص٢٩٩. (٢) مسكويه: جـ١ ص٢٨٦ ـ ٢٩١.

الدولة كلها، ولقَّبه أمير الأمراء[١]، وهذا المنصب هو عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة إلى قائد تتوفر فيه صفات الرئاسة المدنية والقيادة العسكرية[٢].

وقد وصف ابن الأثير أوضاع دولة الخلافة العباسية في عهد الراضي فقال: «... ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم. وأما باقي الأطراف، فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس، والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير، أخي مرداويج، يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقيا في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي، ويُلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبدالرحمٰن بن محمد، الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي»[٣].

وهكذا أصبحت البلاد موزعة ما بين خارجي قد تغلَّب عليها أو عامل لا يحمل إلى الخزانة العامة مالاً، وأضحى في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء: الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الأموي في الأندلس، والخليفة الفاطمي بالقيروان[٤].

ازداد وضع الخلافة ضعفاً في ظل تلك الأوضاع حتى أن مرداويج بن زيار الديلمي رأى ضرورة إحياء دولة الفرس القديمة وإبطال دولة العرب، فاستولى على أقاليم قزوين والري وأصفهان وطبرستان وجرجان وهمذان، وعزم على أخذ بغداد لولا أن اغتاله بجكم، وهو أحد غلمانه[٥].

وبرز اسم بجكم في عهد الراضي وقد نقش صورته على الدرهم وهو شاك في سلاحه، وكتب عليه «إنما العز فاعلم... للأمير المعظم... سيد الناس بجكم»، كذلك ظهرت شخصية عبد الله البريدي حاكم الأهواز الذي استطاع أن يُكوِّن له عصبة عسكرية ساعدته على تولي أرقى المناصب في الدولة.

وضعف نفوذ ابن رائق في عام (٣٢٦هـ/ ٩٣٨م) بفعل منافسة الأمراء النافذين له. فقد حاربه أبو عبد الله البريدي، كما خرج عليه بجكم، وقد سار إلى بغداد لقتاله. ففرَّ هذا إلى عكبرا، ثم عاد واختفى في بغداد، ونزل بجكم في دار مؤنس واستقر

---

(١) مسكويه: جـ١ ص٣٥١، ٣٥٢. ابن عمراني: ص١٢٨.
(٢) مسكويه: المصدر نفسه: ص٣٥١. إنه يعدد صلاحيات أمير الأمراء. محمود والشريف: ص٣٦٨.
(٣) الكامل في التاريخ: جـ٧ ص٥٣، ٥٤. (٤) السيوطي: ص٣٠٣.
(٥) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٦.

في بغداد في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٩م) واستولى على مقاليد الأمور، وآلت إليه إمرة الأمراء. وفرَّ ابن رائق على إثر ذلك إلى الشام[١]. استمر بجكم في منصبه زهاء ثلاثة أعوام تحكَّم بالدولة واستبدَّ بالخليفة واستوزر البريدي بعد أن تصالحا وتصاهرا، ووصلت الحالة العامة في عهده إلى درجة خطيرة من الفوضى والتدهور[٢]. وقُتل بجكم في عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م) بيد أحد الأتراك[٣].

وقبل مقتل بجكم بأربعة أشهر توفي الخليفة الراضي في بغداد، فتشاور أعيان الدولة وأفراد البيت العباسي فيمن يصلح للخلافة، فرشحوا إبراهيم بن المقتدر لهذا المنصب، بناء على رغبة بجكم، وبايعوه في (٢٠ ربيع الأول ٣٢٩هـ/ ٣ كانون الثاني ٩٤١م) ولقبوه بـ«المتقي بالله»[٤].

كان المتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ/ ٩٤١ ـ ٩٤٤م) مجرد ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السلطة، وبخاصة ابن عبد الله البريدي وابن رائق والحمدانيين. وانتقلت في عهده صلاحيات منصب أمير الأمراء إلى يد البريدي الذي برز بعد مقتل بجكم، لكن من دون أن يُقلِّده الخليفة هذا المنصب تقليداً رسمياً وذلك بفعل مواقفه المتقلبة، واكتفى بأن جعله وزيراً[٥]، لكنه جمع إلى منصبه المدني قيادة الجيش، فأضحى بحكم أمير الأمراء.

ويبدو أن البريدي عجز عن تلبية حاجات الجند ومطالبهم المتزايدة، وأضحى هدفاً لدسائسهم، فاضطربت الأمور في بغداد واضطر إلى مغادرتها، وعاد إلى البصرة[٦]، فتقلَّد ابن رائق المنصب مرة ثانية بعد أن استُدعي من بلاد الشام، فتفاهم مع البريدي وقلَّده منصب الوزارة. وظل الأمر على ذلك مدة، ثم اختلف الرجلان، فعزل ابن رائق البريدي من منصبه، فجمع هذا جيوشه وهاجم بغداد، فاضطر الخليفة وابن رائق إلى الهرب والتجأ إلى بني حمدان في الموصل. واستولى البريدي على منصب أمير الأمراء واستقرَّ في بغداد للمرة الثانية[٧].

لكن البريدي وجماعته لم يظفروا بمحبة الناس بفعل إمعانهم في السلب والنهب، ومن جهة أخرى، عيَّن الخليفة ناصر الدولة الحمداني أميراً للأمراء في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤٢م)، وأرسله على رأس جيش كثيف لمحاربة البريدي، فأخرجه من بغداد وعاد إليها الخليفة[٨].

وبرز في هذه الأحداث القائد التركي توزون، فقلَّده المتقي شرطة بغداد ثم جعله

(١) مسكويه: جـ١ ص٣٩٣ ـ ٣٩٦.
(٢) الصولي: ص١٠٦.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٩، ١٠.
(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٩١.
(٥) مسكويه: جـ٢ ص٢٣.
(٦) ابن عمراني: ص١٣٤.
(٧) مسكويه: جـ٢ ص٢٥ ـ ٢٧. ابن الأثير: جـ٧ ص٩٨.
(٨) مسكويه: المصدر نفسه: ص٢٨.

أميراً للأمراء[١]. وسيطر الحمدانيون في هذا الوقت على مقدرات الأمور في بغداد، لكن الوضع العام لم يتحسَّن بفعل استمرار النزاعات الداخلية[٢]، فاضطر هؤلاء إلى ترك حاضرة الخلافة، وبخاصة أنهم خسروا الحرب التي نشبت بينهم وبين توزون، وعادوا إلى الموصل بصحبة الخليفة[٣].

ويُعدُّ توزون من أقوى الأمراء الذين تولوا الأمر في العصر العباسي الثاني. فقد استطاع هذا الرجل أن يستولي على الحكم من متنافسين قويين هما الحمدانيين والبريديين، وخشي من محاولة الخليفة التقرب من الأخشيديين في مصر، فتحايل عليه حتى عاد إلى بغداد مرة أخرى، فقدَّم له فروض الطاعة ظاهرياً، وأوعز سراً إلى بعض أصحابه، فقبضوا عليه وأجبروه على خلع نفسه ثم سملوا عينيه، وذلك في (صفر ٣٣٣هـ/ تشرين الأول ٩٤٤م)، وسجنوه مدة خمسة وعشرين عاماً حتى توفي في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م). واختار توزون عبد الله بن المكتفي خليفة ولقَّبه المستكفي بالله[٤].

لم تطل خلافة المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٤٦م)، فقد حكم سنة وأربعة أشهر استبدَّ توزون خلالها بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد في منصب أمير الأمراء، وظل ممسكاً بهذا المنصب حتى استولى معز الدولة بن بويه على بغداد في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م) وألغى هذا المنصب[٥].

الواقع أن دولة الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذي أنشأه الراضي لانتشال الخلافة من عثرتها، بل زادت أوضاعها سوءاً، وأن من يستقصي عهد الراضي والمتقي والمستكفي يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجال الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء، وكانت كل هذه المآسي نتيجة حتمية لتلك الثغرة العميقة التي أوجدها الأتراك منذ أيام المعتصم، وما زالت تتسع حتى انهار البنيان وساد الخوف والذعر وأصبحت الأموال نهباً للطامعين، وفسدت الحياة، وطغت النزاعات المذهبية، واندلعت الفتن والثورات، وتجدَّدت أطماع البيزنطيين، فكرَّروا غاراتهم واقتحموا قيليقيا وبلاد الشام، وهكذا كانت الخلافة تواجه خطرين عنيفين:

أولهما: خطر الانقسامات الداخلية.

ثانيهما: خطر الغارات الخارجية.

وقامت الإمارات الانفصالية في ظل تلك الظروف، ومن بينها الإمارات الطولونية والأخشيدية والحمدانية، وهي موضوع هذه الدارسة.

(١) مسكويه: جـ٢ ص٤٤.
(٢) الصولي: ص٢٣٤ ـ ٢٣٧.
(٣) السيوطي: ص٣٠٥، ٣٠٦.
(٤) ابن عمراني: ص١٤١.
(٥) مسكويه: جـ٢ ص٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥.

الفَصْلُ الثَّاني

أحمد بن طولون مؤسس الإمارة الطولونية

٢٥٤ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٨ ـ ٨٨٤م

الأوضاع الداخلية

التعريف بأحمد بن طولون

أحمد بن طولون، مؤسس الدولة الطولونية في مصر وبلاد الشام التي عمَّرت ما يقرب من ثمانية وثلاثين عاماً، ونُسبت إلى طولون، والد أحمد، وهو من قبيلة التغزغز التركية في تركستان، ومن أسرة تُقيم في بخارى، جيء به إلى نوح بن أسد الساماني عامل بخارى وخراسان، فأرسله بدوره هدية إلى الخليفة المأمون مع من أرسل من المماليك الأتراك في عام (٢٠٠هـ/ ٨١٦م)[1].

أُعجب الخليفة المأمون كثيراً بهذا المملوك التركي الذي ظهرت عليه علامات النجابة والإخلاص، فحظي عنده، وازدادت مكانته لديه، فأسند إليه وظائف عدة نجح في إدارتها بشكل لافت، فعيَّنه رئيساً للحرس، ولقَّبه بأمير الستر[2]، واستمر مدة عشرين عاماً يشغل هذا المنصب الهام، ما يدل على ثقة العباسيين به.

أنجب طولون عدداً من الأبناء من بينهم أحمد الذي يُكنى بأبي العباس، مؤسس أول إمارة تركية استقلَّت عن الخلافة العباسية. ولد أحمد في (٢٣ رمضان ٢٢٠هـ/ ٢٢ آب ٨٣٥م) في بغداد من جارية تُدعى قاسم، وعلى الرغم من الاختلاف في صحة نسبه إلى طولون، حيث ينسبه بعضهم إلى يلبخ التركي وأمه قاسم جارية طولون، فالراجح أنه ابن طولون بدليل أن أبا أحمد المُوفَّق طلحة عندما لعن أحمد بن طولون أسنده إلى طولون ولم يسنده إلى يلبخ، ولو كان ابن يلبخ لما زوَّجه يارجوخ ابنته لأن يلبخاً كان مغنياً وهو مصدر سخرية في المجتمع التركي، وطولون

(١) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ٣ ص١.

(٢) أمير الستر هو الشخص المكلف بالقيام على حراسة الخليفة والمحافظة على حياته.

معروف بالستر والصيانة[1]. ويبدو أن الشك في نسب ابن طولون على هذا النحو هو من ميراث العداوة السافرة بين بغداد والقطائع، وأنه وُضع للنَّيْل من ابن طولون والطعن فيه بعد وفاته. والواقع أن هذا الشك في نسبه لم يظهر إلا بعد وفاة المُوفَّق طلحة وإلا لما فات هذا، وهو الساعي إلى تجريحه والطعن فيه، أن يستغل نسباً زائفاً للنَّيْل من خصمه والكيد له، ولم يرد على لسان الشعراء، الذين دفعهم المُوفَّق طلحة للنيل من ابن طولون وهجائه، ما يوحي بمثل هذا الشك[2].

نشأ أحمد في كنف والده ورعايته مختلفاً عن نشأة أقرانه أولاد العجم، فحرص على الابتعاد عن جو الأتراك العابثين والآثمين، وكان يعيب عليهم ما يرتكبونه من منكرات، فطلب من الوزير عبيد الله بن يحيى أن «يكتب له أرزاقه في الثغر، وعرَّفه رغبته في المقام به»[3]، ويبدو أن الحاجة كانت ماسَّة إلى ضابط شاب يخدم في ثغر طرسوس، له بأس لقاء العدو والرغبة في الجهاد، وله من التقوى ما يناسب الجو الديني الخالص الذي شاع في المدينة، لذلك وافق على طلبه، وكتب له به، والمعروف أن طرسوس تقع على الحدود بين آسيا الصغرى وبلاد الشام وتُشكِّل نقطة التقاء بين بلاد البيزنطيين والثغور الشامية، وتُشرف على الطريق الذي يصل آسيا الصغرى ببلاد الشام، ما جعلها مركزاً عسكرياً فريداً.

خرج أحمد بن طولون إلى ثغر طرسوس وأقام فيه بعيداً عن مجتمع الأتراك القاتم في بغداد وسامراء والمفعم بالمؤامرات والدسائس والمآسي، وأعجبه المقام فيه لما رأى سكانه يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وسُرَّ بذلك.

أقام أحمد بن طولون مدة في طرسوس، أخذ خلالها العلم والحديث عن كبار المحدثين فيها، واجتمع بطائفة من الزهَّاد وأهل الدين والورع، فأدَّبوه بآدابهم، فحسنت طريقته، وظهر فضله، وتمكَّن له في قلوب الأولياء ما ارتفع به على طبقته، وبان فضله على وجوه الأتراك فوثقوا به على الأموال والأسرار والفروج، فخطب إلى يارجوخ ابنته خاتون، فزوَّجه إياها، وقُدِّر لهذا الزواج أن يكون ذا أثر واضح على حياته السياسية، وأنجب منها ابنه العباس وابنته فاطمة[4].

وبذلك قضى أحمد بن طولون سنوات شبابه بعيداً عن الوسط التركي، وعاد من طرسوس مكتمل الثقافة العلمية والأدبية، وتطلع، وهو فيها، إلى الاشتراك في

(١) البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني: سيرة أحمد بن طولون: ص٣٣، ٣٤.

(٢) محمود، حسن أحمد: حضارة مصر في العصر الطولوني: ص٢٢، ٢٣.

(٣) البلوي: ص٣٥، ٣٦.

(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥.

الصوائف التي كانت تغزو البيزنطيين، كما تعرَّف عن قرب على بلاد الشام وما كانت تمتاز به من الأهمية العسكرية، وربما كانت أيامه الأولى فيها فاتحة طموحه في تولِّيها مع مصر.

وهكذا نشأ أحمد بن طولون نشأة دينية وعسكرية كفلت له الورع والتقوى والصدق، والاشمئزاز من تصرفات الأتراك وأخلاقياتهم، والطموح نحو الجهاد، والقوة الجسدية والشجاعة والقدرة على الاعتماد على النفس ومواجهة الأخطار بثبات والتصدي للصعوبات التي تعترض مسيرته؛ ما أدّى إلى نجاحه الكبير.

خطا أحمد بن طولون خطواته الأولى نحو الشهرة عندما توفي والده في عام (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) وهو في العشرين من عمره. فقد فوَّض إليه الخليفة العباسي المتوكل ما كان لأبيه من الأعمال العسكرية المختلفة، وسرعان ما أُتيح له أن يستولي على إمرة الثغور ودمشق وديار مصر[1].

وعلى هذا الشكل دخل أحمد بن طولون في خضم الحياة السياسية المضطربة آنذاك، في العراق، وهو يتمتع باحترام الأتراك وثقتهم، كما نال ثقة الخلافة واحترامها، فكانت علاقته بكل من الخليفتين المتوكل والمستعين جيدة، وبدأت صلته بهذا الأخير خلال عودته من طرسوس، إذ حدث أن انضم إلى قافلة تجارية قادمة من بيزنْطية تحمل، بالإضافة إلى المواد التجارية، طرائف ومتاع رومية للخليفة، فتعرَّضت لقطاع الطرق من الأعراب في منطقة الرها، فتصدَّى لهم أحمد بن طولون وخلَّص القافلة من عبثهم، ولما علم الخليفة بالحادث احتفظ له بالجميل ومنحه ألف دينار[2]، وكان أحمد بن طولون بعد ذلك، إذا دخل على الخليفة المستعين أومأ إليه بالسلام محبة وتقديراً[3].

وما حدث من ازدياد علاقته بالخليفة والإعجاب به فأهداه جارية تسمى مياس أنجب منها ابنه خمارويه في عام (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، وعندما نُفي الخليفة إلى واسط، نتيجة صراعه مع المعتز والأتراك، سمح له هؤلاء باصطحاب أحمد بن طولون معه، فكان رفيقه في معتقله، ولا شك بأن هذا الاختيار وقبول الأتراك به كمرافق للخليفة، مرده إلى الثقة التي حصل عليها من الجميع[4].

وأثبت أحمد بن طولون أنه جدير بهذه الثقة، فعامل الخليفة المستعين بالحسنى، ورفض طلباً لفتيحة، والدة المعتز، بقتله مقابل تقليده واسط، وكان جوابه: «لا يراني الله ﷻ أقتل خليفة له في رقبتي بيعة وأيمان مغلَّظة أبداً»[5]، وبذلك أرضى

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٤.
(٢) البلوي: ص٣٨، ٣٩.
(٣) محمود: ص١٧.
(٤) البلوي: ص٤٠.
(٥) المصدر نفسه.

ضميره وسلوكه في وقت أُهينت فيه الخلافة وأُهين أهلها المتقلِّدون لها، كما أنه لم يجرح الأتراك وأصحاب النفوذ في بغداد وسامراء، فسلَّم الخليفة سليماً لأعدائه وهو يدرك مصيره المحتوم. وكان لموقفه هذا الأثر الكبير في نفوس الأتراك فأعظموا فيه دينه وعقله، وكبر في نظرهم، وباتوا يتطلَّعون إلى هذا الشاب ليتسلم زعامتهم، كما عظم في أعين البغداديين.

أوضاع مصر الداخلية قبيل قيام الإمارة الطولونية

لم تتوقف المقاومة الأموية للعباسيين بسقوط دولتهم، فقد قام أنصارهم وأفراد من أسرتهم بثورات مناهضة للحكم العباسي، كما استمرت ثورات العلويين ضد هذا الحكم بسبب اعتقادهم بأن العباسيين مغتصبين للسلطة مثل الأمويين.

لقد صفت مصر للحكم العباسي كبلاد الشام، وعيَّن العباسيون عليها ولاة من قِبَلهم. وأول ما يستلفت نظرنا هو انتهاء مقاومة بقايا الأمويين بالقضاء على دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان في عام (١٦٩هـ/ ٨١١ ـ ٨١٢م)[1]. على أن هؤلاء كانوا ينضمون إلى العلويين الثائرين على الخلافة العباسية وقد جمعت الطرفين مصلحة مشتركة في إسقاطها.

ونشطت الدعوة العلوية في مصر منذ أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٣ ـ ٧٧٥م) واستمرت طيلة العصر العباسي الأول، وما حدث من اضطهاد العباسيين للعلويين في المشرق الإسلامي، أجبرهم على الفرار إلى الجهات البعيدة عن مقر الخلافة العباسية، ومنها مصر.

ويبدو أن الخلفاء العباسيين بعد أبي جعفر لم يتعرضوا للعلويين في مصر، ولعل مرد ذلك يعود إلى إخلادهم إلى الهدوء من جهة ومحاولة هؤلاء استقطابهم من جهة أخرى، وبقي الوضع على ذلك حتى اعتلاء المتوكل سدَّة الخلافة، وهو الذي أبغض العلويين؛ فأرسل كتاباً إلى والي مصر إسحاق بن يحيى يأمره بإخراج آل علي بن أبي طالب منها، فأُخرجوا من الفسطاط في (رجب ٢٣٦هـ/ كانون الثاني ٨٥١م) إلى العراق ومن هناك أُبعدوا إلى المدينة، واضطر الذين بقوا في مصر إلى الاختفاء[2] بفعل أنهم أضحوا غير آمنين على أنفسهم، واستأصل خلفه يزيد بن عبد الله شأفة

(١) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاة: ص٩٩. ابن تغري بردي: جـ٢ ص٦٠، ٦١. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية: جـ٢ ص١٠٨.
(٢) المقريزي: جـ٢ ص١١٦، ١١٧.

هؤلاء وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه(١).

وأقرَّ الخليفة المنتصر يزيد بن عبد الله على ولايته بمصر، وأمره بألا يُقبَل - يلتزم - علوي ضيعة، ولا يركب فرساً، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يُمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، وإن كانت بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس، قُبِلَ قول خصمه فيه ولم يطالب ببيِّنة(٢).

وخرج محمد بن علي في عهد الخليفة المستعين، وبايعه أنصاره، فقبض عليه الوالي يزيد بن عبد الله، وأخرجه في جمع من آل علي بن أبي طالب إلى العراق وذلك في (رمضان ٢٤٨هـ/ تشرين الثاني ٨٦٢م)(٣).

اضطربت أوضاع مصر على أثر خلع الخليفة المستعين في (محرم ٢٥٢هـ/ كانون الأول ٨٦٥م) ومبايعة الخليفة المعتز وذلك بفعل اضطراب الوضع في بغداد، وكانت فرصة للطامحين للقيام ضد الحكم العباسي. فقد ثار جابر بن الوليد المدلجي في الإسكندرية في (ربيع الآخر ٢٥٢هـ/ أذار ٨٦٦م)، فاشتد أمره وقويت شوكته وبسط نفوذه على منطقة واسعة في الدلتا، وجبى خراجها، ولم يستطع والي مصر يزيد بن عبد الله أن يقضي على حركته، فأرسل الخليفة المعتز قوة عسكرية بقيادة مزاحم بن خاقان تمكَّنت من هزيمته، وقبض مزاحم عليه، فكافأه الخليفة بأن عيّنه والياً على مصر بدلاً من يزيد بن عبد الله وذلك في (ربيع الأول ٢٥٣هـ/ أذار ٨٦٧م). ويلاحظ انضمام أحد العلويين إلى هذه الثورة وهو عبد الله بن أحمد، وكان يُلقَّب بالأرقط، فقُبض عليه وأُخرج إلى العراق(٤).

وعلى هذا الشكل تتابعت الحركات العلوية في مصر منذ عهد الخليفة العباسي المتوكل بهدف القضاء على الحكم العباسي فيها وتأسيس دولة علوية في ربوعها، وكان الذي شجَّعهم على الخروج الأوضاع المضطربة في المشرق الإسلامي بعامة حيث قامت الإمارات الانفصالية، وفي بغداد بخاصة حيث الصراع على النفوذ بين الخلافة والأتراك، وظل الوضع على هذا الحال إلى أن جاء أحمد بن طولون إلى مصر وأسس الإمارة الطولونية.

تولية أحمد بن طولون الديار المصرية

برز بايكباك، أو باكباك، التركي على المسرح السياسي على أثر الصراع الذي

(١) المقريزي: جـ٢ ص١١٧. ابن تغري بردي: جـ٢ ص٣٠٩. الكندي: ص٢٠٣.
(٢) الكندي: ص٢٠٤. (٣) المصدر نفسه: ص١٥٣.
(٤) المقريزي: جـ٢ ص١١٨.

انتهى بمقتل الخليفة المستعين وتولية المعتز. وكان هذا القائد التركي في مقدمة القادة الأتراك الذين أداروا هذا الصراع، ولا سيما بغا ووصيف وسيما الطويل، وقد تقاسموا الأعمال والنواحي فيما بينهم. فأقطع المعتز بايكباك أعمال مصر ونواحيها(١)، ويبدو أنه خشي مغادرة عاصمة الخلافة حتى لا يتعرض للعزل، وآثر أن يبقى قريباً من مركز السلطة يشارك في اتخاذ القرارات، وأناب عنه أحمد بن طولون في مصر، وقد فضَّله على غيره لما عُرف عنه من حسن السيرة وبفعل قرابته له، فهو زوج أمه، والمعروف أن هذا القائد تزوَّجَ قاسم والدة أحمد بعد وفاة والده طولون؛ وضمَّ إليه جيشاً يستعين به، ولم يكن له كامل الولاية وإنما كان على الصلاة وله الحاضرة الفسطاط من دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها كالإسكندرية ونحوها(٢)، إلا أنه جاء إلى مصر حاملاً معه تطلعات سياسية واسعة.

ومهما يكن من أمر فقد سار أحمد بن طولون إلى مصر برفقة أحمد بن محمد الواسطي، ودخلها يوم الأربعاء (٢٣ رمضان ٢٥٤هـ/ ١٥ أيلول ٨٦٨م). وكانت السياسة السائدة آنذاك أن يتولى السلطة في مصر أكثر من شخص حتى يراقب بعضهم بعضاً. فكان عامل الخراج أحمد بن محمد بن المدبر، ذو السيرة السيئة في المجتمع المصري بفعل شدَّته وقسوته، وهو من دهاة الناس وشياطين الكتَّاب(٣). وكان شقير الخادم على البريد، وهو غلام فتيحة والدة المعتز، يراقب أعمال كبار الموظفين وسلوك الناس ويُعلم الخلافة بذلك، وهو دائماً يدس بين هذه القوى المتعددة، وكان بكار بن قتيبة على القضاء، وعلى الإسكندرية إسحاق بن دينار، وعلى برقة أحمد بن عيسى الصعيدي(٤).

وما إن استقر أحمد بن طولون في الفسطاط حتى اصطدمت مصالحه مع هذه القوى، فساءت علاقته بابن المدبر الذي حاول استقطابه بعشرة آلاف دينار، فرفض ابن طولون الهدية وردَّها بفعل أنه دخل مصر وهو مفعم بتطلعات سلطوية تفوق كل حد.

أدرك ابن المدبر أنه أمام رجل طموح قد يشكل خطراً عليه، فراح يحيك المؤامرات للتخلص منه أو إبعاده عن مصر، فأرسل تقريراً إلى دار الخلافة أوضح فيه بأن أحمد بن طولون رجل لا يؤتمن لا على ولاية مصر ولا حتى على طرف من

(١) المقريزي: جـ٢ ص١٢٠. (٢) البلوي: ص٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٣.
(٤) المقريزي: جـ٢ ص١٢٠، ١٢١. ابن سعيد الغرناطي الأندلسي: المغرب في حلى المغرب جـ١ من القسم الخاص بمصر ص٧٧.

الأطراف[١] واتهمه بأنه ينوي الاستقلال بمصر.

تصدَّى أحمد بن طولون لهذه المؤامرة، وحاول تجريد ابن المدبر من قوته، فطلب منه إعطاءه مائة غلام من الغور[٢] كانوا تحت إمرته، واشتهروا بالشدة والبأس، يقفون بين يديه في حافتي مجلسه إذا جلس، وإذا ركب ركبوا بين يديه، فيُضفون عليه هيبة كبيرة في صدور الناس. ولم يجد ابن المدبر بداً من تلبية الطلب على الرغم من امتعاضه الشديد «إذ كيف يأمنه إذا كان يردُّ الأعراض والأموال ويستهدي الرجال»[٣]، وازداد حنقاً ووشاية ضده لدى الخلافة في بغداد. والواقع أن هيبة ابن المدبر تحوَّلت إلى أحمد بن طولون بعد هذه الحادثة. وهكذا بدأت حلقة من الصراع المرير بين الرجلين.

واستقطب أحمد بن طولون بعض التجار في مصر والعراق، فاستخدمهم لاستمالة أولي الأمر في بغداد عن طريق بذل المال[٤]، وقد نجح في هذا المضمار حيث مكَّنته هذه السياسة من الاستمرار في حكم مصر على الرغم من كثرة الوشاة والكتب المتلاحقة من ابن المدبر وشقير الحاجب، كما كانت دعماً آخر له إضافة إلى دعم بعض القادة الأتراك المهيمنين على مقدرات الخلافة مثل بايكباك ويارجوخ.

واستمال أحمد بن طولون الوزير الحسن بن مخلد عن طريق بذل المال أيضاً فأرسل له هذا الكتب التي كان يبعثها ابن المدبر وشقير الحاجب ضده[٥]. وبهذا الأسلوب السياسي كشف ابن طولون أعداءه واطلع على حقيقة موقفهم منه، لذلك قرَّر التخلص منهم حتى تخلو له الساحة السياسية، فاستدعى شقير الحاجب واعتقله. ويبدو أن هذا الرجل علم مسبقاً بموقف ابن طولون منه، فانهارت قواه ومات من هول الصدمة[٦]، ولعل شرطة ابن طولون قامت بدور مباشر في حادثة الوفاة عن طريق الضرب حتى الموت، وبذلك تخلَّص ابن طولون من أكبر عين رقيبة عليه.

التفت أحمد بن طولون بعد ذلك إلى التخلص من ابن المدبر بفعل خطره عليه ووقوفه حجر عثرة في وجه مشروعاته الكبرى في مصر، فكتب إلى الخليفة المهدي يطلب منه صرفه عن خراج مصر وتعيين محمد بن هلال مكانه، وهو أحد أصدقائه.

(١) المقريزي: جـ٢ ص١٢١.
(٢) الغور: إقليم جبلي بين هراة وباميان وحدود كابل وغزنة.
(٣) البلوي: ص٤٥.
(٤) المصدر نفسه: ص٦٠. ابن سعيد: جـ١ ص٧٨.
(٥) ابن الداية، أبو جعفر أحمد بن يوسف: سيرة أحمد بن طولون: ص١١.
(٦) البلوي: ص٥٨، ٥٩.

ولما كان بايكباك مهيمناً على دار الخلافة، فقد وافق الخليفة على طلبه[١].

وأبطأ ابن المدبر في تسليم ما بيده من الأعمال، فكانت فرصة استغلها أحمد بن طولون، فاعتقله وعذَّبه وسجنه، وظل في سجنه إلى أن تولى المعتمد الخلافة بعد مقتل المهدي في (١٢ رجب ٢٥٦هـ/ ١٦ حزيران ٨٧٠م) حيث أعاده إلى عمله[٢].

وساعدت الظروف السياسية، التي حدثت في بغداد، أحمد بن طولون في تثبيت أقدامه في مصر، فقد حدث أن قُتل بايكباك في عام (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) وخلفه القائد التركي يارجوخ وهو ختن ابن طولون، فكتب إليه «تسلَّم من نفسك لنفسك»[٣] وهي إشارة واضحة لتسليمه مصر كلها، ولكنه استثنى الخراج الذي ظل بيد أحمد بن المدبر، الذي أضحى محدود السلطة في ظل هيمنة ابن طولون. وحتى يُعوِّض بعض ما فقده في مصر كتب إلى أخيه إبراهيم في بغداد، وكان على خراج الأهواز، أن يطلب من الخليفة أن يضيف إليه خراج فلسطين. ونجحت مساعيه في ذلك، وفي الوقت نفسه، دعته خشيته من ابن طولون إلى التقرب منه بالمصاهرة فقد زوَّج إحدى بناته من خمارويه بن أحمد بن طولون. وعندما خرج من مصر إلى فلسطين في عام (٢٥٨هـ/ ٨٧٢م) لاستلام منصبه الجديد، وهب ضياعه في مصر لابن طولون، وودَّعه هذا لدى خروجه[٤]. وعلى الرغم من ذلك فإنه لم ينس ما حلَّ به على يد ابن طولون، فما إن وصل إلى دار الخلافة حتى راح يكيد له، وانضم إلى القوى المعادية له في بلاد الشام والتي استغلها أبو أحمد المُوفَّق طلحة في صراعه معه.

أما أحمد بن طولون، فقد سار بخطى ثابتة للسيطرة على الأمور كلها في مصر، فخرج على رأس قوة عسكرية إلى الإسكندرية واستخلف طغلغ على الفسطاط وطخشي بن يلبرد على الشرطة. وعندما وصل إليها في (رمضان ٢٥٧هـ/ حزيران ٨٧١م) استقبله عاملها إسحاق بن دينار بالترحاب، فأقرَّه عليها، كما استلم برقة من أحمد بن عيسى الصعيدي، فعظمت بذلك منزلته وكثر قلق ابن المدبر وغمَّه[٥]. وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ مصر.

توفي يارجوخ في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م)[٦] وهو صاحب إقطاع مصر الذي كان أحمد بن طولون يحكمه بالنيابة عنه ويدعو له على منابره بعد الخليفة، فأقرَّه الخليفة

(١) ابن سعيد: جـ١ ص٧٩.
(٢) اليعقوبي: جـ٢ ص٤٧٤ ـ ٤٧٥.
(٣) البلوي: ص٤٦.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) ابن الأثير: جـ٦ ص٣١٣.

المعتمد والياً عليها، وبذلك أضحى حاكم مصر الشرعي من قِبَل الخلافة مباشرة، ويُعدُّ هذا العام تاريخ تأسيس الإمارة الطولونية.

وفي عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٧م) ورد كتاب المعتمد إلى أحمد بن طولون يطلب منه إرسال خراج مصر، فردَّ عليه قائلاً: «لست أطيق ذلك والخراج بيد غيري»، فما كان من المعتمد عندئذ إلا أن قلَّده خراج مصر وولَّاه إمرة الثغور الشامية على أثر اضطراب أوضاعها. فعيَّن ابن طولون أحمد بن محمد بن شجاع على خراج مصر[١] فأضحى بذلك سيد الديار المصرية كلها والمشرف العام على جميع أعمالها العسكرية والإدارية والقضائية والمالية، وقام بضرب الدينار الأحمدي رمزاً لهذا الاستقلال[٢].

وهكذا أُتيحت لأحمد بن طولون الفرصة لإقامة إمارة انفصالية في مصر، جهد أن تقوم على أربعة أركان:

الأول: أن يبقى حاكماً على مصر، وتكون أمورها خالصة له بحيث لا تتدخل الخلافة العباسية في شؤونه أو أن يكون لها حق توجيهه.

الثاني: أن يتخذ مصر قاعدة انطلاق ليؤدي دوراً نشطاً في السياسة الإسلامية العامة ويتوسع في بلاد الشام ليحمي حدود مصر، ويظهر بمظهر المجاهد في سبيل الله.

الثالث: أن تكون له الشارات الرسمية.

الرابع: أن تكون إمارة مصر وراثية في عقبه برضى الخلافة وموافقتها[٣]

كل ذلك، مقابل استمرار ارتباطه بالخلافة ببعض المظاهر الشكلية وهي:
- الدعاء للخليفة في الخطبة.
- نقش اسم الخليفة على النقود.
- إرسال جزء من الخراج إلى دار الخلافة.

الحركات المعارضة التي قامت في وجه أحمد بن طولون

حركة بغا الكبير: واجه أحمد بن طولون في بداية حياته السياسية حركات ثورية عدة اتسم معظمها بالطابع الديني المذهبي بفعل النزاع الذي كان سائداً خلال هذه المرحلة، وكان التصدي لها يُحقِّق أكثر من حاجة، منها إقرار الأمن في الداخل،

(١) البلوي: ص٧٣. المقريزي: جـ٢ ص١٣٠.
(٢) زيود، محمد أحمد: العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي: ص٢٦.
(٣) محمود: ص٦٠، ٦١.

والإخلاص للبيت العباسي، والدفاع عن الخلافة العباسية، وتثبيت مركزه بوصفه عاملها القوي.

فقد استطاع بغا الكبير بعد أن فرَّ من بغداد أن يستقر في منطقة الكنائس بين برقة والإسكندرية، ورفع راية العصيان في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، وادعى نسباً علوياً لاستقطاب الأنصار، واتخذ لقب بغا الكبير، واسماً هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا، ثم سار إلى صعيد مصر، فكثر أتباعه وادعى الخلافة.

كان من الطبيعي أن يتصدَّى أحمد بن طولون لمثل هذه الثورات التي تشكل خطراً على وضعه الداخلي، فأرسل إليه القائد بَهم بن الحسين اصطدم به وتغلَّب عليه وقتله[١].

حركة ابن الصوفي: تزعم ابن الصوفي العلوي، وهو إبراهيم بن محمد، حركة ثورية في عام (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) فهاجم إسنا[٢]، فدخلها ونهبها، وعاث فساداً في نواحيها، فأرسل إليه أحمد بن طولون القائد ابن يزداد، فتغلَّب العلوي عليه وأسره، ثم قطع يديه ورجليه وصلبه، فبلغ ذلك ابن طولون، فأرسل جيشاً آخر بقيادة بَهم بن الحسين اصطدم به في نواحي إخميم[٣] وهزمه وقتل كثيراً من رجاله، ونجا هو، فسار إلى الواحات فأقام مدة ثم ظهر في نواحي الأشمونين[٤] في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م). فوجَّه إليه ابن طولون جيشاً بقيادة ابن أبي المغيث[٥] فوجده قد أصعد، أي ذهب إلى الصعيد، لقتال رجل ظهر هناك زعم أنه عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ويُكنى أبا عبد الرحمٰن العمري. وعندما وصل العلوي إلى العمري التقيا، فكان بينهما قتال شديد أسفر عن انهزام العلوي، فولى هارباً إلى أسوان، فعاث فيها وقطع كثيراً من نخلها. فسيَّر إليه ابن طولون جيشاً بقيادة بهم بن الحسين وأمره بطلبه أين كان. فسار في إثره، وعندما علم بذلك هرب إلى عيذاب، وعبر البحر إلى مكة، وتفرَّق أصحابه. وعندما وصل إلى مكة بلغ خبره واليها، فقبض عليه وسجنه ثم أرسله إلى ابن طولون، فطيف به في البلد، ثم سجنه مدة وأطلقه، فذهب إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات[٦].

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٢٧٢.
(٢) إسنا: بلد بصعيد مصر، وهي اليوم من عمل مديرية قنا.
(٣) إخميم: بلد بالصعيد على شاطئ النيل، وهو اليوم أحد مراكز مديرية جرجا.
(٤) الأشمونين: هي قصبة وكورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير.
(٥) وفي رواية: ابن أبي الغيث.
(٦) ابن الأثير: جـ٦ ص٢٩١، ٣١١. البلوي: ص٦٢ ـ ٦٤.

حركة أبي روح: لم يضع القضاء على حركة ابن الصوفي حداً لحركات التمرد واستئصال الفتنة في الصعيد، فقد ظهر رجل من أتباعه يُكنى أبو روح، واسمه سكن، خرج في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) في بوادي بحيرة الإسكندرية وثار ضد الحكم الطولوني للثأر له؛ والتفَّت حوله طائفة كبيرة، فقطع الطريق وأخاف السابلة، فوجَّه إليه أحمد ابن طولون قائده يلبق الطرسوسي على رأس جيش كثيف معظم أفراده من الطرسوسيين. وكان أبو روح عيَّاراً تربَّى في الريف وعرف طرقاته والحرب فيه، فعمد إلى استدراج الجيش الطولوني إلى أرض كثيرة الشقوق، وكان بها قمح فحُصِد وبقي من تبنه على الأرض ما يستر الشقوق، وقد ألف وأصحابه السير على مثل هذه الأرض، ولا عهد لأهل طرسوس بها. وعندما ابتدأت المعركة تراجع مع أصحابه إلى تلك الأرض، فطاردتهم القوات الطولونية، فوقعت حوافر خيلهم في تلك الشقوق، فكبت بفرسانها، فكرَّ أبو روح وأتباعه عليهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعاد يلبق إلى الفسطاط يجر أذيال الهزيمة.

وأهمل أحمد بن طولون أمر أبي روح مدة من الزمن، حتى إذا علم بأنه يغزو الفيوم أرسل جيشين للإجهاز عليه، الأول بقيادة ابن جيغويه، ومهمته قطع طريق الواحات عليه من ناحية الصحراء، والثاني بقيادة شعبة بن خركام، ومهمته الاصطدام به.

وعمد أبو روح إلى استعمال الخطة نفسها للإيقاع به، لكن الجيش الطولوني كان حذراً ولم يقع في الفخ الذي نُصب له. وفوجئ أصحاب أبي روح بذلك، فهربوا لا يلوون على شيء، فطاردتهم القوات الطولونية وقتلت كثيراً منهم ومن استسلم أُسر. وانهزم أبو روح وهرب مع من نجا من جنده يريد طريق الواحات ولا طريق غيره للنجاة. فلما أشرف على ابن جيغويه ورآه قد ملك فم البرية والطريق، وقف متمهلاً ثم راسله في الأمان، فظنَّ القائد الطولوني أن شعبة لم يلقه وأنه وافاه مستأمناً فأمَّنه، ولما علم ابن طولون بذلك اغتاظ من قائده وعاقبه بأن منعه من العودة إلى مصر، وأبقاه في الريف أشهراً عدة(١).

حركة أبي عبد الرحمٰن العمري(٢): وتصدَّى أحمد بن طولون لحركة أبي عبد الرحمٰن العمري، على الرغم من أن هذه الحركة لم تكن موجَّهة مباشرة ضد الطولونيين وإنما قامت ضد قبائل البجة(٣)، الذين كانوا يغيرون على المناطق السكنية

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٣١٨، ٣١٩. البلوي: ص٦٧ ـ ٧٠.
(٢) اسمه: عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.
(٣) البجة أو البجاة: قوم سكنوا المناطق المتاخمة للثغور الجنوبية لمصر، واشتهرت مناطقهم بوجود معد الزمرد.

المتاخمة للثغور الجنوبية لمصر، فخرج هذا العمري غضباً لله وللمسلمين وكمن لهم في طريقهم، فلما عادوا خرج عليهم وقتل قائدهم ومن معه ودخل بلادهم فنهبها وأكثر القتل فيهم، وتابع عليهم الغارات حتى أدُّوا له الجزية ولم يؤدوها لأحد قبله، وكان «لا يعرض لأحد بأذية لا ذمي ولا ملَّة، وكان مسالماً للنوبة، للعهد الذي لهم»(١).

واشتدَّت شوكة العمري وكثر أتباعه ما أثار أحمد بن طولون الذي لم يكن يقبل بوجود أية قوة، مهما كان نوعها، يمكن أن تشغل أي دور قد يكون منافساً لسلطته ولوجوده الشخصي في مصر، وقد خشي أن يتجاوز جهاده ضد البجة فيطمع في مصر كلها لذلك رأى في بقائه انتقاصاً لسيادته؛ فأرسل إليه جيشاً كثيفاً، فلما تصافُّوا للقتال تقدم العمري وقال لقائد الجيش: «إن ابن طولون لا يعرف خبري لا شك على حقيقته، فإني لم أخرج للفساد ولم يتأذ بي مسلم ولا ذمي وإنما خرجت طلباً للجهاد، فاكتب إلى الأمير أحمد عرِّفه كيف حالي، فإن أمرك بالانصراف فانصرف وإلا إن أمرك لغير ذلك كنت معذوراً». فرفض قائد الجيش ذلك وقاتله فانهزم أمامه وعاد أدراجه إلى الفسطاط يجر أذيال الخسارة. فأخبر ابن طولون بوضع العمري فلامه وقال: «نُصر عليكم ببغيكم».

ولم تمضِ أشهر ذات عدد حتى وافى أحمد بن طولون غلامان زعما أنهما من غلمان العمري وأنهما قتلاه وأتيا برسه تقرُّباً منه وحظوة، فأمر بقتلهما، وغسَّل رأس العمري وكفَّنه وطيَّبه ودفنه(٢).

ثورة أهل برقة: ثار أهل برقة على الحكم الطولوني في عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م) في محاولة للانعتاق من نفوذ الطولونيين، وأخرجوا أميرهم محمد بن فروخ(٣). ويبدو أن الثورة كانت أشد خطراً، بدليل اهتمام أحمد بن طولون بإخمادها وتسخيره الجيش والأسطول في القضاء عليها، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة أبي الأسود الغطريف ويزبك الفرغاني، وكان من حجابه، تسانده حملة بحرية، وأردف هذا الجيش بجيشين آخرين الأول بقيادة غلامه لؤلؤ والثاني بقيادة شعبة بن خركام، على أن تلتقي الجيوش أمام برقة، وأمر القادة بالرفق بأهل برقة واستعمال اللين، فإن انقادوا وإلا السيف.

اجتمع جيش الغطريف وجيش لؤلؤ أمام برقة وحاصراها، وفعل القادة ما أمرهم به أميرهم، وطمع أهل برقة، ففتحوا الباب الذي عليه الغطريف ليلاً وأوقعوا بعسكره

(١) البلوي: ص٦٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٦٦، ٦٧. ابن الأثير: جـ٦ ص٣١١، ٣١٢.
(٣) البلوي: ص٧٠ ـ ٧٢. ابن الأثير: جـ٦ ص٣٢٧.

وقتلوا منهم، كان الغطريف من بينهم، فكتب لؤلؤ إلى مولاه يعلمه بذلك ويطلب توجيهاته، فكتب إليه يأمره بقتالهم، فنصب عليهم المجانيق وجدّ في قتالهم، ويبدو أنهم لم يتمكّنوا من الصمود طويلاً أمام الضرب المتواصل بالحجارة والنشاب، واضطروا إلى طلب الأمان، وفتحوا الباب للجيش الطولوني، فدخل إلى المدينة وقبض لؤلؤ على جماعة من رؤسائهم، فضربهم بالسوط، وقطع أيدي جماعة منهم، وصلب طائفة، وكتب إلى مولاه بالفتح. ووصل جيش شعبة بعد الفتح، فاستخلف لؤلؤ شعبة على البلد وعاد هو إلى الفسطاط حاملاً معه عدداً من الأسرى. وعندما وصل إلى الجيزة أرسل إليه ابن طولون خلعة فيها طوقان، فوضعهما في رقبته، وطيف بالأسرى في البلد(١).

ثورة ابنه العباس: كان أحمد بن طولون قد عيّن ابنه العباس نائباً عنه في مصر طيلة مدة غيابه في بلاد الشام، وقد آثره على إخوته بفعل كبر سنه وحظوته عنده، ولغاية في نفسه من هوى الأبوة(٢)، لكن العباس اتصف بالحمق السياسي، فوقع تحت تأثير حاشيته الذين استخلصهم لنفسه واستحجب كثيراً منهم، وكانوا يخشون أباه ويحسدونه على ما بلغ من التقدم السياسي والعسكري، وبناء إمارة مترامية الأطراف ثابتة الأركان، وقد أشاروا عليه الخروج على حكم أبيه والفتك بأحمد بن محمد الواسطي، وأوهموه بوفاة والده بعد أن طالت غيبته، كان من بينهم جعفر بن حدار الكاتب وأحمد بن المؤمل، المعروف بأبي معشر، ومحمد بن أزهر، المعروف بالمنتوف(٣).

كانت الخطوة الأولى لجماعة المتآمرين إزاحة الواسطي عن السلطة لتمهيد الطريق أمام العباس للانفراد بها، فكتب الواسطي إلى أحمد بن طولون يشرح له ما يعانيه من ابنه العباس ومنْعه من استيفاء الرسوم السلطانية، وأنه مغلول اليد، وتدخُّل حاشيته في شؤون الدولة(٤).

وعندما قرّر العباس تنفيذ مخططه الانقلابي، خشي الواسطي على نفسه من تأنيب أحمد بن طولون إذا أخفى الأمر عنه، لذلك كتب إليه يشرح له الموقف السياسي في مصر ومحاولة ابنه الانقلاب عليه وأنه أعجز من أن يتصدّى له ويمنعه؛ فطلب ابن طولون منه أن يداريه حتى عودته، غير أنه فشل وانزوى في داره، فاقتحم العباس عليه داره وقبض عليه، واستحوذ على المراسلات المتبادلة بينه وبين والده؛ ولما اطلع عليها اشتد خوفه من والده وساء ظنه بالواسطي فقيَّده هو وأيمن الأسود، وكان

(١) البلوي: ص٢٤٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٤٥، ٢٤٦.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٤٦، ٢٤٧.

من غلمان والده وثقاته، وقرّر الذهاب إلى الإسكندرية بحجة التصدي لمحاولات البيزنطيين النزول على شواطئها، على الرغم من نصيحة أركان حربه البقاء في مصر وتكليف حامية الإسكندرية بذلك. فاستخلف أخاه ربيعة على مصر وخرج، وأخذ معه المال والكراع والسلاح والمتاع كما أخذ الواسطي وأيمن الأسود مقيدين، وعندما وصل إلى الإسكندرية أقام بها أياماً ثم غادرها إلى برقة ليكون بعيداً عن مصر، وذلك في (ربيع الأول ٢٦٥هـ/ تشرين الثاني ٨٧٨م)(١).

وعندما عاد أحمد بن طولون إلى مصر حاول إقناع ابنه بالكفِّ عما اعتزم عليه والعودة إلى مصر، وأرسل إليه وفداً من أجل ذلك ووعده بالصفح عنه وحلف له. فرحَّب العباس بأعضاء الوفد، غير أنه رفض العودة معهم إلى مصر وكتب إلى أبيه جواباً شرط فيه شرائط مجحفة، وأغلظ له(٢).

وزيَّن له أصحابه الخروج إلى إفريقيا - تونس - للاستيلاء عليها وتأسيس دولة له في ربوعها بعيداً عن متناول والده، وكانت إفريقيا آنذاك تحت حكم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فكتب إليه يأمره بأن يقيم الدعوة له مدعياً بأن الخليفة المعتمد قلّده إفريقيا وأمره بالخروج إليها، كما راسل قبائل البربر، فانضمت إليه جماعة منهم وتخلَّف عنه زعماؤهم، ثم خرج من برقة حتى انتهى إلى حصن لبدة، فاستسلم له سكانه واستقبله عامل ابن الأغلب بالترحاب، غير أنه ضرب بقواعد اللياقة السياسية عرض الحائط، فسمح لجنوده بنهب الحصن، فنهبوه وقتلوا الرجال وسبوا النساء، والتجأ من نجا منهم إلى الياس بن منصور الزناتي النفوسي رئيس الأباضية(٣)، والتمسوا مساعدته، فغضب لهم. وكان العباس قد راسله يأمره بالخضوع له وإلا وطئ بلده ودمَّره، فرفض، بل توعَّده بالزحف إليه(٤).

لم يركن إبراهيم بن الأغلب إلى الهدوء أمام تهديدات العباس، فأرسل قوة عسكرية إلى طرابلس، وأمر عاملها عليها محمد بن قرهب بقيادتها ومهاجمة العباس والقضاء عليه، فجرى قتال بين الطرفين. وما حدث في غضون ذلك من إرسال الياس بن منصور الزناتي قوة عسكرية من اثني عشر ألف مقاتل اشتركت في المعركة إلى جانب الأغالبة؛ أن أطبق الحليفان على قوات العباس وهزماها وقتلا كثيراً من أفرادها. وفرَّ العباس من أرض المعركة ناجياً بنفسه، فطاردته القوات المشتركة،

(١) البلوي: ص٢٤٨، ٢٤٩. ابن الأثير: جـ٦ ص٣٥٩، ٣٦٠.
(٢) البلوي: ص٢٤٩ - ٢٥٢.
(٣) الأباضية فرقة من الخوارج تقول بإمامة عبد الله بن أباض.
(٤) البلوي: ص٢٥٣.

وكادت أن تأسره، واستولت على أمواله وذخائره وسلاحه، واضطر للعودة إلى برقة يجر أذيال الهزيمة[1].

وشاع في مصر أن العباس قُتل، فاغتم والده عندما سمع بهذا الخبر لأنه وقع بذلك بين شرين، فقدان ابنه وخسارة جميع ما كان معه، ولم يزل مهموماً مغموماً حتى صحَّت عنده سلامته، فجدَّد عندئذ محاولته تهدئة النفوس، لكن من دون جدوى، لذلك مال إلى استعمال القوة لتأديب ابنه، فأرسل حملة عسكرية إلى برقة بقيادة طبارجي، من أجل ذلك، وذهب هو إلى الإسكندرية ليكون قريباً من مجرى الأحداث ويشرف على العمليات العسكرية، ثم همَّ باللحاق بعسكره لولا أن وافاه الواسطي، وكان العباس قد أطلقه بضمان جماعة من التجار ببرقة، وتخلَّص منهم بالحيلة بعد انهزام العباس؛ فمنعه من الذهاب إلى برقة ونصحه بالعودة إلى مصر، وتعهَّد له بالقضاء على ابنه. وعندما التقى الطرفان استقطب طبارجي جماعة من وجوه أصحاب العباس ما أضعف قدرته القتالية، ولما خاض المعركة في مكان يُعرف بدينار انهزم وفرَّ لا يلوي على شيء، مع شرذمة من غلمانه وذلك في (٢٢ جمادى الآخرة ٢٦٧هـ/ ٢٨ كانون الثاني ٨٨١م)، فطاردته قوات أبيه وقبضت عليه. ودخل طبارجي برقة، فأصلح ما فسد من أوضاعها وعيَّن عليها والياً وعاد إلى مصر ومعه العباس مقيداً، فطيف به في البلد ثم أُحضر بين يدي والده وقد جلس على دكة عالية خارج الميدان، فأمره بأن يقطع يدي أبي معشر ورجليه، ففعل، ثم أُلقي به من أعلى الدكة إلى الأرض، وكذلك فعل بالمنتوف وابن حداد الكاتب، وهم رأس المعارضة والموجِّهين الأساسيين للعباس، ثم عاتب ابنه على عصيانه وأمر به فبُطح، وضربه بيده مائة مقرعة، فكان يضربه ودموعه تنحدر كأنه هو المضروب، ثم اعتقله في داره[2].

الإنشاءات العمرانية

بناء القطائع: تدل الإنشاءات العمرانية التي نفَّذها أحمد بن طولون، على اهتمامه الكبير بمصر، واستكمال شرعيته عليها، فطمع في أن يكون هذا البلد مركزاً لحكمه، لذلك ارتقى بالفسطاط ليضاهي بها مركز الخلافة في بغداد. ولما ضاقت به الدار التي يسكنها بعد الاستكثار من العبيد والرجال؛ قرَّر أن يتوسَّع، فاختار مكاناً يقع إلى أقصى الشمال الشرقي من العسكر بين جبل يشكر وسفح المقطم، قرب دار الإمارة، وأسس ضاحية جديدة تسمى القطائع على مساحة تُقدَّر بميل مربع، وذلك

(١) البلوي: ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٦٤ ـ ٢٧١.

في عام (٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) فاختط فيها قصراً وأمر أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله، فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة البلد، ثم قُطعت القطائع وسُميت كل قطيعة باسم من سكنها. فكانت للنوبة قطيعة مفردة تُعرف بهم، وللروم قطيعة أخرى، وللفراشين قطيعة مفردة، ولغيرهم من كل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تُعرف بهم. وبنى القادة مواضع متفرقة ومتعددة، فعمرت القطائع عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبُنيت فيها المساجد الحسان، والطواحين، والحمامات، والأفران، وسُميت أسواقها، فسُمي منها سوق العيارين[1]، وكان يجمع العطارين والبزازين، وسوق الفاميين[2] ويجمع الجزارين والبقالين والشوائين، فكان في دكاكين الفاميين جميع ما كان في دكاكين نظرائهم في المدينة، وأكثر وأحسن، وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين. ولكل من الباعة سوق حسن عامر. فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من مدن الشام[3].

بناء القصر: وبنى أحمد بن طولون قصره الجديد، فأتقن بناءه، وقد شيَّده تحت قبة الهواء القديمة، وجعل له حديقة غنّاء، وميداناً فسيحاً لعرض الجيش والضرب فيه بالصوالجة[4]، فسمي القصر كله الميدان. وأنشأ هذا القصر الكبير على طراز قصور خلفاء بغداد، وأقام فيه المظلات، وكان له أبواب للدخول والخروج، ولكل باب اسم، وهي: باب الميدان، وهو مخصص لدخول وخروج الجيش، وباب الصوالجة، وباب الخاصة، لا يدخل منه إلا خاصة الأمير، وباب الجبل لأنه مما يلي جبل المقطم، وباب الحرم، لا يدخل منه إلا خادم خصي أو حرمة، وباب الدرمون وقد سُمي على اسم الحاجب الذي كان يجلس عنده، وهو أسود عظيم الخلقة يتقلَّد جنايات الغلمان السودان الرجالة فقط، وباب دعناج لأنه كان يجلس عنده حاجب يدعى بهذا الاسم، وباب الساج لأنه مصنوع من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان في الشارع الأعظم، ويوصل إلى جامع ابن طولون، وعُرف هذا الباب أيضاً بباب السباع، لأنه كان عليه صورة سبعين من جبس، وكان الطريق الذي يخرج منه ابن طولون ويعرج منه إلى القصر واسعاً، فقطعه ابن طولون بحائط وبنى فيه ثلاثة أبواب كبيرة. وكانت الدروب متصلة كلها، واحد إلى جانب واحد. وكان

(١) العيار، الكثير المجيء والذهاب، ولعل المقصود هنا المكثرين من المساومة في البيع والشراء. البلوي: ص٥٣ هامش رقم١.

(٢) الفاميين: الفامي بائع الفوم أي الثوم والحنطة وسائر الحبوب التي تخبز.

(٣) البلوي: ص٥٢ ـ ٥٤.

(٤) الصوالجة جمع صولجان وهو المحجن.

أحمد بن طولون إذا ركب لعيد أو لغيره يخرج عسكره معه متكاثف الخروج بغير زحمة، ثم يخرج هو من الباب الأوسط بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس. وكانت الأبواب المذكورة تفتح في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة، وباستثناء هذه الأيام لا تفتح إلا بترتيب في أوقات معينة. وكان له في قصره مجلس يُشرف منه على عرض الجيش، وينظر من أعلاه من يدخل ويخرج يوم الصدقة. وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع. وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم في حوائجهم، وكان يشرف منه على البحر ـ النيل ـ وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلي ذلك[1].

بناء الجامع: كان ابن طولون يُصلي الجمعة في المسجد القديم الملاصق للشرطة، فلما ضاق عليه، بنى الجامع الجديد في جبل يشكر بما أفاء الله عليه من المال الذي وجده فوق الجبل في المكان المعروف بتنور فرعون، كما بنى منه العين المعروفة بعين أُبيّ بن خليد. وتولى رجل نصراني حاذق في الهندسة بناء الجامع والعين في عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٧م)، وبعد أن فرغ من بنائه في (رمضان ٢٦٥هـ/ أذار ٨٧٩م) بيَّضه وخلَّقه وعلَّق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال، وفرش فيه الحصر، وحمل إليه صناديق المصاحف، ونقل إليه القرَّاء والفقهاء[2].

ويُروى أن أحمد بن طولون قال: «أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي. فقيل له: يُبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوي النار إلى السقف، ولا يُجعل فيه أساطين رخام، فإنه لا صبر لها على النار. فبناه هذا البناء، وعمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة، وبناه على بناء جامع سامراء، وكذلك المنارة، وعلَّق فيه سلاسل النحاس المفرغة، والقناديل المحكمة، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية[3].

تحصين الجبهة الداخلية

تأسيس الجيش: أدرك أحمد بن طولون أهمية دور الجيش في تحقيق مشروعاته، لذلك عمل منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر على تأسيس جيش مدرب يدين له بالولاء ويعتمد عليه، ويكون أداته في تحقيق أهدافه وصيانة استقلاله. وقد تجلَّت

(١) البلوي: ص٥٤ ـ ٥٦.

(٢) المقريزي: جـ٤ ص٣٨، ٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٠.

رغبته في تأسيس قوة عسكرية خاصة به منذ أن رأى حرس أحمد بن المدبر الخاص، فأحب أن يختص به لنفسه من دون غيره. وظلَّت هذه الرغبة تراوده، غير أن خشيته من إثارة سخط الخلافة وارتيابها في نواياه، وهو لا يزال في بداية حياته السياسية، بالإضافة إلى حاجته إلى المال الذي كان في يد ابن المدبر، وقد كفَّ يده عنه، وراح يراقب تحركاته ويوصلها إلى القيِّمين في بغداد؛ حالت من دون الإقدام على هذه الخطوة الجريئة، لكنه ظلَّ يترقَّب الفرص لاستغلالها، وقد جاءته الفرصة عندما ثار عيسى بن الشيخ الشيباني، عامل فلسطين والأردن، ضد الخلافة العباسية مستغلاً اضطراب أوضاعها وضعف إمكاناتها، فنقض طاعتها واستولى على دمشق، وقطع الخراج عن بغداد وطمع في أموال مصر التي كات تُحمل إليها، فاستولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كان قد أرسلها ابن المدبر، ثم هداه تفكيره إلى الاستيلاء على مصر نفسها، حتى إذا توفي الخليفة المهتدي وخلفه الخليفة المعتمد، تخلَّف عن البيعة اعتداداً بقوته، ولم يدع له على المنابر في الأراضي التي يسيطر عليها.

وتوافقت توجهات الخلافة في استرداد هيبتها مع رغبة أحمد بن طولون في وقف هذا التيار المندفع إلى مصر من بلاد الشام، فكتب المعتمد إليه أن يساعده في القضاء على هذه الثورة، وكانت فرصة استغلها والي مصر، فاستأذن بالإكثار من الجند وتكوين جيش قوي، فأذن له الخليفة، وكتب إلى ابن المدبر يأمره بأن يمده بحاجته من المال.

وتجهَّز أحمد بن طولون لتنفيذ أمر الخليفة، لكن هذا خشي أن يؤدي تدخل والي مصر على هذا النحو إلى إعلاء شأنه على حساب الخلافة، فطلب منه أن يتوقف عن استعداداته، وعهد بهذه المهمة إلى أماجور.

ويبدو أن محاولة أحمد بن طولون لتأسيس قوة عسكرية خاصة به كانت من القوة بحيث أفزعت الخلافة، فحاولت أن تُبعد ابن طولون عن مصر نهائياً، لكن هذه المحاولة فشلت بسبب تمكُّن ابن طولون من مصر بعد أن تخلَّص من ابن المدبر، وبدأ فعلاً في تأسيس جيش خاص به، واستفاد من التجربة التي عاشها في بغداد من غلبة الترك واستبدادهم، فخشي أن يغلب على الجيش عنصر واحد يستبد بالأمر ويُوجِّه أمور الدولة لصالحه، لذلك لم يتخذ جنده من عشيرته الأتراك حتى لا تنتقل الفتن والدسائس إلى مصر، كما أنه استبعد حصر الجيش كله بالعرب الذين استقروا في مصر منذ الفتح الإسلامي. فهو لم يشأ أن يُكرِّر تجربة الأغالبة الذين اعتمدوا على العنصر العربي حتى امتلأ تاريخهم بالصراعات المريرة، كما أن هذا العنصر

فَقَدَ ميزته العسكرية منذ أن حرمه المعتصم من العطاء، فاضطر العرب إلى النزوح إلى الريف وعملوا بالزراعة.

من أجل ذلك قرّر أحمد بن طولون تنويع عناصر جيشه من الأتراك والسودانيين والعرب، فاستخدم أربعة وعشرين ألفاً من الأتراك، وأربعين ألفاً من السودانيين وسبعة آلاف من العرب وبقية المائة ألف الذي تألف منها جيشه من الأجناس الأخرى، ولا ندري ما إذا كان قد أشرك في جيشه هذا أبناء البلاد الأصليين.

تتمثَّل هذه العناصر المختلفة في هيكل القطائع العمراني حيث اختص كل عنصر بقطيعة مستقلة. وبهذا يكون ابن طولون قد ضمن ألا يغلب على الجيش عنصر واحد بعينه فيستبدَّ به، وضمن القدرة على تأليب فريق على آخر عند الضرورة، وأن يكونوا جميعاً طوع أوامره.

وبالغ أحمد بن طولون في استكثار عديد جيشه وتدعيمه، تُحفِّزه المؤامرات والدسائس والفتن التي كانت تُحاك ضده في عاصمة الخلافة، فبلغ عديده مائة ألف مقاتل، كما ذكرنا، بدليل أن رجاله في بغداد كانوا يخوِّنون القادة الذين تُحرِّضهم الخلافة على حربه بقولهم: «إنه لا يُرجى قفول من حارب مائة ألف عنان»[1] وأشار ابن طولون في كتابه الشهير الذي أرسله إلى المُوفَّق إلى هذه الحقيقة بقوله: «ليس مثل الأمير أيده الله في أصالة رأيه وحزمه وتدبيره ونظره في عواقب أموره قصد المائة ألف عنان هي عدته فجعلها عليه»[2].

وسيطر أحمد بن طولون على هذا الجيش الضخم من واقع سياسة مدروسة ومرسومة، فقد جعل ضباطه من الأتراك المقربين إليه. وكان هذا الجيش على استعداد دائم لتنفيذ ما يُطلب منه، وقد شُغل أفراده بالتدريب الشاق وإخماد الفتن والفتوح، وأتاح لهم جني الثروات واكتساب الجاه، ووفَّر لهم أسباب الراحة، وكان يؤثرهم على نفسه «هؤلاء الغلمان فهم عدتي وينتسبون إليّ انتساب الأبناء إلى الآباء... فأنا أوثرهم بما يحبون، وارتفع أنا عنه، كما أنهم يؤثرونني في أوقات التضايق على نفوسهم، فيبذلون فيَّ مهجهم دون مهجتي»[3]. لذلك كان يغدق عليهم بسخاء، ويدفع أعطياتهم في أوقاتها. ولم تحدث في أيامه أية ثورة تُنسب إلى التخلف في الفوز بالأجور، الأمر الذي ألفه المعاصرون له، إنما كان في بعض الأحيان يمنح راتب سنة منحة خالصة لهم «فتكون أيديهم وقلوبهم قوية»[4]

---

(١) البلوي: ص٩٥.
(٢) اين سعيد: ص٩١.
(٣) البلوي: ص٣٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص١١١. ابن سعيد: ص٨٢.

واعتنى أحمد بن طولون بالأسطول البحري الذي جاء تأسيسه متأخراً عن تأسيس الجيش البري. ولم تتضح الحاجة الماسة إلى الأسطول إلا بعد أن توسَّع ابن طولون في بلاد الشام واضطر إلى حماية ثغوره من هجمات البيزنطيين بالإضافة إلى المحافظة على الطريق البحري الذي يربط الشام بمصر. وازدادت عنايته بالأسطول البحري حين اشتدت رغبة المُوفَّق في انتزاع مصر منه، فخشي أن يطأه من ناحية النيل، لذلك شرع في بناء حصن الجزيرة والإكثار من بناءَ السفن[1]. وكان شديد الإحساس بقيمة الأسطول لاستكمال استعداده العسكري، وقد ضمَّ مائة مركب كبير ومائة مركب عسكري سوى العلابيات والحمائم والعشاريات والسناديل وقوارب الخدمة[2].

كان لهذا الجيش الذي أسَّسه أحمد بن طولون الدور الفعَّال في فرض الوجود الطولوني وتدعيم الدولة والدفاع عن مكتسباتها بالتصدي لكافة الصعوبات التي واجهتها داخلياً وخارجياً، كما كان عامل ضغط على الخلافة العباسية، وأدّى دوراً في التوسع الإقليمي، وجنَّب أفراده الصراعات الداخلية.

إصلاح الاقتصاد: كان أحمد بن طولون بحاجة إلى المال لتنفيذ مشروعاته في مصر والتمكين لنفسه فيها، واضطرته هذه الحاجة إلى إجراء إصلاحات اقتصادية للسيطرة على موارد البلاد وتنميتها من واقع ضبط الخراج وتحسين الإنتاج.

ففيما يتعلق بضبط الخراج، فالمعروف أن أوضاع مصر الاقتصادية كانت قبل قدوم أحمد بن طولون إلى مصر في غاية السوء، وقد بدأت دلائل الاضطراب الاقتصادي منذ عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، عندما أمر بأن يُرسل الولاة إلى العاصمة قدراً معلوماً من الخراج، وأهمل في الوقت نفسه مراقبتهم، فاندفع هؤلاء في فرض ضرائب جديدة على السكان واشتطوا في جبايتها، ثم دخل الإقطاع التركي في العصر العباسي الثاني من خلال اقتسام الولايات بين القادة الأتراك، وقد حملوا معهم سياسة ضريبية وزراعية متعسفة بهدف مضاعفة الخراج والحصول على الأموال بشتى الطرق.

وعندما آل الخراج إلى ابن المدبر زاد الضرائب أربعة أضعاف عما كان عليه. ففرض ضريبة على الكلأ، المرعى، وعلى المصايد، وعلى أشجار النخيل، والسنط، واللبخ، واحتكر مادة النطرون، فانهارت بذلك الحياة الاقتصادية، وتدهور الإنتاج، وأضحت البلاد على شفا الإفلاس[3].

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص١٦٤.
(٢) البلوي: ص٨٧.
(٣) اين سعيد: ص٨٥.

وكان على أحمد بن طولون أن يُقوِّم الأوضاع الاقتصادية حتى ينتشل البلاد من عثرتها ويبني اقتصاداً سليماً. وكانت خطوته الأولى في هذا السبيل السيطرة على الخراج، فخاض من أجل ذلك حرباً مع ابن المدبر لاقصائه عن الخراج، ونجح في ذلك. فجعل ديوان الخراج خاضعاً له خضوعاً مباشراً ومطلقاً، وأضحى أبو أيوب عامل الخراج الجديد خاضعاً له. وعيَّن موظفين في الإدارة المالية يثق بهم ويدينون له بالطاعة والولاء، كان من بينهم عبد الله بن دشومة أمين الخراج، وجعل مولاه نعيماً عيناً ورقيباً على تصرفاته، وعهد إلى سليمان بن ثابت بإدارة الأملاك والضياع والإشراف عليها. وعزل من اشتهر بالفساد، وفرض رقابة صارمة على موظفي هذا الديوان، ووضع حداً لنهبهم وسلبهم بحيث لم يعد باستطاعتهم أن يفرضوا ما طاب لهم من ضرائب من دون رقيب، على نحو ما كانوا يفعلون. وحظَّر الارتفاق على العمال[١]، وكان تدبيره هذا من أنجح الخطوات التي اتخذها لضبط أوضاع البلاد وكفّ أيدي العابثين عن التلاعب[٢].

وعمد أحمد بن طولون إلى إصلاح العملة، فسكَّ الدينار الطولوني الجديد الذي امتاز بثقل وزنه وخلوه من الغش، الأمر الذي أعاد الثقة المالية والطمأنينة إلى السوق التي هي من ركائز الاستقلال والرخاء الاقتصادي.

وكان اعتماده على الخراج بوصفه المورد الضريبي الأول، واعتقد أنه لو أحسن توزيعه وضبطه وجبايته، لأضحى من أهم الموارد المالية في البلاد، لذلك نراه منذ أن بدأ رقابته على المالية العامة «يرغب بنفسه عن أدناس المعاون»[٣] وألغى الجبايات الظالمة القديمة التي لم تتجاوز حصيلتها مائة ألف دينار في العام[٤]، كما ألغى ضريبة المراعي والمصايد والأخشاب، وأباح للناس استخدام النطرون. فارتفع خراج مصر نتيجة هذه الإصلاحات فبلغ رقماً لم يبلغه من قبل، فقد أصبح نحواً من أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار[٥].

وفيما يتعلق بتحسين الإنتاج، فقد انحصرت إصلاحاته بمضاعفته في الميادين الزراعية والتجارية والصناعية. ففي الميدان الزراعي عمل على حماية الفلاح والمنتج، وبثَّ الطمأنينة والاستقرار في نفوسهما من خلال ما أجراه من إصلاحات إدارية قضت على الفتن الداخلية. وحمى الفلاح من جشع العمال وطمعهم، ووفَّر له الأرض الزراعية وحاجته من الماء، فأصلح أقنية الري، وحفر الجديد منها، كما

(١) ابن سعيد: ص٨٥. (٢) محمود: ص٥١.
(٣) ابن سعيد: ص٨٥.
(٤) المقريزي: الخطط المقريزية: جـ٢ ص١٢٤. (٥) ابن سعيد: ص١٣٢.

أصلح السدود الخربة، ومنع ممارسات متعهدي الضرائب على الفلاحين، وحظَّر على الموظفين قبول الهدايا والمساعدات، فتحسَّنت أوضاع مصر الزراعية وتضاعف الدخل الزراعي، ودخلت الدولة في ميادين الإنتاج الزراعي كمساهم. واستولى أحمد بن طولون على الأراضي الزراعية التي تركها أصحابها، وتولى زراعتها بنفسه، كما عمد إلى استغلال الأملاك التي كانت لصاحب إقطاع مصر، وكان يُرسل إلى سكانها الأصليين نصيباً من خراجها، وكان يُشرف على هذه الأراضي ديوان خاص اسمه ديوان الأملاك عهد به إلى سليمان بن ثابت[١].

واهتم أحمد بن طولون بإصلاح الوضع التجاري ليعيد إلى التجارة الثقة والحيوية، وإذ لم يحتكر التجارة ولا المساهمة فيها إلا أن إصلاحاته هدفت إلى إصلاح العملة ليعيد الثقة إليها ما أدى إلى ارتفاع الميزان التجاري، واستعاد التجار الثقة بالاقتصاد المصري، وأقبلوا على الأسواق. والمعروف أن أموال مصر التي كانت تُرسل إلى العراق أضحت تُصرف في البلاد، فتحسَّن وضع الجند والموظفين والغلمان، وأضحت مصر مركزاً لنشاط اقتصادي كبير[٢]. وضرب أحمد بن طولون نطاقاً حول حدود مصر لحماية اقتصادها «فلا تتسرَّب الكتب ولا نفيس الأمتعة»[٣] إلا بإذنه. وشمل الإصلاح الصناعي تشجيع صناعة النسيج في تنيس والإسكندرية والبهنسا والأشمونين ودمياط وإخميم، كما راجت صناعة الأسلحة، وعمرت دور الصناعة فساهمت في حركة التصنيع.

تأمَّن لأحمد بن طولون نتيجة هذه الإصلاحات أموال طائلة حيث بلغ الخراج وحده أربعة آلاف ألف دينار مع رخاء الأسعار[٤] كانت معيناً له في خطواته نحو الاستقلال، وأعانته على شراء الذمم الضعيفة في بغداد، واستقطاب القادة والموظفين، ومكَّنته من شراء العبيد والسلاح والإكثار من الجند والبناء، ومتابعة الجهاد في بلاد الشام، والإغداق على سكان البلاد.

(١) محمود: ص٥٣. (٢) المرجع نفسه: ص٥٤.
(٣) ابن سعيد: ص١١٤. (٤) المقريزي: جـ١ ص١٨٦.

الفَصْلُ الثَّالِث

أحمد بن طولون مؤسس الإمارة الطولونية

٢٥٤ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٨ ـ ٨٨٤م

الأوضاع الخارجية

التمدد الطولوني باتجاه بلاد الشام

دوافع التمدد: يعود اهتمام أحمد بن طولون ببلاد الشام إلى مرحلة الشباب، وتحديداً إلى الأيام التي قضاها في ثغر طرسوس، وقد أثَّرت إقامته في هذا الثغر واشتراكه في الجهاد والغزو، وتقديره للدور الذي تقوم به الثغور في الدفاع عن عمق الداخل الإسلامي؛ على طموحه وتكوينه الشخصي ومستقبله السياسي، ونمَّت عنده الطموح، وجيَّشت عواطفه الكامنة في نفسه، وفتَّحت آماله لتحقيق أول عمل في تاريخ الخلافة العباسية بعامة وفي تاريخ مصر بخاصة ألا وهو تأسيس إمارة تركية مستقلة في مصر وبلاد الشام.

ـ أتاحت ثورة عيسى بن الشيخ في فلسطين والأردن الفرصة لأحمد بن طولون للتدخل في شؤون بلاد الشام من واقع تكليف الخليفة المعتمد له بإخماد ثورته. وإذا كانت جهوده لم تثمر إلا أن هذه الحركة لفتت نظره إلى أهمية بلاد الشام ومدى تأثيرها السياسي والعسكري على مشروعاته في مصر، كما دفعته إلى تكوين جيش خاص به لاستخدامه في التوسع.

ـ رفض أحمد بن طولون، بعد أن أسَّس إمارته في مصر واستقلَّ بها عن الخلافة العباسية، أن يقبع في هذا البلد، فتمدَّد غرباً إلى برقة، وكان عليه أن يتوسَّع باتجاه الشرق في بلاد الشام، والوصول إلى حدود العراق وآسيا الصغرى، وقد فرضت عليه الضرورات السياسية والعسكرية من واقع التدخل في شؤون الخلافة لخدمة مصالحه والدفاع عن أمنه في مصر؛ أن يتطلع إلى بلاد الشام المتاخمة والمتصلة بكل من العراق ومصر وآسيا الصغرى. والمعروف أنه على مدار التاريخ عُدَّت بلاد الشام مفتاح مصر، ولهذا عمل أحمد بن طولون على ضمِّها واتخاذها خط دفاعه

الأول عن سلطته في مصر. وبذلك يكون قد مهَّد لمن جاء بعده من الأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك وغيرهم.

ـ أهمية بلاد الشام الاقتصادية بالنسبة لمصر وحاجتها لمواردها الأولية كالأخشاب لصناعة السفن، بالإضافة إلى الموارد الأخرى التي يحتاجها أحمد بن طولون في مشروعه التوسعي.

ـ أدرك أحمد بن طولون أن أصحاب النفوذ في بغداد لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تطلعاته نحو بلاد الشام، لهذا رأى من الضروري أن يكون قريباً من مركز الخلافة ومسرح الأحداث يشارك في اتخاذ القرارات ويقوم بدور بارز في الحياة السياسية، ما يخدم هدفه، ولهذا نراه يقبل طلب الخليفة لقمع ثورة ابن الشيخ في وقت كان يفتقر إلى التجهيزات الضرورية، وتنقصه القوة العسكرية.

ـ رأى أحمد بن طولون أن مصدر الخطر الذي يُهدِّد مصر سوف يأتي من بلاد الشام، سواء أكان من جانب البيزنطيين في الشمال أو من جانب الخلافة العباسية في الشرق أو من جانب بلاد الشام نفسها التي عمَّتها الحركات المعادية للخلافة العباسية وهي محط أطماع كل ثائر. من أجل ذلك، كان عليه أن يعمل منذ الأيام الأولى لحكمه على حماية دولته ومكتسباته والصمود في وجه الأخطار المنبثقة من المصادر أعلاه، لذلك دخل في صراع مع القوى المسيطرة، والمجاورة لهذه البلاد.

ـ دفع عامل الجهاد الديني أحمد بن طولون إلى ضمِّ بلاد الشام تمهيداً للسيطرة على ثغورها والدفاع عنها أمام توثب البيزنطيين، ورأى أن تقويم كل حركة إسلامية مرتبط بمدى تبنِّيها لفكرة الجهاد الديني، وهو المعيار السليم لكسب تأييد المسلمين بعامة. وكانت هذه الغاية أجلّ ما يطلبه ابن طولون، وأفضل ما يصبو إليه، كما أن تبنِّيه لمبدأ الجهاد ينم عن شخصيته الجهادية ومحاولته استغلال شعور المسلمين المرتبط بسمة العصر الذي نشأ فيه حيث عرف رغبات الناس وتطلعاتهم، وتبنَّى أحلامهم وقيمهم، فاكتسب بذلك عطفهم وتعاطفهم لهذه الفكرة الدينية المقدسة، وقدَّمت له الدعم في طلب المتطوعين الذين انضموا إلى لوائه، إذ ما إن وصل إلى فلسطين حتى جاءته الوفود الكثيرة منهم[1].

ـ ضعف الخلافة العباسية بعد أن أنهكتها الثورات الداخلية وبخاصة ثورة الزنج، وأظهرتها بمظهر العاجز أمام حكام الأطراف الذين أعلنوا العصيان والتمرد.

ـ الضغط البيزنطي المتواصل على مناطق الثغور الإسلامية وبخاصة بعد خلافة المتوكل، وعجز الخلافة العباسية عن التصدي للهجمات البيزنطية حيث سقط، في

(١) ابن سعيد: ص١١٦. البلوي: ص٩٢.

عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٧م)، حصن لؤلؤة المهم عسكرياً، وبدا واضحاً أن الأمور في منطقة الثغور لن تستقر إلا في ظل حكم شخص مثل أحمد بن طولون.

ـ ظهور قوة أحمد بن طولون كأقوى قوة في المنطقة حيث أضحى تحت سلطته جيش بلغ تعداده مائة ألف مقاتل.

ـ بعد أن سيطر أحمد بن طولون على برقة وأمَّن حدوده الغربية، توجَّه بالضرورة إلى الشرق وهي المنطقة المفتوحة أمامه والمجال الحيوي لدولته، إذ إن حدوده الجنوبية كانت مضطربة بفعل ضربات النوبيين الذين شكَّلوا مصدر قلق وإزعاج له، ولم يكن أمامه لوقف غاراتهم سوى اتباع أسلوب الدفاع.

ـ أراد أحمد بن طولون أن يُشبع رغبات جنده ويشغلهم بالفتوح حتى لا تتصادم أطماعهم ويُسبِّبون له المشكلات، والمعروف أن جيشه تكوَّن من عناصر متنوعة الانتماء العنصري، ومتنافرة.

والواقع أنه كان على أحمد بن طولون، وهو يُحقِّق استقلاله بمصر، أن يتوج سلطته بضم بلاد الشام وبخاصة دمشق بفعل مركزها السياسي والعسكري المهم في الدولة الإسلامية بحيث يتخذها مقراً وقاعدة انطلاق ضد المؤامرات التي كانت تُحاك ضده في بغداد، بالإضافة إلى القيام بحملات عسكرية ضد البيزنطيين.

ضمُّ بلاد الشام: اضطرب أمر الثغور الشامية إما بفعل النزاعات بين الولاة الذين كانت تُعيِّنهم الخلافة أو بسبب مقتل هؤلاء قبل وصولهم إليها لتسلمها، بالإضافة إلى أنهم لم يقيموا فيها وأنابوا عنهم من يتولى إدارتها ويجبي خراجها ويغزو بأهلها، كان من بينهم أحمد بن طولون الذي أناب عنه من يحصِّل خراجها ما أثار المُوفَّق الذي كان في نزاع معه، فتشاور مع أخيه الخليفة المعتمد واتفقا على تعيين محمد بن هارون التغلبي، وكان يتولى الموصل، غير أن أصحاب مساور الشاري الخارجي اعترضوه في الطريق على شاطئ دجلة، فقبضوا عليه وقتلوه، وذلك في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م)[١]، فاختار الخليفة محمد بن علي بن يحيى بدلاً منه وقلَّده الثغور، ونافسه سيما الطويل التركي المتسلط على الثغور، وقد حاول السيطرة على انطاكية، وعندما أراد دخول طرسوس تصدَّى له محمد بن علي ومنعه من ذلك، فألَّب أنصاره فيها ودعاهم إلى الثورة عليه، فما كان منهم إلا أن وثبوا عليه وقتلوه، فبلغ ذلك المُوفَّق فاشتدَّ غيظه وحنقه على سيما الطويل، وقلَّد الثغور أرخوز بن أولغ طرخان التركي[٢]، وأمره أن يقضي على سيما الطويل. وعندما وصل إلى مقر عمله تشاغل

(١) الطبري: ج٩ ص٥٠٨. ابن سعيد: ص٨٩. البلوي: ص٨٩.
(٢) ابن سعيد ١١٦. البلوي: ص٩٠.

بملذاته، وكان غرّاً جاهلاً، أساء السيرة فيها واستولى على كل ما لاح له، وأخَّر الميرة والأرزاق عن سكان لؤلؤة، ففقدوا بذلك القدرة على الصمود في وجه هجمات البيزنطيين، فكتبوا إلى سكان طرسوس يشكون أمرهم ويتوعدون بتسليمها إلى البيزنطيين إذا لم تصل أُعطياتهم، فخشي سكان طرسوس من خطوة كهذه، فتبرعوا بالأموال وجمعوا خمسة عشر ألف دينار وحملوها إليهم بواسطة أرخوز لكي يقوم بتوزيعها عليهم، غير أنه أخذها لنفسه، ولما أبطأ هذا عنهم سلموا القلعة إلى البيزنطيين[١]. أثار هذا التصرف رد فعل عنيف في طرسوس لأن هذه القلعة كانت بمثابة شوكة في خاصرة البيزنطيين وقاعدة إسلامية متقدمة في الأراضي البيزنطية، لذلك ثاروا ضد أرخوز. واضطرب أمر الثغور ووضح عدوان البيزنطيين، وقد تغلَّبوا على قوة إسلامية مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل من أهل الثغور الشامية فقتلوهم إلا خمسمائة أو ستمائة، وأسروا قائدهم عبد الله بن رشيد بن كاوس، فاستاء الخليفة من ذلك ورأى من الأفضل إعادة تسليم المنطقة إلى أحمد بن طولون، فارتدت إليه ولاية الثغور مرة أخرى[٢]. وقد أسفر هذا عن نتائج بالغة الأهمية إذ وضح للسكان أن الثغور لن يحميها بشكل فعَّال إلا أحمد بن طولون، وأن جهاد البيزنطيين لن يتحقَّق إلا تحت رايته[٣].

وما حدث آنذاك من وفاة خصميه موسى بن بغا وأماجور والي الشام، وتعيين القادة الأتراك ابنه علي والياً على هذا البلد مكان والده وكان صبياً حيث تولى أحمد بن دوغباش تدبير أموره، بالإضافة إلى ازدياد وضع المُوفَّق حرجاً بفعل وقوعه تحت ضغط ثورة الزنج التي أنهكت قواه؛ أن أُتيح له استغلال الأوضاع المؤاتية ليثب على بلاد الشام ويضمها إلى مصر، فلم يعترف بولاية علي بن أماجور، وأرسل إليه كتاباً يُعزيه بأبيه ويخبره بأن الخليفة قد قلَّده الشام كله مضافاً إلى الثغور الشامية، وأنه قادم ليعلن الجهاد ضد البيزنطيين، ويطلب منه أن يقدم للجيش الطولوني ما يحتاج إليه من الميرة والعلف والتسهيلات الأخرى[٤]. ويُعدُّ مضمون الكتاب إشارة صريحة بأن ابن طولون أضحى صاحب الحق الشرعي في البلاد كلها، وفيه ما يشير صراحة إلى أوامر صدرت عنه بتهيئة الأمر لقواته المتقدمة بإعداد العلف والميرة والدعوة له على منابر البلاد. لم يكن أمام علي بن أماجور الضعيف إلا أن يستجيب لطلبه فأعلن الولاء والطاعة له ودعا له على المنابر[٥].

(١) الطبري: ج٩ ص٥١١. ابن سعيد: ص٩١.
(٢) الكندي: ص١٦٣.
(٣) محمود: ص٨٢.
(٤) البلوي: ص٩٢.
(٥) المصدر نفسه.

وقبل أن ينطلق أحمد بن طولون إلى بلاد الشام نظَّم شؤون دولته في مصر، فعيَّن ابنه العباس حاكماً عليها أثناء غيابه واختار كاتبه أحمد بن محمد الواسطي مستشاراً له وناصحاً، وأوصى ابنه بالسمع والطاعة والاقتداء به والامتثال لرأيه[1]، ثم خرج من القطائع في (شوال ٢٦٤هـ/حزيران ٨٧٨م) وعسكر في منية الأصبغ[2] قبل أن يتقدم إلى الرملة حيث وافاه عاملها محمد بن رافع، فقدَّم له الميرة والعلف وفروض الولاء والطاعة وخطب له على المنابر، فأبقاه ابن طولون في عمله[3]، وهذه سياسة درج عليها لاستقطاب الولاة والقوى المسيطرة، وتقريب أصحاب النفوذ، ما سيكون له أثر كبير بعدم تصديهم له إذا استثنينا سيما الطويل في أنطاكية ومازيان في طرسوس.

وأعلن والي مصر، أثناء توغله في فلسطين، أنه قدم للجهاد، فجاءته العساكر والمطوعة، فضمَّها إلى جيشه[4] وتقدم نحو دمشق، فخرج علي بن أماجور وأركان دولته لاستقباله والوفاء بحقه في الرئاسة[5]، وانضمُّوا إليه وأعدُّوا له الميرة، والعلف، كما خرج معهم أحمد بن وصيف التركي، وكان المهتدي قد نفاه إلى دمشق، فالتحق بابن طولون فحظي عنده وأضحى من أتباعه المخلصين.

ومكث أحمد بن طولون أياماً عدة في دمشق نظَّم خلالها أوضاعها الإدارية والعسكرية، ووضع يده على الأموال والخزائن، ودُعي له على منابرها وضمَّ جندها وقادتهم إلى جيشه[6]، وقبل أن يغادرها إلى حمص، عيَّن عليها أحمد بن دوغباش فاستقبله والي حمص عيسى الكرخي بالترحاب وبايعه، غير أنه عزله عنها بفعل سوء سيرته وشكوى الحمصيين من ظلمه، وولَّى يمن التركي بدلاً منه[7]، ويدل ذلك على حسن سياسة ابن طولون تجاه السكان واهتمامه بمطالبهم وكسب ودهم ودفعهم للوقوف إلى جانبه[8].

تقدم أحمد بن طولون بعد ذلك إلى حماة، فملكها وسار إلى حلب ودخلها، وراح يخطط للسيطرة الفعلية على الثغور وقد بات قريباً منها، وكان عليها طخشي بن يلبرد نائباً عنه، وكان هذا قد حسَّن وضع الثغور وحارب البيزنطيين وأجبرهم على

---

(١) البلوي: ص٩١. ابن سعيد: ص١١٦.
(٢) تقع شمالي القاهرة، وتُنسب إلى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الأموي.
(٣) البلوي: ص٩٢. الكندي: ص٢١٩.
(٤) المسعودي: ج٤ ص١٢٣. ابن سعيد ص١١٦.
(٥) البلوي: ص٩٢.
(٦) المسعودي: ج٤ ص١٢٣. ابن سعيد: ص١١٦.
(٧) البلوي: ص٩٣. (٨) زيود: ص٣٨.

طلب الصلح، لكن الصلح لم يكن إلا فرصة لالتقاط أنفاسهم، وقد أدرك ابن طولون ذلك، فأمر نائبه باليقظة والاستمرار بغزوهم.

الواقع أن أحمد بن طولون لم يتمكَّن من دخول منطقة الثغور بفعل تصدِّي سيما الطويل والي أنطاكية له، ورفضه دعوته إلى طاعته مقابل إقراره على ولايته، واضطر إلى حربه لإخضاعه، فتقدم إلى قنسرين والعواصم ثم توجّه إلى أنطاكية وحاصرها من جهتين، فنزل هو مع فرقة من عسكره على باب فارس في حين عسكر قائده لؤلؤ مع جنده على باب البحر[1]، وضربها بالمناجيق والحجارة والنفط؛ وطلب من سيما الطويل للمرة الأخيرة، قبل أن ينصرف، الدخول في طاعته، وإقامة الدعوة له، لكن هذا أصرَّ على رفضه مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي لأن سكان أنطاكية خذلوه بفعل سيرته السيئة فيهم وظلمه لهم وأخذه أموالهم بالباطل[2]، فوقع بين فكي الكماشة بين حصار ابن طولون من الخارج وعداء السكان في الداخل.

واقتحم أحمد بن طولون المدينة بعد أن اتصل به سكانها ليلاً وهيؤوا له سبيل الدخول. وجرى قتال مع قوات سيما الطويل، وأبلى هذا في القتال، فأحرق باب فارس ليشغل القوات الطولونية بالنار فيتمكَّن من النجاة بنفسه، فسقط الباب الحديد ودخلت منه القوات الطولونية، واصطدمت به، فدافع عن نفسه ساعة دفاعاً شديداً، وأمر أحمد بن طولون قواته بالإبقاء على حياته لكن حقد السكان عليه دفعهم إلى رميه بالحجارة من المنازل والمواقع فأصابه سهم فصرعه، فقُتل في المعركة، ولم يُعلم به، وبقي مطروحاً، واستأمن أصحابه وغلمانه، وابن طولون يسأل عنه ويبحث عن خبره، فما علم بمقتله حتى آخر النهار عندما تعرَّف عليه وصيف اللاني مولى القصيصيين[3] فاحتز رأسه وأتى به إلى ابن طولون، وعندما رآه قال: «قد علم الله جل اسمه أني كنت أحب لك غير هذا، فأبيت، فأنا بريء من دمك، والله ما أمرت بقتلك، ولقد نهيت عنه، فأحب الله جل ذكره فيك ما أحب فأمضاه» وكان ذلك في (محرم ٢٦٥هـ/أيلول ٨٧٨م)، وهذا دليل آخر على حسن سياسة أحمد بن طولون وتسامحه مع خصومه، وقبض على جميع ما كان لسيما الطويل من مال وعتاد، ونظَّم شؤون المدينة[4].

كان من الطبيعي بعد سقوط أنطاكية أن يتوجه أحمد بن طولون إلى بقية الثغور الشامية، فدخل المصيصة وأذنة وانتهى به المطاف في طرسوس المدينة المحبَّبة إلى

---

(١) البلوي: ص٩٥. (٢) المصدر نفسه.
(٣) القصيصيين، من أهل معرة النعمان، وهم من بني تنوخ.
(٤) البلوي: ص٩٦، ٩٧. المسعودي: ج٤ ص١٢٣ ـ ١٢٥.

قلبه، وكان عليها يازمان الخادم، فامتنع عن استقباله والترحيب به وأغلق الأبواب في وجهه[١]، ويبدو أن لذلك علاقة بموقف المُوفَّق المعادي لابن طولون وقد حرَّض يازمان ضده، وفي رواية أن ابن طولون دخل المدينة في جمع عظيم من دون الإشارة إلى معارضة يازمان وامتناعه[٢].

أقام أحمد بن طولون مدة في طرسوس وكان قد «عزم على المقام بها وملازمة الغزاة»، غير أن كثرة عدد جنده أدى إلى ارتفاع الأسعار في الثغر، وأصاب السكان ضائقة اقتصادية نتيجة ذلك، فاجتمعوا وطلبوا منه أن يقيم في عدد يسير أو يرحل، وتكلموا معه بلهجة الثورة، فاستجاب لهم وانصرف عنهم وعاد إلى الشام. وحتى يحفظ ماء وجهه وهيبة سكان الثغر أمام البيزنطيين عمد إلى الانسحاب وفق خطة ذكية فقال لأصحابه: «لتنهزموا من الطرسوسيين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصة العدو أن ابن طولون على بُعد صيته وكثرة عساكره لم يقدر على أهل طرسوس. وانهزم عنهم ليكون أهيب لهم في قلب العدو»[٣]، وعيَّن قبل خروجه طخشي بن يلبرد والياً على الثغر. وبلغ الامبراطور البيزنطي باسيل الأول ما كان من تصرف سكان طرسوس وموقفهم من ابن طولون، فازداد خشية، وعظمت هيبة هذا الثغر في قلبه[٤] بدليل أن هذا الامبراطور نقل صراعه مع المسلمين إلى جبهة الثغور الجزرية، فاندفع بجيشه حتى بلغ إقليم الفرات، واستولى على زبطرة وسميساط لكنه فشل أمام ملطية التي تُعد من المعاقل الهامة.

كان باستطاعة أحمد بن طولون أن يمضي في تحقيق غايته الجهادية إلى أبعد مدى، كما كان بإمكانه دخول بغداد نفسها وإنهاء نزاعه مع المُوفَّق بحد السيف، وكانت الظروف كلها مؤاتية لتحقيق ذلك، غير أن التطورات السياسية في مصر وخروج ابنه العباس عليه، والأخبار المزعجة التي وصلت إليه بالإضافة إلى موقف المُوفَّق منه؛ اضطرته إلى طي فكرة الجهاد مؤقتاً والعودة إلى القطائع ليقضي على الثورة، إلا أنه كان عليه أن يُؤمِّن أطراف إمارته في شمال شرقي بلاد الشام حيث بعض المتسلطين الذين رأى فيهم خطراً يُهدِّد بلاده ومكتسباته، لذلك قرّر ضرب هذه القوى، فأرسل جيشاً إلى الرقة بقيادة غلامه لؤلؤ، وجيشاً آخر إلى حرَّان بقيادة أحمد بن جيغويه، وكان عليها محمد بن أتامش. تقدم لؤلؤ إلى منطقة الرقة واستولى عليها وضمّها إلى الأملاك الطولونية محقّقاً بذلك حلم ابن طولون، فأضحت حدوده ملاصقة تماماً لحدود العراق، وجعل الرقة مقراً لحكمه الجديد في بلاد الشام ليكون

(١) المسعودي: جـ٤ ص١٢٥.
(٢) البلوي: ص٩٧.
(٣) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٥٤.
(٤) البلوي: ص٩٨.

على مقربة من بغداد، وتغلَّب أحمد بن جيغويه على محمد بن أتامش وقبض عليه وعلى أخيه موسى، ودخل حرَّان وضمَّها إلى الأملاك الطولونية[١].

ودخلت مدن ساحل بلاد الشام تحت حكم ابن طولون وأهمها طرابلس وعكا ويافا وذلك بالتزامن مع دخوله إلى دمشق. وحين تمَّ له الأمر طاف بالمدن الداخلية والثغور الساحلية، فحصَّن هذه الأخيرة، فأنفق على ترميمها وترميم حصن يافا مائتي ألف دينار.

وهكذا دخلت بلاد الشام ومدنها الساحلية في مرحلة جديدة في تاريخ علاقتها مع مصر، إذ أضحتا تابعتين لقيادة واحدة تقوم في وقت واحد بتحريك الجيوش والأساطيل وقيادتها وتنسيق الأعمال فيما بينها. وبدأ الأسطول الطولوني نشاطه انطلاقاً من قواعده في بلاد الشام، فهاجم جزر بحر إيجة ومدن اليونان، كما كلَّفت الخلافة أحمد بن طولون، على الرغم من العداء المستحكم بينهما، بمهمة الدفاع عن حدودها البرية المحاذية للبيزنطيين وبخاصة على جبهة الفرات في شمالي العراق التي هدَّدت بغداد نفسها.

وبعد أن اطمأن أحمد بن طولون على الوضع في بلاد الشام، عاد إلى مصر ليقضي على الخارجين على حكمه، ولكنه قبل أن يغادرها نظَّم أوضاعها الإدارية، فعيَّن حاجبه لؤلؤ الذي اشترك معه في السيطرة على البلاد حاكماً عاماً، فاتسع بذلك سلطانه وخطب له على منابرها بعد الخليفة وابن طولون وكتب اسمه على السكة وبخاصة بعد عام (٢٦٨هـ/ ٨٨١ ـ ٨٨٢م) عندما بدأ يفكر في الثورة على سيده[٢].

وترك أحمد بن طولون في بلاد الشام قوة عسكرية كبيرة لحفظ الأمن، ووضع حاميات عسكرية في كل من حرَّان والرقة ودمشق بإمرة لؤلؤ بهدف تثبيت مركزه الجديد والمحافظة على المنجزات المكتسبة.

الاضطرابات في بلاد الشام ضد الحكم الطولوني

توضَّحت بوادر الشقاق في عام (٢٦٩هـ/ ٨٨٢ ـ ٨٨٣م) بين أحمد بن طولون وغلامه لؤلؤ، الذي ولَّاه على حلب وقنسرين وديار مضر وحمص، ووثق به وأطلق يده في الثغور الشامية، وقاد هذا حركة تمرد بدافع عاملين:

الأول: مالي: فقد شدَّد ابن طولون على غلامه في جباية الضرائب، وكان عامل الخراج تابعاً مباشرة لابن طولون ويأتمر بأمره ما كبَّل يدي لؤلؤ، فأبدى سخطه واستولى على قسم من الخراج[٣]. ولما كان يعلم اهتمام سيده بالشؤون المالية

(١) البلوي: ص١٠١ ـ ١٠٦.
(٢) محمود: ص٨٤.
(٣) ابن سعيد: ص١٢٦. البلوي: ص٢٧٦.

وحرصه على المال العام؛ خشي أن يصبَّ جام غضبه عليه، وظنَّ أنه لن يغفر تصرفه هذا.

الثاني: سياسي: ويتعلق بتعيين أحمد بن طولون صهره محمد بن فتح بن خاقان والياً على ديار مضر من دون أن يستشير لؤلؤ[1].

والراجح أن المُوفَّق لم يؤد دوراً في هذا التمرد إنما استغله لضرب أحمد بن طولون من خلال محمد بن سليمان الكاتب، الذي حثَّ لؤلؤ على الانضمام إلى الموفَّق وإرسال الخراج إليه. وفشلت مساعي ابن طولون في إعادة غلامه إلى الطاعة. واستولى لؤلؤ على مليون دينار، ثم انحاز إلى المُوفَّق وانضمَّ إليه[2]. وبدا لبعض الوقت أن إنجازات ابن طولون في بلاد الشام على وشك الانهيار.

وهاجم لؤلؤ، أثناء ذهابه إلى العراق، بالس ونهبها، واستولى على قرقيسياء، بعد أن انتزعها من يد ابن صفوان العقيلي، وسلَّمها إلى أحمد بن مالك بن طوق[3].

نتيجة لهذا التطور السياسي، اضطر أحمد بن طولون للخروج إلى بلاد الشام لوضع حد لحركة غلامه لؤلؤ، وكان يأمل أن يلحق به قبل أن يدخل إلى العراق، لأن من شأن ذلك أن يُهدِّد كيان دولته، لذلك جدَّ في السير حتى لا تفوته هذه الفرصة وبخاصة أن المُوفَّق كان على وشك القضاء على ثورة الزنج وأضحى بوسعه استعمال ورقة لؤلؤ للضغط عليه، ولما وصل إلى دمشق كان لؤلؤ قد فرَّ إلى العراق وانضم إلى المُوفَّق[4].

استغل أحمد بن طولون وجوده في دمشق ليعيد سيطرته على مناطق الثغور، والمعروف أن يازمان خادم الفتح بن خاقان قد استبدَّ بها بتحريض من المُوفَّق وأعلن التمرد على الطولونيين، وراح يستقطب الأنصار ويُضيِّق على السكان، فخشي ابن طولون سوء العاقبة وطَمَع البيزنطيين، فرأى أن يلجأ إلى السياسة لإقناع يازمان بالعودة إلى طاعته، وكلَّف في الوقت نفسه نائبه خلف الفرغاني، وكان طخشي قد استخلفه قبل وفاته، وأقرَّه ابن طولون، القيام بغزو البيزنطيين في خطوة لاستقطاب السكان[5].

رفض يازمان دعوة أحمد بن طولون، فكلَّف هذا خلف الفرغاني القبض عليه، غير أن أنصاره في طرسوس طردوا الفرغاني وولوا عليهم يازمان وتركوا الدعاء لابن طولون على المنابر ولعنوه، وعندما علم بذلك خرج بنفسه لتأديب الثائر، ولما وصل

(١) ابن سعيد: ص١٢٦. البلوي: ص٢٧٣. (٢) البلوي: ص٢٧٦.
(٣) ابن الأثير: جـ٦ ص٤١٥. (٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص٤١٧. الكندي: ص١٦٨، ١٧٠، ١٧١. البلوي: ص٣١٠، ٣١١.

إلى المصيصة أرسل وجوه من معه إلى يازمان يدعوه مجدداً إلى الطاعة، في خطوة سياسية أخيرة مقابل منحه الأمان، ولكن يازمان رفض الدعوة أيضاً وأصرَّ على المقاومة، وتحصَّن في أذنة، فحاصره ابن طولون وقد عسكر في مرج المدينة في (جمادى الآخرة ٢٧٠هـ/ كانون الأول ٨٨٣م)، فعمد يازمان إلى تفجير مياه نهر البردان، وكان الفصل شتاء والبرد شديداً والأمطار غزيرة والثلوج كثيفة، فكاد الجيش أن يغرق بعد أن غرق المرج، واضطر ابن طولون أن يرحل عن المدينة في جنح الليل من دون أن يحقق نجاحاً، فأقام أياماً في المصيصة قبل أن يعود إلى دمشق عن طريق حمص، ثم إلى مصر، وعيَّن قبل عودته إلى مصر عبد الله بن الفتح والياً على حلب[1].

وهكذا فشل أحمد بن طولون في المحافظة على مكتسباته كاملة في بلاد الشام، ولعل لذلك علاقة بمدى توتر علاقته بالمُوفَّق.

الصراع بين أحمد بن طولون وبين أبي أحمد المُوفَّق طلحة

لعل المشكلة الكبيرة التي واجهها أحمد بن طولون وكادت تقضي على منجزاته وآماله، علاقته مع الأمير أبي أحمد الموفَّق طلحة أخي الخليفة المعتمد، الذي سيطر على الشؤون العامة في دار الخلافة، وقاد حركة إصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية وتقوية قبضتها على ولاياتها ومن بينها مصر، بالإضافة إلى حرصه على أن تبقى مع بلاد الشام خالصتين له من دون منافس بفعل خيراتهما ونظراً لأهميتهما السياسية والاقتصادية، لذلك سعى جاداً إلى القضاء على الإمارة الطولونية التي انفصلت عن الإدارة المركزية في بغداد واستقلَّت بحكم مصر وبدأت تتطلع نحو بلاد الشام. ومن جهته، نهض أحمد بن طولون للدفاع عن حقوقه المكتسبة في مصر، فتصدَّى لأكبر قوة في الدولة العباسية، ولا نقصد في هذا المقام قوة الخليفة الذي ربطته به صلات ومصالح مشتركة وإنما نقصد قوة المُوفَّق طلحة، وظهر التنافس والنزاع واضحاً بينهما.

ظهر المُوفَّق على المسرح السياسي في وقت كانت فيه الخلافة العباسية تواجه أزمات حادة هدَّدت كيانها. فقد اشتعلت ثورة الزنج للمرة الأولى في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) في عهد الخليفة المهتدي، واشتدَّت في عهد الخليفة المعتمد الذي لم يكن بالرجل القادر على التصدِّي لها ومواجهة الأحداث المفجعة التي تسبَّبت بها ونتجت عنها، لذلك استدعى أخاه المُوفَّق من مكة، وكان قد نُفي إليها من قبل، وقد توسَّم

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٤١٧. الكندي: ص١٦٨، ١٧٠، ١٧١. البلوي: ص٣١٠، ٣١١. ابن سعيد: ص٢٢٥.

فيه البأس والحزم، وكان أحوج ما يكون إليه في أزمته تلك، فأراد أن يشركه في الأمر وأن يستعين به في التغلب على الأزمات.

وحدث أن أقدم المعتمد في عام (٢٥٧هـ/ ٨٧١م) على تقسيم الدولة إلى قسمين: غربي وشرقي، فولّى ابنه جعفر، المفوض، على القسم الأول ويشمل مصر والمغرب، وعيّن موسى بن بغا أتابكاً له بفعل صغر سنه، واختار أخاه المُوفَّق والياً على القسم الثاني ويشمل الكوفة والحجاز والحرمين واليمن وبغداد وواسط والبصرة والأهواز[١].

ويبدو أن المُوفَّق لم يقنع بتلك القسمة ولا بالعقد الذي علّقه أخوه في جوف الكعبة، والذي يُلزم كلاً من ابنه وأخيه بألا ينظر في عمل صاحبه وأن تكون النفقة على كل من خراج القسم الذي هو عليه[٢]، وضغط على الخليفة، فعيّنه ولياً للعهد بعد المفوض ودُعي له على منابر العالم الإسلامي، وعلا قدره عندما أضحت له الكلمة الأولى في الدولة، في الوقت الذي كان المعتمد مستضعفاً، فكان وأخوه كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمّي بإمرة المؤمنين، وللمُوفَّق الأمر والنهي وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الأمراء[٣].

وهكذا أُطلقت يد المُوفَّق في إدارة شؤون الدولة، فانصرف للقضاء على ثورة الزنج، وتبنّى مبدأ الإصلاح السياسي والاقتصادي في خطوة لإعادة القوة إلى الدولة العباسية، والهيبة الفعلية للخلافة، وراح يعمل جاهداً في القضاء على ظاهرة الصراع التي كانت تتحكم وتسيطر على العلاقات بين السلطة الروحية، سلطة الخلافة، وبين السلطة الزمنية، سلطة العسكريين والقادة الأتراك، بالإضافة إلى إنهاء ظاهرة التمزق التي كانت سائدة وأفسدت العلاقة بين أفراد البيت العباسي خلال سنوات الانهيار[٤].

انطلاقاً من تلك التطلعات السياسية كان على المُوفَّق أن يتصدّى لطموح أحمد بن طولون الذي استقلّ بحكم مصر، وبدأ يتطلع إلى بلاد الشام ليضع يده على أهم مصرين واستغلال خيراتهما الاقتصادية التي كان المُوفَّق بأمس الحاجة إليها بعد الدمار الذي أحدثته ثورة الزنج في القسم الشرقي من الدولة العباسية، الواقع تحت إشرافه وما تبع ذلك من تراجع موارده المالية بعد أن استولى الثائرون على قسم من هذه الأموال. وخشي ابن طولون أن يُنهب المال كله أثناء حمله إلى بغداد، ورأى بعض مستشاريه أن يتربص بالحمل لينظر كيف تكون الأمور ولمن يصبح الأمر[٥].

(١) الطبري: جـ٩ ص٤٧٦. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥٤.
(٢) ابن سعيد: ص٨٧.
(٣) ابن الطقطقا: ص٢٥٠.
(٤) محمود والشريف ص٣٥٤.
(٥) البلوي: ص٧٩.

وهكذا تتحدث المصادر عن بداية الصراع على أنه حاجة المُوفَّق إلى المال لينفق على حرب الزنج، لكن الحقيقة أن هذا السبب المالي لم يكن السبب الوحيد لتفجر الخلاف بين الرجلين بدليل أن أحمد بن طولون لم يحجز هذا المال لنفسه إنما كان يدفع بعض خراجه إلى الخليفة بناء على طلبه، وأن مطالبة المُوفَّق بالمال كانت ذريعة لاستفزازه وإثارته تمهيداً لفصله عن الخليفة وإخضاعه لنفوذه أو الإطاحة به، وهذا سبب سياسي بطبيعة الحال، والمعروف أن ابن طولون كان يميل إلى الخليفة ويدافع عنه، وقد أرسل المعتمد يُحذِّره من مؤامرة أعدَّها المُوفَّق الذي أرسل نحريراً الخادم ليتجسَّس عليه: «إنما أنفذ إليك نحريراً الخادم عيناً عليك ومستقصياً على أخبارك، وأراه أنه كاتب بعض أصحابك، فاحترس منه، واحمل المال إلينا معه، لئلا تقوى يد المُوفَّق به»[١]، لكن ذلك لم يمنع أحمد بن طولون من إرسال الأموال إلى بغداد بفعل تدهور الوضع على الجبهة الشرقية، وأمر بإرسال كل ما جرت العادة بحمله مع المال من رقيق وخيل وسلاح وشموع وطراز[٢].

ويبدو أن المُوفَّق تضايق متذرعاً بقلَّة الأموال على الرغم من أن أحمد بن طولون أرسل إليه مع نحرير مليوناً ومائتي ألف دينار عدَّها حاكم مصر حقاً مشروعاً لدار الخلافة[٣]. والواقع أنه استاء من يقظة ابن طولون واكتشافه المؤامرة وقضائه على خيوطها، إذ لم يكن لينخدع بهذه السهولة. فقد أنزل نحريراً معه في دار واحدة ومنعه من الخروج وراقبه واستولى على الكتب التي يحملها، وقد تبيَّن بأنها مرسلة إلى جماعة من قادته يُحرِّضهم عليه ويغريهم ضده ويستميل قلوبهم[٤]، ثم قبض ابن طولون عليهم واقتصَّ منهم، ما أغضب المُوفَّق، فكتب إليه يناقشه في الحساب ويُعرِّض به، ويستخف بقوته، ويُحقِّر مكانته وسطوته. ورأى ابن طولون في مضمون هذا الكتاب تدخلاً غير مقبول في شؤونه ونيلاً من الاستقلال الذي حقَّقه بجهده وقوته، وأجابه برسالة تُعدُّ من أعظم الوثائق أهمية في تاريخ الصراع بينهما، يكشف فيها صراحة عن أهدافه الحقيقية ووجهة نظره، ويدافع عن حقوقه المكتسبة في مصر ضد التحدي الذي بدأ به المُوفَّق[٥].

إن قراءة متأنية لمضمون الرسالة تطلعنا على الأمور التالية:

- ينكر أحمد بن طولون، في رسالته، على المُوفَّق استخدامه العنف معه في

(١) البلوي: ص٨٠.
(٢) ابن سعيد: ص٨٧.
(٣) البلوي: ص٨٠.
(٤) المصدر نفسه: ص٨١.
(٥) انظر نص الكتاب في: البلوي: ص٨٢ ـ ٨٥. ابن سعيد: ٨٩ ـ ٩١.

الوقت الذي يجب أن يستقطبه ويسترضيه: «ومثلي يسترضى»[1].

- يُظهر نفسه المدافع عن الخلافة ضد أي مغتصب، ويشير ضمناً إلى تدخل المُوفَّق غير المشروع في شؤون الخلافة واستبداده بأمر الخليفة: «كنت باب السلطان وسيفه الذي يصول له وسنانه الذي يتقي الأعداء بحده»[2].

- يفاخر المُوفَّق بما بذل في مصر من إصلاح وما اتخذ من عدد وعدة ما يكفل له تبوؤ المرتبة الأولى في الدولة: «بأن يعرف له حقه ويوفى من الإعظام والإكرام نصيبه ويُعطى من التقدير والإيثار قسطه»[3]، ويستصغر بالمقابل شأن خصمه، ويُندِّد بإخفاقه في حرب الزنج، وضعف عدته: «لا ناصر له غير من يجتمع إليه من لفيف البصرة وأوباش العامة». فكيف له أن يضارع بالقوة من له مائة ألف عنان؟[4].

- استخدم أحمد بن طولون في رسالته أسلوب التهديد باتخاذ إجراءات عنيفة وتسيير الكتائب لتحقيق أهدافه إذا لزم الأمر، وهو واثق من نفسه ومن قوته ومطمئن إلى مكانته: «... أن جعل ما أعددته لحياطة هذه الدولة المتكاثفة والعساكر المتضاعفة...»[5].

- هاجم أحمد بن طولون مكانة المُوفَّق في بني العباس، وأنه فرض نفسه عليهم، وأن غيره من بني العباس يرى نفسه أحق بالتقليد، وأن المعارضين له من هؤلاء يلجأون إليه ويلتمسون نصرته ومساعدته: «وإن قبلنا في حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر من الأمير أيَّده الله وأولى بتقليده...»[6].

- هاجم أحمد بن طولون المُوفَّق من حيث شعر بضعفه، فهو يُندِّد بوضعه القانوني وأنه ليس له حق التدخل في شؤون القسم الغربي من البلاد: «العمل الذي أنا بسبيله ليس له، والمكاتبة في أموره ليست إليه، وتقليدي ليس من قبله ولا ولاته... والأمير جعفر قد قسَّم الأعمال والعمال وصار لكل واحد قسم تفرَّد له دون صاحبه»[7].

- أظهر المُوفَّق بصورة الناقض لشروط البيعة والمخالف للميثاق الذي علَّقه المعتمد في جوف الكعبة، والذي يقضي بألا يتدخل كل أمير في شؤون الأمير الآخر[8].

وعندما وصلت رسالة أحمد بن طولون إلى المُوفَّق، حفظها من دون أن يطلع الخليفة المعتمد عليها، وكظم غيظه، وتصرَّف على محورين:

---

(١) ابن سعيد: ص٨٩.
(٢) المصدر نفسه. البلوي: ص٨٢.
(٣) ابن سعيد: المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ٩٠.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المصدر نفسه.

الأول: أنه حاول عزل أحمد بن طولون عن ولاية مصر[1] ليقوِّض الأساس القانوني الذي يستند عليه، فأوعز إلى أماجور حاكم الشام القيام بذلك إذ وجد فيه خير من يخلف ابن طولون في حكم مصر، وبخاصة أنه كان مدركاً لمطامعه ورغبته في التوسع على حسابه في بلاد الشام وخشي أن ينقضَّ عليها وينتزعها منه، وكتب له كتاب التقليد[2].

وقاد أماجور حملة تشهير بأحمد بن طولون، وحاك الدسائس والمؤامرات ضده بمساعدة خصومه في مصر، أمثال أحمد بن المدبر وشقير الخادم وغيرهما، وأظهره بمظهر الراغب بالاستقلال بمصر بعد أن تجمَّع لديه من القوة ما فاق ما تجمَّع لابن الشيخ، بل اتهمه صراحة بذلك، غير أنه لم يُرسل إليه كتاب التقليد لعجزه عن مناهضته[3]. ونجح الخصوم في إقناع الخليفة باستدعاء أحمد بن طولون إلى بغداد في خطوة لإبعاده عن مصر.ووضعه تحت رقابة السلطة مباشرة. ويبدو أن الخليفة أُرغم على ذلك بدليل أنه تصرف من دون إثارة الشكوك، وهو المساند دائماً لابن طولون، فكتب إليه أن يحضر إلى بغداد لاستشارته في بعض الأمور التي تخص الخلافة، ويستخلف من يشاء نائباً عنه في مصر، ووعده بمنصب رفيع في الدولة.

أدرك أحمد بن طولون فوراً أن استدعاءه إلى بغداد يُشكِّل بداية لضياع ولاية مصر منه، لذلك لم يشأ ترك مصر والذهاب إلى بغداد في هذا الوقت الحرج، كما أنه لم يجرؤ على مخالفة أمر الخليفة؛ فأرسل كاتبه أحمد بن محمد الواسطي بدلاً منه وحمَّله الهدايا والأموال لأصحاب النفوذ، لإنهاء هذه القضية. وتمكَّن هذا بمساعدة أنصار ابن طولون في القصر الخلافي من الحصول على تثبيت الخليفة له في مصر، والسماح له بنقل عائلته إليه، والمعروف أنها كانت حتى ذلك اليوم في سامراء، فسُرَّ ابن طولون بهذا النجاح الذي تحقَّق في عام (٢٦٢هـ/ ٨٧٦م)[4].

وهكذا فشلت جهود المُوفَّق وأماجور السياسية في إبعاد أحمد بن طولون عن مصر، فلجأ إلى استعمال القوة العسكرية؛ واختار الأول موسى بن بغا لحربه وهو صاحب الأمر في القسم الغربي من الدولة وصاحب السيادة الاسمية على ابن طولون[5].

استجاب موسى بن بغا لطلب المُوفَّق، فخرج على رأس جيش إلى الرقة استعداداً لقتال صاحب مصر، لكنه كان يدرك مدى قوته، لذلك تعمَّد تأخير اللقاء أو تأجيله،

---

(١) محمود: حضارة مصر الإسلامية: العصر الطولوني: ص٦٧.
(٢) البلوي: ص٨٥.
(٣) المصدر نفسه
(٤) البلوي: ص٥٧. ابن سعيد: ص٨٣.
(٥) البلوي: ص٨٣.

فمكث في الرقة عشرة أشهر، لم يُحرك ابن طولون ساكناً خلال تلك المدة إنما تربَّص له في مصر فأقام التحصينات وبنى السفن[١].

وملَّ جند موسى بن بغا الانتظار، فثاروا عليه، وطالبوه بالأرزاق والأموال المتأخرة، واضطر كاتبه عبد الله بن سليمان أن يختبئ لقلة المال. وطلب الجند منه إما أن يتقدم إلى مصر أو يعود إلى بغداد، فعاد يجر أذيال الخيبة والفشل، ثم ما لبث أن توفي كمداً بعد حين، في (صفر ٢٦٤هـ/ تشرين الأول ٨٧٧م)[٢]. لم يستطع المُوفَّق أن يكلف أحداً لحرب ابن طولون بعد أن أخفق موسى بن بغا، وبقي ابن طولون في مصر محتفظاً بقوته وبسيادته من دون أن يُطلق سهماً واحداً[٣].

والواقع أن أماجور فشل في الصمود أمام الطولونيين فعاد أدراجه إلى بلاد الشام، كذلك فشل موسى بن بغا الذي كلفه المُوفَّق بإخضاع هؤلاء بعد فشل أماجور. ويبدو أن الخليفة لم يتجاوب أكثر من ذلك مع المُوفَّق وبخاصة أن الأحداث السياسية والعسكرية أثبتت فشل القادة الذين حلُّوا محل أحمد بن طولون في السيطرة على الأوضاع، ما دفعه إلى إعادته إلى حكم مصر.

الثاني: حاول إبعاد أحمد بن طولون عن ولاية الثغور الشامية والعواصم وأن يحول بينه وبين الجهاد الذي يحب، مستعيناً بموسى بن بغا. والمعروف أن ابن طولون حصل في عام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) من المعتمد على ولاية الثغور الشامية في الوقت نفسه الذي انتزع فيه من الخليفة الموافقة على عزل أحمد بن المدبر[٤]. لكن الصورة لم تكن واضحة، حيث لم تذكر روايات المصادر نص الوثيقة الرسمية التي أعطاها الخليفة لابن طولون التي توليه على الثغور، كما أنها تختلف في تحديد المناطق التي أضحت تابعة للطولونيين، على أن يحمل في كل سنة أربعمائة ألف دينار إلى الخلافة[٥].

ويبدو أن أحمد بن طولون لم يُنفِّذ تقليد الخليفة إلا بعد وقت طويل، أربع سنوات، ولعل لذلك علاقة بمدى غموض الوضع الداخلي في الثغور حيث القوى المؤيدة له هناك كانت تمر بأزمة داخلية، فلم تكن على قدر المسؤولية التي أوكلت إليها. فقد امتنع موسى بن طولون، أخو أحمد، عن استلام منصبه عندما عيَّنه أخوه نائباً عنه في الثغور، كما رفض إبراهيم بن عبد الوهاب هو الآخر هذا المنصب عندما عرضه عليه ابن طولون على الرغم من أنه كان من أشد المخلصين له في

(١) البلوي: ص٨٧. ابن الأثير: جـ٦ ص٣٤٤، ٣٤٥.
(٢) البلوي: المصدر نفسه. (٣) محمود: ص٦٨.
(٤) الكندي: ص٢١٨. (٥) محمود: ص١٠٢.

طرسوس، في حين قَبِل طخشي بن يلبرد هذا المنصب، فسار إلى الثغور في عام (٢٦٤هـ/ ٨٧٨م)[١].

حدث ذلك في الوقت الذي كان فيه المُوفَّق يتربص بأحمد بن طولون، ويلتمس ثغرة يناله منها. فاتهم الطولونيين بالتقصير في حماية الثغور من هجمات البيزنطيين والقيام بأمر الجهاد، وأن «الثغور تحتاج إلى أن يقيم فيها من يغزو بأهلها»[٢]، وذلك لأهميتها ومكانتها ووضعها الديني. وما زال بالخليفة حتى وافق على عزل ابن طولون عن منطقة الثغور، واستقر الأمر على تعيين ولاة من خارج البيت الطولوني ومن قِبَل الخلافة مباشرة.

وراح المُوفَّق يولي العمال ويعزلهم، غير أنه لم يفلح في إقرار الأمن والطمأنينة. وقد شعر سكان الثغور بهذا الفراغ العسكري والاضطراب السياسي ما دفع سكان طرسوس إلى الثورة، فساءت الأوضاع، واضطر الخليفة إلى إعادة تكليف ابن طولون بولاية الثغور، فعيَّن عليها نائباً عنه هو طخشي بن يلبرد، كما ذكرنا.

وهكذا أخفق المُوفَّق مرتين، الأولى، حين أرسل موسى بن بغا لعزل أحمد بن طولون ففشل، والثانية، عندما عزل ابن طولون عن ولاية الثغور، فأعيد إليها. وخرج حاكم مصر من هذا الصراع ظافراً، وأضحى من أهم العاملين في رسم السياسة في بلاد الشام، وحصل من الخليفة، بفضل علاقته الحسنة به وفي غمرة الصراع مع المُوفَّق، على تقليد بحكم بلاد الشام كلها بالإضافة إلى ثغورها[٣].

وما لبث موسى بن بغا أن توفي وتبعه أماجور، فلم يجد المُوفَّق من يرضى بالتصدي لأحمد بن طولون، لذلك طوى مشروعه مؤقتاً واعترف بالأمر الواقع. ثم شغلته ثورة الزنج فانصرف عن مصر وعن ابن طولون الذي حافظ على مكتسباته وأضحى أقدر قوة في المنطقة. وخرج في عام (٢٦٥هـ/ ٨٧٨ ـ ٨٧٩م) من مصر إلى بلاد الشام لكي يؤكد نفوذه، فدخل دمشق ودانت له أمهات المدن الشامية، ومضى إلى الثغور لإشباع رغبته في الجهاد، ولم يعد إلى مصر إلا بفعل ثورة ابنه العباس، وقد فرض وجوده في حرَّان والرقة وأطلَّ على العراق كما ذكرنا.

الواقع أن النصر الذي حقَّقه أحمد بن طولون لم يكن كافياً لإنهاء الخصومة العنيفة بينه وبين المُوفَّق وردع هذا الأخير، وظل يضايقه متبعاً هذه المرة أسلوباً جديداً في التعامل يرتكز على ضرب جبهته الداخلية والخارجية من واقع إثارة الفتن داخل الأجهزة الطولونية وتشجيع الخارجين على حكم ابن طولون. وإذا كان دوره

(١) البلوي: ص٩١. ابن سعيد: ص٩٢. الكندي: ص١٦٥.
(٢) ابن سعيد: ص٨١. (٣) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٥٣.

غير واضح في ثورة العباس بن أحمد بن طولون إلا أن ادعاء العباس بأن الخليفة قلَّده أمر إفريقيا، إذا صح، فلا شك بأن المُوفَّق هو صاحب الفكرة بهدف إغراء العباس وضربه بأبيه في المنطقة الغربية[1]. ولم يكن للموفق يد في بذر بذور الشقاق بين أحمد بن طولون وغلامه لؤلؤ إلا أنه استغل ثورة الأخير فكلَّف محمد بن سليمان الكاتب، وكان يرافقه، بإقناعه بالانضمام إليه، وقد نجح في ذلك، وبدا للناس أن نفوذ ابن طولون في بلاد الشام على وشك الضياع.

وجاء الرد سريعاً من أحمد بن طولون الذي انبرى للدفاع عن مكتسباته ومصالحه، فتبنَّى مشروعاً جريئاً أحدث وقعاً هائلاً في المجتمع الإسلامي. فقد استغل الجفاء بين الخليفة المعتمد وبين أخيه الموفَّق، فنصَّب نفسه مدافعاً عن الخليفة العباسي المستضعف، وقرّر العمل على إعادة الشرعية للخلافة، فدعا الخليفة في عام (٢٦٩هـ/ ٨٨٢م) للتوجه إلى مصر والإقامة فيها للتخلص من سيطرة أخيه، ووعده بحمايته ونصرته، وأقدم في الوقت نفسه على إسقاط اسم المُوفَّق من الخطبة كولي للعهد، ومحا اسمه من الطراز بوصفه قد خرج على السلطات المخولة له، وتعدّى صلاحياته[2]، وكتب إلى الخليفة كتاباً جاء فيه: «قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين من مكروه قد يلحقه، وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان أنجاد، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يتهيأ لأخيه فيه شيء مما يخافه عليه منه في كل لحظة»[3].

الراجح أن أحمد بن طولون كان مخلصاً للخلافة العباسية وصادقاً في دعوته الخليفة للمجيء إلى مصر بعد أن تعرّض للعدوان والامتهان على يد المُوفَّق، بالإضافة إلى اعتداء هذا الأخير على حقوق ابنه جعفر المفوض ولي العهد، إلا أن اختياره لهذا الوقت بالتحديد والذي يُظهره في صورة حامي الخلافة والمدافع عن حقوقها، يدل على أن هذه القضية موجهة تحديداً إلى المُوفَّق بدليل أن هذا هلع واضطرب عندما علم بذلك وأدرك أنه إذا «تمَّ هذا الأمر استولى ابن طولون على أمره... فيكون ذلك سبباً لزوال بني العباس...»[4].

لكن أحمد بن طولون، لم يَرد إنقاذ الخلافة بقدر ما أراد تجريد المُوفَّق من السند الشرعي الذي يستند عليه، فقد كان يُجبر المعتمد على توقيع المراسيم التي يريد،

(١) زيود: ص١٠٥.
(٢) الطبري: جـ٩ ص٦٢٠، ٦٢١. ابن الأثير: جـ٦ ص٤١٨.
(٣) البلوي: ص٢٨١.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٩٠.

فإذا نجح ابن طولون في تحقيق هذا، لم يكن أيسر من أن تتحرك قواته المعسكرة على حدود العراق وأن تدخله بحجة الدفاع عن حق الخليفة، أو على الأقل تصبح مصر داراً للخلافة، ويصبح ابن طولون حامي الخليفة ووصياً عليه[1]، بدليل قوله: «أريد أن أنتاش الخليفة من تلاعب أبي أحمد وغيره وأنقل كرسي الخلافة إلى مصر»[2].

وتجدر الإشارة إلى أن خروج أحمد بن طولون إلى الشام للمرة الثانية لم يكن استجابة لرغبات الخليفة ولقائه فحسب بل أملته ضرورات سياسية ومصلحة عليا للدولة الطولونية. فقد كان نفوذ الطولونيين على وشك الانهيار بعد ثورة لؤلؤ، وكان ابن طولون شديد الرغبة في أن يلحق به قبل فراره إلى العراق، فيرده إلى الطاعة ويؤدبه جزاء خيانته، بالإضافة إلى تثبيت نفوذه في البلاد، كما أن المشكلات التي أثارتها العناصر المؤيدة للعباسيين في الثغور وعلى رأسها يازمان كادت تُنهي الوجود الطولوني هناك وبخاصة بعد وفاة طخشي بن يلبرد[3]، وأن ثورة الزنج كادت أن تنتهي بنصر المُوفَّق وسيتفرغ بعد ذلك لأمور الشام، فينال منه.

رتَّب أحمد بن طولون الأمور على أن تتم محاولة الخليفة الخروج من العراق أثناء وجوده في بلاد الشام حتى يضمن له الحماية. والواضح أنه لم يغادر مصر إلا بعد وصول ردّ الخليفة بالموافقة، واستخلف ابنه خمارويه على مصر، وأرسل العساكر لترابط في الرقة لاستقباله، وكان ذلك في (جمادى الأولى ٢٦٩هـ/ تشرين الثاني ٨٨٢م) وعلى رأسها اثنان من قادته هما أحمد بن جيغويه ومحمد بن عباس الكلابي[4].

وعندما حاول الخليفة الخروج من سامراء كُشف أمره، فأمر المُوفَّق إسحاق بن كنداج، عامل الموصل، بالخروج على رأس أربعة آلاف مقاتل لمنعه، والتقى به في الحديثة، فاعتقله وأعاده إلى سامراء وسلَّمه لرجال المُوفَّق[5].

وهكذا أخفقت محاولة أحمد بن طولون وانتصر المُوفَّق في هذه الجولة من الصراع، فخلع على ابن كنداج وعقد له على مصر والشام، وفوَّض إليه من باب الشماسة إلى إفريقيا حنقاً ونكاية بابن طولون[6]، الذي تحدَّى العباسيين جميعاً وتجرأ على نقل الخلافة من العراق إلى مصر. ونتج عن ذلك أن دخلت مصر في نزاعات وخلافات كبيرة مع القوى في العراق أنهكتها، وكانت من العوامل الهدَّامة سياسياً في الدولة الإسلامية.

(١) محمود: ص٧٣، ٧٤.
(٢) ابن سعيد: ص١٢٣.
(٣) المصدر نفسه: ص١٢٨.
(٤) الطبري: جـ٩ ص٦٢٠.
(٥) البلوي: ص٢٩١.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٩٤ ـ ٢٩٨.

وعندما علم أحمد بن طولون بما جرى للخليفة اتخذ قراراً أشد غرابة، وهو خلع المُوفَّق من ولاية العهد. فدعا القضاة والفقهاء وعلماء الدين إلى عقد اجتماع في دمشق من أجل هذه الغاية، يوم الخميس في (١٨ ذي القعدة ٢٦٩هـ/ ٢٩ أيار ٨٨٣م)، حضره أشهر القضاة في دولته، عبيد الله بن محمد العمري القاضي بجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية وجند حمص وأنطاكية، وعبد الحميد بن عبد العزيز قاضي دمشق والأردن وفلسطين، وأحمد بن أبي العلاء قاضي ديار مضر، وبكار بن قتيبة قاضي مصر، وغيرهم من القضاة والفقهاء، واتخذ المجتمعون بالأغلبية قراراً بإسقاط اسم المُوفَّق وخلعه، وقد عارضه كل من محمد بن إبراهيم الإسكندري وفهد بن موسى وبكار بن قتيبة الذي عرّض نفسه لغضب ابن طولون، فاعتقله وزجّه في السجن، وبقي فيه حتى توفي ابن طولون[1].

وهكذا أعطى أحمد بن طولون نفسه سلطات واسعة لم تكن تتهيأ له أو لأمثاله من القادة لولا ضعف الخلافة وتدهورها، وتُمثل في الواقع سمة العصر من حيث تسلط الأتراك على الخلافة بما يتناسب مع قوتهم العسكرية، وهو تصرف فيه تحدٍّ سافر واستهانة ليس بسلطان المُوفَّق وحده بل بسلطان الخلافة وتراث بني العباس أيضاً، وتمثل الذروة التي وصل إليها، وتلاشت القوى التي يمكن أن تقف في وجهه[2].

وكُتِبتْ نسخ عدة من القرار وأُرسلت إلى البلاد التي يسيطر عليها الطولونيون لتُقرأ على المنابر. واستند قرار الخلع على أن المُوفَّق نقض البيعة بعد أن تعدّى على الخليفة، وأنه خرج على السلطات التي رُسمت لولي العهد، وأنه غير أهل لإمامة المسلمين، وبريء الذمة، ووجب جهاده على الأمة، ثم أمر بلعنه على المنابر وإسقاط اسمه، وأعطى نفسه لقب «مولى أمير المؤمنين»[3].

وفي غمرة هذا الصراع مع المُوفَّق، الذي يمثل رغبة العباسيين وأنصارهم في التحرر من الهيمنة التركية، أقدم أحمد بن طولون على عمل يُشكِّل تحدياً سافراً لهؤلاء من واقع كرههم التقليدي للأمويين من جهة، واسترضاء لأهل الشام المؤيدين لهؤلاء والذين يذكرون دائماً سيرة معاوية ودور مدينتهم دمشق الحضاري خلال عهده من جهة أخرى، فأقام على قبر معاوية أربعة أروقة، ورتَّب عند القبر أناساً يقرأون القرآن، ويوقدون الشموع[4].

وردّ المُوفَّق على هذا التصرف، فانتزع أمراً من الخليفة، على غير رضى منه، بلعن أحمد بن طولون على جميع المنابر في أرجاء العالم الإسلامي كافة الواقعة

(١) البلوي: ص٢٩٤ ـ ٢٩٨.
(٢) محمود: ص٧٥. زيود: ص١١٤.
(٣) البلوي: ص٢٩٦ ـ ٣٠٠.
(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٤٧.

تحت نفوذ الخلافة المباشر وسيطرتها[1].

وما جرى من إقدام كل طرف على إعطاء قراراته صفة الإلزام وفرض رغبته؛ تجاوز النزاع مصر وبلاد الشام ووصل إلى الأراضي المقدسة في الحجاز. فحاول أحمد بن طولون منع الدعوة للمُوفَّق على منابر مكة، وأرسل حملة عسكرية من أجل ذلك بقيادة محمد بن السراج والغنوي اللذين وصلا إلى مكة يوم الأربعاء في (٢٨ ذي القعدة ٢٦٩هـ/ ٨ حزيران ٨٨٣م) على رأس أربعمائة وسبعين فارساً وألفي راجل[2]، اصطدما بالقوات العباسية الموجودة هناك بقيادة جعفر بن الباغمردي الذي تلقى دعماً ومساندة من الحجاج القادمين من فارس والعراق. وأسفر الصدام عن انتصار القوات العباسية، وتكبَّدت القوات الطولونية كثيراً من القتلى والتجأ من نجا إلى الجبال، وقُرئ كتاب في المسجد الحرام بلعن ابن طولون[3].

والواقع أن الطرفين المتنازعين استنفدا ما يملكان من وسائل وأساليب بعد ثلاثة عشر عاماً حافلة بالنشاط العسكري والسياسي، وتكبدا خسائر فادحة. فقد خرج المُوفَّق من حرب الزنج مثخن بالجراح ومثقلاً بالأعباء التي بذلها في حرب الطولونيين، ولم يُحقِّق نتائج ذات شأن، فلا هو قضى على ابن طولون ولا أزاحه عن حكم مصر وبلاد الشام. وأما ابن طولون الذي أسس له ملكاً مستقلاً في مصر وبلاد الشام وأراد المحافظة عليه، وراح يُدعم الخلافة ويحميها هادفاً نقل مركزها إلى مصر ما وضعه في مواجهة مع كل القوى المتنفذة في بغداد والمسيطرة على الشؤون العامة وهي المستفيدة من بقاء الخليفة فيها، كما دفعته حتمية الصراع إلى محاولة التوسع باتجاه الأراضي المقدسة في الحجاز ناقلاً النزاع إلى خارج مصر وبلاد الشام، بالإضافة إلى ذلك فقد تبنّى فكرة الجهاد ضد البيزنطيين؛ وقد دفع مقابل ذلك كله ثمناً باهظاً في الرجال والمال بفعل أن حملاته المتتابعة على بلاد الشام وإغراءه المتنفذين في بغداد، كانت بحاجة إلى موارد جمة ما كان أحوجه إلى إنفاقها فيما يعود على البلاد بالنفع[4].

وأدّى توغل الطرفين في دوامة النزاع إلى إضعاف كل من العراق ومصر، فظهر عجزهما عن مواجهة المستجدات الأخرى على الساحتين الداخلية والخارجية، ووجد كل من الرجلين نفسه عاجزاً عن مواصلة النزاع بفعل إنهاك قواته، مدركاً في الوقت نفسه أنه لم يكن مُوجَّهاً لصالح القوة الإسلامية العامة، وإنما لمصلحة الاتجاهين المتنازعين؛ لذلك مال الطرفان إلى التفاهم.

(١) ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد: تاريخ ابن خلدون: جـ٣ ص٣٣١.
(٢) الطبري: جـ٩ ص٦٥٢، ٦٥٣.
(٣) ابن الأثير: جـ٦ ص٤١٦.
(٤) محمود: ص٧٧.

كان المُوفَّق هو البادئ في فتح باب المفاوضات والتفاهم وإنهاء الحرب، إذ لم يكن قادراً على الدخول في معركة أخرى، وعلى الرغم من أن لؤلؤ راح يحرضه لخوض معارك جديدة ضد الطولونيين إلا أنه لم يكن متحمساً للفكرة، ولم يستجب له[١]، إنما راح يتصل بابن طولون ويخطب وده. فأرسل إليه يعاتبه على المبادرة بخلعه وإسقاط اسمه ويعتذر له على ما كان من لعنه على منابر بغداد «إن اللعن الذي خرج من غير إرادة مني ولا محبة ولا اختيار، وإني لكاره لما جرى من ذلك»[٢].

وعندما تأكد ابن طولون من صدق نوايا المُوفَّق، جنح إلى السلام واعتذر له بقوله: «إنه إنما انحرف عنه لحصره الخليفة، وأسره إياه، وأنه لو خلَّاه... لكان كبعض خدمه، وأن جميع ما في يده من مال عمله محفوظ للخليفة، وإن أقام على ما هو عليه من حصره إياه في يده وتوكيله به، حاربت عنه ولو لم يبق معي أحد...»[٣].

واتجه الطرفان إلى تحسين الأجواء بينهما وإصلاح ما فسد، فأسقطا اللعن والسباب من على المنابر، وبادر المُوفَّق بتكريم الخليفة، وردَّ إليه اعتباره وأطلقه من محبسه[٤]. وكانت الخطوة التالية اعتراف الخلافة بشرعية حكم أحمد بن طولون في مصر، وقد أبدت استعدادها لتنفيذ ذلك لولا أن المنية وافت ابن طولون يوم الأحد في (١٠ ذي القعدة ٢٧٠هـ/ ١٠ أيار ٨٨٤م)، وكان الحسن بن عطاف رسول المُوفَّق قد خرج من بغداد يحمل كتاب المُوفَّق بإسقاط اللعن عن ابن طولون، فلما وصل إلى الرقة بلغته وفاته، فرجع[٥].

(١) البلوي: ص٣٠٢.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٤.
(٤) المصدر نفسه. الكندي: ص١٧٢.
(٥) البلوي: ص٣٠٥، ٣٤٣.

خريطة الدلتا وشمالي مصر

الفصل الرابع

خمارويه بن أحمد بن طولون

٢٧٠ ـ ٢٨٢هـ/ ٨٨٣ ـ ٨٩٦م

اعتلاء خمارويه السلطة

توفي أحمد بن طولون مخلفاً وراءه ثروة اقتصادية هائلة وأزمة سياسية وعداءً عباسياً في المنطقة لا يمكن أن يُحلَّ إلا بالقوة. فاجتمع قادة الجند بعد وفاته واختاروا ابنه أبا الجيش خمارويه خلفاً له تنفيذاً لوصيته[١]، وإرضاء للجند الذين فضَّلوه والتفوا من حوله للمحافظة على تراث الإمارة ومكاسبها، وكان عمره عشرين عاماً[٢]، وقد ورث مهمة الدفاع عن الإمارة التي أسَّسها والده في مصر والاحتفاظ ببلاد الشام في ظل استمرار عداء الخلافة العباسية للطولونيين وطمع الأمراء الأتراك المتنافسين في حكم مصر وبلاد الشام، كما كان عليه أن يحافظ على تماسك الجبهة الداخلية وسلامتها من واقع الإبقاء على وحدة الجيش ووحدة الأسرة وكسب ود السكان ورضاهم، بالإضافة إلى المحافظة على أملاك الأسرة حتى برقة، ومتابعة سياسة الجهاد ضد البيزنطيين.

والواقع أن أحمد بن طولون ترك وصية لابنه ضمَّنها خلاصة تجاربه السياسية، وحدَّد له فيها الخطوط العامة للسياسة التي يجب أن يتبعها، وتُعدُّ وثيقة هامة في فن الحكم، وإن قراءة متأنية لمضمونها تطلعنا على التوجهات الطولونية التالية:

ـ نصح أحمد بن طولون ابنه خمارويه، إذا أراد البقاء لدولته، ألا يجردها من مقوماتها الشرعية وذلك بالمحافظة على بيعة الخليفة التي هي أمانة في عنق كل أمير، ومظهرها استمرار دفع المال الذي يُحمل إلى عاصمة الخلافة كل عام، وإذا فعل ذلك فإن جيشه يقاتل عن عقيدة وإيمان ويدافع عن قضية عادلة تتمثل بقضية الخلافة المضطهدة: «يا بني إني لم أدفع الحنث في يمين البيعة إلا بما كنت أحمله

(١) انظر نص الوصية عند البلوي: ص٣٣٨ ـ ٣٤٠ ـ ٣٤٢.

(٢) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: جـ٢ ص٢٤٩.

إلى أمير المؤمنين... في كل سنة... فلا تؤخرها ولا تقطعها... فإنك تدفع بها حنث هذا الجيش بأسره في يمين البيعة، وتشرح بها صدورهم في قتال من قصدك ممن قهر الخليفة ومنعه أمره وتصرفه في إنفاذ حكمه...»[١].

ـ إذا تمّ لخمارويه ذلك، فإنه يحافظ على عصبية الدولة التي هي سر قوتها وبقائها وتتمثل بالجيش، لذلك أوصاه بالحفاظ عليه وإبقائه موحداً وخاضعاً له وموالياً لدولته، وأن يوضِّح لقادته وجنده أنهم من صنيعة هذه الدولة وشركاؤه فيها، وخاطبهم قائلاً: «قد وطأت لكم المهاد بهذه الدولة، وخلفت لكم من عدتها ما يكفيكم، فاطرحوا الأحقاد بينكم، وأسقطوا التحاسد، واتركوا الاستئثار، ولتكن كلمتكم واحدة، وجماعتكم كرجل واحد»[٢].

ـ إن ما يكفل لهذه العصبية الوحدة والبقاء، أن يساند عبيده وغلمانه ومواليه أولاده ويلتفون من حولهم: «فليس يرأسكم أبداً مثلي، ولا أحنى مني ومن ولدي عليكم، فلا تخفروا ذمتي، واحفظوا صحبتي وتربيتي لأكثركم، وإيثاري وإحساني وتفضيلي لجماعتكم»[٣].

ـ إن ما يحفظ لهذه العصبة وحدتها، ما ينال الموالي والعبيد والغلمان في الجيش عطاءهم: «يا بني وفي حاصلي ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وهو غير الوديعة، يكون ذلك لعطاء جيشك وما عسى أن يعرض لك عند مقاومة من يقصدك، ومادة الخراج بعد ذلك فغير منقطعة عنك»[٤].

ـ يُشدِّد ابن طولون على وحدة الأسرة، إذ إن انقسام أفرادها يفسد العصبية ويقضي على الدولة، ويشترط لبقاء الدولة وازدهار وحدة القيادة والتفاف الأسرة حولها: «... الذي أملكه أنا خاصة من دخل إقطاعي وابتياعي ما يحصل لي منه في كل سنة في بيت مالي مائتا ألف وخمسون ألف دينار، فاقسمها في ولدي وانظر إليهم بعيني، وتغمَّد هفواتهم فإنك أبوهم بعدي، جبر الله جماعتكم، وأحسن الخلافة عليكم»[٥].

ـ ولا بد للمحافظة على إنجازات الدولة من التسلح والاستعداد العسكري الدائم والقضاء على المؤامرات المنبعثة من العراق؛ في خطوة تحذيرية: «فلا تغرنك وجميع مخلفيَّ وحاشيتي السلامة، فتنسوا ما في نفوس أهل العراق عليكم، فأنتم شجاً في حلوقهم، فلا تأمنوهم، ولا تناموا عن الحزم فيهم، فإن أحسستم بضعف

(١) البلوي: ص٣٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٩.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٠.

(٥) المصدر نفسه: ص٣٤١.

عنهم فابذلوا جميع ما تملكونه في السلامة منهم، ولا تضعوا أيديكم في أيديهم، فإني أعرف ذنبي لهم، والله أسأل رعاية جماعتكم»[1].

- ويوصي أحمد بن طولون ابنه الاعتدال في نفقاته وبعدم الإسراف في المال أو الإغراق في الترف، ويحثه على انتهاج سبيله واقتفاء آثاره في هذا الميدان الاقتصادي: «واسلك يا بني سبيلي، واقتف آثاري في سائر من خلفت يأنسوا بناحيتك، ويحسنوا طاعتك، ولا يميلوا إلى عدو يخالفك»[2]، «... قد خلفت دخل بلدك يزيد على ما ينوبك بجيشك وسائر مؤونتك، فلا تطلقن فيه يداً بجور، فيختل أمرك بخرابه، ولا تقبل بنصيحة من يتنصَّح لك بما يؤول إلى خراب بلدك والإجحاف بمعامليك فيه، فإنه عدو مبين من حيث لا تعلم، فانبذه عنك، ولا تُقرِّبه منك»[3].

- ونصح أحمد بن طولون ولده بكسب ود أهل البلاد والفوز برضاهم وتعاونهم، فيتفانوا في طاعته ويكونوا طوع بنانه: «وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب والأمن من المخاوف، ولم أكن أمنعهم لين جانبي والأمن من مخافتي، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم، ويبادروا إلى طاعتك، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك، وفي صغير أمرك وكبيره»[4].

الواقع أن خمارويه لم يخالف وصية والده التي عدّها ميثاقاً لسياسته في مصر وبلاد الشام وفي علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد، باستثناء الناحية الاقتصادية حيث مال إلى البذخ والإسراف في الترف، فترك الخزينة فارغة يوم وفاته، فدقّ بذلك إسفيناً في نعش الإمارة الطولونية.

التخلص من العباس بن أحمد بن طولون

واجه خمارويه في بداية حياته السياسية مشكلة رفض أخيه العباس مبايعته والاعتراف بحكمه، واستناداً إلى وصية أحمد بن طولون لابنه هذا كان عليه أن يتولى حكم بلاد الشام ومنطقة الثغور ويعترف بحكم خمارويه ويخضع له ويُذعن بالطاعة[5]، إلا أنه لم يفعل، إذ لم يشأ أن يتنازل عن حقه في خلافة والده بوصفه الابن الأكبر، بل كان «متلوِّماً على وفاة أبيه يرتقب الغلبة على موضعه ويتوهم أن أبا الجيش لا يقوى قلبه على مناهضته»[6]. واستدعاه رجال الدولة، أمثال الحسن بن

(١) البلوي: ص٣٤١.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٣٩.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٣٩، ٣٤٠.
(٥) انظر نص الوصية عند البلوي: ص٢٤٢.
(٦) ابن سعيد: ص١٣١.

مهاجر وأحمد بن محمد الواسطي، وخواص الأولياء والغلمان، ثم أحضروا المصحف لأخذ البيعة منه، لكنه تردَّد. وطلب منه الواسطي أن يبايع أخاه أبا الجيش فرد عليه قائلاً: «أبو الجيش ليس يسومني هذا السوم، ومحال أن يكون أحد من حضر أشفق علي منه»[1]، كاشفاً بذلك عن نيته في العصيان، ما أثار الريبة في نفوس قادة الجند الذين كانوا يكرهونه لتعاليه وجفوته، ويخشون أن يؤول الأمر إليه فينكِّل بمن آذاه أثناء سجنه ومحنته، وكان مستحيلاً أن يتولى السلطة رغماً عن زعماء الدولة ورجالها، ثم إن رفضه البيعة لأخيه أو تباطؤه فيها كان بمثابة النهاية المحتومة، فقد قُتل بعد ذلك بأيام[2].

كان مصرع العباس على يد زعماء الجند ورجال الدولة، إذ بعد رفضه البيعة قال له أبو عبد الله: «ما أصلحتْ منك هذه المحنة شيئاً، وأبو الجيش أميرك وسيدك، ومن استحق من أبيك يحسن طاعته التقديم عليك. وقام طبارجي وسعد الأيسر حتى أخذا سيفه ومنطقته وعدلا به إلى حجرة الميدان، فأمن الخائف من العباس»[3].

لا شك بأن هذه النهاية أراحت خمارويه، إذ أزاحت من طريقه منافساً قوياً على السلطة، ومن المحتمل أن يكون مصرع العباس كان عن أمره، على الرغم مما نُسب إليه من قول: «الحمد لله الذي لم نتقلّد دم العباس دون قصاص»[4]، غير أن حادثة من هذا النوع لا يمكن أن تحدث من دون علمه، وقد شاوره الواسطي في ذلك فأقرّه ووافق عليه، ولا يعفيه من اللوم شعوره بالندم فيما بعد[5].

تنمية القوة العسكرية

اجتاز خمارويه بنجاح مشكلة رفض أخيه العباس الاعتراف بحكمه، واستطاع أن يوحد الأسرة الطولونية، كما حقَّق وحدة القيادة السياسية والعسكرية، فدان له الأمراء بالطاعة، ثم انصرف إلى الاعتناء بتنمية القوة العسكرية. والمعروف أن الجيش كان عماد الدولة في توسعها ونضالها من أجل البقاء، وشكَّل، بعناصره وطوائفه من عبيد وموالي، العصبة التي اعتمد عليها الطولونيون من أجل تحقيق أهدافهم، فزاد عدد أفراده من واقع إدخال عناصر جديدة في صفوفه. فقد استقدم جنوداً جداً من آسيا الوسطى من العنصر التركي، وضمَّ إليهم طائفة من سكان البلاد، فتضاعف العنصر الوطني في الجيش، وجنَّد العرب المقيمين في منطقة

(١) ابن سعيد: ص١٣١.
(٢) محمود: ص٩٧.
(٣) ابن سعيد: ص١٣١.
(٤) المصدر نفسه: ص١٣٩.
(٥) محمود: ص٩٨.

الحوف[1] وغيرها من المناطق التي يسكنها العرب المعروفون بالشجاعة والبأس، فدرَّبهم ونظَّمهم، وسلَّحهم، وكوَّن منهم فرقة خاصة سماها المختارة واتخذهم حرساً خاصاً له مع السودان[2].

بالغ خمارويه في النفقة على الجيش في الزي والسلاح، فقد ألبس عناصره الأقبية الحريرية وجواشن الديباج، وصاغ لهم المناطق، وقلَّدهم بالسيوف المحلّاة يضعونها على أكتافهم، فيتماشى زيهم هذا مع الفخامة التي غلبت على الحياة في عصره والتي شملت كل شيء تقريباً، فإذا مشوا بين يديه وموكبه على ترتيبه كل طائفة بزيها وسلاحها، فرقة المختارة أولاً ثم أصناف العسكر وفي أعقابهم السودان وعدتهم ألف أسود، لهم درق من حديد محكم الصنعة، وعليهم أقبية سود، وعمائم سود، فيخالهم الناظر إليهم بحراً أسود يسير، لسواد ألوانهم، وسواد قبابهم، ويصير لبريق درقهم وحلي سيوفهم، والبيض التي تلمح على رؤوسهم من تحت العمائم، زي بهيج[3].

واعتنى خمارويه بتدريب جيشه، فخصَّص لكل طائفة دورها في القتال، وبالغ ببذل المال على أفرادها، وأعطاهم أكثر مما أعطاهم والده، فكان يمنحهم أعطياتهم بشكل منتظم، ويوزع عليهم الهبات بوفرة في كل مناسبة، بالإضافة إلى ما كانوا يغنمونه من أسلاب الحرب، الأمر الذي شدّهم إلى الدولة وربطهم بها برباط قوامه المصلحة المتبادلة، وقد بلغت نفقات الجيش تسعمائة ألف دينار سنوياً[4].

ارتفعت مكانة الجيش نتيجة ذلك الاهتمام الزائد، وأضحى لجنوده وقادته نفوذ أقوى مما كان في أيام أحمد بن طولون، فاستأثر قادته بامتلاك الضياع، وأدَّت طوائفه دوراً كبيراً في سياسة الدولة الخارجية لا سيما في حروب الشام والدفاع عن الدولة. واهتم خمارويه بالأسطول البحري أيضاً، وقد أدّى دوراً مهماً في الحروب التي خاضها الأمير الطولوني في بلاد الشام من خلال دعم الحملات البرية.

وهكذا أسّس خمارويه جيشاً قوياً اعتنى بتدريبه وتسليحه وزيادة عدد أفراده حتى أصبح يقدر بـ أربعمائة ألف فارس، ويُعدُّ أول جيش نظامي وُضع في حال جهوزية دائمة.

(١) الحوف: بمصر حوفان: الشرقي والغربي وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. الحموي: جـ٢ ص٣٢٢.
(٢) المقريزي: جـ٢ ص١٢٨. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥٩.
(٣) المصدران نفساهما.
(٤) المقريزي: جـ٢ ص١٢٨.

علاقة خمارويه مع الخلافة العباسية

بعد أن أمَّن خمارويه جبهته الداخلية التفت إلى تدعيم مكتسبات الدولة الخارجية والدفاع عن أملاكها في بلاد الشام والتصدِّي للمؤامرات المنبعثة من العراق، وأدرك أنه إذا فَقَدَ السيطرة على بلاد الشام انتهى أمره في مصر بفعل أن العباسيين لم يكونوا مخلصين للطولونيين، وغير راضين عن وجودهم، ويحاولون القضاء عليهم، وإنهاء انفصالهم عن السلطة المركزية، وبخاصة أنهم تحدُّوهم في أهم ولاياتهم. وإذا كانوا قد ركنوا إلى الأمر الواقع وقبلوا بالمعادلة التي فرضها أحمد بن طولون، إلا أن وفاته أتاحت لهم الفرصة للتخلص منهم، لذلك ما إن وصلت أنباء وفاته إلى بغداد وتولي ابنه خمارويه حتى عمدوا إلى إثارة الفتن وتأليب الناس، وتشكيل الأحلاف ضدهم، وتطلعوا إلى انتزاع بلاد الشام منهم.

وكان المُوفَّق قد انتهى من أمر الزنج واستقام له الأمر، وأزاحت وفاة خصمه أحمد بن طولون عقبة كبيرة من أمامه، فتفرَّغ لمصر ليأخذ بثأره القديم. لم يركن خمارويه إلى الهدوء تجاه نوايا المُوفَّق، لذلك نراه يسارع إلى تنظيم أمور بلاد الشام بسبب أهميتها في دعم سلطته في مصر، فأسند قيادة أهم مدنها ومناطقها لأفضل قادته، فعيَّن أحمد بن دوغباش قائداً لمنطقة شمالي حلب بالإضافة إلى نيابته عنه في دمشق[1]، بفعل أن الخطر سوف ينبعث من الشمال والشرق حيث يتركز أعداء الطولونيين، أمثال إسحاق بن كنداج وابن أبي الساج وغيرهما. وأسند إمارة حلب إلى أبي موسى محمد بن العباس بن سعيد الكلابي وذلك في عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م)[2]، كما ترك معظم جيشه في منطقة حلب، وأرسل قوة عسكرية رابطت في شيزر[3]، استعداداً للتدخل عند الضرورة[4].

وكتب خمارويه بعد انتهاء الترتيبات الإدارية والعسكرية إلى الخلافة العباسية يطلب إقراره على ما بيده من المناطق مقابل الدعاء للخليفة والطاعة التامة له، غير أن المُوفَّق رفض طلبه، ما أغضب خمارويه، فأظهر استياءه، الأمر الذي عُدَّ نذيراً باستمرار النزاع واستئناف العمليات العسكرية[5].

كانت الظروف السياسية مؤاتية للمُوفَّق وتُرجِّح كفته بفعل عوامل عدة أهمها:

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٢٩.
(٢) ابن العديم، كمال الدين عمر بن هبة الله: زبدة الحلب من تاريخ حلب: جـ١ ص٨٧.
(٣) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم. الحموي: جـ٣ ص٣٨٣.
(٤) ابن العديم: جـ١ ص٨٧.
(٥) المصدر نفسه: ص٨٠.

- إن خمارويه كان في ريعان الصبا ليس له دهاء والده ولا خبرته، ولا زال الفراغ الذي خلفه أحمد بن طولون لم يُملأ بعد[1].
- إن القوى العباسية كلها تأتمر بأمره.
- إن موقف أصحاب النفوذ العدائي في بغداد من أحمد بن طولون أضعف الطولونيين في لحظة حرجة بتأثير الدعاية التي اعتمدها العباسيون.
- لقيت القوات الطولونية هزيمة قاسية في مكة أثَّرت سلباً على الطولونيين.
- ثورة بعض ولاة الثغور والمدن ضد الحكم الطولوني.
- وفاة أحمد بن طولون وهو معزول من الوجهة الشرعية، وكان إسحاق بن كنداج قد حصل على تقليد من الخلافة بتوليته مصر[2]، فهو صاحب الحق الشرعي.
- زوال عقدة الخوف عند القادة العباسيين من الطولونيين بعد وفاة أحمد بن طولون، الذي غامر بحياته وبخيرة جنده لتحقيق أطماعه في بلاد الشام[3].

جمع المُوفَّق بين القوة والدهاء في الحرب مع خمارويه، فاستغل إسحاق بن كنداج، بوصفه الأمير الشرعي لبلاد الشام ومصر، وكشف عن نيته السافرة في إدارة الصراع بعد أن كان يستتر وراء موسى بن بغا الوصي على جعفر المفوض في عهد أحمد بن طولون، فعيَّن ابنه أبا العباس قائداً عاماً للقوات العباسية المكلفة بحرب الطولونيين، وامتدت يداه إلى الداخل الطولوني لبذر بذور الشقاق والفرقة واستغلال ما ينتج من عداوات، فاستقطب أحمد بن محمد الواسطي الذي خرج إلى بلاد الشام على رأس جيش طولوني لحرب العراقيين[4].

ويبدو أن الواسطي استاء من الوضع الذي آل إليه، حيث تمكَّنت بعض القوى في الفسطاط من التقدم عليه وإبعاده عن مركز السلطة، فقد قدَّم خمارويه محبوب بن جابر عليه، ويعدّه الواسطي من أتباعه ودونه في المنزلة، ما دفعه إلى العمل ضده، وأقسم على أن يهدم ما كان قد بنى، ويعني ذلك أخذ البيعة لخمارويه[5].

والواقع أنه كان للواسطي دور أساسي في قضيتين:

الأولى: قضية قتل العباس، فهو الذي أشار على خمارويه بقتله، وعلى الرغم من أن هذا الأخير كان راضياً، وربما هو الذي أعطى الأمر بقتله وبخاصة بعد أن رفض مبايعته، واستراح من همٍّ قد شغله، إلا أن الواسطي اعتقد أن سيده سوف يحاسبه أو على الأقل أثار الريبة في نفسه، وخشي أن ينتقم منه.

---

(١) محمود: ص١٠٢.
(٢) الكندي: ص١٦٨.
(٣) زيود: ص١٢١.
(٤) الكندي: ص١٧٣، ١٧٤.
(٥) زيود: ص١٢٣.

الثانية: أدى الواسطي دوراً مهماً في محاولة التقارب بين الطولونيين والمُوفَّق، ولهذا شعر بأنه مستهدف، فظنَّ أن تكليفه بالخروج إلى بلاد الشام هو محاولة لإبعاده عن مركز القرار، وانتصار لبعض العناصر عليه، واعتقد أن هؤلاء لن يتوقفوا عن الكيد له، كما أن فيه انتقاص لقدره، وهذا في الواقع سبب واه، وإنما هو إعلاء لهذا القدر، إذ كان من الممكن في حال انتصاره أن ترتفع مكانته في الدولة أكثر من ذي قبل[1]. والراجح أنه تفاهم مسبقاً مع المُوفَّق، فقد كتب إليه يُصغِّر من شأن خمارويه ويُحرِّضه على المسير لقتاله[2]، ويُعرب عن نيته في الانضمام إليه، بدليل أن خروج الجيش العباسي من بغداد تمَّ في الوقت الذي خرج فيه الواسطي من مصر.

كان ابن كنداج يسيطر على الموصل والجزيرة الفراتية ذات الموقع الهام لبلاد الشام، فعمل على تكوين حلف مناهض لخمارويه في المنطقة وتمكَّن بمساعدة المُوفَّق من استقطاب بعض نوابه في بلاد الشام الذين أوضحوا بعدم أحقيته في حكم المنطقة، أمثال أحمد بن دوغباش، واتفقوا معه على الانفصال عن الجيوش الطولونية عند الضرورة، وسيكون لحركة ابن دوغباش في دمشق دور في إضعاف الحكم الطولوني وتراجعه عن كثير من المدن الهامة في بلاد الشام.

وبذلك تشكَّل الحلف العباسي المناهض للطولونيين من إسحاق بن كنداج الذي رغب في تثبيت حقه بحكم بلاد الشام ومصر مستغلاً الظروف المؤاتية، ومستعيناً ببعض الأنصار وعلى رأسهم محمد بن أبي الساج حاكم الأنبار، وسينضم بعض النواب الطولونيين إلى هذا الحلف. وكتب المُوفَّق إلى الحليفين يأمرهما بالزحف نحو بلاد الشام ووعدهما بتقديم المساعدات، وإرسال الجيوش التي ما لبثت أن ظهرت تحت إمرة ابنه أبي العباس.

تصدَّى خمارويه للمحاولات العباسية القاضية بإقصائه عن بلاد الشام وانتزاع مصر منه، فأسرع في تجهيز الحملات العسكرية البرية والبحرية لإبعاد الحلف المناهض للطولونيين عن هذه البلاد، وانتزاع الاعتراف بشرعيته من العباسيين بقوة السلاح.

الواقع أن خمارويه أرسل جيشين بريين، الأول بقيادة أحمد بن محمد الواسطي، خرج من الفسطاط يوم الخميس (٦ ذي الحجة ٢٧٠هـ/ ٥ حزيران ٨٨٤م)، والثاني بقيادة سعد الأيسر، خرج من الفسطاط في (٢٩ ذي الحجة/ ٢٨ حزيران)، ودعَّمهما بأسطول بحري كبير نزل أفراده على السواحل الشامية[3]، وأمدَّ الجيشين البريين بالمعدات والتجهيزات

---

(١) محمود: ص١٠٢، ١٠٣.
(٢) الكندي: ص١٧٤.
(٣) المصدر نفسه: ص١٧٣.

تقدمت الجيوش الطولونية إلى بلاد الشام، وما إن وصلت إلى فلسطين حتى ظهرت المؤامرة، فقد انضم الواسطي إلى الجيوش العباسية معلناً صراحة خيانة سيده. ويبدو أن المُوفَّق كان مطمئناً إلى نجاح خطته، واثقاً من أن قواته سوف تستعيد بلاد الشام.

أسرع أبو العباس بالتحرك نحو الرقة، وحقَّق انتصارات سريعة أمام تراجع الطولونيين فتسلَّمها مع قنسرين والعواصم، وانضم باقي القادة إليه. ووصلت في هذه الأثناء القوات الطولونية بقيادة سعد الأيسر إلى دمشق، فغادرها حاكمها أحمد بن دوغباش وانضم إلى قوات التحالف العباسية وفق الخطة الموضوعة. ويبدو أن القوات الطولونية لم تتمكَّن من حماية المدينة من الضغط العباسي، وبخاصة بعد قطع الإمدادات عنها من قبل الواسطي الذي كان يعسكر في الرملة في فلسطين، فساعد ذلك على انتصار القوات العباسية، فسقطت شيزر في يد أبي العباس، ثم سقطت دمشق، ودخلها أبو العباس في (شعبان ٢٧١هـ/ شباط ٨٨٥م)، وانسحبت العساكر الطولونية منها ومضت تشق طريقها إلى مصر، فاصطدمت بقوات الواسطي في الرملة وهزمتها، واضطر هذا الأخير إلى مغادرتها إلى دمشق حيث انضم إلى قوات التحالف العباسية[١]. وأرسل سعد الأيسر رسالة إلى مصر شرح فيها الموقف العسكري المتدهور في بلاد الشام. وشرعت قوات التحالف بالتقدم نحو مصر غير أنها تعرَّضت لهزة عنيفة صدّعتها ومزّقت وحدتها، إذ في غمرة انتصاره اتهم أبو العباس شريكيه في التحالف، إسحاق بن كنداج وابن أبي الساج، بالجبن والتقصير بفعل أنهما لم يتصدّيا للقوات الطولونية في شيزر، وانتظرا قدومه، فما كان منهما إلا أن انفصلا عن الجيش العباسي وتوجَّها نحو منطقة حلب وراحا يجبيان الأموال والخراج لمصلحتهما، ورافقهما القائد الطولوني الثائر أحمد بن دوغباش[٢]. وبذلك تفكَّك الحلف الذي أحكم المُوفَّق تشكيله.

واجه خمارويه الموقف العسكري المعادي له بحزم وشجاعة، فلم يتصرَّف كما تصرَّف والده من قبل أثناء تحرك موسى بن بغا من تركيز الدفاع عن مصر من خلال بناء الحصون وإقامة التحصينات، إنما خرج إلى بلاد الشام مباشرة على رأس جيش كثيف بلغ سبعين ألف فارس غير مبال بالخطر، على الرغم من إدراكه سوء الوضع وخيانة الواسطي، فالتقى بالقوات العباسية المعادية بقيادة أبي العباس، والبالغ عددها أربعة آلاف فارس، عند الطواحين على نهر أبي فطرس في جنوبي فلسطين

(١) الكندي: ص١٧٤. ابن الأثير: جـ٦ ص٤٢٨. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥٠.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص٨١.

قرب الرملة، وهو على غير تعبئة، مبرهناً عن قصر نظر وقلَّة خبرة في الحقل العسكري، فتعرّض للهزيمة، فترك أرض المعركة وفرَّ إلى مصر. واستولى الجيش العباسي على معسكره، وانهمك أفراده في جمع الغنائم والأسلاب، ففاجأهم سعد الأيسر وهم على هذا الحال، وقد اندفع بقواته من مكمنها وانقضَّ عليهم، فقلب هزيمة خمارويه إلى نصر[١].

وخشي أبو العباس من عودة خمارويه، فتوجَّه مع من نجا من قواته إلى دمشق للاحتماء بها، فأغلق سكانها الأبواب في وجوههم ومنعوهم من دخولها[٢]، وكان لموقفهم هذا، المساند للطولونيين، تأثير واضح في مجرى الأحداث السياسية من واقع إعادة توحيد البلدين تحت الحكم الطولوني، وانسجاماً مع شعورهم ضد العباسيين. ومضى أبو العباس إلى طرسوس في جماعة من أصحابه، فدخلها ومكث بها مدة حاول خلالها إقناع حاكمها يازمان الخادم بالتعاون معه لحرب الطولونيين، إلا أنه فشل في ذلك، فخرج منها في (محرم ٢٧٢هـ/ حزيران ٨٨٥م) عائداً إلى بغداد، ولم يتوجّه إلى حلب بفعل سيطرة ابن أبي الساج عليها[٣]، فانهارت بذلك مشروعات المُوفَّق ضد الطولونيين.

ونصَّب سعد الأيسر، بمساعدة القادة الطولونيين الذين هزموا أبا العباس، مثل إسماعيل العجمي وتشركين وحوطاش، أبا العشائر، أخا خمارويه، أميراً، فوزَّع الغنائم، ووضع العطاء، وشغل الجند عن الشغب[٤].

وإذا كان خمارويه قد خارت قواه على النحو الذي ذكرنا، إلا أن قواته بقيادة سعد الأيسر استطاعت، بما اكتسبته من حسن التدريب، أن تستعيد زمام المبادرة وتعيد معظم مدن بلاد الشام إلى الحظيرة الطولونية، فدخل سعد الأيسر دمشق وخطب فيها لخمارويه، وأرسل إليه يبشره بالفتح، فسُرَّ هذا وخجل للهزيمة التي أُلحقت به، فأكثر من الصدقات، وأطلق سراح الأسرى[٥].

وخرج خمارويه من الفسطاط إلى بلاد الشام في (رمضان ٢٧١هـ/ آذار ٨٨٥م)، فوصل إلى فلسطين، ثم لم يتجاوزها وعاد إلى مصر من دون سبب ظاهر، وبرَّرت روايات المصادر[٦] عودته بأنها لضرورات اقتضت ذلك من دون تحديدها. ويبدو أنه وثق بقائده سعد الأيسر الذي كان يشرف على الأمور في بلاد الشام كلها باسمه،

(١) الكندي: ص١٧٤. (٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية: جـ١١ ص٤٩، ٥٠.

(٤) الكندي: ص١٧٤. (٥) ابن خلدون: جـ٣ ص٣٣٢.

(٦) الكندي: ص١٧٥.

فتقرَّب من السكان، وأحسن معاملتهم، وعمل على نشر الأمن وتحقيق الاستقرار، وتصدَّى لهجمات الأعراب على قوافل الحجاج، فأمَّن بذلك طريق الحج.

وظل خمارويه مدة عام تقريباً لا يتدخل مباشرة في شؤون بلاد الشام تاركاً لنائبه سعد الأيسر إدارة شؤونه، ما أعطاه فرصة طيبة استغلها بنجاح، حيث راح يعمل لمصلحته متجاوزاً المصلحة العامة العليا، ويبدو أنه تطلع نحو الاستقلال عن مصر فاستخفَّ بسيده واتهمه بالتخاذل والجبن والانهماك باللهو[1]، وكانت أخباره تصل إلى مصر في الوقت الذي لم ينس فيه خمارويه ما فعله لؤلؤ والواسطي من قبل، لذلك قرّر التخلص منه، فغادر مصر متوجهاً إلى بلاد الشام في (ذي القعدة ٢٧٢هـ/ نيسان ٨٨٦م)، وعندما وصل إلى مدينة الرملة ، استدعاه للاجتماع به، فلما حضر قتله[2].

غضب سكان دمشق من مقتل أميرهم، فثاروا ضد خمارويه ولعنوه في الجامع الأموي، فما كان منه إلا أن توجه إلى المدينة ودخلها، ولم ينتقم من أهلها بل استقطبهم عن طريق الإغراء بالمال والعطايا، فاستردَّ سلطته ليس على دمشق فحسب بل على البلاد كافة[3].

وأرسل خمارويه الحملات العسكرية لمحاربة أعدائه في ديارهم متبنياً سياسة الهجوم، فبدأ بابن كنداج الذي كان أُلعوبة في يد المُوفَّق بعد أن نجح في ضربه بابن أبي الساج. وقد رأى خمارويه في وجود هاتين الشخصيتين في منطقة الجزيرة خطراً يُهدِّد كيانه في بلاد الشام، لذلك استغل العداء بينهما وتحرك قاصداً منطقة الجزيرة، ونزل في حلب، فانضم إليه ابن أبي الساج بفعل أن مصلحته الآن تقضي بذلك، ودعا له على منابر أعماله، وقدَّم له خمارويه مساعدة مالية تقدر بمائتين وأربعين ألف دينار، وفي الاجتماع الذي عُقد بينهما في بالس[4]، تقرَّر محاربة ابن كنداج، وإبعاده عن الجزيرة الفراتية، وسلّم ابن أبي الساج ابنه ديوداد إلى خمارويه رهينة تكفل إخلاصه له والوفاء بعهده[5]. واصطدم الحليفان بقوات إسحاق بن كنداج في الرافقة الملاصقة للرقة في منطقة البليخ وانتصرا عليها. وفرَّ ابن كنداج إلى قلعة ماردين[6] وتحصَّن بها. وطاردت القوات الطولونية جنوده المنهزمين حتى وصلت

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥١. (٢) المصدر نفسه. الكندي: ص١٧٥.
(٣) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥١.
(٤) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة. الحموي: جـ١ ص٣٢٨.
(٥) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٤٠. ابن العديم: جـ١ ص٨٨، ٨٩.
(٦) ماردين: قلعة مشهورة على قنَّة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيسر ودارا ونصيبين. الحموي: جـ٥ ص٣٩.

إلى سامراء[1]. وسيطر خمارويه على منطقتي الجزيرة الفراتية والموصل وعيّن ابن أبي الساج عاملاً عليهما نيابة عنه، واضطر ابن كنداج إلى الدخول في طاعته ورضي بأن يكون أحد عماله، ودعا له في أعماله التي بيده[2]، ووصل إلى تخوم العراق. وقد أذهل هذا النصر المُوفَّق وفلّ عزيمته، وأذلّ ابن كنداج، ووطَّد خمارويه نفوذه في الجزيرة الفراتية، وضرب النقود بمدينة الرافقة في عام (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م) تخليداً لهذه المناسبة.

ويبدو أن حكام بلاد الشام والجزيرة الفراتية كانوا يدخلون في طاعة الطولونيين طالما بقي هؤلاء في بلادهم، فإذا ما انصرفوا عنهم انقلبوا عليهم وشقوا عصا الطاعة. وهكذا ما إن عاد خمارويه إلى مصر حتى خرج عليه ابن أبي الساج بتحريض من المُوفَّق، وانقضَّ عل أملاك الطولونيين في منطقة الجزيرة الفراتية، فاضطر خمارويه إلى الخروج مرة أخرى إلى بلاد الشام في (ذي القعدة ٢٧٤هـ/ آذار، نيسان ٨٨٨م) على رأس جيش كبير، والتقى بالقوات العباسية التي كان يقودها ابن أبي الساج في ثنية العقاب بالقرب من دمشق وانتصر عليها. وفرَّ ابن أبي الساج في جو الهزيمة القاتم صوب حمص، فمنعته القوات الطولونية من دخولها، فتابع طريقه إلى حلب ومنها ذهب إلى الرقة ثم الموصل، فطارده خمارويه، فعبر الفرات ودخل بلد[3]، فغادر ابن أبي الساج عندئذ الموصل إلى الحديثة[4].

أقام خمارويه في بلد شطراً من عام (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، فصُنع له سرير طويل الأرجل كان يجلس عليه في دجلة[5]، وسلَّم أملاك ابن أبي الساج إلى حليفه ابن كنداج وكلَّفه بمطاردته؛ فاصطدم به في تكريت[6]. وعلى الرغم من الفارق العددي لقوات كل منهما، حيث كان ابن أبي الساج على رأس ألفي فارس في حين كان ابن كنداج يقود عشرين ألفاً، فإنه خسر المعركة وانهزم عائداً إلى الرقة، فتبعه ابن أبي الساج الذي أعلم المُوفَّق بذلك واستأذنه بعبور الفرات إلى الشام، فطلب منه التريث

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥١. (٢) الكندي: ص١٧٥.
(٣) بلد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ. الحموي: جـ١ ص٤٨١.
(٤) الكندي: ص١٧٦. ابن العديم: جـ١ ص٨٩. ابن الأثير: جـ٦ ص٤٤٧. والحديثة: هي على فراسخ من الأنبار وتُعرف بحديثة النورة، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها. الحموي: جـ٢ ص٢٣٠.
(٥) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٤٧.
(٦) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة. الحموي جـ٢ ص٣٨.

حتى يمدّه بالإمدادات العسكرية، وهذا دليل على عدم صدق نوايا العباسيين تجاه الطولونيين[١].

وما جرى بعد ذلك من إمداد خمارويه ابن كنداج بقوات إضافية ما مكّنه من إنزال الهزيمة بالقوات العباسية. وفرّ ابن أبي الساج باتجاه الموصل، وحاول أن يُجيِّش سكانها غير أنه لم يتمكّن من حشد قوة كافية، واضطر إلى اللجوء إلى المُوفَّق في (ربيع الأول ٢٧٦هـ/ تموز ٨٨٩م)، فعيَّنه والياً على أذربيجان[٢]. أما ابن كنداج، فقد عُيِّن نائباً للطولونيين على ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة الفراتية[٣]، وعيّن خمارويه غلام أبيه طغج بن جف نائباً في حلب، وهو والد الأخشيد أبي بكر محمد، ثم عاد إلى مصر في (جمادى الآخرة/ تشرين الأول)[٤].

وعلى هذا الشكل قضى خمارويه على أعدائه الذين اجتمعوا ضده، وأقرَّ الأمن على حدوده الشرقية، وامتداداً نفوذه من برقة إلى الفرات ومن آسيا الصغرى إلى بلاد النوبة، وأضافت الخلافة أرمينيا إلى أملاكه نظير ما بذله من جهود في منطقة الجزيرة وأعالي الفرات، ويُعدُّ ذلك امتداداً لنفوذ الطولونيين على بلاد لم تكن لهم من قبل. وبدا الطولونيون في عهده قوة رهيبة تملأ مكانها بجدارة ويهابها أعداؤها، واستقر له ولأولاده من بعده حكم مصر وبلاد الشام الوراثي، مدة ثلاثين عاماً باعتراف الخلافة العباسية[٥]، كما اعترف يازمان، المستبد بالثغور، بحكمه ودعا له على منابر الثغور[٦]. واضطر المُوفَّق للجنوح إلى السلم بعد أن فشلت مخططاته كافة في القضاء على الإمارة الطولونية، فاعترف بخمارويه أميراً على مصر وبلاد الشام، وأوقف لعنه والدعاء عليه على المنابر ودعا له، وبادله خمارويه الود فأسقط السباب واللعن له على المنابر[٧]، وشكّل هذا الاعتراف أمراً جديداً في وضع الدولة الشرعي التي أضحت من الناحية الرسمية دولة يعترف بها أصحاب النفوذ.

والواقع أن الوفاق الذي تحقّق بين القوتين الطولونية والعباسية مرده القوة التي فرضها خمارويه ولم يكن نتيجة حسن نية العباسيين، في الوقت الذي كانت فيه الأحداث تجري لصالح الطولونيين، غير أن هذا الاعتراف لم يشر إلى القضايا المالية، ولم يتعرض العقد الموقع بين الطرفين إلى مقدار الخراج الذي يُحمل إلى بغداد، كما لم ترد في روايات المصادر أية إشارة إلى هذا الموضوع. فكان الكتاب

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٤٨.
(٢) الطبري: جـ١٠ ص١٦.
(٣) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٤٩.
(٤) ابن العديم: جـ١ ص٩٠.
(٥) الكندي: ص١٧٧.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه: ص١٧٥، ١٧٦.

الذي أرسله المُوفَّق إلى الفسطاط في (رجب ٢٧٣هـ/ كانون الأول ٨٨٦م) تسجيلاً لواقعة قائمة واعترافاً بنفوذ حصل عليه خمارويه فعلاً، ثم قطعاً لدابر الفتنة التي فرَّقت بين أصحاب النفوذ في بغداد وأصحاب النفوذ في القطائع، ووضْع العلاقات في إطارها الطبيعي الصحيح، وإقرار السلام في هذه المنطقة الهامة من العالم الإسلامي الشرقي، فكانت هذه الاتفاقية نصراً كبيراً توَّج به خمارويه انتصاراته العسكرية[١].

ويبدو أن المُوفَّق لم يكن صادقاً في تنفيذ متطلبات السلام، فاستمر يحيك المؤامرات والدسائس ضد الطولونيين ويؤلِّب القوى في بلاد الشام عليهم حتى وفاته في (٢١ صفر ٢٧٨هـ/ ٤ حزيران ٨٩١م)[٢]، فاستراحت الدولة الطولونية من ألد أعدائها، كما توفي ابن كنداج في العام نفسه[٣]. وعقد الخليفة المعتمد العهد لأبي العباس أحمد بن المُوفَّق الذي تابع سياسة والده واستبدّ بالخلافة وشؤونها، ثم ما لبث الخليفة أن توفي في (١٨ رجب ٢٧٩هـ/ ١٤ تشرين الأول ٨٩٢م) وبويع أبو العباس أحمد بن المُوفَّق بالخلافة وتلقب بلقب المعتضد[٤].

خشي خمارويه من أن يُلغي الخليفة الجديد اتفاقية السلام ويستأنف العمليات العسكرية، وهو أحوج ما يكون إلى مرحلة من الراحة والسلام، لذلك استخدم أسلوب الكياسة السياسية للمحافظة على ما تمَّ إنجازه. فما كادت البيعة تتم للمعتضد حتى كان رسوله الحسين بن عبد الله بن منصور الجوهري، المعروف بابن الجصَّاص، في طريقه إلى بغداد، يحمل التهاني والهدايا الجليلة التي تتمثَّل فيها عظمة الطولونيين وثرائهم الذي يفوق ثراء الخليفة وهي «من العين عشرون حملاً على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيهما طراز، وعشرون رجلاً على عشرين نجيباً بسروج محلاة بحلية فضة كثيرة. . . ، وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة، وثلاثون دابة بجلال مشهَّرة، وخمسة أبغل بسروج ولجم، وزرافة. . .»[٥] فكان ذلك إغراء بما قد تصيبه الخلافة من طُرف وهدايا إذا ساد السلام واستقامت الأمور. والواقع أن الخليفة المعتضد كان بحاجة إلى المال، فتوافقت مصلحته المادية مع رغبة خمارويه في السلام، وكانت النتيجة صدور معاهدة جديدة لا تختلف كثيراً في مضمونها عن المعاهدة الأولى من حيث هدفها وروحها[٦].

(١) محمود: ص١١٥، ١١٦.
(٢) الطبري: جـ١٠ ص٢٠، ٢١. ابن الأثير: جـ١ ص٤٦٠.
(٣) ابن الأثير: جـ١، ص٤٦٦.
(٤) الطبري: جـ١٠ ص٢٢.
(٥) المصدر نفسه: ص٣٠.
(٦) محمود: ص١١٦.

وورد كتاب المعتضد إلى خمارويه في (٢٤ ربيع الأول ٢٨٠هـ/ ١٣ حزيران ٨٩٣م) بولايته هو وولده ثلاثين عاماً من الفرات إلى برقة كما ذكرنا، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل في كل عام من المال مائتي ألف دينار عن ما مضى، وفي ذلك إشارة إلى المعاهدة الأولى التي لم تتضمَّن أية شروط مالية، بالإضافة إلى الخراج الذي توقَّف خمارويه عن دفعه بين عامي (٢٧٠ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٨٣ ـ ٨٨٦م) بسبب النزاعات التي سادت بين الطرفين، كما يدفع ثلاثمائة ألف دينار عن كل عام للمستقبل[١].

إن قراءة متأنية لمضمون الكتاب تطلعنا على التطورات التالية:

ـ تحرير الاستقلال الطولوني من القيود في مصر وبلاد الشام.

ـ أعطى الكتاب الطولونيين الحق في تعيين القضاة الذي احتفظت به الخلافة لنفسها منذ الفتح الإسلامي وحتى عهد خمارويه، وأضحى القضاة يُعيَّنون من دون العودة إلى الخلافة. والواقع أن خمارويه كان قد ولَّى أبا عبيدة محمد بن عبدة القضاء في مصر في عام (٢٧٧هـ/ ٨٩٠)[٢] في عهد المعتمد، فيما عدَّه حقاً له، واستناداً إلى ذلك لم يكن منح هذا الحق في عام (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) سوى الاعتراف بالأمر الواقع وإضفاء الشرعية عليه، والمعروف أنه استمر في منصبه حتى عام (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) أي بعد مقتل خمارويه[٣]، ويُعدُّ ذلك تطوراً بعيد المدى في استقلال مصر الإداري والقضائي.

ـ وتشير النصوص الخاصة بتعيين خمارويه على الصلاة والخراج ضمنياً إلى إلغاء آخر قيد على استقلال مصر الداخلي في عهد خمارويه[٤].

ومهما يكن من أمر فقد ردّ الخليفة المعتضد على هدايا خمارويه ونواياه الطيبة بهدايا مماثلة، فقدم رسوله إلى الفسطاط في (رمضان ٢٨١هـ/ تشرين الثاني ٨٩٤م) ومعه اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم يسمى سنيف[٥].

وتطورت العلاقة السياسية بين العباسيين والطولونيين نحو الأفضل بالتقارب الأسري بالزواج، وهو تطور بالغ الأهمية، فقد زوَّج خمارويه ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد الذي رحَّب بهذه الزيجة وطمع في هذه المصاهرة، وكان لكل منهما دوافع متباينة. فخمارويه كان يريد أن يربط البيتين بروابط مودة مستديمة

---

(١) الكندي: ص١٧٧.
(٢) ابن برد، أحمد بن عبد الرحمٰن: ذيل الولاة والقضاة: ص٣٤١، ٣٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٤٢. (٤) محمود: ص١١٨.
(٥) الكندي: ص١٧٧.

وإكساب البيت الطولوني مجداً ونفوذاً قلَّما فاز به، ولم يكن من السهولة أن تتم مصاهرة بين خليفة المسلمين وبين والٍ من ولاة دولته، ويُعدُّ ذلك ظاهرة ملفتة، ولعلَّه كان من الأسلحة التي استعملها لإغراء الخليفة بتجديد العقد تماماً مثل العروض المالية السخية التي تقدَّم بها[١]. أما الخليفة، فكان بحاجة للمال وطمع بمزيد منه كي يُفقر خمارويه بجهازها حيث توقَّع أن تُجهَّز العروس بما يناسب مقام الخلافة من واقع أن يُظهر الطولونيون ثراءهم الواسع، فتتدفَّق الأموال والهدايا إلى الخزينة المركزية التي هي بأمس الحاجة إليها[٢]. وقد تمَّ الزواج في عام (٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) وأصدقها الخليفة مائة ألف درهم[٣].

وصدقت توقعات الخليفة، فقد بالغ خمارويه في تجهيز ابنته وذلك في محاولة لإظهار تفوق الطولونيين الاقتصادي على حاضرة الخلافة، وإطلاع الناس على ما ينعمون به من ثراء وترف ورخاء، فأنهك خزينة الدولة، ولم يحافظ على اقتصاد بلاده المتين، سعياً منه إلى الشهرة والمجد، متجاهلاً وصية والده له بالاعتدال في نفقاته وبعدم الإسراف في المال أو الإغراق في الترف، فضرب بذلك أسس الدولة وقواعدها، فاختلَّ أمرها وهوت بعد وفاته.

علاقة خمارويه مع البيزنطيين

لم تكن لبيزنطية في عهد الامبراطور ليو السادس (٢٧٣ ـ ٢٩٩هـ/ ٨٨٦ ـ ٩١٢م) من القوة ما تستطيع بها مواجهة المسلمين في الشرق والغرب، لذلك حاول هذا الامبراطور التقرب من أرمينيا والتحالف معها لمواجهة المسلمين على الجبهة الشرقية، لكن ما حدث من نشوب النزاع بين البيزنطيين بسبب مشكلة زيجات الامبراطور جعل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين شاقاً وصعباً. ففي الأربع عشرة سنة الأولى من حكم ليو السادس تعرَّضت الامبراطورية لهزائم عديدة في الشرق عند أبواب قيليقيا وفي غربها، حيث أدَّى انتصار المسلمين إلى أن يزحفوا على امتداد الساحل وأن يتوغَّلوا في جوف آسيا الصغرى.

وتوضَّحت نية خمارويه في الجهاد ضد البيزنطيين من خلال التعاون مع يازمان، حاكم منطقة الثغور، الذي اعترف بحكم الأمير الطولوني ودعا له على المنابر. واشتركت القوتان المصرية والشامية في الجهاد، وحقَّقتا انتصارات كبيرة في البر والبحر امتازت بها هذه المرحلة من الصراع. وشكل هذا التعاون الوثيق بين

---

(١) محمود: ص١٢٠، ١٢١. (٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٥٣.
(٣) المصدر نفسه.

خمارويه ويازمان حلقة ناجحة من حلقات الجهاد، والواضح أن ذلك لم يكن ناتجاً عن القوة الطولونية وحسب، وإنما كان للظروف السياسية التي هيَّأها خمارويه وسياسته التوحيدية الهادفة إلى تجميع الإمكانات، دور في ذلك[١].

وظل التعاون المثمر بين الرجلين في الكفاح ضد البيزنطيين طيلة حياة يازمان، والمعروف أنه غزا الصائفة مع أحمد بن طغان العجيفي في (جمادى الآخرة ٢٧٨هـ/ أيلول ٨٩١م) وأُصيب بشظية منجنيق أمام حصن سَلَنْدو وتوفي في (١٤ رجب/ ٢٢ تشرين الأول) متأثراً بجروحه، فحُمل إلى طرسوس ودفن فيها[٢].

وحرص خمارويه على استمرار حركة الجهاد بعد وفاة يازمان، فراح يتدخل في تولية العمال في طرسوس وعزلهم. فقد كتب إليه أحمد بن طغان العجيفي يخبره بموت يازمان، فأقرَّه على ولاية طرسوس وأمدَّه بالخيل والسلاح والذخائر، ثم عزله واستعمل عليها ابن عمه محمد بن موسى بن طولون المعروف بالأعرج[٣].

ويبدو أن هذا التدخل أثار السكان، ذلك أن راغب غلام المُوفَّق اختار الجهاد انطلاقاً من طرسوس، والراجح أنه طمع بحكم منطقة الثغور، فنشب الخلاف بينه وبين محمد بن موسى، فأوعز خمارويه إلى عامله على حلب طغج بن جف بإرسال راغب إلى دمشق للقائه والاطلاع على نواياه فأعلمه طغج بذلك فخرج راغب من حلب إلى مصر وأرسل خادمه مكنون على رأس الجيش الذاهب إلى طرسوس ومعه الأموال، وكتب طغج بن جف إلى محمد بن موسى عامل طرسوس أن يقبض على مكنون فور وصوله إلى طرسوس، ويضع يده على الأموال، وقد تمَّ ذلك فعلاً.

اجتمع راغب بخمارويه في دمشق، فأكرمه وأنس به، واستحيا راغب أن يطلب منه المسير إلى طرسوس، فطال مقامه عنده؛ فظنَّ أصحابه أنه قبض عليه، فأذاعوا ذلك بين سكان طرسوس، فثاروا وقالوا: «يعمد إلى رجل قصد الجهاد في سبيل الله فقبض عليه»، فقبضوا على محمد بن موسى، واشترطوا ألا يطلقوا سراحه إلا بعد إطلاق خمارويه سراح راغب. ولما علم خمارويه بذلك أخبر راغب وأذن له في المسير إلى طرسوس، فلما وصل إليها أطلق أهلها سراح محمد بن موسى الذي خرج إلى القدس، فولّى خمارويه أحمد بن طغان العجيفي على طرسوس مرة أخرى[٤].

كان استقرار الأمور في طرسوس على هذا الشكل، مؤشراً لاستئناف حركة الجهاد، فعهد خمارويه إلى طغج بن جف والي دمشق وطبرية بأن يمد يد المساعدة

(١) زيود: ص١٣١، ١٣٢.
(٢) الطبري: جـ١٠ ص٢٧. وعند ابن الأثير حصن شكند جـ٦ ص٤٦٥.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٤) الطبري: جـ١٠ ص٢٨، ٢٩.

لأحمد بن طغان العجيفي، فخرج في عام (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) لغزو البيزنطيين، فبلغ طرابزون في الشمال على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، وفتح مدينة ملودية[١].

ورافق النشاط العسكري البري، نشاط بحري مماثل قامت به البحرية الطولونية، وما حلَّ بالبيزنطيين من هزائم براً وبحراً أجبر الحكومة البيزنطية على أن تستدعي من إيطاليا قائدها الشجاع نقفور فوكاس.

وتوفي خمارويه من دون أن يرى نتائج جهاده الواسع النطاق، حيث ركن البيزنطيون إلى المسالمة وطلبوا الصلح في عام (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) بدليل ما رواه الطبري من تبادل الفداء بين المسلمين والبيزنطيين على يد أحمد بن طغان العجيفي عامل طرسوس[٢].

وهكذا حافظ خمارويه على تراث الجهاد بالروح نفسها التي سادت زمن والده.

إنجازات خمارويه الإنشائية

قُدِّر للدولة الطولونية في عهد خمارويه أن تستكمل طابعها التقليدي وتحصل من الخلافة على شرعية وجودها، وقد فاق أباه في ذلك، إذ إن الجهود التي بذلها أحمد بن طولون طيلة أربعة عشر عاماً لم تُحقِّق لدولته وجودها الشرعي الذي كان يطمع فيه المؤسس. فقد فشل في انتزاع اعتراف الخلافة في حكم مصر وبلاد الشام الوراثي، على الرغم من أنه حكم البلاد بتكليف من الخليفة المعتمد الذي كان يعطف عليه ويؤيده، ولكن هذا التكليف كان مهدداً بأن يُنقض في أية لحظة مع وجود المُوفَّق.

وحاول أحمد بن طولون بالسياسة حيناً وبالقوة العسكرية أحياناً أن ينال من المُوفَّق، لكنه لم يفلح بل استصدر هذا الأخير مرسوماً من الخليفة بعزله وتولية إسحاق بن كنداج، وتوفي الأمير الطولوني معزولاً من الناحية الرسمية، وظل ابن كنداج يعدُّ نفسه الأمير الشرعي على البلاد، والراجح أنه لو امتد بابن طولون الأجل لقطف ثمار جهوده في التفاهم مع المُوفَّق.

وبدأ خمارويه من حيث انتهى والده، واستطاع أن يُحقِّق آمال الأسرة بدءاً من (رجب ٢٧٣هـ/ كانون الأول ٨٨٦م)، وكانت الظروف السياسية آنذاك عاملاً ممهداً دفع الأطراف المتخاصمة إلى الوفاق؛ وبذلك ملأ خمارويه الفراغ الذي تركه والده، وواجه الفتنة وتغلَّب على هزيمة الطواحين، واستعاد سلطانه كاملاً على بلاد الشام ومصر وأضافت الخلافة إليه أرمينيا، وانتصر على ابن كنداج، وحصل من الخلافة

(١) الطبري: جـ١٠ ص٣٦.
(٢) تاريخ الرسل والملوك: جـ١٠ ص٤٦.

على الحكم الوراثي له ولولده على مصر وبلاد الشام والثغور ثلاثين عاماً، ولم يظفر أحمد بن طولون بمثل هذا من قبل[1].

لكن خمارويه لم يلتزم بوصية والده بعدم الإسراف حتى لا يختل أمره، فانغمس في الترف الذي طبع جميع مظاهر الحياة في عصره، وظهر بمظهر الأمير المترف فيما نُسب إليه من أفعال إنشائية[2]. فقد زاد في إنشاءات قصر أبيه، وحوّل الميدان إلى بستان زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر المطعَّم العجيب، وأنواع الورد والزعفران، وخيار النخل وقد كسا أجسامها نحاساً مذهباً بديع الصنع، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص، وأجرى منها الماء، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل وينحدر إلى فساقي صُنعت لهذه الغاية، ويفيض منها إلى مجارٍ تسقي سائر البستان، وغرس فيه الريحان على نقوش مصنوعة وكتابات مكتوبة كما زرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر، وطعَّم شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك، وبنى فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص، وزوَّقه بأصناف الأصباغ، وبلَّط أرضه، وجعل في تضاعيفه أنهاراً لطافاً يجري فيها الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار، ويُسقى منها الأشجار وغيرها. وسرَّح في هذا البرج الطيور من القماري[3] والدباسي[4] والنونيات، وكل طائر مستحسن حسن الصوت، وجعل فيه أوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الجدارن لتفرخ الطيور فيها، وعارض لها فيه عيداناً في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت، وسرَّح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها.

وأنشأ خمارويه في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب، طلى جدرانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المنقوش، وزيَّنها على مقدار قامة ونصف بالصور البارزة من خشب، وصوَّر حظاياه والمغنيات اللاتي تغنينه، وجعل على رؤوسهن أكاليل من الذهب الخالص، وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن، وهي مسمَّرة في الجدران، ولُوِّنت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا.

وأنشأ خمارويه في البيت فسقية ملأها زئبقاً، ذلك أنه شكا إلى طبيبه كثرة السهر، فأشار عليه بالتغميز[5] فأنف من ذلك، عندئذ نصحه بإنشاء بركة من زئبق، فبناها،

(١) محمود: ص١١٢، ١١٣.
(٢) انظر: خطط المقريزي: جـ٢ ص١٢٤ ـ ١٢٨.
(٣) القماري: جمع قمرية، ضرب من الحمام.
(٤) الدباسي: جمع دبسية، طائر لونه بين السواد والحمرة، يُقرقر.
(٥) التغميز: النخس باليد.

خمسون ذراعاً طولاً ومثلها عرضاً، وعمل فرشاً من أدم يُحشى بالريح حتى ينتفخ فيُحكم عندئذ شدّه ويُلقى على تلك البركة الزئبق، وينام عليها، فلا يزال الفراش يترنح ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم ما سُمع به من الهمم الملوكية، وما عُرِف ملك قط تقدَّم خمارويه في عمل مثل هذه البركة.

وبنى خمارويه قبة في القصر تضاهي قبة الهواء سماها الدكة، فكانت أحسن شيء بُني، وجعل لها الستر التي تقي الحر والبرد، وفرش أرضها بالفرش السرية، وخصَّص لكل فصل فرشاً يليق به، وكان كثيراً ما يجلس في هذه القبة ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان وغيره، ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة، وبنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه.

وبنى خمارويه في داره، دوراً للسباع جعل فيها بيوتاً بآزاج، كل بيت يسع سبعاً ولبوة، وكان له سبع أزرق العينين يدعى زريق أنس به، يحرسه في الليل والنهار، وخصَّص لكل صنف من الدواب اصطبلات.

لم يقتصر هذا الترف والتفنن والذوق في القصر والبستان، بل إن خمارويه بالغ في حياته الخاصة وفي مواكبه، فإذا خرج، خرج في روعة وأُبهة، «كان طويل القامة يركب فرساً تاماً فيصير كالكوكب إذا أقبل لا يخفى على أحد كأنه قطعة جبل، وكان مهيباً ذا سطوة». وإذا كان العيد، بدا في أفخم زي متقلداً سيفاً بحمائل. وكان كلفاً بالصيد، شغوفاً به، يخرج إلى أماكن لم يكن والده يخرج إليها، كالأهرام ومدينة العقاب، ولم يغفل كل ذي طرفة، وكانت حلبة السباق في أيامه عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعُدد الكاملة، فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون في الأعياد.

مقتل خمارويه

كان خمارويه قد بنى قصراً بسفح جبل قاسيون المشرف على دمشق أسفل دير مرَّان[1]، يشرب فيه الخمر، فقُتل في قصره هذا على أيدي خدمه بسبب انحلاله، في (٢٨ ذي القعدة ٢٨٢هـ/ ١٨ كانون الثاني ٨٩٦م). وكان الأمير طغج بن جف في القصر في تلك الليلة، وعندما علم بذلك طارد القتلة وكانوا نيفاً وعشرين خادماً، فأدركهم وقبض عليهم وقتلهم، وحَمل أبا الجيش في تابوت من دمشق إلى مصر، وكان يوم دخوله عظيماً حيث استقبله جواريه وجواري غلمانه ونساء قادته بالصياح

(١) ديرمرَّان: موضع قرب دمشق على تل مشرف على مزارع وبساتين.

وما تصنع النساء في المآتم، وخرج الغلمان وقد حلُّوا أقبيتهم، وفيهم من سوَّد ثيابه وشقَّها، فكانت في البلد ضجة وصرخة حتى دفن. وجرى دفنه في القصر إلى جانب أبي عبيدة البرَّاني، وقد حكم اثنتي عشرة سنة وثمانية عشر يوماً»[1].

جرى ذلك في الوقت الذي لم يكن يُقدَّر أنه سيقتل في نشوة النصر وذروة الظفر لتتصدَّع الإمارة من بعده وتهوى.

(1) الكندي: ص١٧٨. وقارن بالطبري: جـ١٠ ص٤٢. وابن الأثير: جـ٦ ص٤٨٧. وابن كثير: جـ١١ ص٧٢، الذين يذكرون أن خمارويه قُتل في شهر ذي الحجة، ولم يحدد المقريزي الشهر الذي قُتل فيه إنما يذكر أنه خرج إلى بلاد الشام في ٨ شعبان. خطط: جـ٢ ص١٣٤.

الفصل الخامس

تصدع الإمارة الطولونية وزوالها

أبو العساكر جيش بن خمارويه

٢٨٢ ـ ٢٨٣هـ/ ٨٩٥ ـ ٨٩٦م

يمثل عهد خمارويه الذروة التي وصلت إليها الإمارة الطولونية في توسعها وثرائها ورخائها، وشكَّل مقتله المفاجئ بداية النهاية، حيث بدا البيت الطولوني وكأنه فرغ من الرجال القادرين على مواصلة مسيرة الدولة بنجاح، وبدت النظم التي وضعها المؤسس، والتي صمدت طيلة ستة وعشرين عاماً، كأنها بُنيت على الرمال فسارت الإمارة في خطى سريعة نحو الضعف والانحلال، وتهاوى ملك بني طولون في نحو عشرة أعوام. فقد انبعثت النزوات والأطماع والرغبات، وانتشرت الفوضى، وتألَّب الجند، وتنازع المتنافسون على السلطة، وأضحت مصر مسرحاً لأحداث داخلية مفجعة لم تشهدها من قبل، عصفت بوحدة الأسرة التي كانت السند لقوة الدولة، وتولى الشؤون العامة أمراء صغار وضعاف من أبناء خمارويه لم يتجاز الواحد منهم الرابعة عشرة من عمره، وأعمام أقوياء طامعون في الحكم والسلطان إنما أحجمهم الافتقار إلى الأنصار، وطمع غلمان خمارويه وقادة جنده في أن تكون الكلمة الأولى في الدولة لهم وحدهم إرضاء لأطماعهم وتحقيقاً لأهدافهم، فراحوا يضربون الأبناء بالأعمام، ويؤلبون عصبة على أخرى ليستبدوا بالأمر ويحتفظوا بقوتهم ويحافظوا على مكتسباتهم.

عندما توفي خمارويه في دمشق، عاد ابنه أبو العساكر جيش إلى مصر حيث اختارته بطانة والده حاكماً على مصر وبلاد الشام مكانه، ولم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، متجاوزة أعمامه أبناء أحمد بن طولون البالغين والقادرين على ملء الفراغ وذلك للحفاظ على امتيازاتها، فبايعته وهو «صبي لم يؤدِّبه الزمان ولا محَّصته التجارب والعرفان»[1].

(1) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٨٨.

لم يكن جيش بالأمير القادر على تحمُّل المسؤولية التي أُوكلت إليه، فقد انصرف إلى اللهو والشراب، وأحاط نفسه بطائفة فاسدة من السودانيين والروم، لا وزن لأفرادها ولا قدر لهم، ولم يكن لهم عهد بتقاليد البلاد وآداب العامة، وقد دفعوه إلى الانغماس بالملاهي والتجرد من الأخلاق، وحرَّضوه على قتل عمه أبي العشائر، وهو من القادة الطولونيين الذين برزوا في معركة الطواحين[١].

دفعت هذه التطورات بعض القادة من المغاربة والبربر والخزر، الذين يميلون إلى أحمد بن طولون وأبنائه، بزعامة برمش الخزري، إلى الطلب من جيش الاستقالة وتولية أحد أعمامه، وقد عزَّ عليهم أن يُحْرَمُوا من المكاسب وأن ينفرد بها سواهم، وسخطوا عليه بفعل تراجعهم إلى المرتبة الثانية في عهده، وهذا تفكير شخصي بطبيعة الحال، فرفض الطلب، وأقدم على قتل عمه أبي العشائر نصر، ورمى برأسه إلى الثائرين[٢]، واضطر القادة الأتراك الذين شاركوا الثائرين في توجهاتهم، إلى الفرار من مصر، وخرجوا في خاصة غلمانه، وهم زهاء ثلاثمائة غلام، بعد أن خشوا على حياتهم، وساروا في طريق إيلة حتى وصلوا إلى الكوفة، فرحَّب بهم الخليفة المعتضد، وأرسل من يستقبلهم ويُزوِّدهم بالزاد والميرة والدواب، كان على رأسهم محمد بن إسحاق بن كنداج، وخاقان المفلحي[٣]، ومحمد بن كمشجور، وبدر بن جف وغيرهم، وسيؤدي هؤلاء دوراً هاماً في إسقاط الإمارة الطولونية، من واقع انضمامهم إلى حملة محمد بن سليمان الكاتب الموجهة إلى مصر[٤].

استغل طغج بن جف، والي الشام، زعزعة الوضع الداخلي في مصر، وخرج على الحكم الطولوني. ويبدو أن مظاهر السخط التي فشت بين طوائف الجند والقادة في مصر ومعارضة بعضهم بيعة الأمير الصبي قد امتدت إلى بلاد الشام، فرفض طغج أن يخضع لأمير صغير لا يستطيع تحمل المسؤولية. وكانت أعمال جيش وتصرفاته اللامسؤولة، وعبث حاشيته المحيطة به، تزيد في تذمره، وعلى الرغم من أنه أخذ البيعة له، إلا أنه فضَّل اعتلاء أحد أعمامه الناضجين، لذلك لم يستمر طويلاً في الولاء له، فخلع طاعته وأسقط اسمه من الخطبة واستقلَّ بحكم ما بيده من الأعمال[٥].

كان خروج طغج بن جف على هذا النحو من النذر الخطرة التي برزت في هذه

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٨٨، ٨٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٨٨، ٨٩، ٩١. الطبري: جـ١٠ ص٤٥، ٤٦.
(٣) هو خاقان البلخي، وينتسب إلى مفلح وإلى بلخ معاً.
(٤) الكندي: ص١٧٨، ١٧٩. (٥) المصدر نفسه: ص١٧٩.

المرحلة من حياة الطولونيين لأنه يُعرِّض حدود الدولة الشرقية للخطر، ومما زاد الأمر صعوبة وخطورة أنه كانت تحت إمرته قوات طولونية كبيرة، ويتحكَّم بموارد بلاد الشام مع وفرتها وكثرتها، وسيكون له أثر كبير في زعزعة الحكم الطولوني فيها، وبالتالي تدعيم الانفصال الذي كان من العوامل الهامة التي أسهمت في انهيار الحكم الطولوني[١].

ولم تكن منطقة الثغور لترضى أيضاً أن تُذعن لحكم أمير طفل، فأعلن أحمد بن طغان، نائب الطولونيين في الثغور، عدم رضاه عما آلت إليه الأوضاع، فخرج عن طاعة الدولة المتداعية والانصياع للأمير الصغير جيش، وقرَّر خلعه بعد مدة وجيزة من توليته[٢].

واشتدت الفتنة في مصر ضد حكم جيش، وامتدت إلى حاشيته والمحيطين به، فقُتِل كاتبه علي بن أحمد الماذرائي، وتمكَّن أبو جعفر بن أبَّى، وهو أحد كبار رجال الدولة، من الهرب والنجاة بنفسه[٣]، وقام برمش وصافي وفائق في أكثر طوائف الجند والموالي، فخلعوا جيشاً وسجنوه في (١٠ جمادى الآخرة ٢٨٣هـ/ ٢٥ تموز ٨٩٦م)، ونهبوا داره، ثم ما لبثوا أن قتلوه بعد عدة أيام[٤].

(١) زيود: ص١٤٨. (٢) الكندي: ص١٧٩.
(٣) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٩٢.
(٤) المصدر نفسه: ص٩٤. الكندي: ص١٧٩.

هارون بن خمارويه

٢٨٣ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٩٦ ـ ٩٠٤م

الأوضاع الداخلية

تفتيت وحدة الإمارة

اجتمعت القوى النافذة وقادة الجند، يوم خلع جيش، وأسرعوا في تولية أبي موسى هارون بن خمارويه، وكان صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، متظاهرين بالولاء للبيت الطولوني، لكن الواقع أنهم خشوا أن يتولى الحكم أحد الرجال الطولونيين الكبار فيقف ضد تطلعاتهم ويحاسبهم على أعمالهم، لذلك اتفقت أهواؤهم على تنصيب من لا يقدر على التصدي لعبثهم، وهم بذلك يضربون الإمارة من داخلها ويسيرون بها نحو الهاوية[١].

شهد عهد هارون أحداثاً داخلية خطيرة دفعت الإمارة إلى نهايتها المحتومة. فقد رأى القيِّمون على تسيير الأمور أنهم أضعف من أن يواجهوا الأمور المستجدَّة، وتراجعوا أمام التحديات والتصدي للأخطار الكبيرة التي ظهرت على مسرح الأحداث السياسية في بلاد الشام والثغور، في الوقت الذي انهمك فيه هارون باللهو والسكر، وأدركوا أنهم أضعف من أن يُخضعوا طغج بن جف، لذلك استقطبوه بالسياسة، فأرسلوا إليه سفارة تساومه في الاعتراف بحكم هارون مقابل الاحتفاظ بنفوذه في بلاد الشام. فقد ذهب كل من بدر الحمامي والحسين بن أحمد الماذرائي إلى دمشق من أجل هذه الغاية، ونجحا في مهمتهما، فسُوِّيت الأمور في بلاد الشام وتقررت جميع أعمالها[٢]، وعندما عادا إلى مصر وجدا أن الأمور قد ازدادت سوءاً فقد تقاسمت الحاشية السلطة والوظائف العامة مشكِّلة مراكز قوى داخل الدولة،

(١) الكندي: ص١٧٩. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٩٩.

(٢) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٠٠.

وراحت تعمل لمصلحتها، نذكر من بين أفرادها، أبا جعفر بن أبَّى، الذي تولى الوصاية على الأمير الصغير، وفائق وصافي، وانضم بدر الحمامي إليهم، وقد حرص هؤلاء على:

ـ احتكار السلطة والتحكم بشؤون الدولة، وأن تكون لهم الكلمة الأولى في تسيير الأمور.

ـ التخلص من أعمام هارون، بحيث لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة حتى لا يفكروا بالوثوب إلى السلطة.

وقد سيطر كل واحد منهم على طائفة من الجند يخضع أفرادها لسلطته المباشرة، في خطوة لضرب وحدة الجيش الذي يشكل عماد الدولة وقوتها، ويتولى دفع رواتب أفرادها ومخصصاتهم بعد أن تُنقل إلى داره حتى «أضحى عطاء كل طائفة من الجند إلى دار الذي صارت في جملته، وصاروا له كالغلمان»[١].

واختصَّ كل واحد من هؤلاء القادة بسلطات إدارية واسعة. فقد تولّى ابن أبَّى الوصاية، كما ذكرنا، وتصرف بدر الحمامي في شؤون بلاد الشام يصلح أمرها كيف يشاء، فجمع بين هذا النفوذ وبين الجاه الواسع الثراء، وتنافسوا في حسن الزي وبسط اليد في الإنفاق «رجع بدر وأظهر زياً حسناً، وأنفق نفقة كثيرة وأصلح»، وحجَّ فائق في السنة التالية وأنفق أكثر مما أنفق بدر[٢]. وعمدوا إلى التضييق على أنصار أحمد بن طولون، فنكَّلوا بهم، وشتَّتوا شملهم. فنفى ابن أبَّى ربيعة بن أحمد وإخوته إلى الإسكندرية[٣]، ثم حاول أن يتفرَّد بالسلطة، ولم تكن تعنيه الدولة وقوة الجيش بقدر ما تعنيه مصالحه الذاتية، فبدأ يُقرِّب إليه صغار الضباط، ثم راح يحيك الدسائس لضرب القادة الثلاثة الواحد بالآخر، كما عمد إلى ضرب طوائف الجند بعضها ببعض. فأغرى هارون بالتخلص من حاجبه سمجور، فما زال به حتى قبض عليه وقتله، وألَّب الأتراك على الروم، وأوقع ببرمش زعيم طائفة الخزرية وقتله، وما زال بالقائد صافي حتى نفاه هارون إلى الرملة، وحرص على قتل بدر الحمامي[٤].

وعلى هذا الشكل تفتَّتت وحدة الدولة والجيش، ما كان سبباً من أسباب انهيار الإمارة ومن ثَمَّ سقوطها وزوالها.

خروج ربيعة بن أحمد بن طولون

يبدو أن ربيعة بن أحمد بن طولون وإخوته فقدوا تأييد كثير من أنصارهم الذين

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٠١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص٩٩.

(٤) المصدر نفسه: ص١٠٣.

انقلبوا عليهم، ومع ذلك فقد كتب من ظلَّ على ولائهم لهم، ورفضوا ولاية هارون، إلى ربيعة يستدعونه من الإسكندرية، وأنه «لو كشف وجهه لتبعه أكثر الجيش»[1]، فصادفت هذه الدعوة هوى في نفسه، فجمع من أهل البحيرة، والبربر وغيرهم، جيشاً كثيفاً وسار على رأسه إلى مصر ونزل قريباً من الفسطاط، لكن القوم الذين استدعوه خذلوه، وتراجعوا عن نصرته، ولم يخرج أحد منهم لمساندته والدفاع عنه أمام هجمات جند هارون الذين قاتلوه وأسروه، ثم ضربوه بالسياط حتى الموت وذلك في (شعبان ٢٨٤هـ/ أيلول ٨٩٧م)[2].

الأوضاع الخارجية

خروج الثغور من السيادة الطولونية

وشهد عهد هارون أيضاً أحداثاً خارجية خطيرة أكملت حلقات التدهور، وأدَّت بالنهاية إلى سقوط الإمارة الطولونية.

ذكرنا من قبل أن راغباً، مولى المُوفَّق، نزل طرسوس للجهاد وأقام فيها، وعيَّن خمارويه أحمد بن طغان نائباً له على الثغور بعد مغادرة نائبها محمد بن موسى بن طولون، وخرج هذا على الحكم الطولوني بعد وفاته واعتلاء ابنه أبي العساكر جيش، معلناً عن عدم رضاه عما آلت إليه الأمور في مصر.

وحدث في عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) أن استغلَّ راغب انهماك أحمد بن طغان بأمر الفداء مع البيزنطيين واستبد بأمر الثغور، فأسقط الدعاء للطولونيين ودعا لبدر مولى الخليفة المعتضد، واضطر أحمد بن طغان إلى مغادرة طرسوس بحراً عائداً إلى مصر، إلا أنه كلَّف نائبه دميانة، غلام يازمان، القيام بأمر طرسوس، وأمدَّه بقوة عسكرية بقيادة يوسف بن الباغمردي وعيَّنه خلفاً له[3].

والواقع أن الخليفة المعتضد لم يعترف بهارون بن خمارويه إلا بعد ثلاثة أعوام من اعتلائه السلطة، ولم يمنحه الحقوق نفسها التي منحها لسلفه، وأنه نقض المعاهدة المبرمة مع خمارويه. وجاء اعترافه به في أعقاب المعاهدة الجديدة التي عقدت بينهما والتي أخرجت الطولونيين نهائياً من منطقة الثغور، وقد أملى شروطها بما يتلاءم مع حال الضعف والانهيار التي تفشَّت في مُلك الطولونيين. وكان من

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٩٩.
(٢) الكندي: ص١٧٩، ١٨٠.
(٣) الطبري: جـ١٠ ص٥١.

نتيجة عدم الاعتراف هذا في المدة الزمنية بين عامي (٢٨٣ و٢٨٦هـ/ ٨٩٦ و٨٩٩م) تدخله المباشر في شؤون الإمارة الطولونية.

كانت أولى مراحل هذا التدخل دفع راغب بالاصطدام بالحليفين، دميانة ويوسف بن الباغمردي، اللذين استنكرا ما أقدم عليه راغب من الدعاء لبدر العباسي، وأسفر الصدام عن انتصار راغب، فاعتقل خصميه مع ابن اليتيم وحملهما مقيدين إلى بغداد[1]، فانحسر بذلك النفوذ الطولوني عن الثغور وبخاصة في طرسوس، وأضحى وجودهم في هذه المنطقة أمراً لا قيمة له[2].

واستمر التدخل العباسي المباشر في شؤون الثغور لضرب الطولونيين وإخراجهم نهائياً من المنطقة هذه المرة. ففي عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) قدمت وفود من أهل طرسوس على الخليفة المعتضد تطلب منه العناية بشؤونهم وضبط أمور ثغرهم، وتعيين من يقودهم للجهاد ضد البيزنطيين، وبخاصة أنهم أضحوا بغير أمير، بعد أن طردوا الوالي الطولوني بسبب سوء تصرُّف الولاة الطولونيين[3].

ويبدو أن الخليفة ارتضى هذه التبعية، فعيَّن ابن الأخشيد أميراً على الثغور، وقد بقي في منصبه حتى وفاته في عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، فاستخلف أبا ثابت على طرسوس[4].

وتطلع الخليفة بعد هذا كله إلى منطقة الجزيرة وأعالي الفرات من ديار ربيعة وديار مضر، لاقتطاعها من ملك الطولونيين، واضطر هؤلاء تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية المتمثلة بخروج بعض مدن الشام وثغورها، بالإضافة إلى ما أصابهم من الوهن، إلى مقايضة وجودهم فيها مقابل اعتراف الخلافة بحقوقهم في مصر وبلاد الشام، وذلك في عام (٢٨٥هـ/ ٨٩٨م، بدليل أن الخليفة أرسل مولاه فاتكاً «للنظر في أمور العمال بالموصل وديار ربيعة وديار مضر والثغور الشامية والجزرية، وإصلاح الأمور بها إلى ما كان يتقلده من أعمال البريد بهذه النواحي»[5]. وهكذا أضحت هذه البلاد تابعة للخلافة تبعية مطلقة ينظر الخليفة في أمور عمالها ويتصرف فيها تصرفاً كاملاً.

وأرسل هارون سفارة إلى الخليفة المعتضد برئاسة وصيف القطرميز، تحمل الهدايا والأموال، وما كان يحمله الطولونيون من مصر إلى العراق؛ مهمتها وضع

(١) الطبري: جـ١٠ ص٥١.
(٢) زيود: ص١٤٤.
(٣) الطبري: جـ١٠ ص٥٢، ٥٣.
(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٩٧، ٥٠٦. وعند الطبري: ابن الأخشاد: جـ١٠ ص٦٩.
(٥) الطبري: جـ١٠ ص٦٨.

عملية المقايضة موضع التطبيق والاعتراف بحكم هارون على مصر وبلاد الشام، لكن الخليفة ردَّ السفارة ورفض الطلب الطولوني، وكان لذلك علاقة بمدى ضعف الإمارة الطولونية، وما كان يخطط له لإخراج الطولونيين من المنطقة وإعادتها إلى السلطة المركزية في بغداد، وأرسل عبد الله بن الفتح إلى الفسطاط ليفاوض الطولونيين ويشترط عليهم شروطاً مقابل هذا الاعتراف[1]. وتتعلق هذه الشروط بالسيادة الطولونية على بعض أقاليم بلاد الشام، وبخاصة المنطقة الشرقية والشمالية بما فيها الثغور، بالإضافة إلى زيادة حجم الأموال المرسلة من مصر إلى بغداد[2].

وتعزيزاً لهذه الجهود، خرج الخليفة المعتضد بنفسه إلى آمد، فخشي الطولونيون من أن يكون ذلك مقدمة لتدخل أوسع في وقت تردَّى فيه وضعهم في مصر، لذلك واجهوا الموقف الجديد بشكل مذل يختلف عما ألفناه من أحمد بن طولون وخمارويه، بدليل هذه المعاهدة التي عُقدت بين الطرفين في عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) والتي تنطق نصوصها بالمهانة، وتُعدُّ انتقاصاً للطولونيين وامتهاناً وتدخلاً سافراً في شؤونهم الداخلية، وأهم بنودها:

- يتنازل الطولونيون عن أعمال حلب وقنسرين والعواصم إلى العباسيين بما في ذلك ديار ربيعة وديار مضر[3].

وفعلاً تسلَّم عمال المعتضد هذه الأعمال من أصحاب هارون[4]، وكأن هارون اعترف بضياع هذا الجزء الهام من أملاك الطولونيين.

- يُرسل الطولونيون أربعمائة وخمسين ألف دينار إلى بيت المال في بغداد كل سنة[5].

الواضح أن المعتضد أراد أن يضغط مادياً على الطولونيين وهو مدرك مدى حدة التدهور الاقتصادي الذي تمر به مصر في هذه المرحلة الحرجة، وخسارة الطولونيين لأكثر موارد بلاد الشام، في الوقت الذي لم يكن هارون يجد مالاً يدفع منه عطاء الجند، وكأنه تعمَّد إرهاقهم ليزيد الوضع سوءاً، ويخلق مبرراً لتدخله المباشر[6].

- يوافق الطولونيون على تدخل الخليفة المباشر في الأوضاع الداخلية لمصر من واقع تعيين مندوب يمثله، ويقوم بالإشراف، وأرسل المعتضد لهذه المهمة، بدراً القدامي[7].

(١) الطبري: ج١٠ ص٦٩.
(٢) زيود: ص١٥٠.
(٣) ابن العديم: ج١ ص٩٢.
(٤) الطبري: ج١٠ ص٧١.
(٥) المصدر نفسه: ص٧٠، ٧١.
(٦) زيود: ص١٥١.
(٧) الطبري: ج١٠ ص٧١.

الواقع أن هارون قَبِل ما هو أبلغ دلالة على ضعف الطولونيين وتخبطهم، فقد رضي أن تكون للخليفة وصاية على شؤون مصر الداخلية، وهذا أمر جديد في العلاقات السياسية، وربما يكون الخليفة قد أصرَّ على أن تصدر الأوامر الإدارية في مصر باسم مندوبه بدر القدامي، وأن يصبح أمير مصر في المرتبة الثانية، إذ ما كان ليرضى بهارون أميراً من قِبَله لولا نفوذ بعض الشخصيات في بغداد وعلى رأسهم قطر الندى[1].

وأثناء وجود الخليفة في آمد، عادت سفارة عبد الله بن الفتح ووصيف القطرميز حاملة قبول الطولونيين لشروط الخلافة، ويبدو أن الخليفة كان واثقاً من ردِّ الطولونيين، لذلك كان يترقب الأحداث ليقرر الخطوة التالية، وهي إخراج الطولونيين من منطقة هامة وتقليص حكمهم في بلاد الشام، وبخاصة أن المعاهدة أعطته حرية الحركة والانتشار في منطقة الثغور، لذلك خرج بنفسه في (١١ شوال ٢٨٧هـ/ ٩ تشرين الأول ٩٠٠م) لضبطها وإصلاحها وتأديب وصيف، خادم محمد بن أبي الساج، الذي حاول السيطرة عليها، وكان ارتحاله من مضربه بباب الشماسية، فقبض على الخادم الذي كان في طريقه إلى عين زربة، ثم دخلها وأقام بها يومين، ونزل المصيصة وأقام بها أسبوعاً واستدعى وجوه أهل طرسوس، فحضروا إليه، وقلَّد الحسن بن علي كورة الثغور الشامية بعد موافقة سكانها، ثم غادر المصيصة إلى فندق الحسين ثم إلى الإسكندرونة، فبغراس وأنطاكية التي أقام بها إلى يوم النحر، ورحل عنها في اليوم الثاني، فنزل أرتاح ثم الأثارب ثم حلب، فأقام بها يومين ثم غادرها إلى الناعورة وخساف وصفين وبالس ودوسر والرقة التي دخلها في (٢٢ ذي الحجة/ ١٧ كانون الأول)[2].

النشاط القرمطي وأثره على السيادة الطولونية

ازداد الوضع الطولوني في بلاد الشام خطورة على أثر ظهور قوة جديدة قُدِّر لها أن تقضي على ما بقي للطولونيين من نفوذ بموجب الاتفاق الأخير مع العباسيين، وهيبة في النفوس، وتُعلي كلمة الخلافة وتُظهرها بمظهر المنقذ للعالم الإسلامي، وتحلُّها من أية وعود أعطتها للطولونيين، وتمنحها سنداً شرعياً لغزو مصر واستئصال بني طولون منها. هذه القوة الجديدة هي قوة القرامطة الذين اجتاحوا بلاد الشام ونشروا الفوضى والاضطراب في جميع أرجائها. ولا يعنينا في هذا المقام أن نؤرخ لهذه الحركة إلا بما يتعلق بتأثيرها على الخلافة من ناحية وعلى الطولونيين من ناحية أخرى، ويمكن أن نشير إشارة عابرة إلى نشوئها وتطورها السياسي والعسكري.

(١) محمود: ص١٥٥.
(٢) الطبري: ج١٠ ص٨٠، ٨١.

القرامطة طائفة سياسية دينية عُرفت بذلك نسبة إلى أحد دعاتها حمدان بن الأشعث الملقب بـ«قرمط»[١].

ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري في منطقة واسط بالعراق وهي استمرار للدعوة الإسماعيلية[٢]، على الرغم من الأطوار العصيبة التي مرَّت بها العلاقة بين الحركة الأم (الإسماعيلية) والحركة الناشئة (القرمطية) ووصولها إلى حد المواجهة المسلحة، حين هاجم القرامطة مدينة سلمية في بلاد الشام مركز الدعوة الإسماعيلية، وكان النزاع بين حمدان قرمط وأسياده قد تفجَّر حول مسألة الإمامة.

نشأت الحركة القرمطية في سواد العراق في عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م) في عهد الخليفة المعتمد، ثم انتقلت إلى بلاد الشام والبحرين واليمن، وذلك في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلها حركة الزنج[٣]، والراجح أن الاتجاه الاجتماعي ـ الاقتصادي قد غلب على اتجاهها الديني على الرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية[٤].

ويُعدُّ حمدان بن الأشعث، وهو من أهل الكوفة، أحد دعاة القرامطة الأوائل،

---

(١) كان حمدان قرمط رجلاً أحمر العينين يُحمل على أثوار له، وكان أهل القرية يسمونه كرميتة، وهو بالنبطية أحمر العينين، وفي رواية أنه سُمي بذلك لقصر قامته ورجليه. إن لفظة قرامطة إنما هي نسبة إلى مذهب يقال له القرامطة، خارج عن مذاهب الإسلام، فيكون على هذه الرواية قد عزوه إلى مذهب باطل لا إلى رجل، ويتوافق ذلك مع القول بأن كلمة قرمط هي كلمة أرامية تعني العِلْم السري، والمعنى الذي تدل عليه كلمة قرامطة، وهو السري، يتفق مع لقب الباطنية، وهو القول بوجود عِلْم ظاهري وعِلْم داخلي خاص، وعلى هذا يكون معنى القرامطة هو الباطنية. انظر الطبري: جـ١٠ ص٢٣ ـ ٢٥. ابن الأثير: جـ٦ ص٤٦٢.

(٢) انقسمت الشيعة الإمامية، بعد وفاة جعفر الصادق، إلى قسمين، بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، هما الإمامية الموسوية، وقد أطلق عليها فيما بعد الاثنا عشرية، اعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع، وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه فقد حوَّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثَمَّ أُطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتمييزهم عن الإثني عشرية.

(٣) انظر فيما يتعلق بهذه الظروف كتابنا: تاريخ الدولة العباسية: ص١٧٢ ـ ١٧٧.

(٤) استندت الدعوة القرمطية المنبثقة عن الحركة الإسماعيلية على فكرة الباطنية، بمعنى أن لكلِّ ظاهر باطناً. فآيات القرآن ظاهرها يُعطي معنى، وباطنها يُعطي معنى آخر يختلف كلياً عن المعنى الظاهري، وأن الإمام العلوي، وريث النبوة والمطلع على الأسرار الإلهية، هو وحده الذي يستطيع أن يُؤوِّل آيات القرآن.

وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزنج، وتوجَّهت إلى أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمَّت فيها الحركة المذكورة، فصادفت رواجاً كبيراً في صفوف الأعراب الذين يتوقون إلى الغنائم، وفلاحي السواد، والطبقات الفقيرة.

كان حمدان بن الأشعث الذي انتقلت إليه رئاسة الحركة القرمطية، من المخلصين لمركز الدعوة الإسماعيلية في سلمية، غير أنه امتاز بالعنف وافتقر إلى الروح السياسية ما دفعه إلى الثورة على العباسيين في عام (٢٧٨هـ/ ٨٩١م)، من دون العودة إلى سلمية التي كانت ترى ضرورة التريث، ولم ترضَ عن سلوكه الثوري، فاستغل زكرويه بن مهرويه، زعيم قرامطة شمال العراق، هذا التعارض بين الطرفين، وعمل على تزعم الحركة القرمطية من واقع إبعاد حمدان بن الأشعث. وبعد مدة زمنية وجيزة اختفى حمدان عن مسرح الأحداث في ظروف غامضة، وقتل زكرويه صهره عبدان، وهو أحد الدعاة الكبار، الأمر الذي مكَّنه من البروز وتزعم الحركة القرمطية في سواد العراق، غير أنه تعرَّض للتهديد من بعض الدعاة المخلصين لسلمية وآل حمدان، ففرَّ إلى بلاد الشام واستتر مدة عامين بين القبائل التي اعتنقت الدعوة الإسماعيلية، وأخذ يعمل على التمهيد للسيطرة على بلاد الشام والاستقلال عن سلمية، فأرسل أولاده وأنصاره إلى بادية الشام لنشر النفوذ القرمطي، وساعدته ظروف بلاد الشام السياسية المفكَّكة وأوضاعها الاقتصادية السيئة، وساندته قبائل كلاب وقشير وعقيل والعجلان والعليص ومواليهم. وازداد نشاطه بعد اتصاله ببني الليث، وهم من القبائل العربية البدوية الذين يقطنون بادية الشام، وكانت جماعة منهم من كلب تخفر الطريق بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها[١].

ونفذ القرامطة، بقيادة زكرويه، إلى إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام منذ عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)، ودخلوا في صراعات سياسية وعسكرية كان لها أثر خطير على مجرى الأحداث السياسية في كل من مصر وبلاد الشام، بل إنها كانت السبب المباشر الذي قضى على الطولونيين وأنهى حكمهم للمنطقة. فبعد انتصارهم على سبك الديلمي، مولى المعتضد، بناحية الرصافة غربي الفرات[٢]، تقدَّموا نحو بلاد الشام وهاجموا أملاك الطولونيين، وكان هؤلاء قد تفرَّق شملهم وتراجعت قوتهم العسكرية، وتقلَّص حكمهم عن كثير من المدن الشامية التي أضحت تحت سلطة أمراء مستقلين يخضعون اسمياً لهم، لذلك لم يصمدوا أمام المدِّ القرمطي الجارف.

وتصدَّى طغج بن جف، حاكم بلاد الشام، للزحف القرمطي، ويبدو أنه لم يكن

---

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٢١.

(٢) الطبري: جـ١٠ ص٩٧. ابن الأثير: جـ٦ ص٥٢٢.

على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، فلم يُقدِّر التطور الهائل الذي طرأ على الحركة القرمطية سياسياً وعسكرياً، فخرج للقائهم، وهو على غير تعبئة، وكأنه في نزهة صيد حاملاً معه الطيور والصقور، فلم تصمد قواته أمامهم وتعرَّضت لكارثة حقيقية من القتل الشنيع من دون شفقة[١].

وكرَّر القرامطة انتصارهم على جيش شامي في منطقة الكسوة جنوبي دمشق، كان طغج بن جف قد أرسله للاصطدام بهم بقيادة غلامه بشير الذي قُتل في المعركة. وتقدَّمت القوات القرمطية، بعد هذا الانتصار، إلى دمشق، وحاصرتها. استمر الحصار مدة سبعة أشهر تعرَّض السكان خلالها للمجاعة، فأرسل طغج بن جف رسالة استغاثة إلى مصر، فبعث إليه هارون قوة عسكرية بقيادة بدر الحمامي لمساعدته في هذه المحنة. وتمكَّنت القوتان الشامية والمصرية من فك الحصار عن دمشق، واشتبكت مع القوات القرمطية في ضواحيها وانتصرت عليها وقتلت قائدها يحيى بن زكرويه، الملقَّب بالشيخ وبصاحب الناقة، وأجلتها عن مواقعها[٢].

لم ييأس القرامطة، إثر هزيمتهم، فأعادوا تنظيم صفوف قواتهم في مناطق تجمُّع العشائر الشامية على ضفتي الفرات، ونصَّبوا الحسين بن زكرويه، أخا يحيى، والملقَّب بصاحب الشامة[٣]، ثم تحركوا لمهاجمة المدن الشامية. ولم يكن لقوات بدر الحمامي أن تنتصر عليهم بسبب ضعفها، فاضطر سكان دمشق إلى مصالحتهم على مبلغ من المال، فتركوهم وتوجَّهوا نحو حمص، فخُطب لصاحب الشامة على منابرها وتسمى بالمهدي، ثم ساروا إلى حماة فاستسلم سكانها وكذلك سكان بعلبك، ودخلوا سلمية، وقتلوا كثيراً من سكانها من العباسيين والهاشميين وأنصار عبيد الله المهدي، الذي كان قد غادرها إلى المغرب، ثم غادروها إلى بعض القرى يقتلون ويحرقون ويخيفون السابلة[٤].

توضَّح تراجع القدرة الميدانية للجيش الطولوني بعد الهزائم المتكررة التي تعرَّض لها، وعجزه عن حماية المدن الشامية وسكانها أمام ما نشره القرامطة من ذعر وفوضى، فضاعت هيبة الطولونيين في نفوس الناس، وارتفعت صيحات النقمة والاحتجاج في أرجاء العالم الإسلامي في غربي آسيا، وتدفقت الرسائل من مصر وبلاد الشام إلى دار الخلافة لالتماس المساعدة، فكتب تجار دمشق إلى الخليفة مستنجدين به[٥].

---

(١) الطبري: ج١٠ ص٩٧. المسعودي: ج٤ ص١٩٠.
(٢) الطبري: ج١٠ ص٩٧، ٩٩. (٣) المصدر نفسه: ص٩٩.
(٤) المصدر نفسه: ص٩٦، ١٠٠. ابن العديم: ج١ ص٩٤.
(٥) الطبري: المصدر نفسه: ص٩٧، ٩٨.

كانت الخلافة تنتظر الفرصة المؤاتية للتدخل وإثبات وجودها وتأكيد مكاسبها في بلاد الشام، وإظهار ضعف الطولونيين، بعد التغييرات التي حدثت في رأس السلطة باعتلاء المكتفي سدة الخلافة، على أثر وفاة المعتضد في عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)، فقرَّر الخليفة المكتفي التصدي للقرامطة وضربهم في بلاد الشام في خطوة أولى، ومن ثم القضاء على الطولونيين فيها وفي مصر في خطوة ثانية. فأعلن حال الاستعداد في بداية (رمضان ٢٩٠هـ/ آب ٩٠٣م)، وأعطى الجند أرزاقهم ومنحهم مائة ألف دينار دفعة واحدة لتشجيعهم[١].

تجمَّعت القوات العباسية عند باب الشماسية، فاستعرضها الخليفة، ومن ثم سار على رأسها نحو بلاد الشام متخذاً طريق الموصل، وتوقف في هذه المدينة وراح يرسل منها الجيوش الواحد تلو الآخر. توجَّه الجيش الأول إلى حلب بقيادة أبي الأغر، وتعداده عشرة آلاف مقاتل، وعسكر أفراده في وادي بطنان القريب من المدينة، فباغتتهم القوات القرمطية وهزمتهم، وقتلت كثيراً منهم، ونجا أبو الأغر مع نفر من جنوده لا يتجاوزون الألف، ودخل بهم إلى حلب، فطاردتهم القوات القرمطية وحاصرت المدينة، غير أنه تمكَّن بمساعدة سكانها من رفع الحصار بعد اصطدامات ضارية مع المحاصِرين، وقتل منهم أعداداً كثيرة[٢]، ووصل الخليفة في غضون ذلك إلى الرقَّة، وأرسل جيشاً كثيفاً لمطاردة القرامطة والقضاء عليهم، بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، فالتقى بهم بالقرب من حماة وهزمهم، واستأصل شأفتهم، ووضع حداً لخطرهم في بلاد الشام، وذلك في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م)[٣].

ويبدو أن الزعيم القرمطي الحسين بن زكرويه لم يشترك في المعركة حيث فضَّل أن يتخلَّف وراء القوات ومعه الأموال والأرزاق الكثيرة، فذهب إلى سلمية للتحصن بها، ثم ذهب إلى العراق متخفياً ليعيد تجنيد جيش آخر، لكن القوات العباسية قبضت عليه مع مرافقيه، وعددهم ثلاثمائة ونيف، في قرية الدالية من أعمال الفرات، فأرسلهم محمد بن سليمان الكاتب إلى الخليفة، فعذَّبهم ثم قتلهم[٤].

أضعفت هذه الهزائم، وبخاصة مقتل الحسين بن زكرويه، القرامطة في بلاد الشام، فمال الكثير منهم إلى المسالمة لا سيما زعماء بني العليص، وعلى الرغم من ذلك، فقد حاول بعضهم تجديد نشاطهم بقيادة أبي الفضل بن زكرويه، إلا أنهم تعرَّضوا للهزائم أمام القوات العباسية واضطروا للفرار إلى البادية خشية القتل[٥].

---

(١) الطبري: ج١٠ ص١٠٣. (٢) ابن العديم: ج١ ص٩٤، ٩٥.
(٣) الطبري: ج١٠ ص١٠٨. (٤) المصدر نفسه: ص١٠٨ ـ ١١٥.
(٥) المصدر نفسه: ص١٢١، ١٢٢.

وهكذا استطاع الخليفة المكتفي أن يحقق الهدف الأول من خطته بإحراز النصر على القرامطة حيث أخفق الطولونيون، واستردَّ هيبة الخلافة كاملة، وبدا في نظر الناس وكأنه المنقذ، فخلع على قادة الحملة، وبخاصة محمد بن سليمان الكاتب، وبذلك تمهَّد الطريق أمامه ليتجاوز بلاد الشام لتحقيق الهدف الثاني من خطته وهو القضاء على الطولونيين في مصر، فأسند إلى قائده المنتصر محمد بن سليمان الكاتب تنفيذ هذه المهمة.

زوال الإمارة الطولونية

كانت خطوة الخلافة التالية القضاء على الطولونيين واستعادة مصر من أيديهم، ويُعدُّ انتصارها على القرامطة مقدمة لهذا الاسترداد. وكان الخليفة متعجِّلاً لإنهاء الوجود الطولوني في مصر، على الرغم من أن الطولونيين خضعوا فعلاً لنفوذ الخلافة وصايتها المباشرة بمقتضى معاهدة عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) التي عقدها المعتضد مع هارون، وقد ضعفت قوتهم وتفرَّق شملهم، وضاعت بلاد الشام منهم، وانقطعت مواردها عنهم، ما أوقعهم في أزمة اقتصادية شديدة عجز معها هارون عن الوفاء بالتزاماته المادية تجاه الخلافة، بموجب المعاهدة المذكورة، ولعل لهذا التعجل علاقة بمدى ما كان يكنُّه العباسيون من أحقاد للطولونيين، فقد أراد المكتفي أن يجتثَّ جذور هذه العائلة التي تحدَّى أمراؤها جدَّه من قبل وهزموه، وفرضوا عليه واقعاً في مصر وبلاد الشام والثغور، وليس مصادفة أن يجتمع رجلان حاقدان في تدبير هذا الأمر، إذ المعروف أن قائد الحملة محمد بن سليمان الكاتب كان من صنائع الطولونيين وعبيدهم، عمل كاتباً للؤلؤ، واشترك معه في خيانة أحمد بن طولون إذ كان من أحذر الناس منه، وأشدهم فزعاً، بفعل أن أحمد كان يؤدب الكاتب كثيراً على ذنب الصاحب[1]، وأراد يوماً معاقبته والتخلص منه، إلا أنه لم يتمكَّن من ذلك بسبب فراره إلى بغداد، لذلك حقد على الطولونيين وأراد الانتقام منهم، وقد عبَّر ابن سعيد أبلغ تعبير عن هذه الظاهرة بقوله: «دولة تأثَّلت وتوورثت يأتي كاتب من صنائعها يريد ذهاب رسومها بالكلية»[2].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل الخليفة في نزاع مادي مع هارون بفعل عجزه عن تسديد الأموال التي فرضتها عليه معاهدة عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) وبخاصة بعد أن انتُزعت منه بلاد الشام وانقطعت مواردها عنه. واتخذ المكتفي من الاستعدادات البرية والبحرية ما يكفل له سرعة القضاء على الطولونيين في مصر، إذ ما كاد

---

(١) البلوي: ص٢٨٧، ٢٨٨. (٢) البيان المغرب: ص١٤٥.

محمد بن سليمان الكاتب يفرغ من الاحتفال بالنصر على القرامطة حتى تلقَّى أمراً من الخليفة بأن يستعد لحرب الطولونيين، فمضى والخُلع عليه، لتنفيذ هذه الرغبة، واستعان بالقادة أنفسهم الذين شاركوه في حرب القرامطة ومعظمهم ممن خدم في الجيش الطولوني وفروا في عهد جيش، وهم أعرف الناس بمصر ومسالكها، فأعدَّ جيشاً تعداده عشرة آلاف مقاتل أغلبهم من الخراسانية الأشداء[1].

ودعَّم الخليفة هذا الجيش البري بحمله بحرية، فقد أمر دميانة، قائد الأسطول العباسي في بلاد الشام ومصر، بالتوجه فوراً إلى مصر لمساعدة محمد بن سليمان الكاتب وفرْض حصار بحري على الثغور الطولونية وقطع الإمدادات عن الطولونيين التي قد تأتيهم من أي منطقة كانت[2].

تقدَّم محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيشه إلى دمشق ودخلها من دون مقاومة، وانضمت إليه بقايا القوات الطولونية في بلاد الشام، وولاة الطولونيين، وعلى رأسهم بدر الحمامي والحسين بن أحمد الماذرائي، الناقمون على هارون ووصيِّه ابن أبّى، فتضاعف بذلك عدد أفراد الجيش، ثم تابع تقدُّمه حتى دخل فلسطين، فقدَّم له عاملها الطولوني وصيف بن سوار تكين الطاعة، وانضم إلى قواته، كما لحق به صافي، مولى خمارويه[3].

كان من الواضح، بعد انضمام القوى الطولونية في بلاد الشام إلى جيش الخلافة، أن مقاومة هارون لن تجدي نفعاً، وعلى الرغم من الأنباء السيئة التي وصلت إليه من بلاد الشام فقد صمَّم على المقاومة، فكتب إلى هؤلاء الخارجين على حكمه أن يعودوا إلى رشدهم، وذكَّرهم بعهودهم للأسرة الطولونية، غير أنهم لم يستجيبوا له[4].

وقاد هارون المعركة الأخيرة، وقد تجمَّعت قواته البرية عند بلدة العباسة، على أطراف الحدود الشرقية، للتصدّي لزحف القوات العباسية، وكانت طليعة هذه القوات بقيادة الحسين بن حمدان قد تجاوزت الفرما[5] ووصلت إلى جرجير[6].

وفي الوقت نفسه، كانت البحرية الطولونية، بقيادة وصيف القطرميز وخصيب

---

(١) الطبري: جـ١٠ ص١١٥، ١١٦. (٢) الكندي: ص١٨١.
(٣) المصدر نفسه: ص١٨٠، ١٨١. الطبري: جـ١٠ ص١١٨.
(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٠٩.
(٥) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر. الحموي: جـ٤ ص٢٥٥.
(٦) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٣٥.
وجرجير: موضع بين مصر والفرما. الحموي: جـ٢ ص١٢٣.

البربري، تتقدم في النيل لتوقف زحف الأسطول العباسي بقيادة دميانة. والتقى الأسطولان عند تنيس[1]، فانهزم الأسطول المصري وسقطت المدينة بيد دميانة. تراجع الأسطول المصري إلى دمياط[2] ليخوض المعركة الثانية، إلا أنه هُزم أيضاً، واستولى دميانة على مراكبه وأسر بحارته ودخل دمياط، ثم تقدم نحو الفسطاط، فأحرق الجسر الشرقي الذي يصلها بالروضة، وخرَّب الجسر الغربي الذي يصلها بالجيزة، فقطع بذلك الإمدادات عنها ممهداً الطريق للقوات البرية لاقتحامها[3].

لم يكن الهجوم العباسي على مصر نذيراً للطولونيين لطي خلافاتهم والتوحُّد لمواجهة هذا الخطر، فراحوا يتشاغلون بنزاعاتهم، كما انهمك هارون باللهو والطرب، فطمع عمَّاه، شيبان وعدي، بالسلطة وقرَّرا التخلص منه، فدخلا عليه وهو ثمل وقتلاه ليلة الأحد في (١٩ صفر ٢٩٢هـ/ ٣١ كانون الأول ٩٠٤م)، وخلفه شيبان[4]، ويُعدُّ مصرعه في هذا الوقت الحرج ضربة قاصمة للمقاومة الطولونية بفعل انضمام أنصاره ومؤيديه إلى القوات العباسية وعلى رأسهم طغج بن جف من جهة، ولأن هذه القوات عجزت عن تجاوز جرجير إلا بعد مصرعه، من جهة أخرى[5].

وما كاد محمد بن سليمان الكاتب يقف على تمزق الطولونيين وتفرق قواتهم على هذا الشكل، واطمأن إلى ضعف المقاومة الطولونية، حتى تقدم من فلسطين وانضم إلى طليعته عند العباسة. وتقهقرت قوات شيبان بن أحمد فدخلت العاصمة للدفاع عنها، فطاردتها القوات العباسية حتى وصلت إلى الفسطاط والقطائع وضربت الحصار عليهما، كما تقدم الأسطول العباسي وحاصرهما من البحر. وتعرَّضت المدينتان للضرب المتواصل من البر والبحر في ظل مقاومة طولونية ضارية، ما دفع محمد بن سليمان الكاتب إلى أن يعرض الاستسلام على شيبان مقابل تأمينه وتأمين رجاله، وعندما علم هؤلاء بذلك تركوه وانضموا إلى الجيش العباسي، فاضطر شيبان عندئذ إلى طلب الأمان له ولأهله فمُنح إياه، لكن العساكر لم تعلم بهذا الصلح، لذا حدث في اليوم التالي أن اشتبك الجيشان وانهزمت القوات الطولونية ودخل جنود الخلافة القطائع، وأحرقوها ونهبوا الفسطاط وسلبوا ما فيها من متاع وأثاث[6].

(١) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والأولى في شرقيها. الحموي: جـ٢ ص٥١.
(٢) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، وهي ثغر من ثغور الإسلام. المصدر نفسه: ص٤٧٢.
(٣) الطبري: جـ١٠ ص١١٨. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٣٦. محمود: ص١٦٤.
(٤) الكندي: ص١٨٢. (٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٣٧.

وقد عرض ابن سعيد لأحداث الساعات الأخيرة من حياة هذه الدولة قائلاً: «لما أعيت شيبان الحيل ولم تكن له طاقة بالمقاومة، جمع وجوهاً من أصحاب دولته وقال لهم: إني أرى هذه الدولة قد نادى غرابها بالرحيل، ولم يبقَ فيها إلا قدر التقاء الجمعين، فما ترون؟ فقد فرغت الأموال وفرَّ الرجال، فبكى الأولياء بين يديه وقالوا: بل نصبر حتى نموت كراماً، دولة تأثَّلت وتوورثت يأتي كاتب من صنائعها يريد ذهاب رسومها بالكلية... لا يتحدث عنها بذلك...»[1].

ودخل محمد بن سليمان الكاتب الفسطاط في (الأول من ربيع الأول ٢٩٢هـ/ ١١ كانون الثاني ٩٠٥م)، ونقض الأمان الذي منحه لشيبان، وعامل الأسرة الطولونية بقسوة، فأخرجها من مصر وأرسل أفرادها، البالغ عددهم عشرين شخصاً، إلى بغداد مع قادتهم ومواليهم، وما أنزله من الخراب والتدمير والقتل الذي طال المصريين، فاق حد التصور، ونقل الآثار والتحف الطولونية إلى بغداد، واستصفى أموال الطولونيين بالشدة والعنف[2]، وكافأ القادة الطولونيين الذين ساندوه، فعين طغج بن جف والياً على أعمال قنسرين، وضمَّ إليه طائفة من جنود بني طولون، وولَّى بدراً الحمامي على دمشق، وأرسل عيسى النوشري إلى بغداد يحمل أخبار الفتح إلى الخليفة المكتفي، وما إن وصل إلى دمشق حتى وافاه كتاب الخليفة بالعودة إلى مصر وتوليه عليها، فأرسل إليها نائباً من قِبَله[3].

وماتت الإمارة الطولونية ميتة مشرفة وهي تدافع عن نفسها حتى الرمق الأخير، وزالت كأنها لم تكن. وبعد أن سيطر على البلد، قلَّد محمد بن سليمان الكاتب أصحابه الأعمال، فعيَّن غلبوس على شرطة العسكر ووصيف البكتمري على شرطة المدينة، وأبا عبد الله محمد بن عبدة على القضاء وأبا علي الماذرائي على الخراج بدلاً من أحمد بن علي الماذرائي، ثم غادرها يوم الخميس في (الأول من رجب/ ٩ أيار) واصطحب معه الأمير شيبان وهو مكبَّل[4].

ذيول زوال الإمارة الطولونية

خاتمة محمد بن سليمان الكاتب

غادر محمد بن سليمان الكاتب مصر عائداً إلى العراق في (رجب ٢٩٢هـ/ أيار ٩٠٥م) بعد أن رتَّب أوضاعها وسلَّم النوشري حكمها، استناداً لقرار الخليفة. ويبدو أن المكتفي خشي من أن يستغلَّ هذا القائد الظافر قوته ويستقلَّ بحكم مصر، مقتدياً

(١) البيان المغرب: ص١٤٥. (٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٣٧ ـ ١٤٠.
(٣) الكندي: ص١٨٣، ١٨٧.
(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٣٨، ١٣٩، ١٤٤.

بأحمد بن طولون، وربما اتهمه بعدم إخلاصه للعباسيين من واقع تهاونه في القبض على عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، أثناء مروره بمصر، وقد تلقَّى منه مقابل ذلك أموالاً كثيرة، والمعروف أن المكتفي كان قد أصدر أمراً بالقبض على المهدي واعتقاله، لذلك استدعاه إلى بغداد وعيَّن عيسى النوشري والياً على مصر وكتب إليه بوصف المهدي والأمر بالقبض عليه. وما إن وصل محمد بن سليمان الكاتب إلى حلب حتى وافاه مبارك القمي مبعوث الخليفة يأمره بتسليم ما معه من ذهب وأموال وعتاد ومنسوجات وخيول قُدِّرت بحوالي مليون دينار، الأمر الذي أثار سخطه. وأمر الخليفة قادته في حلب بالقبض عليه، فقام زكا الأعور والي حلب وأبو الأغر بهذا الأمر، وسجناه في إحدى دور حلب المعروفة بكورة بباب الجنان، ثم جرى إرساله إلى بغداد تحت مراقبة مشدَّدة[1].

ثورة محمد بن علي الخليجي[2]

أدَّت سياسة محمد بن سليمان الكاتب المدمِّرة بحقِّ بقايا الطولونيين والمصريين إلى رد فعل عنيف من جانب هؤلاء تمخَّض عن ثورة قام بها ضابط طولوني مغمور يدعى محمد بن علي الخليجي، وهو من الجنود المصريين الذين يمثلون العناصر الوطنية التي تسربت إلى صفوف الجيش الطولوني في عهد أحمد بن طولون وازداد سلطانها في عهد ابنه خمارويه، وهو من الضباط العاملين في فرقة صافي الرومي[3]، وقد ولَّدت سياسة القائد العباسي في نفسه الرغبة في الانتقام.

والواضح أن الحركة الاستقلالية التي قادها أحمد بن طولون ورعاها ابنه خمارويه تركت صدى واسعاً لدى المصريين، وتعمَّقت جذورها في أنفسهم ما دفع القائد العباسي إلى الفتك بالسكان المصريين الذين تمسَّكوا باستقلالهم. وجاءت الثورة في أعقاب سقوط الطولونيين مباشرة ولما يستقر الوضع للعباسيين على يد عاملهم عيسى النوشري.

كان محمد بن علي الخليجي في عداد الجيش العباسي العائد إلى بلاد الشام، وقد عزَّ عليه أن تُحمل أموال مصر إلى بغداد، وأن يُقضى على الطولونيين بهذا الشكل، وكره مفارقة مصر، لذلك عقد العزم على الثورة والانتقام. وصادفت حركته قبولاً لدى بقايا القوات الطولونية التي كانت لا تزال في فلسطين وقد «ذكر الذي عزم عليه لجماعة من المصريين فبايعوه على ذلك وعضدوه على عصيانه، وانضم إليه

(١) ابن العديم: جـ١ ص٩٧، ٩٨. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٤٧.
(٢) ورد اسمه أيضاً محمد بن علي الخلنجي، ومحمد بن علي الخلجي.
(٣) المقريزي: جـ٢ ص١٤٢. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٤٧. محمود: ص١٦٧.

شراذم من المصريين»[1]، بالإضافة إلى بعض الشاميين الذين يكنُّون العداء للعباسيين، فالتفَّ الجميع من حوله واعترفوا به قائداً عليهم، وقرّروا إعادة إحياء الدولة الطولونية، فتوجَّهوا صوب الرملة، وهزموا واليها العباسي وصيف بن سوار تكين في (شعبان ٢٩٢هـ/ حزيران ٩٠٥م)، وقتلوا كثيراً من جنوده، ودخلوا المدينة وملكوها، وفي خطوة عُدَّت استمراراً لسياسة الطولونيين من واقع الاعتراف بسلطة الخلافة، دعوا للخليفة المكتفي على منابرها ثم لإبراهيم بن خمارويه بوصفه الأمير الشرعي على الرغم من أنه كان سجيناً في بغداد، ومن بعده لمحمد بن الخليج نائباً عنه[2].

وهكذا بدت بوادر نجاح الثورة، وأُعجب الناس بقائدها، وعلى الرغم من أنه أعلن التبعية للعباسيين إلا أن الخلافة عدَّت هذه الحركة خروجاً على طاعتها، وقرَّرت محاربتها والقضاء عليها، فأمر الخليفة عامله على مصر عيسى النوشري بتجهيز الجيوش والتصدي لها، فنهض لتنفيذ هذا الأمر واصطدم بمحمد بن علي الخليجي المتقدم نحو مصر، عند غزة، إلا أنه هُزم أمامه. وتابع محمد بن علي الخليجي تقدمه إلى العريش وانتصر على قوة عباسية قدمت من بلاد الشام بقيادة أحمد بن كيغلغ ودخل المدينة، ثم توجَّه بعدها إلى الفرما. وجهَّز عيسى النوشري جيشاً آخر لوقف تقدمه واصطدم به عند بلدة العباسة على مشارف مصر، فانهزم أمامه أيضاً، واضطر إلى الجلاء عن الفسطاط وعسكر عند الجيزة، فدمَّر جسرها، وأحرق المراكب الراسية، في محاولة لمنعه من دخولها، لكنه عجز عن تحقيق هدفه وهرب إلى الإسكندرية لا يلوي على شيء. ودخلت القوات الثائرة إلى الفسطاط في (١٦ ذي القعدة ٢٩٢هـ/ ١٩ أيلول ٩٠٥م)[3].

الواضح أنه لا يمكن أن نُفسِّر تلك الانتصارات السريعة والحاسمة من ضابط متدني الرتبة على قوة عظمى إلا من واقع مساندة السكان المصريين له وتحمُّسهم لفكرة الثورة التي أعلنها ضد الخلافة العباسية، إذ ما كاد يعود إلى مصر حتى التفَّ المصريون من حوله وأيَّدوه بعاطفة صادقة بفعل ما تفشَّى في نفوسهم من حب الطولونيين، ونقمة على العباسيين، فكان الناس يأتونه «من كل فج لما في نفوسهم من تشتُّتهم عن بلادهم وأولادهم وأوطانهم، وصار الجميع من حزب محمد المذكور من غير بذل دينار ولا درهم»[4]، وقد وجدوا في هذا النصر على قوات الخليفة إرواءً لحقدهم وتنفيساً عن رغبتهم في الاستقلال وتمسكهم بالطولونيين[5]. وتردَّد صدى هذه الثورة فتجاوز أقاليم مصر المختلفة، فأتاه المقاتلون والمطوعة حتى بلغ

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٤٧. (٢) المصدر نفسه: ص١٤٧، ١٤٨.
(٣) المصدر نفسه: ص١٤٨، ١٤٩. المقريزي: جـ٢ ص١٤٢.
(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٤٨. (٥) محمود: ص١٦٨.

تعداد عساكره نحواً من خمسين ألفاً[1].

وعندما دخل محمد بن علي الخليجي إلى الفسطاط أحسن معاملة السكان، ودُعي له على المنابر بعد الخليفة والأمير إبراهيم، وكرَّس جهوده في إعادة الهدوء والاستقرار والقضاء على الفوضى التي تفشَّت آنذاك. وحتى يُؤمِّن أعطيات جنده والاستعداد لمواجهة قوات الخلافة قام بجمع الأموال اللازمة بشكل أخلّ العلاقة الجيدة مع السكان الذين رحَّبوا به وتعاطفوا معه، وإذا به يجر البلاد إلى الدمار والهلاك ثم إن حربه لعيسى النوشري كانت سجالاً ما استنزف موارده وضايق السكان[2].

ونهض الخليفة العباسي الذي لم يركن إلى الهدوء، وهو يرى خسارة قادته وجيوشه، وخشي من ضياع مصر مجدداً؛ للقضاء على هذه الحركة، فأرسل جيشاً لهذه الغاية بقيادة أبي الأغر وصحبه أحمد بن كيغلغ أمير دمشق، إلا أن هذا الجيش هُزم أمام قوات محمد بن علي الخليجي في (محرم ٢٩٣هـ/ تشرين الثاني ٩٠٥م)[3]، فعظم الأمر على الخليفة، فأرسل على الفور فاتك، مولى المعتضد، وزوَّده بأمهر القادة والجنود الكثيرة وضمَّ إليه بدر الحمامي، وأمره بحرب محمد بن علي الخليجي والقضاء عليه، ودعَّم هذه الحملة البرية بحملة بحرية بقيادة دميانة. وبفعل أهمية هذه الحملة قرَّر الخروج إلى بلاد الشام بنفسه ليكون قريباً من مجرى الأحداث، وفي الوقت الذي كان يقوم فيه باستعدادات الخروج جاءته الأنباء بمصير محمد بن علي الخليجي.

والواقع أن فاتكاً اصطدم بابن الخليجي بالقرب من النويرة، إحدى قرى بني سويف، وتغلَّب عليه مستغلاً تضعضع قواته بعد أن ضلَّ أربعة آلاف جندي الطريق، فتقهقر عائداً إلى الفسطاط، وذلك في (٣ رجب ٢٩٣هـ/ ٣٠ نيسان ٩٠٦م)، والتجأ إلى أحد أصدقائه الذي خانه وسلَّمه إلى عيسى النوشري في (٦ رجب/ ٣ أيار)، وكانت مدة حكمه بمصر سبعة أشهر وعشرين يوماً. ودخل فاتك مع عسكره إلى الفسطاط، وسيق ابن الخليجي إلى بغداد، فعنَّفه الخليفة؛ وشهَّر به وبأتباعه ثم قتله[4].

وهكذا «زالت دولة محمد بن علي الخليجي بعد أن أفسد أحوال الديار المصرية وتركها خراباً يباباً من كثرة الفتن والمصادرات. قلت: وأمر محمد هذا من العجائب، فإنه أراد أخذ ثأر بني طولون والانتصار لهم، غيرة على ما وقع، من محمد بن سليمان الكاتب من إفساده الديار المصرية، فوقع منه أيضاً أضعاف ما فعله محمد بن سليمان الكاتب»[5].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٤٩. (٢) المصدر نفسه: ص١٤٩، ١٥٠.

(٣) الكندي: ص١٨٨.

(٤) الكندي: ص١٨٩ ـ ١٩١. المقريزي: جـ٢ ص١٤٢، ١٤٣. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٥٣ ـ ١٥٥.

(٥) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٥٤، ١٥٥.

الباب الثاني

الإمارة الأخشيدية

٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٨م

الفصل السادس: الأوضاع السياسية في مصر قبيل قيام الإمارة الأخشيدية.

الفصل السابع: محمد بن طغج بن جف الأخشيد.

الفصل الثامن: خلفاء محمد بن طغج ـ سقوط الإمارة الأخشيدية.

الفصل السادس

الأوضاع السياسية في مصر قبيل قيام الإمارة الأخشيدية

عهد الولاة

عيسى النوشري
٢٩٢ ـ ٢٩٧هـ/ ٩٠٥ ـ ٩١٠م

عادت مصر إلى أحضان الخلافة العباسية على أثر سقوط الإمارة الطولونية، تحكمها مباشرة بواسطة ولاة تُعيِّنهم من قِبَلها. وعندما دخل محمد بن سليمان الكاتب مدينة الفسطاط دعا للخليفة المكتفي على المنابر، وكتب إليه يبشره بالفتح، ثم ورد كتاب الخليفة بولاية أبي موسى عيسى بن محمد النوشري على مصر، وكان هذا من بين القادة الذين قدموا مع محمد بن سليمان الكاتب وشاركوا في القضاء على الإمارة الطولونية، ثم عاد إلى العراق، ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى وافاه كتاب الخليفة بولايته على مصر، فعاد أدراجه، وكان محمد بن سليمان لا يزال فيها، فوصل إليها في (٧ جمادى الآخرة ٢٩٢هـ/١٦ نيسان ٩٠٥م)، فخلع عليه وطاف به في مدينة مصر وعليه الخلعة، ثم خرج مع جنده إلى بلاد الشام تاركاً مصر تحت حكم عيسى النوشري[١].

وأجرى الخليفة تعيينات إدارية مساعدة لعيسى النوشري. فقد عيَّن علي بن حسان أعمال الإسكندرية، ومهاجر بن طليق ثغر تنيس ودمياط، ورجلاً، يُعرف بالكندي، الأحواف، ورجلاً، يقال له موسى بن أحمد، برقة وما والاها، ومحمد بن ربيعة الصعيد وأسوان، وأبا زنبور الحسين بن أحمد الماذرائي أعمال الخراج بمصر، وأمر دميانة بالانصراف عن مصر[٢].

ونزل عيسى النوشري في الدار التي كان يسكن فيها بدر الحمامي، وكانت

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٤٥.

(٢) المصدر نفسه.

بالموقف بسوق الطير، وهي الدار التي نزل بها محمد بن سليمان الكاتب لما افتتح مصر. وكانت فاتحة أعماله هدم ميدان أحمد بن طولون، وقد بيعت أنقاضه بأبخس الأثمان، وكان هذا الميدان وقصوره من محاسن الدنيا. وعمد بعد القضاء على ثورة محمد بن علي الخليجي إلى ملاحقة أتباعه من الكتّاب والجند وغيرهم، وقبض على جماعة منهم وتشرَّد الباقون، كما شدَّد قبضته على السكان، فمنعهم من مزاولة أنشطتهم الاجتماعية، من ذلك أنه منع النواح والنداء على الجنائز، وأمر بإغلاق المسجد الجامع بين الصلاتين بحيث لم يعد يُفتح إلا للصلاة فقط، وأقام على ذلك أياماً فضج أهل المسجد من ذلك، فأعاد فتحه، والمعروف أن المسجد كان مصدراً لنشاط اجتماعي متعدد الوجوه والأهداف، كما لاحق الجند الذين شغبوا عليه، فقبض على جماعة منهم وقتلهم ما أحدث اضطرابات داخلية عنيفة، فاضطر إلى إجراء تعديلات إدارية، من ذلك أنه عيَّن محمد بن طاهر على الشرطة مكان يوسف بن إسرائيل[1].

وحدث في عهد الخليفة المكتفي أن ظهر أمر عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، وقد صادفت دعوته نجاحاً كبيراً في تلك البلاد على يد الدعاة الذين أرسلهم إليها، وذلك نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تعيش في ظلها. وغدا الشيعة بين عامي (٢٨٨ و٢٩٦هـ/ ٩٠١ و٩٠٨م) أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات إلى الغرب من مدينة القيروان. وبعد نجاح داعيته أبي عبد الله الشيعي، أرسل الرسل إليه، وكان في سلمية، يدعوه للمجيء إلى إفريقيا. وما جرى من الاضطراب في بلاد الشام بفعل ملاحقة العباسيين للعلويين وتمرد آل زكرويه القرامطة ضده؛ رحَّب عبيد الله بالدعوة، فغادر سلمية إلى الرملة في (رجب ٢٨٩هـ/ حزيران ٩٠٢م) متخفياً بزي التجار واصطحب معه القائم، وهو يومئذٍ صبي ابن عشرة أعوام، فمكث فيها مدة عامين، وعندما علم بفشل ثورة القرامطة الذين قتلوا أسرته في سلمية، يمَّم وجهه صوب مصر في (منتصف ٢٩٠هـ/ ربيع ٩٠٤م) وأقام في الفسطاط. وحتى يتجنَّب رقابة السلطة وملاحقتها، عاش بعيداً عن الأنظار، لكن سرعان ما انكشف أمره. ووصلت في غضون ذلك كتب الخليفة إلى عامله على مصر تصف المهدي وتأمره بالقبض عليه. ويبدو أن بعض خاصته كان متشيعاً على المذهب الإسماعيلي، فأخبروا المهدي بذلك ونصحوه بالرحيل عن مصر، فبادر بمغادرتها. وترصَّد عيسى النوشري تحركات المهدي حتى حظي به، فقبض عليه، ولكنه سرعان ما أطلق سراحه مخالفاً بذلك أمر الخليفة، والراجح أنه

(١) الكندي: ص١٩٣.

تلقَّى رشوة منه، ولعله تأثَّر أيضاً ببعض خاصته من الشيعة الإسماعيليين[1].

وما حدث من وفاة الخليفة المكتفي في (١١ ذي القعدة ٢٩٥هـ/ ١٢ آب ٩٠٨م) وخلافة جعفر بن أحمد المعتضد الذي تلقَّب بالمقتدر، أدّى إلى شغب الجند الذين طالبوا بمال البيعة، فتغلّب عليهم عيسى النوشري وأخرجهم من مصر وأقرَّه المقتدر على عمله بمصر[2].

وحدث في عهد عيسى النوشري أن لجأ زيادة الله الثالث، آخر الحكام الأغالبة، إلى مصر هرباً من الفاطميين. ذلك أن الصراع الدامي بين الأغالبة حكام المغرب الأدنى أو إفريقيا وبين الداعي أبي عبد الله الشيعي انفجر في عهد هذا الأمير الذي حاول عبثاً وقف التمدد الشيعي باتجاه بلاده، وتسلَّى عن عجزه بتعاطي الفسق والفجور ما أدَّى إلى ازدياد الوهن، واضطر إلى التنازل عن الحكم ليلة الاثنين (٢٥ جمادى الآخرة ٢٩٦هـ/ ٢١ آذار ٩٠٩م) بعد أن استولت القوات الكتامية عماد الدولة الفاطمية، على الأربس وانتشرت في البلاد. وعندما أدرك أن ملكه زائل لاذ بالفرار إلى المشرق تحت جنح الظلام، فوصل إلى مصر ونزل بالجيزة في (رمضان/ حزيران)، ولما أراد الدخول إلى الفسطاط منعه عيسى النوشري، وجرى قتال بين قوات الطرفين إلى أن وقع الصلح بينهما، حيث اتفقا على أن يعبر زيادة الله الثالث وحده من غير جند، فدخلها وأقام بها[3].

لم تطل أيام عيسى النوشري بعد ذلك، فمرض ولزم الفراش إلى أن توفي في (٢٦ شعبان ٢٩٧هـ/ ١٠ أيار ٩١٠م)، وكانت ولايته على مصر زهاء خمسة أعوام وشهرين ونصف، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى النوشري إلى أن قدم الوالي الجديد، وحُمل جثمانه إلى القدس ودُفن به[4].

أبو منصور تكين (المرة الأولى)
٢٩٧ ـ ٣٠٢هـ/ ٩١٠ ـ ٩١٤م

العلاقة العباسية ـ الفاطمية

تمهيد

عيَّن الخليفة المقتدر مولى المعتضد أبا منصور تكين عبد الله والياً على الصلاة في

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٨٨، ٥٨٩.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٥٥.
(٣) المصدر نفسه: ص١٥٦.
(٤) المقريزي: جـ٢ ص١٤٣.

مصر، فوصل إليها في (٢ ذي الحجة ٢٩٧هـ/ ١٢ آب ٩١٠م) وتسلَّم منصبه[١]، ووجَّه عنايته منذ البداية إلى التصدي للخطر الفاطمي الزاحف من المغرب. والحقيقة أن الحركة الإسماعيلية بُنيت على أسس متعارضة مع العقيدة السنية والتطلعات العباسية السياسية، ونمت على فكرة تدميرها، فكوَّنت من أجل ذلك التنظيم السياسي الديني المعروف بالدعوة، فانتشر دعاة الفاطميين في أراضي الدولة العباسية يقومون بنشاط سياسي ومذهبي ليتمكَّنوا من القضاء على خلافة العباسيين السنة.

وكان لظهور القرامطة في جنوبي العراق، والتشابه بين دعوتهم والدعوة الإسماعيلية؛ أثر كبير في استقطاب كثير من سكان الولايات العباسية إلى المذهب الإسماعيلي، فصارت بلاد السواد[٢] تموج بأتباع الأئمة الإسماعيليين، كما أضحى لهم أنصار في بغداد نفسها، وأن عبيد الله المهدي اتخذ دعاة له في هذه المدينة كانوا يُزوِّدونه بأخبار العباسيين، واستطاع بفضلهم، وبفضل دعاة بلاد الشام، التغلب على الصعوبات التي واجهته وهو في طريقه من سلمية إلى إفريقيا.

والواقع أن الدعاة في بغداد قاموا بنشاط ملحوظ في نشر الدعوة الإسماعيلية، فجذبوا عدداً من كبار قادة ورجال الدولة العباسية مثل يوسف بن أبي الساج، فكان من الطبيعي أن ينشأ العداء بين الدولة العباسية السنية والدولة الفاطمية الشيعية، وبخاصة أن الفاطميين بدأوا، بعد أن ركَّزوا دعائم دولتهم في إفريقيا، يتطلعون للتمدد نحو الشرق للقضاء على الخلافة العباسية، إذ كانوا يعتقدون أن العباسيين مغتصبين ولا يحق لهم بالزعامة الروحية والسياسية، وأنهم خارجون على الدين. وأراد عبيد الله المهدي أن ينتزع زعامة العالم الإسلامي من الخليفة العباسي المقتدر، وأبدى عزم الفاطميين ورغبتهم الأكيدة في سحق العباسيين حين قال: «لنملكنَّ أنا وولدي ولدا العباس، ولتدوسنَّ خيولي بطونهم»، على الرغم من أنه لم يكن يملك القوة العسكرية الضرورية للقيام بمثل هذه المغامرة في هذا الوقت المبكر من حياة الدولة.

والواضح أنه أثار قيام الدولة الفاطمية في إفريقيا مخاوف العباسيين لأن من شأن ذلك أن يُمكِّن الفاطميين، في المستقبل، من بسط نفوذهم على مصر وبلاد الشام وفلسطين والحجاز، فتصبح عندئذٍ الطريق إلى بغداد مفتوحة أمامهم، لذلك عمل الخلفاء العباسيون جاهدين للقضاء على محاولات الفاطميين التمدد باتجاه الشرق.

---

(١) المقريزي: جـ٢ ص١٤٣.

(٢) السواد: رستاق العراق وضياعها التي فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، سُمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار. الحموي: جـ٣ ص٢٧٢.

ولما كان الوصول إلى المشرق الإسلامي يمر بمصر الواقعة تحت السيطرة العباسية، قرَّر عبيد الله المهدي ضرب الدولة العباسية في هذا البلد والاستيلاء عليه كخطوة أولى.

الحملة الفاطمية الأولى على مصر

انطلقت العمليات العسكرية حين جهَّز تكين جيشاً بقيادة نائبه أبي النمر أحمد بن صالح[١]، وأرسله إلى برقة؛ فاستتبَّ له الأمر وحسنت سيرته. ومن جهته أرسل عبيد الله المهدي جيشاً بقيادة القائد الكتامي حباسة بن يوسف الملوسي للسيطرة على برقة، فخرج من قاعدته توزر[٢] وزحف باتجاهها. وعندما علم أبو النمر بذلك، خرج إلى سُرت[٣] وتمركز فيها استعداداً لمواجهته، فاضطر حباسة بدوره إلى تغيير وجهة زحفه باتجاه سُرت للاصطدام بالقوات العباسية[٤].

وما حدث في هذه الأثناء من تغيير في القيادة العباسية، سمح لحباسة بالتقدم نحو برقة، فدخلها وسيطر عليها وأقام معسكره فيها، ذلك أن تكين عزل أبا النمر عن ولاية برقة وعيَّن مكانه خير المنصوري ومعه عبد العزيز بن كليب الجرشي. والراجح أن تكين أشرك عبد العزيز هذا في حكم برقة مع خير المنصوري، ويبدو أنهما لم يكونا على وفاق فاختلفا، ونَفِس كل واحد منهما الولاية على صاحبه ما مكَّن حباسة من هزيمتهما والاستيلاء على برقة[٥]. ولما لم يستطع تكين أن يعيد سيطرته على إقليم برقة أرسل إلى عبيد الله المهدي رسالة على لسان الخليفة المقتدر يدعوه إلى الطاعة والتمسك بها، وذلك في عام (٣٠٠هـ/ ٩١٣م)، وكان قد جمع وجوه أهل مصر وقرأ عليهم مضمونها قبل أن يرسلها[٦].

شكَّلت هزيمة العباسيين في برقة حافزاً للفاطميين على تنفيذ هجوم على مصر نفسها، حيث تواصلت العمليات العسكرية من دون أن تؤدي إلى نتيجة إيجابية لكلا الطرفين حتى كان عام (٣٠١هـ/ ٩١٤م) حين جهَّز عبيد الله المهدي جيشاً جراراً عهد

---

(١) الكندي: ص١٩٤؛ سُمي في الخطط: جـ٢ ص١٤٣: أبو اليمن، وفي النجوم: جـ٣ ص١٧٢: أبو اليمنى.

(٢) توزر: مدينة في أقصى إفريقيا من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد. الحموي: جـ١ ص٣٨٨.

(٣) سُرت: مدينة على ساحل البحر الرومي، البحر الأبيض المتوسط، بين برقة وطرابلس الغرب، المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٠٦.

(٤) الكندي: ص١٩٤.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه: ص١٩٤، ١٩٥.

بقيادته إلى ولي عهده أبي القاسم القائم ودفعه باتجاه مصر للسيطرة عليها[1].

خرج القائم من رقّادة[2] متوجهاً إلى مصر يوم الخميس (١٥ ذي الحجة ٣٠١هـ/ ١٣ تموز ٩١٤م)، فمر بقابس[3] وطرابلس، ولما وصل إلى سُرت، كتب إلى حباسة ألا يغادر برقة حتى يأتيه. ويبدو أن حباسة أراد أن يكون له شرف الاستيلاء على مصر أو أنه نفر من أن ينتزع القائم منه القيادة ويخضعه لإمرته، فتعجل السير إلى هذا البلد، ونجح في دخول الإسكندرية في (٨ محرم ٣٠٢هـ/ ٣ آب ٩١٤م)[4]. أما القائم فقد غادر سُرت إلى أجدابية[5] ثم برقة، والتحق بحباسة في الإسكندرية، ثم خرج منها متوجهاً إلى الفسطاط، فاصطدم بقوات الوالي العباسي، وتوغل في الوجه البحري حتى أضحى على مقربة من الجيزة، غير أنه اضطر إلى التراجع إلى الإسكندرية تحت ضغط القتال الذي جرى في مشتول بالقرب من الجيزة، فوصل إليها في (٥ رجب ٣٠٢هـ/ ٢٤ كانون الثاني ٩١٥م)[6].

وفي الوقت الذي كان فيه القائم يستريح من عناء القتال في الإسكندرية، أرسل الخليفة العباسي المقتدر قوة عسكرية إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم، وهو من كبار القادة العباسيين، ومما لا شك فيه بأن القائم لم يكن قادراً على مواجهته، واضطر للعودة إلى إفريقيا[7].

وهكذا فشلت الحملة الفاطمية الأولى في تحقيق الهدف الفاطمي بالاستيلاء على مصر.

تعقيب على الحملة الفاطمية الأولى على مصر

كانت الظروف السياسية والعسكرية مهيأة للفاطميين للاستيلاء على مصر إلا أنهم فشلوا في ذلك، ويمكن رصد الأسباب التالية لهذا الفشل:

- كان بتصرف القائم قوة عسكرية كثيرة العدد تكفي للانتصار على عامل مصر أبي منصور تكين بإمكاناته المحدودة.

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٦٣١.

(٢) رقّادة: بلدة بإفريقيا بينها وبين القيروان أربعة أيام، بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، وسكنها عبيد الله المهدي قبل أن ينتقل إلى المهدية. الحموي: جـ٣ ص٥٥.

(٣) قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر، غربي طرابلس الغرب، المصدر نفسه: جـ٤ ص٢٨٩.

(٤) الكندي: ص١٩٥.

(٥) أجدابية: بلد بين برقة وطرابلس الغرب. الحموي: جـ١ ص١٠٠.

(٦) الكندي: ص١٩٥.

(٧) ابن الأثير: جـ٦ ص٦٣١.

- كان للفاطميين أنصار في مصر. فقد استطاعت الدعاية الإسماعيلية التي كان يقوم بها الداعي أبو علي، استقطاب عدد كبير من المصريين الذين أبدوا استعدادهم لنصرة القائم، بل إن جماعة منهم كاتبوه وحثُّوه على غزو مصر، وكان القائم على اطلاع على الوضع السائد في الفسطاط، وأنه يستطيع الاعتماد على مساعدة أنصاره في الداخل.
- دافع العباسيون عن مصر بشكل لافت، فقد أرسل الخليفة العباسي خادمه مؤنساً على رأس جيش لا يقل عن أربعين ألف مقاتل ما اضطر القائم إلى الانسحاب والعودة إلى الإسكندرية ومنها إلى إفريقيا كما أشرنا.
- يبدو أنه حصل تنافس على القيادة بين حباسة والقائم تطور إلى خلاف، وانعكس سلباً على أوضاع المقاتلين. فقد كان القائم على جفاء مع حباسة وأراد أن يستبدله بقائد آخر، فأدرك حباسة ذلك وراح يتصرف من تلقاء نفسه بمعزل عن أوامر القائم، فاستولى على الإسكندرية بمفرده، ورفض مساندته في الفيوم[1]، وتركه أمام القوات العباسية في الجيزة، فأحرج موقفه.
- كانت الحملة الأولى على مصر ذات نتائج هزيلة، وهي أقرب إلى استعراض القوة بهدف إرباك العدو، وإظهار حق الفاطميين في الخلافة، والتعبير عن مطامعهم في الدولة الإسلامية.
- شارك أهل الفسطاط بشكل ملحوظ بالقتال ضد القوات الفاطمية، وفي ذلك يقول الكندي[2]: «وسار حباسة من الإسكندرية فعسكر بمشتول فنودي بالنفير في الفسطاط يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة لم يتخلف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة والعامة ثم انصرفوا عشياً ولم يكن لقاء، ثم نودي بالنفير من الغد يوم الأربعاء فخرج الناس أيضاً ثم لم يكن لقاء، ثم نودي يوم الخميس فخرج الناس خروجاً لم ير مثله قط في الاجتماع والنشاط وحسن البصيرة».

وقرَّر مؤنس الخادم عزل تكين عن ولاية مصر من دون سبب ظاهر على الرغم من انتصاره على الفاطميين ونجاحه في طردهم من مصر، وأمره بالرحيل عنها، فخرج في (٧ ذي الحجة ٣٠٢هـ/ ٢٣ حزيران ٩١٥م)، وأعلم الخليفة بذلك[3]. ولا ندري ما إذا كان مفوَّضاً من قِبَل الخليفة بإجراء هذا التغيير في ولاية مصر، ولكن الراجح أن كبار القادة كان لهم نفوذ واسع في الأوساط الحاكمة، وباستطاعتهم عزل الولاة

(١) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام. الحموي: جـ٤ ص٢٨٦.

(٢) الولاة والقضاة: ص١٩٥.

(٣) الكندي: ص١٩٧. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٧٣.

الذين يُرسلون لنجدتهم، والمعروف أن مؤنساً الخادم كان من أكبر القادة في الدولة العباسية ومن أخص المقربين من الخليفة المقتدر[1].

أقام مؤنس الخادم في مصر يدير شؤونها، وكان يخاطب بالأستاذ، إلى أن عين الخليفة المقتدر ذكا الرومي والياً جديداً محل تكين[2].

ذكا الأعور الرومي
٣٠٣ ـ ٣٠٧هـ/ ٩١٥ ـ ٩١٩م

الحملة الفاطمية الثانية على مصر

وصل ذكا إلى مصر في (١٢ صفر ٣٠٣هـ/ ٢٧ آب ٩١٥م)، فخرج منها مؤنس الخادم مع جميع أفراد جيشه. التفت الوالي الجديد أولاً إلى تنظيم أوضاع البلاد، فعيَّن محمد بن طاهر على الشرطة، وطارد أنصار الفاطميين الذين كاتبوا عبيد الله المهدي الفاطمي وحثُّوه على غزو مصر، فقبض على كثير منهم، فسجن بعضهم ومثَّل بآخرين بأن قطع أيديهم وأرجلهم، فعظمت هيبته في عيون الناس، ثم اهتم بتحصين الإسكندرية لتقاوم الهجمات الفاطمية، فولَّى عليها ابنه مظفر، وأردفه بطائفة من ألمع قادته. والمعروف أن هذه المدينة كانت سهلة أمام الغزو الفاطمي حيث نجح الفاطميون في الاستيلاء عليها في حملتهم الأولى على مصر، وقد خشي ذكا أن يتجدَّد الغزو الفاطمي[3].

وما جرى من الخلاف بين ذكا والسكان بشأن ما كُتب على أبواب المسجد الجامع من ذكر الصحابة والقرآن، بالإضافة إلى تبنِّيه رأي المعتزلة بشأن خلق القرآن الكريم، أن فسدت العلاقة بينه وبين السكان، وساند محمد بن طاهر هؤلاء ضد توجهات الوالي، ما دفع هذا الأخير إلى عزله عن منصب الشرطة في (١٦ رمضان ٣٠٥هـ/ ٢ آذار ٩١٧م) وعيَّن مكانه وصيف الكاتب، كما ألَّب الجند عليه بسبب تأخره في دفع رواتبهم[4]. وفي الوقت الذي كان الخلاف على أشده بين ذكا وبين السكان والجند وصلت طلائع الحملة الفاطمية الثانية إلى مصر.

(١) كاشف، سيدة إسماعيل: مصر في عصر الأخشيديين: ص٣٠.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٧٣، ١٧٤.
(٣) الكندي: ص١٩٧، ١٩٨.
(٤) المصدر نفسه: ص١٩٨. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٨٧.

الواقع أنه بعد فشل القائم في حملته الأولى على مصر، وعودته إلى رقَّادة، ثار أهل برقة على الحكم الفاطمي، وقتلوا أفراد الحامية الكتامية المكلفة بالمحافظة على المدينة، وكان من الطبيعي أن يحافظ عبيد الله المهدي على سيطرته على تلك المدينة القريبة من الحدود المصرية لتنفيذ سياسته الشرقية، لذلك أرسل إليها في عام (٣٠٣هـ/ ٩١٥م) أحد قادته، أبا مديني اللهيصي، لقمع الثورة، وقد نجح في ذلك بعد مقاومة ضارية من جانب السكان. واضطر سكان لوبية[1] ومراقية[2] المجاورتين إلى النزوح إلى الإسكندرية خشية من أن يهاجم الجيش الفاطمي بلادهم. وعندما علم ذكا الرومي بذلك، أرسل إمدادت عسكرية إلى الإسكندرية تحسباً من تعرضها لهجوم فاطمي جديد[3].

وأرسل عبيد الله المهدي، بعد استرداد برقة، ولي عهده القائم إلى مصر للمرة الثانية، للاستيلاء عليها، وأمدَّه هذه المرة بقوة بحرية مساندة. خرج القائم من رقَّادة يوم الاثنين (أول ذي القعدة ٣٠٦هـ/ ٥ نيسان ٩١٩م)، وتوجَّه إلى الإسكندرية على رأس جيش كبير. تملَّك الخوف سكان المدينة، وخشوا على أنفسهم ما دفع الكثير منهم إلى النزوح عنها إلى الشام والحجاز في البر والبحر، ودخلها القائم من دون مقاومة يوم الجمعة (٩ صفر ٣٠٧هـ/ ١١ تموز ٩١٩م)[4].

توقف القائم في الإسكندرية قبل استئناف الزحف على الفسطاط، وذلك لتجميع صفوف قواته وانتظار وصول الأسطول الفاطمي القادم لمساعدته، واكتفى بإرسال طليعة من جيشه بقيادة سليمان بن كافي، استولت على الفيوم والأشمونين[5]. ويبدو أنه أراد تحقيق هدفين آنيين:

الأول: تأمين حاجات جيشه على حساب العدو.

الثاني: فرض حصار اقتصادي على الفسطاط وحرمانها من الإمدادات الواردة من الجنوب عن طريق النيل.

كان ذكا الرومي آنذاك مقيماً في الفسطاط يتجَّهز لقتال الجيش الفاطمي ويسعى إلى حشد جنده، لكن هؤلاء رفضوا الخروج معه للقتال بسبب التأخير في دفع مستحقاتهم، واضطربوا عليه، وطالبوه برواتبهم وأعطياتهم، ما دفع الحسين ابن

(١) لوبية: مدينة بين الإسكندرية وبرقة. الحموي: جـ٥ ص٢٥.
(٢) مراقية: أول مدينة يلقاها القاصد من الإسكندرية إلى إفريقيا. المصدر نفسه: ص٩٤.
(٣) الكندي: ص١٩٨. (٤) المصدر نفسه.
(٥) الأشمونين: قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير. الحموي: جـ١ ص٢٠٠.

أحمد الماذرائي صاحب الخراج إلى استرضائهم بصرف عطائهم[1]، وهكذا تأمَّنت القوة العسكرية لمواجهة الحملة الفاطمية.

وخرج والي مصر على رأس جيشه إلى الجيزة فعسكر بها وأجرى ترتيبات تعبوية حتى لا يفاجئه العدو، فبنى الجسر الغربي وخندق على معسكره، وفي خطوة لاسترضاء السكان عزل وصيف الكاتب عن منصب الشرطة في (٢٥ صفر ٣٠٧هـ/ ٢٧ تموز ٩١٩م) وأعاد محمد بن طاهر، واستعدَّ للتصدي للقوات الفاطمية وهو مطمئن. وفجأة ألمَّ به مرض لم يمهله طويلاً، إذ ما لبث أن توفي في الجيزة في (١١ ربيع الآخر/ ١٠ أيلول)[2].

أبو منصور تكين (المرتان: الثانية والثالثة)
٣٠٧ ـ ٣٠٩هـ/ ٩٢٠ ـ ٩٢١م

فشل الحملة الفاطمية الثانية على مصر

عيَّن الخليفة المقتدر أبا منصور تكين والياً على مصر للمرة الثانية، والراجح أن الظروف السياسية المضطربة والغزو الفاطمي لمصر هي التي دفعت الخلافة لتقليده إمرة هذا البلد وذلك بفعل معرفته بأوضاعه، ومقدرته على تحصينه، وتجهيز جيوشه، ونجاحه في التصدي للحملة الفاطمية الأولى.

وصل تكين إلى مصر في (١٩ شعبان ٣٠٧هـ/ ١٤ كانون الثاني ٩٢٠م)، وقد سبقه جيش عباسي أرسله الخليفة إلى مصر لمساندته بقيادة أبي قابوس محمود بن حمل وإبراهيم بن كيغلغ. وأقرَّ تكين فور وصوله محمداً بن طاهر على شرطته، ثم تجهَّز بسرعة وخرج من الفسطاط على رأس جيوش مصر والعراق وعسكر بالجيزة، وحفر خندقاً حول معسكره غير الخندق الذي كان قد حفره ذكا قبل وفاته، وانتظر وصول القوات الفاطمية[3].

ويبدو أن عودة تكين إلى مصر، وثقة سكانها بقدرته على صدّ الفاطميين فضلاً عن وصول المدد من العراق؛ كل ذلك أعاد الهدوء إلى الساحة السياسية ودفع من نزح من السكان إلى بلاد الشام والحجاز إلى العودة[4].

ووصل الأسطول الفاطمي في غضون ذلك إلى مصر وقوامه ثمانون سفينة، بقيادة سليمان الخادم ويعقوب الكتامي، وجاء الرد العباسي على ذلك سريعاً وقوياً. فقد

(١) الكندي: ص١٩٨، ١٩٩.
(٢) المصدر نفسه: ص١٩٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٩٦.

أرسل الخليفة أسطولاً بحرياً من طرسوس إلى مصر قوامه خمس وعشرون سفينة بقيادة ثمال الخادم، اصطدم بالأسطول الفاطمي عند سواحل رشيد في (١٨ شوال/ ١٢ آذار) ودمَّره، ووقع بحارته بين قتيل وأسير. ودخل ثمال الخادم على أثر ذلك مدينة الفسطاط ومعه عدد كبير من الأسرى معظمهم من قبيلة كتامة، فأمر بإطلاق سراح الأسرى من أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية، وأذن للجند والسكان بقتل الأسرى من كتامة وزويلة بوصفهم أخطر العناصر في جند الفاطميين. وطيف بسليمان ويعقوب، قائدي الأسطول الفاطمي، مع رؤساء المراكب في الشوارع والأزقة، ثم زُجَّ بهم في السجن. فمات سليمان في السجن ونُقل يعقوب إلى بغداد، إلا أنه تمكَّن من الهرب وعاد إلى المغرب[1].

ويبدو أن هزيمة الأسطول الفاطمي لم تقض على الحملة وإن أثَّرت على وضع القائم النفسي، الذي كان لا يزال مرابطاً مع قسم من الجيش في الإسكندرية بدليل أنه مدَّد إقامته فيها، وكانت بعض الفرق الفاطمية لا تزال متمركزة في الفيوم وجزء من مصر الوسطى، إلا أنها كانت عاجزة عن التقدم نحو الفسطاط بفعل تفشي الأوبئة بين أفرادها ووفاة كثير من قادتها، فاستغل تكين ذلك واصطدم بها، وانتصر عليها انتصاراً غير حاسم، فتراجعت إلى مصر الوسطى، وعاد تكين إلى الفسطاط[2].

لم يرض الخليفة العباسي عن التطورات السلبية في مصر وعَجْز جيوشه عن طرد الفاطميين من هذا البلد، ورأى أن يقوم بخطوة أخرى لتحقيق ذلك تكون حاسمة، فأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف جندي بقيادة مؤنس الخادم، وصل إلى الفسطاط في (٣ محرم ٣٠٨هـ/ ٢٥ أيار ٩٢٠م)، ونزل في الجيزة، وأرسل قائده فرقة عسكرية إلى الأشمونين بقيادة إبراهيم بن كيغلغ لطرد الفاطميين منها. وحدث أن توفي هذا القائد فجأة في البهنسا[3]، وتعرَّض جنوده للهزيمة على يد القوات الفاطمية، ما أعاد الموقف العسكري إلى حال الركود مرة أخرى، ودفع الخليفة إلى إرسال جيش آخر إلى مصر بقيادة جنى الخادم المعروف بالصفواني. واصطدمت الجيوش العباسية المجتمعة بالقوات الفاطمية في المخايض وتغلَّبت عليها واستعادت الفيوم[4].

(١) الكندي: ص١٩٩. ابن الأثير: جـ٦ ص٦٥٩.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٣٠٧.
(٣) البهنسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل. الحموي: جـ١ ص٥١٦.
(٤) الكندي: ص٢٠٠. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٩٦.

عند هذه المرحلة من التطور العسكري، قرَّر القائم الرحيل عن الإسكندرية بفعل تناقص المؤونة فيها من جهة، ولخوض المعركة الفاصلة مع مؤنس الخادم من جهة أخرى، وترك فيها حامية عسكرية بقيادة فتح بن ثعلبة، وتوجَّه نحو الصعيد، واستولى مجدداً على الفيوم والأشمونين، وطرد منهما الحامية العباسية[1].

تجنَّب مؤنس الخادم الدخول في معركة سافرة مع خصمه تاركاً الوباء الذي بدأ يتفشى في الجيش الفاطمي، والركود، يقضيان عليه، واقتصرت المواجهات العسكرية بينهما على بعض المناوشات، وأرسل في الوقت نفسه ثمال الخادم في مراكبه إلى الإسكندرية لاستردادها من أيدي الفاطميين. ونجح هذا القائد في دخول المدينة عنوة وقتل أفراد الحامية الفاطمية[2]. تحرَّج موقف القائم من هذه التطورات السلبية، فقرَّر مغادرة مصر، فرحل إلى تهنامت ثم غادرها إلى برقة فالمهدية[3]. وهكذا فشل هذا القائد الفاطمي للمرة الثانية، أمام القائد العباسي نفسه، مؤنس الخادم، الذي استحق عن جدارة لقب المظفر الذي منحه إياه الخليفة العباسي المقتدر[4].

تعقيب على الحملة الثانية على مصر

- على الرغم من هزيمة القائم في حملته الثانية على مصر، إلا أن تأثيرها كان قوياً على الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية، فقد ألقت الرعب في قلوب المصريين، واستولى القائم على جزء كبير من خراج مصر، ونهب الموظفون العباسيون باقي هذا الخراج ما أدَّى إلى خلل في الوضع الاقتصادي، وانتشر المذهب الإسماعيلي بين المصريين على الرغم من حملة الملاحقة التي نفَّذها تكين ضد أنصار الفاطميين الذين كانوا يراسلون عبيد الله المهدي ويدعون له، وبخاصة ابن المديني اللهيصي، وسوف يساعد ذلك، إلى حد كبير، الفاطميين للاستيلاء على مصر في المستقبل[5].

- استغرقت حملة القائم الثانية على مصر مدة سنتين وثمانية أشهر.

- حاول عبيد الله المهدي بسط السيطرة الفاطمية على الحجاز، فقد كتب إلى أهل

---

(١) الكندي: ص٢٠٠. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ٦ ص٦٥٩.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٠٣.
(٥) الكندي: ص٢٠٠. ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٩٦.

مكة يدعوهم إلى طاعته ويعدهم بحسن السيرة فيهم، وكان يأمل في تقوية مركزه في مصر وتعزيز موقفه أمام العباسيين، إلا أن أهل مكة رفضوا دعوته[1].

وهكذا نرى أن عبيد الله المهدي منذ أن أسَّس الدولة الفاطمية وهو يبذل جهده للقضاء على العباسيين وتزعُّم العالم الإسلامي، وكانت خطوته الأولى في هذا السبيل الاستيلاء على مصر، وعلى الرغم من فشله إلا أنه خطا الخطوة الأولى ومهَّد الطريق لخلفائه الذين سيحقِّقون هذه الرغبة.

وما كاد تكين يرتاح من عناء الضغط الفاطمي حتى أقدم مؤنس الخادم على عزله عن ولاية مصر في (ربيع الأول ٣٠٩هـ/تموز ٩٢١م) وولَّى عليها أبا قابوس محمود بن حمل، معارضاً بذلك رغبات المصريين الذين أحبوه كثيراً نتيجة لجهوده وتقديراً لأعماله، ويبدو أنه خشي أن ينافسه. وقد أدَّت حادثة العزل إلى رد فعل عنيف من جانب المصريين، فاستنكروها واستهانوا بالوالي الجديد، وطلبوا من مؤنس الخادم إعادة تكين، فاضطر القائد العباسي، تحت ضغط الأحداث، إلى الاستجابة، فأعاد الوالي المعزول بعد ثلاثة أيام من عزله، ولكنه فعل ذلك لكي يستعدَّ لإخماد أية حركة قد يقوم بها المصريون أو جند تكين، بدليل أنه عزله مرة أخرى بعد أربعة أيام من إعادته، وأبعده عن مصر. وهكذا عُزل هذا الوالي للمرة الثالثة، وخرج إلى الشام مع جنده البالغ عددهم أربعة آلاف. وأقرَّ الخليفة العباسي المقتدر ما أقدم عليه كبير قادته وذلك من ضمن سياسة عباسية عامة خشية من استغلال الولاة لإنجازاتهم لتحقيق مكاسب شخصية تعارض السياسة العباسية العليا، وأرسل إلى مصر والياً جديداً هو هلال بن بدر، كما استدعى مؤنساً الخادم إلى بغداد، فخرج من مصر على رأس الجنود العراقيين الذين وفدوا معه لصد الفاطميين[2].

هلال بن بدر

٣٠٩ - ٣١١هـ/ ٩٢١ - ٩٢٣م

وصل هلال بن بدر إلى مصر في (٦ ربيع الآخر ٣٠٩هـ/ ١٤ آب ٩٢١م) فتسلَّم منصبه، وأقرَّ محمد بن طاهر على الشرطة ثم صرفه بعد مدة وعيَّن مكانه علي بن فارس، ثم صرفه بعد سبعة أيام وعين مكانه كنجور[3].

---

(١) عريب بن سعيد: صلة تاريخ الطبري: ص٨٧٧
(٢) الكندي: ص٢٠٠. المقريزي: جـ٢ ص١٤٥.
(٣) الكندي: ص٢٠١.

لم يكن هذا الوالي موفقاً في ولايته، فالبلاد كانت تمر بمرحلة اضطراب سياسي نتيجة التغيير السريع في الولاة بالإضافة إلى التدابير التنظيمية غير المدروسة التي كانوا ينفذونها. فقد خرج عليه جماعة من المصريين، وثار الجند عليه بسبب أرزاقهم، وأجمعوا على قتاله فخرجوا إلى منية الأصبغ بقيادة محمد بن طاهر الذي غضب لعزله. ونشبت بين الطرفين حروب كثيرة أدَّت إلى فقدان الأمن، وكثر القتل والنهب، وعمَّ الفساد والفوضى، وقُطعت الطرق بالديار المصرية، وعجزت الخلافة عن إخضاع الثائرين وتهدئة الوضع، فاضطر الخليفة المقتدر إلى عزل واليه وأرسل إلى مصر والياً جديداً هو أحمد بن كيغلغ، وذلك في عام (٣١١هـ/ ٩٢٣م)، وكانت ولاية هلال بن بدر أشر ولاية[1].

أحمد بن كيغلغ

٣١١هـ/ ٩٢٤م

وصل أحمد بن كيغلغ إلى مصر في (الأول من جمادى الأولى ٣١١هـ/ ١٧ آب ٩٢٣م) واصطحب معه محمد بن الحسين الماذرائي الذي عيَّنه الخليفة على الخراج، فأقرَّ كنجور على الشرطة، وراح ينظم أُعطيات الجند حتى يركنوا إلى الهدوء. ويبدو أن الماذرائي لاحظ أن هذا العطاء أضحى عبئاً على الخزانة العامة، فأسقطه عن كثير من الجند المشاة، فثار هؤلاء ولجأوا إلى الوالي للشكاية، ولما لم يستطع إخماد ثورتهم هرب إلى مدينة فاقوس[2]. وأراد الماذرائي تحت ضغط الثائرين، الفرار إلى بلاد الشام، لكن الجنود حالوا بينه وبين ذلك، واضطروه إلى البقاء في الفسطاط. وتفاقمت الثورة، وطغى الجنود، وازداد نفوذهم، واضطرب حبل الأمن، ولم تستطع الحكومة المركزية في بغداد أن تقوم بعمل حاسم لقمع الثورة بسبب ضعفها وحاجتها إلى جميع جنودها من أجل القيام بذلك، فاضطر الخليفة المقتدر إلى عزل أحمد بن كيغلغ، وأعاد تكين إلى ولاية مصر للمرة الرابعة، وذلك في (٣ ذي القعدة ٣١١هـ/ ١٢ شباط ٩٢٤م)، وكانت مدة ولاية ابن كيغلغ سبعة أشهر[3].

(١) الكندي: ص٢٠١. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٠١، ٢٠٢.
(٢) فاقوس: مدينة في حوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الحوف الأقصى. الحموي: جـ٤ ص٢٣٢.
(٣) الكندي: ص٢٠٢.

أبو منصور تكين (المرة الرابعة)

٣١٢ - ٣٢١هـ/ ٩٢٤ - ٩٣٣م

قدم تكين إلى مصر ووصل إليها في (١٠ محرم ٣١٢هـ/ ١٨ نيسان ٩٢٤م)، فأقرَّ كنجور على الشرطة ثم عزله وولَّى قرا تكين، فعزله بعد مدة وولَّى وصيفاً الكاتب، ثم عزله وولَّى بجكم الأعور[1]. والواضح أن هذا التغيير السريع للقيمين على أجهزة الأمن مرده إلى الاضطرابات الداخلية التي كانت تشهدها مصر في ذلك الوقت.

والحقيقة أن مهمة تكين لم تكن سهلة هذه المرة، فقد تفاقم شغب الجند، وتفشَّت الفوضى في البلاد بشكل ملفت ما هدَّد مصر بعواقب وخيمة، فقرَّر ضرب الجند الثائرين وكسر شوكتهم، فعبَّأ جنده واستعدَّ لقتالهم، وحتى يأمن على نفسه غائلة الفتنة صلَّى الجمعة بدار الإمارة بالعسكر وترك حضور الجماعة، ولم يُصلِّ قبله أحد من الأمراء بدار الإمارة، الجمعة، ويبدو أن ذلك أثار أبا الحسن علي بن محمد الدينوري، فأنكر عليه تصرفه هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى، ما دفع تكين إلى إخراجه من مصر إلى القدس، خشية من تأليبه الناس عليه[2].

نجح تكين في ضرب الجند الثائرين وأسقطهم من العطاء ثم أخرجهم من مصر، واستثنى من أقام منهم بالفسطاط فبرَّأ ذمتهم[3]، وذلك في خطوة لاستقطابهم، فتحسنت أوضاع البلاد، وعاد الهدوء والاستقرار إلى ربوعها.

وحدث في ذلك الوقت أن قُتل الخليفة المقتدر في (شوال ٣٢٠هـ/ تشرين الأول ٩٣٢م) وبويع أخوه القاهر بالخلافة[4]، فأقرَّ تكين على ولاية مصر، وأرسل إليه الخلع تدليلاً على رضائه عن إدارته[5]، ولم تطل ولايته بعد ذلك إذ مرض وتوفي في (١٦ ربيع الأول ٣٢١هـ/ ١٦ آذار ٩٣٣م)، فحُمل في تابوت إلى بيت المقدس ودُفن به. وكانت ولايته على مصر هذه المرة تسع سنوات وشهرين وخمسة أيام، وقد كانت خيراً على البلاد والعباد بفعل ما تمتع به من صفات حسنة ودراية بالأمور ومعرفة بالحروب، فقد كان: «أميراً شجاعاً عارفاً مدبراً، وَليَ الأعمال الجليلة، وطالت أيامه في السعادة، وكان عنده سياسة ودراية بالأمور ومعرفة بالحروب»[6].

(١) الكندي: ص٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢١٠.
(٣) الكندي: ص٢٠٢.
(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٧٦٩ - ٧٧٣.
(٥) الكندي: ص٢٠٣.
(٦) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢١١.

الأوضاع السياسية في مصر
بعد وفاة تكين وحتى قيام الإمارة الأخشيدية

شهدت مصر بعد وفاة تكين صراعاً حاداً على السلطة بين ثلاث قوى هي: قوة الولاة وقوة قادة الجيش العراقي في مصر وقوة الماذرائيين. وكادت وفاة تكين أن تقضي على الاستقرار الذي تحقَّق في عهده، ذلك أنه استخلف قبل وفاته ابنه محمد على ولاية مصر متجاوزاً ماهية قرار الخلافة في ذلك. فتسلَّم مقاليد الحكم من دون أن يمنحه الخليفة التقليد، فعارضه أبو بكر محمد بن علي الماذرائي الذي أصبح الأمر كله في يده بعد وفاة تكين، ولم يعترف به أميراً، وراح يتحيَّن الفرص لطرده من البلاد[1].

وحدث آنذاك أن ثار الجند على محمد الماذرائي بسبب تأخر أُعطياتهم، فاضطر إلى الاختباء، فأحرقوا دور أهله. وخرج محمد بن تكين من الفسطاط إلى منية الأصبغ ثم رحل إلى بلبيس، فأُرسل إليه محمد الماذرائي يأمره بالخروج من أرض مصر فرحل إلى بلاد الشام، وكتب إلى الخليفة في بغداد يطلب توليته على مصر خلفاً لوالده، فوافق الخليفة على طلبه وقلَّده إياها[2].

وكان محمد الماذرائي في غضون ذلك، قد كتب إلى الخليفة يلتمس أميراً، ولم يطلب الإمارة لنفسه، ومن الواضح أنه كان لا يريد تولية محمد بن تكين، لكنه وافق مرغماً على قرار الخليفة الخاص بهذه التولية. وعمدت الخلافة في الوقت نفسه إلى تفويضه أمر مصر وتدبيرها فكتب إليه الخليفة: «إن الأمر يصير إليك فتقلد من شئت وتصرف من شئت»[3].

ويبدو أن تصرف الخلافة ينمُّ عن الفوضى التي كانت عليها الأمور في بغداد، لكن الراجح أن الخلافة درجت على اتباع سياسة عامة في ولاياتها تقضي بالإيقاع بين القوى المحلية ومحاولة ضرب بعضها ببعض لإضعافها، كما أنها كانت حريصة على المحافظة على تعدد السلطات في مصر بخاصة وعلى أن لا تتركَّز في يد أي شخص أو قوة بما في ذلك الوالي، حتى تقضي على أية نزعة استقلالية تعيد ما حدث في العهد الطولوني[4].

وخرج محمد الماذرائي من مخبئه عندما هدأت الأوضاع، واستعاد مركزه في إدارة مصر، ولما أراد محمد بن تكين أن يدخل مصر مزوداً بالتقليد الذي جاءه

(١) الكندي: ص٢٠٣.
(٢) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ٧ ص١٢.
(٣) ابن سعيد: ص١٥٧.
(٤) سيدة كاشف: ص٤٣.

بولاية مصر، منعه محمد الماذرائي ولم يعترف به. وظلَّت مصر من دون والٍ إلى أن قلَّد الخليفة محمد بن طغج أمر مصر في (رمضان ٣٢١هـ/ أيلول ٩٣٣م)، وكان آنذاك في دمشق، فلم يذهب إليها لاستلام منصبه، وظلَّ اسمه يُذكر على منابرها بعد اسم الخليفة مدة اثنين وثلاثين يوماً، ثم ورد كتاب الخليفة بتقليد أحمد بن كيغلغ مصر وأعمالها[1].

والواضح أنه لا يمكننا تفسير هذا التغيير السريع في الولاية إلا بسوء الإدارة والاضطراب الداخلي في مصر، وربما يعود ذلك إلى تأثير الماذرائيين وأنصارهم في مصر، وسياستهم الهادفة إلى إبعاد من يخشونه عن ولايتها حيث كانوا يطمعون في السيطرة على الحكم، ويقيلون أي والٍ يُقلَّد إمرتها.

وثار الجند على محمد الماذرائي مرة ثانية بسبب التأخير في دفع رواتبهم، وأحرقوا دوره ودور أهله وكثير من أتباعه، وقبضوا على بعض موظفيه. وشهدت مصر فتناً ومعارك بين طوائف الجند المختلفة لا سيما بين المغاربة والمصريين. ولم تكد الأمور تهدأ وتستقر بين تلك الطوائف حتى ظهر محمد بن تكين في (١٣ ربيع الأول ٣٢٢هـ/ ٣ آذار ٩٣٤م) قادماً من فلسطين، مدعياً أن الخليفة عيَّنه على مصر، وسانده بعض المصريين، فدعوا له بالإمارة على المنابر، إلا أن محمد الماذرائي لم يعترف بولايته، وتصدى له بالتحالف مع أحمد بن كيغلغ وبعض الفئات المصرية، وجرى قتال بين الطرفين انتهى بهزيمة محمد بن تكين وفراره من الفسطاط[2].

وفي الوقت الذي انصرف فيه أحمد بن كيغلغ إلى إصلاح أوضاع البلاد، خُلع الخليفة القاهر في بغداد في (جمادى الأولى/ أيار) وخلفه الراضي[3]، فاستغل محمد بن تكين فرصة هذا التغيير في رأس السلطة وعاد إلى مصر مدعياً أن الخليفة الراضي ولَّاه أمر البلاد. ونشبت الحروب مرة ثانية بينه وبين قوى التحالف التي تصدَّت له، انتهت بانتصار هذه القوى، ووقع محمد بن تكين في الأسر، فنفاه أحمد بن كيغلغ إلى الصعيد، واستقر في دست الحكم، لكنه كان ألعوبة في أيدي الماذرائيين[4].

وانتهج الخليفة الراضي سياسة أسلافه في الإيقاع بين السلطات الحاكمة في مصر، فكتب إلى أحمد بن كيغلغ يُقره على ولاية هذا البلد في حين أرسل إلى محمد الماذرائي يُذكره بأن الأمر له يقلد من يشاء ويصرف من يشاء.

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٣٧، ٢٣٨.
(٢) الكندي: ص٢٠٤، ٢٠٥.
(٣) ابن الأثير: جـ٧ ص١٧ ـ ٢١.
(٤) الكندي: ص٢٠٦.

وتُفاجئ الخلافة، في غمرة هذه الأحداث، القيمين على مصر بتقليد محمد بن طغج الأخشيد هذا البلد، ووردتهم الأخبار بقدومه من الشام في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)[١].

أدَّت الاضطرابات السياسية في مصر وكثرة الحروب والفتن الداخلية إلى تردِّي الوضع الاقتصادي، وشلّ الحركة المالية. فاستغل محمد الماذرائي ذلك لتثبيت أقدامه في السلطة، وعانى الشعب المصري من ذلك، فكان الوضع مهيئاً لأي شخص قادر على انتشال البلد من المأزق السياسي والاقتصادي والأمني، وتحقيق الاستقلال، والتصدِّي للخطر الفاطمي المتجدد، ولم يكن هذا الشخص سوى محمد بن طغج الأخشيد.

(١) الكندي: ص٢٠٧.

الفصل السابع

محمد بن طغج بن جف (الأخشيد)

٣٢٣ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٤٦م

أصل الأخشيديين

ينتسب الأخشيديون إلى الأخشيد[١]، وهو لقب إيراني قديم منحه الخليفة العباسي الراضي لأبي بكر محمد بن طغج بن جف في (رمضان ٣٢٧هـ/ تموز ٩٣٩م) بناء على طلبه، وإنما لقَّبه بذلك لأنه لقب ملوك فرغانة[٢] وهو من نسلهم[٣]، والمعروف أنه كان يسيطر على هذا الإقليم كبار الملاك الإقطاعيين والفرسان، وأميرهم هو أكبرهم من حيث السعة الإقطاعية ويسمى دهقان ولقبه أخشيد[٤]. ومحمد بن طغج هذا هو مؤسس الدولة الأخشيدية، والراجح أنه عندما ترقَّى في المناصب القيادية ووصل إلى منصب الولاية أراد أن يصل نسبه بملوك فرغانة إعلاء لشأن أسرته، ولذلك لقَّبه الراضي بهذا اللقب عندما أضحى صاحب الديار المصرية والشامية لأنه كان فرغانياً[٥].

ومهما يكن من أمر، فقد قدم جف بن يلتكين، جد محمد، إلى الخليفة العباسي المعتصم مع طائفة من الضباط الأتراك، والمعروف أن التدخل التركي في شؤون الخلافة بدا واضحاً في عهد هذا الخليفة الذي بويع في ظل صراع عنيف بين العرب من ناحية وبين الفرس من ناحية أخرى، واختلال في التوازن بين العصبيات التي تكوَّنت منها الدولة العباسية، وقد فَقَدَ ثقته بالعرب والفرس ما دفعه إلى تقريب العنصر التركي، وخصَّ الأتراك بالنفوذ والسلطان، وقلَّدهم قيادة الجيوش، ومكَّن لهم في الأرض، وأقطعهم قطائع في سامراء. وظلَّت قطائع جف تُنسب إليه حتى

(١) أخشيد: معناه الذكي أو النبيه.
(٢) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل. الحموي: ج٤ ص٢٥٣، ٢٥٤.
(٣) ابن خلكان: ج٥ ص٥٨.
(٤) سيدة كاشف: ص٥٦.
(٥) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج٥ ص٤٥٣.

زمن ابن خلكان المتوفى عام (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)[١].

انتقل جف بعد وفاة المعتصم إلى خدمة ابنه الخليفة الواثق، وعندما توفي هذا في عام (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، دخل في خدمة أخيه المتوكل، وظلَّ في عداد حاشيته إلى أن توفي ببغداد في الليلة التي قُتل فيها المتوكل (٣ شوال ٢٤٧هـ/ ١٠ كانون الأول ٨٦١م)[٢]، والتحق ابنه طغج، بعد وفاته، بخدمة أحمد بن طولون، ويبدو أنه انضم بعد ذلك إلى إسحاق بن كنداج والي الموصل وخصم ابن طولون، وما جرى بعد ذلك من التفاهم بين خمارويه بن أحمد بن طولون وبين إسحاق بن كنداج، أن عاد طغج بن جف إلى العمل تحت إمرة الطولونيين، فعيَّنه خمارويه والياً على دمشق وطبرية[٣]، وأرسله في عام (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) لغزو البيزنطيين، فخرج من طرسوس على رأس الجيش وتوغَّل في آسيا الصغرى، وهزم البيزنطيين في مواقع عدة عند أبواب قيليقيا وفي غربها، وأدَّى انتصاره هذا إلى أن يزحف إلى عمق الأراضي البيزنطية على امتداد الساحل، وأن يتوغل في جوف آسيا الصغرى حتى طرابزون على البحر الأسود، ثم عاد إلى دمشق محملاً بالغنائم[٤].

ويبدو أن خمارويه غضب على طغج بن جف بعد هذه الحملة لأنه كان قد طلب منه القبض على راغب وقتله، والمعروف أن الأخير كان مولى المُوفَّق وقد نزل بطرسوس للجهاد، ثم غلب على هذا الثغر بعد أحمد بن طغان العجيفي، لكن الاستقبال الودي الذي لقيه طغج منه جعله يأنس إليه ويبقي على حياته وبخاصة بعد تدخل أهل طرسوس الذين ارتاحوا في ظل حكمه، واشترك الرجلان في غزو البيزنطيين. وعندما عاد طغج بن جف إلى خمارويه، راح يتلمَّس الأعذار لتصرفه وامتناعه عن التخلص من راغب، ويبدو أن خمارويه لم يقتنع بتبريراته وقرَّر التخلص منه، غير أنه قُتل قبل أن يحقق ذلك[٥].

وعندما تولى هارون بن خمارويه حكم مصر، كان طغج بن جف يحكم بلاد الشام مستقلاً عن مصر إلى حدٍ ما، فكتب إليه بدر الحمامي والحسين بن أحمد الماذرائي لاستقطابه، وبعد مفاوضات جرت بين الطرفين نجح القائدان الطولونيان في الوصول إلى تفاهم معه يقضي بعودة بلاد الشام إلى حظيرة الدولة الطولونية وإقرار طغج بن جف على حكمها[٦].

(١) سيدة كاشف: ص٥٧.
(٢) ابن خلكان: جـ٥ ص٥٦.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٧.
(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٨١.
(٥) ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بمصر: ص١٥٠.
(٦) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٠١.

وتصدَّى طغج بن جف في عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م) لجموع القرامطة الذين تقدموا باتجاه بلاد الشام هرباً من مطاردة الجيوش العباسية، فعاثوا فيها فساداً، لكنه هُزم أمامهم وعاد إلى دمشق. ويبدو أن لذلك علاقة بتهاونه ظناً منه أنهم من بعض الأعراب، فخرج إلى لقائهم وهو على غير تعبئة ومعه البزاة والصقور كأنه خارج للصيد، وجدَّد قتاله لهم في العام التالي، إلا أنه هُزم أيضاً[١].

وكان طغج بن جف من بين القادة الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه، ولم يعترفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون، وانضموا إلى الجيش العباسي الزاحف إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء على حكم الطولونيين. وكافأه القائد العباسي بأن عيَّنه والياً على قنسرين، لكنه لم يستمر طويلاً في منصبه، فقد اصطحبه محمد بن سليمان الكاتب معه إلى بغداد هو وابنه وأخاه، وهناك دبَّ الخلاف بينه وبين العباس بن الحسن وزير الخليفة المكتفي، فدسَّ له عند الخليفة الذي زجَّه في السجن مع ابنه محمد، وتوفي في سجنه في عام (٢٩٤هـ/ ٩٠٧م)[٢] وأطلق الخليفة محمد بن طغج من السجن، فلازم الوزير العباسي إلى أن قضى عليه الحسين بن حمدان، واشترك محمد بن طغج وأخوه عبيد الله معه في التخلص منه أخذاً بثأر والدهما، وهرب محمد إلى بلاد الشام، وفرَّ أخوه عبيد الله إلى شيراز[٣].

محمد بن طغج قبل ولايته على مصر

اتصل محمد بن طغج، بعد خروجه من العراق إلى بلاد الشام إثر مقتل الوزير العباس بن الحسن، بأبي العباس أحمد بن بسطام عامل الخراج فيها، وظل معه يخدمه في صيده، ويجمع له الجوارح حتى عُرف باسم بازيار بن بسطام[٤]. وعندما تقلد ابن بسطام خراج مصر في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، صحبه محمد بن طغج إليها، واستمر في خدمته إلى أن توفي في العام التالي، فالتحق بخدمة ابنه أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام الذي خلفه على خراج مصر، وظل في خدمته حتى تمَّ عزله عام (٣٠٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩١٣)، فاتصل بتكين والي مصر، واشترك مع القوات العباسية في التصدي للغزو الفاطمي على مصر، وبخاصة الحملة التي قادها حباسة في عام

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٠٤.
(٢) المصدر نفسه: ص١٤٦. ابن خلكان: جـ٥ ص٥٧. وقارن بابن سعيد الذي يذكر أن عبيد الله بن طغج سُجن مع أبيه وأخيه: ص١٥١.
(٣) ابن سعيد: ص١٥١. ابن خلكان جـ٥ ص٥٧.
(٤) ابن سعيد: ص١٥٢. بازيار: صاحب الباز أو صياد، وهو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد.

(٣٠٢هـ/ ٩١٤م)، وأبلى فيها بلاء حسناً ما لفت نظر تكين، فقرَّبه إليه ووثَّق صلته به حتى أضحى منه بمثابة الابن[١].

وعندما عُزل تكين عن ولاية مصر وأُسندت إليه ولاية دمشق رافقه محمد بن طغج، فولّاه تكين عمَّان[٢]، وجبل الشراة[٣] نيابة عنه. وهكذا سنحت الفرصة له ثانية لأن يتبوَّأ مناصب سياسية وإدارية في بلاد الشام. وساعدته الظروف السياسية على القيام بدور فعَّال وإظهار مواهبه العسكرية، ذلك أنه حصل أثناء نيابته على عمَّان أن هاجمت جماعات من لخم وجذام قافلة للحجاج قادمة من العراق والشام وفيها جارية لوالدة الخليفة المقتدر، فتصدى لهم محمد بن طغج وأخوه علي وهزمهم وأنقذ القافلة وقادها آمنة إلى دمشق، فشكره الحجاج وأسهبوا في الحديث عن شجاعته في بغداد ما لفت نظر الخليفة، فخلع عليه وزاد في رزقه[٤].

وعندما أُعيد تكين إلى ولاية مصر في عام (٣٠٧هـ/ ٩١٩م)، صحبه محمد بن طغج، فولّاه على الإسكندرية، وظل مقيماً فيها إلى أن غزاها الفاطميون مرة ثانية بقيادة القائم، فأبدى شجاعة في القتال وأدّى دوراً فاعلاً في هزيمتهم وإجبارهم على العودة إلى المغرب[٥].

استغل محمد بن طغج وضعه المتقدم فوثَّق علاقته بكبار رجال الدولة في بغداد ومصر، فأنعم عليه مؤنس الخادم بأن قلّده حكم الحوفين الشرقي والغربي[٦] بأمر من الخليفة، كما اتصل بأفراد الأسرة الماذرائية في مصر، محمد بن علي والحسن بن أحمد، وحصل منهما على معلومات مفيدة عن أوضاع مصر الاقتصادية وعن الممتلكات الماذرائية.

وما جرى آنذاك من إقدام محمد بن طغج على مصادرة أموال الناس في مصر واستيلائه على دار القاضي علي بن الحسين بن حرب، المعروف بابن حربويه، وعلى تركة أحمد بن صالح حاكم الإسكندرية، بعد وفاته في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)؛ أن دبَّ الخلاف بينه وبين تكين الذي أزعجه هذا التصرف ولم يرض عنه[٧].

(١) ابن سعيد: ص١٥٢.
(٢) عمَّان: بلد في طرف الشام وكانت قصبة البلقاء. الحموي: ج٤ ص١٥١.
(٣) جبل الشراة: صقع بالشام بين دمشق والمدينة المنورة. المصدر نفسه: ج٣ ص٣٣٢.
(٤) ابن خلكان: ج٥ ص٥٧، ٥٨. (٥) ابن سعيد: ص١٥٣.
(٦) الحوف: بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. الحموي: ج٢ ص٣٢٢.
(٧) ابن سعيد: ص١٥٣.

وحدث أن عيَّن مؤنس الخادم، محمد بن جعفر القرطي على الحسبة ثم على الخراج في مصر، وصرف الماذرائيين عنها وذلك في غمرة الصراع على السلطة وحتى لا يستأثر هؤلاء بالمقدرات الاقتصادية، فتقرَّب إليه محمد طغج، وتحسّنت علاقته به، غير أن الماذرائيين لم يتركوا القرطي وشأنه، فاتهموه باختلاس الأموال من خراج البلاد، فعزله الخليفة المقتدر، واضطر إلى الاختباء عند محمد بن طغج حيث تمكَّن بواسطته من التخلص من ملاحقة الماذرائيين، والوصول آمناً إلى بغداد[١].

حفظ القرطي صنيع محمد بن طغج، فعمل في بغداد على دعمه وتثبيت مركزه، وحصل له على تقليد من الخليفة المقتدر بولاية الرملة وذلك في عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م). والملفت أنه لم يتمكَّن من مغادرة مصر علانية لاستلام منصبه الجديد وإنما احتال للخروج منها. فعندما بلغه نبأ تقليده طلب من محمد بن تكين أن يستأذن له ولنفسه في أن يخرجا معاً للصيد في إقليم الحوف، وعمد قبل بداية الصيد إلى إرساله على رأس قوة عسكرية لإخضاع بعض قطاع الطرق واللصوص في صحراء الحوف، وغادر هو هارباً إلى بلاد الشام، واضطرت أمه وسائر أفراد أسرته إلى الاختباء[٢]. ولعل لتصرفه هذا علاقة بمدى خشيته من غضب تكين الذي نال هذا المنصب بواسطته ما قد يدفعه إلى الإقدام على منعه من مغادرة مصر، وتشير الرسائل المتبادلة بينهما بعد ذلك إلى هذا التوجه[٣]. ولا بد لنا من التساؤل في هذا المقام كيف لا يستطيع موظف عيَّنه الخليفة حاكماً على أحد أقاليم الخلافة، أن يخرج إلى مقر ولايته؟ ما يدل على الفوضى التي كانت تسود البلاد في ذلك الوقت[٤].

وعندما علم الراشدي أمير الرملة بتقليد محمد بن طغج وقدومه إليها، بادر بالهرب وترك داره وأمتعته، فوضع محمد بن طغج يده عليها، وعوَّضه الخليفة بولاية دمشق. واستمر الوضع على ذلك حتى عام (٣١٨هـ/ ٩٣١م)، عندما أعاد الخليفة الراشدي إلى الرملة، وعيَّن محمد بن طغج على دمشق[٥]، والراجح أن صديقه القرطي كان وراء هذا التدبير، فحظي بتأييد ومساندة أهل دمشق حيث كان محبوباً عندهم، لكن الأمور لم تستقم له إلا بعد أن تخلَّص من بشرى الخادم، غلام مؤنس الخادم الذي انتهز فرصة الفوضى التي كانت تسود بغداد في ذلك الوقت بسبب

(١) ابن سعيد: ص١٥٣. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه. (٤) سيدة كاشف: ص٦٤.
(٥) ابن خلكان: ج٥ ص٥٨.

الخلاف بين الخليفة المقتدر ومؤنس الخادم ليستولي على دمشق ويحصل على تقليد بحكمها من الخليفة، إما بحكم الأمر الواقع في ظل ضعف الخلافة أو جرياً على السياسة العليا للخلافة بنشر الفرقة وضرب القوى المتنفذة بعضها ببعض، وهذا هو الراجح بدليل أن الرجلين اقتتلا، وانهزم بشرى الخادم ووقع أسيراً في يد عدوه، وجرى التخلص منه بالسم[1].

ونظّم محمد بن طغج وضعه الداخلي في دمشق، فشكّل جيشاً ضمَّ طائفة كبيرة من الجند الذين خدموا تكين والراشدي وبشرى الخادم، كما التفَّ إخوته حوله، عبيد الله والحسن والحسين وعلي، بالإضافة إلى بني طغج، فتقوّى بهم، وكوّن عصبة من الغلمان التصقت به كان أكبرهم بدر الكبير وأصغرهم كافور الذي أضحى خادمه الخاص[2].

والواقع أن محمد بن طغج اقتدى بأحمد بن طولون بعد أن أدرك أن تقليد الخلافة له يبقى غير ذي قيمة إذا لم يُدعَّم بالقوة العسكرية في ظل الأوضاع السياسية المضطربة، التي كانت سائدة في مركز الخلافة وفي الأطراف، لهذا استمر في تجهيز نفسه وإعداد قواته العسكرية بجمع الأعوان والأنصار حتى كثر رجاله، وعجز عن تموينهم ودفع مرتباتهم، لذلك راح يصادر الأموال للإنفاق عليهم وبخاصة أموال الأثرياء واتبع مختلف الوسائل في هذا السبيل.

وبعد أن استكمل محمد بن طغج استعداداته العسكرية، وأنس من نفسه القوة، التفت إلى التمدد باتجاه مصر، فراح يراقب تحركات تكين ويترصد أخباره، وهو مستعد لانتهاز أول فرصة للوثوب إليها.

تولية محمد بن طغج على مصر

لم يترك محمد بن طغج وسيلة للحصول على ولاية مصر، فنهج أسلوب أحمد بن طولون في الاعتماد على الأنصار وشراء الناس، وأرسل كاتبه علي بن محمد بن كلا إلى الخليفة القاهر يلتمس منه ولاية هذا البلد بعد وفاة تكين في عام (٣٢١هـ/ ٩٣٣م)، لكن الخليفة لم يجبه، وقلَّد محمد بن تكين ولاية مصر خلفاً لوالده، ولكنه لم ييأس وتابع محاولاته في ظل تردي الأوضاع الداخلية في هذا البلد وتغيير الولاة بسرعة لافتة.

ويبدو أن الخليفة بدَّل رأيه بعد ذلك، فعيَّنه والياً على مصر في (٧ رمضان/ ٣١ آب)، غير أنه لم يتمكَّن من الذهاب إليها كما ذكرنا.

---

(١) ابن سعيد: ص١٥٣. (٢) المصدر نفسه.

ونتيجة للصراع بين محمد بن تكين، الذي قدم إلى مصر من فلسطين في (ربيع الأول ٣٢٢هـ/ شباط ٩٣٤م) مدعياً أنه وليها من قبل الخليفة، وبين الوالي أحمد بن كيغلغ وحلفائه الماذرائيين؛ اضطربت الأمور، وانقسمت طوائف الجند، ما دفع الخليفة الراضي إلى إرسال الوزير الفضل بن جعفر إلى مصر لاستطلاع أوضاعها وتدبير أمورها ، ومنحه صلاحيات مطلقة في التصرف، بناء على طلبه، فقلَّد هذا محمد بن طغج ولاية مصر في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، وضُمَّت إليه بلاد الشام والحرمين[1]، ويبدو أن لذلك علاقة بما جرى من التقارب الأُسري. فقد زوَّج محمد بن طغج ابنته من الفضل بن جعفر، فاستغل هذا الزواج للحصول على ولاية مصر، وقد وافق الخليفة الراضي بعد ذلك على هذا التعيين بعد أن أضحى أمراً واقعاً وعزل أحمد بن كيغلغ[2].

والواقع أن الخلافة كانت مترددة في حسم الموقف في بلاد الشام ومصر خشية من تكرار تجربة الطولونيين، لذلك جاءت قراراتها متسرعة وأوامرها مرتبكة تنم عن الضعف الذي حلَّ بها. ففي حين كتبت إلى محمد بن علي الماذرائي تقول: «إن الأمر يصير إليك، فتقلد من شئت وتصرف من شئت»، كتبت في الوقت نفسه إلى محمد بن علي هذا بإقرار أحمد بن كيغلغ على ولاية مصر. ومما زاد الوضع تعقيداً إرسال وزير مُفوَّضٍ عنها أُعطي صلاحيات واسعة استغله محمد بن طغج واعتمد عليه في تنفيذ رغبته، مدركاً أنها لن تتحقَّق وتستقر إلا بجهوده الشخصية وقوته العسكرية[3].

دخول محمد بن طغج إلى مصر

كان الدخول إلى مصر يتطلب تخطيطاً سليماً نظراً لصعوبته بفعل تمسك أحمد بن كيغلغ بمنصبه وحِرْص الماذرائيين على المحافظة على مكتسباتهم، لذلك عقد محمد بن طغج اجتماعاً سرياً مع الفضل بن جعفر في دمشق اتفقا في نهايته على أن يتم الدخول إلى مصر من محورين بري وبحري، واتخذا الحيطة والحذر كي لا تتسرب أخبار اجتماعهما إلى أنصار الماذرائيين الكثر في دمشق[4].

وحرص محمد بن طغج، قبل اللجوء إلى استعمال القوة المسلحة، إلى الدخول

---

(١) ابن سعيد: ص١٥٧. ابن خلكان: جـ٥ ص٥٨.
(٢) الكندي: ص٢٠٦. ابن الأثير: جـ٧ ص٥٦.
(٣) زيود: ص٢٨٠. (٤) ابن سعيد: ص١٥٨.

سلماً إلى مصر، فكتب إلى محمد بن علي الماذرائي، صاحب السلطة الفعلية فيها، يطلب منه التخلي عن موقفه العدائي منه ويخلّي بينه وبين دخول مصر مقابل أن يظل له الإشراف الإداري والمالي في البلاد، فرفض الاستجابة لطلبه مدركاً أن هذا الوالي الجديد يختلف عن الولاة السابقين من حيث القوة والطموح، وأنه لن يكون له من النفوذ كما كان له مع غيره، وبالتالي لا مقام له معه[1].

دفع هذا الرفض محمد بن طغج إلى تعبئة قواته، فحشد القادة والجنود الذين رافقوه والذين وفدوا عليه من بلاد الشام والعراق والبادية، وسار بهم باتجاه مصر. وعندما علم أحمد بن كيغلغ بزحفه اتخذ التدابير الضرورية بالتعاون مع حليفه محمد بن علي الماذرائي لمنعه من الدخول، بالإضافة إلى عرقلة إجراءات الوزير الفضل بن جعفر الإدارية، والمعروف أن هذا الوزير عيَّن العمال والموظفين على خراج مصر وفي الوظائف الإدارية الأخرى، وأرسل قوة عسكرية رابطت على حدود مصر الشمالية ـ الشرقية، ووضع قوة أخرى في العريش، وأرسل وفداً إلى محمد بن طغج يحمل نسخة من كتاب الخليفة المتضمن إقراره على ولاية مصر، وتفويضاً لمحمد بن علي الماذرائي على أعمالها. اجتمع أعضاء الوفد بمحمد بن طغج في الفرما، فلما قرأ الكتاب نصحهم بالاجتماع مع الوزير العباسي المفوَّض بالأمر الخلافي، وكان بالرملة، وعندما وصل هؤلاء إليه أمر باعتقالهم[2]، ما يدل على أن الخيار العسكري أضحى واقعاً.

تقدم محمد بن طغج على رأس جيشه باتجاه الداخل المصري، وفي المقابل خرج أحمد بن كيغلغ من الفسطاط على رأس ثلاثين ألف جندي تساعده القوة المغربية في مصر بقيادة حبشي بن أحمد، فاصطدم بطليعة جيش محمد بن طغج، ومُني بهزيمة فادحة. ونزل محمد بن طغج بعد انتصاره في منية الأصبغ شمالي القاهرة وانتظر وصول أسطوله البحري بقيادة صاعد بن كلملم، وكان قد استولى على دمياط وتنيس، واصطدم بالأسطول المصري بقيادة علي بن بدر بالقرب من سمنود في (شعبان ٣٢٣هـ/ تموز ٩٣٥م) وانتصر عليه ودمَّره، وتابع إبحاره إلى جزيرة الروضة وهي خط الدفاع عن الفسطاط، ولكن هذا الأسطول انسحب فجأة وعاد إلى الدلتا، ويبدو أنه تعرَّض لضغط عسكري بري، بدليل أن أحمد بن كيغلغ والماذرائي أسرعا، بعد انسحابه، إلى شحن الجزيرة بالرجال والسلاح للدفاع عن الفسطاط[3].

أعاد محمد بن طغج تنظيم صفوف قواته البحرية وجدَّد هجومه البحري على

(١) سيدة كاشف: ص٧١.
(٢) ابن سعيد: ص١٥٧، ١٥٨.
(٣) المصدر نفسه: ص١٥٨.

جزيرة الروضة في (٢٠رمضان/ ٢٣ آب)، ونجح في الاستيلاء عليها وأسر من فيها من الجنود، لكن هذه القوة البحرية لم تتمكَّن من دخول الفسطاط بفعل شدة المقاومة[1].

وما جرى آنذاك من استياء أحمد بن كيغلغ، الذي كره استبداد محمد بن علي الماذرائي بالأمور السياسية والإدارية وثقل عليه أمره وأمر أولاده وشعر بأنه: «ليس له معهم أمر ولا نهي»، وانضمام كثير من جنوده إلى جيش محمد بن طغج؛ أن مال إلى التفاهم مع هذا الأخير، وبخاصة بعد أن أرسل إليه محمد بن طغج كتاب الخليفة الراضي بتكليفه ولاية مصر، وهدَّده بالشكاية أمامه: «وأشهد عليك بمنعك إياي وأسير إلى حضرة السلطان». والواقع أنه كان قد عزم على الاستسلام إلى محمد بن طغج قبل ذلك، إلا أنه اصطدم برفض محمد بن علي الماذرائي[2].

وفعلاً أقدم أحمد بن كيغلغ على تسليم البلاد لمحمد بن طغج، واعتذر إليه بأن زمام الأمور كان قد أفلت من يده، وأن المقاومة التي تعرَّض لها لم تكن عن إرادته[3].

ونتيجة لذلك التفاهم دخل محمد بن طغج الفسطاط (في ٢٣ رمضان/ ٢٦ آب) فاستقبله أحمد بن كيغلغ مستسلماً في حين فرَّ محمد بن علي الماذرائي، واضطر إلى الاختباء، وشاطر ابنه الحسين أحمد بن كيغلغ في توجهاته[4]. والواقع أنه لم يكن هذا الموقف جديداً على أفراد الأسرة الماذرائية، وهو وجود أفراد منهم يتعاونون مع مختلف القوى التي تحكم مصر، للمحافظة على مكتسباتهم والتحكم بمصير هذا البلد، والواضح أنه موقف انتهازي[5].

ونهبت العساكر الداخلة المدينة مدة يومين، ولم تتوقف عن النهب إلا بعد أن هدَّدهم محمد بن طغج بالقتل[6]، ثم هدأت الأوضاع وبدأت الحياة العامة تعود إلى طبيعتها، فاطمأن السكان الذين كانوا قد غادروها وعادوا إلى دورهم.

القضاء على المتمردين

غادر الفسطاط، على أثر دخول محمد بن طغج، بعض القادة الذين ناهضوه واشتركوا في قتاله، أمثال حبشي بن أحمد قائد القوة المغربية، وعلي بن بدر قائد

(١) الكندي: ص٢٠٧. ابن سعيد: ص١٥٨.
(٢) الكندي: ص٢٠٧. ابن سعيد: ص١٥٨، ١٥٩.
(٣) ابن تغري بردي: ج٣ ص٢٤٤.
(٤) الكندي: ص٢٠٦، ٢٠٧. وقارن بابن سعيد: ص١٥٩.
(٥) سيدة كاشف: ص٧٤.
(٦) ابن سعيد: ص١٥٩.

أسطول أحمد بن كيغلغ وتوجَّهوا نحو الشرقية، ثم يمَّموا وجوههم صوب الفيوم[١]، وقد تجنَّبوا الذهاب إلى الحدود الشرقية باتجاه فلسطين ظناً منهم أنهم لن ينجوا من أعوان محمد بن طغج في هذه البلاد، واختاروا الذهاب إلى الفيوم بفعل عاملين:

الأول: إن سلطان محمد بن طغج لم يمتد إلى هذه المنطقة بعد.

الثاني: التحصُّن بهذه المنطقة التي تشكل طبيعتها الجغرافية حائلاً أمام أي هجوم قد تتعرض له[٢].

والواقع أن والي مصر الجديد لم يشأ أن يتركهم حتى تستفحل حركتهم، وأراد أن يقضي عليها في مهدها، فأرسل إليهم قوة عسكرية بحرية بقيادة صاعد بن كلملم.

ويبدو أن المراكب لم تستطع أن تبحر في الترعة الموصلة إلى الفيوم، ما أعطى المتمردين الفرصة للتصدي لها، وتمكَّنوا من الاستيلاء عليها وأسْر قائد الحملة وقتْله، وأبحروا إلى دار صناعة السفن في جزيرة الروضة وأحرقوا المراكب الراسية فيها، ثم واصلوا السير إلى الإسكندرية، ومنها رحلوا إلى برقة، وكتبوا إلى القائم الفاطمي يستأذنونه ويدعونه لغزو مصر، وهوّنوا عليه أمرها، ووعدوه بأخذها، وطلبوا منه مساندتهم بقوة عسكرية، فاستجاب لهم[٣].

كان من الطبيعي أن يتوجس محمد بن طغج خيفة من تمادي المتمردين وبخاصة بعد اتصالهم بالفاطميين، فجهَّز حملة عسكرية كبيرة أسند قيادتها إلى أخيه عبيد الله، وأمره بمطاردتهم والقضاء عليهم، ويبدو أنهم عجزوا عن مواجهته، واضطروا إلى مغادرة مصر إلى رمادة بين برقة والإسكندرية، ومرض حبشي بن أحمد وتوفي فيها في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) قبل وصول المساعدة الفاطمية[٤].

وهكذا خلصت مصر لمحمد بن طغج بفضل جهوده الشخصية؛ لأن تقليد الخليفة بالولاية لم يعد يكفي في ذلك الوقت لتثبيت الوالي بل كان لا بد من فرض نفسه بالقوة. واستطاع محمد بن طغج أن يتغلَّب بمهارته السياسية وقوته العسكرية على الصعوبات التي واجهته عند قدومه إلى مصر، فانتصر على أحمد بن كيغلغ، ومحمد بن علي الماذرائي وهزم الثائرين من القادة والجند وصدَّ الفاطميين[٥].

(١) ابن سعيد: ص١٥٩.
(٢) سيدة كاشف: ص٧٤، ٧٥.
(٣) الكندي: ص٢٠٧. ابن سعيد: ص١٥٩، ١٦٠.
(٤) ابن سعيد: ص١٦١.
(٥) سيدة كاشف: ص٧٥.

تدعيم محمد بن طغج وضعه في مصر

التدعيم السياسي والإداري

كانت الخلافة العباسية تراقب عن كثب تطور مسار الحركة السياسية في مصر وجهود محمد بن طغج في تثبيت أقدامه وتدعيم مركزه فيها، وكان الوزير العباسي الفضل بن جعفر يترقَّب أن ينجح والي مصر الجديد في مهمته كي ينتقم من الماذرائيين أعداء أسرته وخصوم حليفه ابن طغج. وما كادت الأوضاع تهدأ في مصر، وتستقر، حتى قدم هذا الوزير إليها ومعه خِلع لمحمد بن طغج من قِبل الخليفة الراضي[١]، والراجح أن هذه الخِلَع كانت ترمز إلى تثبيته في ولاية مصر[٢].

استقبل محمد بن طغج الوزير العباسي خارج الفسطاط، واصطحبه إلى المدينة التي زُينت، فرحَّب بهما الأهالي. ونزل محمد بن طغج في دار الإمارة، واستقر الفضل بن جعفر في منزل الحسين بن عبد الله الجوهري، المعروف بابن الجصَّاص، تاجر المجوهرات المشهور[٣].

كانت الخطوة الأولى لدى الرجلين القبض على محمد بن علي الماذرائي. ويبدو أن محمد بن طغج كان يعلم مكان اختبائه، لكنه لم يكشف عنه وانتظر حتى يصل الوزير العباسي، مدركاً ما ستناله هذه الأسرة من جزاء على يده، مبرهناً على بُعد نظر وحنكة سياسية، لأن الماذرائيين مُتجذِّرون في مصر ولهم أنصار أقوياء، وهو لم يشأ أن يعاديهم، ولعله أراد الاستفادة من خبراتهم في المستقبل.

وعلم الفضل بن جعفر فور وصوله إلى مصر أن محمد بن علي الماذرائي مقيم في منزل كان يملكه إسحاق بن نصير العبادي كاتب خمارويه، فذهب إليه مع محمد بن طغج وأخرجه من مخبئه، وأمر بمحاسبته، وصادر ضياعه في الشام ومصر، وقد بلغ إيرادها في مصر نحو أربعمائة ألف دينار في السنة، كما صادر أموال أولاده وحاشيته. والواضح أن الوزير العباسي استفاد من خبرة ابن طغج ومعرفته التامة بممتلكات الماذرائيين؛ لأنه عمل معهم. وكتب محمد بن طغج إلى الخليفة الراضي يخبره بما فعله هو والفضل بن جعفر مع الماذرائيين، فوافق على تصرفهما وأرسل إليه الخِلَع والطوق والسوارين[٤].

أقام الوزير العباسي في مصر إلى (جمادى الأولى ٣٢٤هـ/ نيسان ٩٣٦م) ينظم أمورها المالية والإدارية ثم غادرها إلى بلاد الشام، واصطحب معه محمد بن علي

(١) ابن سعيد: ص١٦١.
(٢) ابن تغري بردي: ج٣ ص٢٥٢.
(٣) ابن سعيد: ص١٦١.
(٤) المصدر نفسه: ص١٦٢، ١٦٦.

الماذرائي وهو في حكم المعتقل. واستمر الفضل بن جعفر يتنقّل بين الشام ومصر إلى أن توفي في الرملة في (٨ جمادى الأولى ٣٢٧هـ/ ٣ آذار ٩٣٩م)[1]. ويُعدُّ خروج محمد بن علي الماذرائي إيذاناً ببدء عهد جديد في مصر، حيث جمع محمد بن طغج في يديه السلطات السياسية والعسكرية والإدارية والمالية كافة، وأخضع مصر لسلطته. ويُعدُّ هذا التاريخ (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) البداية الفعلية لقيام الإمارة الأخشيدية في مصر؛ لأن الخليفة قلّده في هذه السنة أعمال مصر إضافة إلى ما بيده من أعمال الشام وعزل أحمد بن كيغلغ عنها[2]، ولعل ذلك يؤكد بأن تقليده على مصر في العام الماضي، كان من جانب الوزير العباسي فقط، ولم يصل إليه تقليد الخلافة إلا بعد أن أضحى أميراً فعلياً على مصر وتمّت قبضته التامة عليها، وينسجم ذلك مع سياسة العباسيين العامة وهي الاعتراف بالأمر الواقع وتبنيه[3].

وهكذا حقّق محمد بن طغج هدفه في حكم مصر وبلاد الشام، ومكّن لنفسه فيها، وأسس إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية وإن ارتبط معها بروابط روحية، ثم بدأ بتنظيم أمورها، فعيَّن بدراً الخرشني نائباً عنه على دمشق، وولّى أحمد بن سعيد الكلابي أعمال حلب[4].

التدعيم الاقتصادي

التفت محمد بن طغج بعد ذلك إلى تدعيم وضعه الاقتصادي، وتؤكد النقود التي ضربها على تحسُّن الأوضاع الاقتصادية في مصر. فقد سكَّ الدينار الأخشيدي بعيار كامل، وأمر بإصلاح النقود التي فسدت بعد العهد الطولوني، وتُقدم لنا هذه النقود صورة لتطور العلاقة السياسية بين الخلافة العباسية وبين الأخشيديين. والمعروف أن الدنانير الأخشيدية ضُربت في الفسطاط والرملة ودمشق، ويمكن أن نستنبط منها الحقائق التاريخية التالية فيما يتعلق بتطور العلاقة المشار إليها:

- إن الدنانير التي ضُربت بمصر بين عامي (٣٢٣ و٣٢٩هـ/ ٩٣٥ و٩٤١م) في عهد الخليفة الراضي وولاية محمد بن طغج، تُظهر مدى تطور العلاقة الجيدة بينهما حيث كان اسم الخليفة يُنقش وحده عليها، وكذلك النقود التي ضُربت في بداية عهد الخليفة القائم في عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، حيث كان الأخشيد لا يزال يخضع للخلافة العباسية.

- تعدُّ السنة المشار إليها فاصلاً بين عهدين، فقد وُجد دينار لم يُنقش عليه اسم

---

(١) ابن سعيد: ص١٧٣. (٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٥٦.
(٣) ابن سعيد: ص١٦٣. زيود: ص٢٨٤. (٤) ابن العديم: : جـ١ ص١٠٣.

الخليفة، وإنما نُقش عليه اسم محمد بن طغج وحده ومعه لقب الأمير الأخشيد، ما يدل على أن والي مصر بدأ يفكر بالاستقلال عن الخلافة بعد أن عقد صلحاً مع ابن رائق.

- نقش الأخشيد اسمه واسم الخليفة المتقي على النقود التي ضربها بعد عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)[1].

بلغ خراج مصر في عهد الأخشيد مليوني دينار في السنة، واستخرج من مصر في إحدى عشرة سنة اثنين وعشرين ألف ألف دينار سوى خراج الرملة وطبرية ودمشق والسواحل، ما يدل على الرخاء الاقتصادي التي تمتَّعت به مصر في ذلك الوقت، على الرغم من أنها تعرَّضت لموجة شديدة من الغلاء في عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، فاختفت الأقوات من الأسواق، وعزَّ القمح وسائر الحبوب، وتبعها تفشي وباء شديد[2].

التدعيم العسكري

استطاع محمد بن طغج أن يدخل مصر ويقضي على المتمردين بفضل القوة العسكرية التي شكّلها، واستمر بعد سيطرته على مصر في زيادة عديد قواته البرية والبحرية حتى أضحى أربعمائة ألف، وقد تألفوا من أجناس عديدة، أتراك وسودانيين ومغاربة، وشكّل فرقة مماليك خاصة لحراسته[3]. والراجح أن هذا الرقم مبالغ فيه لأنه لا يتناسب مع عدد سكان البلاد في ذلك الوقت ولا مع القوة الضرورية للدفاع عنها بالإضافة إلى صعوبة تموينه وتدبير الثكنات لإيوائه[4]، إلا أنه كان من أعظم جيوش عصره، بدليل أنه عندما استدعاه الخليفة المتقي واقترب من مدينتي الرقة والرافقة المجاورة لها، أشرف سكانها على النوافذ والأسوار ليشاهدوا عظم العسكر وحسن عدته.

وأدّى هذا الجيش دوراً هاماً مكّن الأخشيديين من تدعيم حكمهم في مصر وبلاد الشام وصدّ الأخطار التي هدَّدتهم في بلاد الشام وثغورها، وبخاصة هجمات محمد بن رائق وسيف الدولة الحمداني. وكان محمد بن طغج يخرج على رأس الجيش في معظم الأحيان، للقتال، وأناب عنه القائد عمران بن فارس لقتال محمد بن رائق في بلاد الشام، كما أناب علي بن محمد بن كلا. وبعد مقتل هذا

---

(١) سيدة كاشف: ص١٩٢، ١٩٣.
(٢) الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي: ص٣٣.
(٣) ابن خلكان: جـ٥ ص٥٩. (٤) سيدة كاشف: ص٢٤٥.

الأخير، عيَّن فاتكاً وكافوراً على رأس الجيش الذي أرسله إلى بلاد الشام في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٥م)، وكان يُرسل إخوته في بعض الأحيان[1].

واهتم محمد بن طغج ببناء الأسطول، فنقل دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان، زوجة أحمد بن طولون، وكانت هذه الدار بساحل الفسطاط، وذلك في عام (٣٢٥هـ/ ٩٣٧م) بعد أن أحرق المتمردون أسطوله من دون أن يتمكَّن من التصدي لهم أو يقوم بعمل حاسم ضدهم، وقال في ذلك: «دار صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشيء»[2]. ويبدو أن نقل دار الصناعة لم يقض تماماً على الصناعة في دار الروضة إذ «كانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ في الجزيرة وفي صناعتها»[3].

علاقة محمد بن طغج مع الخلافة العباسية

ظهور منصب أمير الأمراء

كانت العلاقة بين محمد بن طغج والخلافة العباسية جيدة حتى عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٩م) بدليل أن الخليفة الراضي منحه في (رمضان/ تموز) من تلك السنة لقب أخشيد بناء على طلبه، ودُعي له به على منابر مصر وبلاد الشام[4]. لكن هذه العلاقة الجيدة تبدَّلت بعد ذلك بفعل بروز أمير الأمراء محمد بن رائق على الساحة السياسية الذي نازع الأخشيد وطمع بحكم مصر وبلاد الشام. غير أنه لا يمكننا استيعاب هذا النزاع وتأثيره على العلاقة مع الخلافة العباسية إلا إذا عرضنا أوضاع الخلافة الداخلية في ذلك الوقت التي كان يسودها التنافس والمؤامرات للاستئثار بالنفوذ والوثوب إلى منصب أمير الأمراء.

والواقع أنه حدث تطور جديد في شؤون الحكم في عهد الخليفة الراضي حين بُذلت محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك، وانتهى هذا التطور بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلِّده على مقاليد الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة، فهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز، ولم يعد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم، وأزال نفوذ الوزراء، وتوقف الصراع بين الخلافة والأتراك الذي شغل جانباً كبيراً من العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦م).

(١) الكندي: ص٢٠٨ ـ ٢١١.
(٢) ابن سعيد: ص١٦٠. المقريزي: ج٣ ص٣٤٤.
(٣) المقريزي: المصدر نفسه.
(٤) الكندي: ص٢٠٨. ابن سعيد: ص١٧٤. ابن خلكان: ج٥ ص٥٨.

ابتدأ هذا المنصب بالظهور في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) على حساب منصب الوزارة. ذلك أن الراضي استعان في إدارة شؤون دولته ببعض وزراء كانوا ضعافاً عجزوا عن النهوض بأعباء الوزارة، وفقدوا ما كان لهم من نفوذ حتى أضحوا عرضة للتنكيل والمصادرة، ومن جهة أخرى، تراجع نفوذ الأتراك بفعل التفكك الذي ساد بينهم والتنافس على مركز الصدارة، وتفشي الحسد بين قادتهم.

شعرت الخلافة نتيجة هذه الأوضاع المتردية، بضعف الوزراء، وعجْز الأتراك، وفراغ الخزانة، فأخذت تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من العراق لتستعين بهم على إنقاذ الموقف الذي بلغ درجة خطيرة من التدهور. فاستدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق أمير واسط والبصرة الذي بدا أقوى شخصية عسكرية، وسلَّمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في سلطات الدولة كلها، ولقَّبه أمير الأمراء، وخُطب له على المنابر في أنحاء العالم الإسلامي، وذلك في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م). وهذا المنصب هو عبارة عن نقل سلطات الخليفة وصلاحيات الوزير إلى قائد تتوفر فيه صفات الرئاسة المدنية والقيادة العسكرية[1]، فبطلت الدواوين والوزارة، ولم يعد الوزير ينظر في الأمور، وأضحى الأمر كله، بعد ذلك، بيد أمير الأمراء وكاتبه، وصارت الأموال تُحمل إلى خزائنه يتصرَّف بها كما يريد، ويُطلِق للخليفة ما يحتاج إليه وما يرتئيه[2].

وبدأ منذ ذلك الوقت، الصراع بين القادة للوصول إلى هذا المنصب المهم والخطير، فلم تمض أشهر ذات عدد حتى ضعف نفوذ محمد بن رائق في بغداد بفعل ظهور منافسين له. فقد تعرَّض لهجوم أبي عبد الله البريدي حاكم الأهواز، كما خرج عليه أحد قادته الأتراك ويدعى بجكم، وحلَّ محله في إمرة الأمراء بعد أن هزمه، في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٩م)، ما دفع محمد بن رائق إلى التفكير في البحث عن ولاية تخضع له، وقد أدّى الوزير أبو الفتح بن الفرات دوراً هاماً في توجيهه إلى بلاد الشام ومصر ليعوِّض بهما عن خسارته[3].

النزاع بين محمد بن طغج وابن رائق

كان موقف محمد بن رائق ضعيفاً في بغداد، إلا أنه استفاد من الظروف السياسية التي حدثت في الموصل بسبب تأخر ناصر الدولة الحمداني عن دفع الأموال المتوجبة عليه من ضمان البلاد التي بيده، وخروج الخليفة مع بجكم لقتاله، فدخل

(١) مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم: ج١ ص٣٥١، ٣٥٢.
(٢) ابن الأثير: ج٧ ص٥٢، ٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٦٩، ٧٠.

بغداد على رأس جيشه وأحدث الشغب فيها. وعندما حاول الخليفة العودة إلى عاصمته، رفض محمد بن رائق الانسحاب منها، واضطر الخليفة إلى التفاهم معه.

وأرسل محمد بن رائق أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد إلى الموصل، فاجتمع مع الخليفة وسلَّمه رسالة سيده وقد طلب أن يوليه طريق الفرات وديار مضر: حران والرها وما جاورها، وجند قنسرين والعواصم، فأجابه الراضي إلى ذلك. فخرج محمد بن رائق عندئذٍ من بغداد إلى ولايته، ودخل الراضي وبجكم المدينة في (٩ ربيع الآخر ٣٢٧هـ/ ٣ شباط ٩٣٩م)[١]، وما لبث محمد بن رائق أن طمع في عام (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) بالسيطرة على بلاد الشام. وفي رواية أن الراضي قدم الموصل، وكان محمد بن رائق في بغداد وبينه وبين بجكم وحشة، فأرسل إليه الراضي أبا الحسين عمر بن محمد القاضي يخيره في أحد البلدين: واسط أو حلب وأعمالها، فاختار حلب، وأراد بذلك الابتعاد عن بجكم، فأجابه الراضي إلى ذلك، وخلع عليه أبو جعفر وأبو الفضل ابنا الراضي وعقدا له[٢].

والواضح أن تصرف الخليفة يحقق مصلحة العباسيين العليا القائمة على التفرقة بين القادة ورغبتهم في عدم السماح ببروز أية قوة في مصر وبلاد الشام يمكن أن تستقل بهما وتُهدِّد مصالحهم، على الرغم من الموقف الواضح للأخشيد في هذين البلدين والتي تخدم مصلحة العباسيين العليا، لكن هؤلاء لم يكونوا مطمئنين إلى وجوده في أهم مناطقهم، لذلك أرسل الخليفة محمد بن رائق إلى بلاد الشام لينافس الأخشيد ويحد من أطماعه ويستخدمه ورقة ضغط عند الضرورة ضد أي نشاط معاد لسياسته، قد يُقدم عليه[٣]، بدليل ما حدث فعلاً عندما فكَّر الأخشيد في إسقاط الدعوة العباسية والدعاء للدولة الفاطمية.

ولم يلبث محمد بن رائق، بعد أن تسلَّم ولايته الجديدة، أن طمع ببلاد الشام كلها، فراح يُهدِّد الأخشيد ويطالبه بالأموال كجزية عن الممتلكات الأخشيدية في بلاد الشام ما أدَّى إلى قلقه واستيائه من هذا الوضع، ونصحه مستشاروه باسترضائه بالأموال حتى يتجنَّب أذاه، فاقتنع بهذه النصيحة وأرسل إليه الحسن بن طاهر بن يحيى العلوي، وكلَّفه باسترضائه[٤].

والواقع أن محمداً بن رائق اتخذ من المال ذريعة لتحقيق تطلعاته، ولم يُخفِ نواياه في التوسع على حساب الأخشيديين، فتوغَّل في عمق بلاد الشام، فاستولى على حمص ثم زحف إلى دمشق، فهزم واليها عبيد الله بن طغج واستولى عليها

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٧٩.
(٢) ابن العديم: : جـ١ ص١٠٣.
(٣) زيود: ص٢٩٣، ٢٩٤.
(٤) ابن سعيد: ص١٧٤.

وطرده منها، وعيَّن محمد بن يزداد الشهرزوري حاكماً عليها، ثم سار إلى مدينة الرملة ودخلها في (أواخر ذي الحجة ٣٢٧ وأوائل محرم ٣٢٨هـ/ أيلول ـ تشرين الأول ٩٣٩م) وانسحبت منها القوات الأخشيدية من دون قتال، وتابع سيره إلى العريش وهو يريد الديار المصرية[١].

كان للنجاح الذي حقَّقه محمد بن رائق في بلاد الشام أثر على سياق الأحداث في مصر. فقد شعر الأخشيد بضغط هذا الرجل والجهود المضنية اللازمة لوقفه عند حده، وعلم بأنه قُلِّد ولاية الشام، فأراد أن يستطلع رأي الخليفة والقائمين على السلطة في بغداد، ويتعرَّف على مواقفهم من الأحداث الجارية في بلاد الشام، فكتب إلى ممثله في عاصمة الخلافة علي بن أحمد العجمي يطلب منه إعلام الخليفة بنشاط محمد بن رائق ومطامعه في بلاد الشام، وأنه، أي الأخشيد، حاول عبثاً استرضاءه، وسيلتزم بقرار الخليفة إذا صحَّ أنه ولّاه هذه البلاد، كما أنه على استعداد لقتاله وصدِّه عن بلاد الشام إذا كلَّفه الخليفة بذلك[٢].

والراجح أن تصرف الأخشيد لم يكن إلا مناورة سياسية لاستطلاع رأي أصحاب النفوذ في بغداد. وعندما اجتمع علي بن أحمد العجمي بالخليفة ونقل إليه طلب الأخشيد، وكان بين يديه أمير الأمراء بجكم، لم ينطق بشيء وأطرق برأسه، وكأنه أحال الأمر إلى بجكم أو أنه كان عاجزاً عن اتخاذ قرار يُلزم أحد الطرفين باتباعه. فما كان من بجكم إلا أن قال: «من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له»[٣]، ويُعدُّ هذا الجواب لسان حال الخليفة. فالأمر إذن متروك للسيف ومن ينتصر، فما على الخلافة إلا أن تمنحه الألقاب، ومن ثم فكَّر في طريقة للتخلص منه وانتزاع خِلعها عنه بتجهيز شخص آخر تسند إليه أمر التحرش به وقتاله ما يؤدي إلى ضعفهما والتخلص منهما معاً، وكان السيف وحده يُحقق هذا القرار الملزم لكي تتبناه الخلافة[٤].

ومهما يكن من أمر، فعندما علم الأخشيد بموقف الخليفة وأمير الأمراء، ثارت ثائرته وانتابته نوبة عصبية، من النوبات التي كان يتعرض لها بين حين وآخر، وفكَّر في قطع صلته بالخلافة العباسية والتقرب من الفاطميين في المغرب. فاستدعى الخطيب عمر بن الحسن العباسي وأمره بإسقاط الدعاء للراضي العباسي والدعاء لأبي القاسم القائم الفاطمي، لكن مستشاريه نصحوه بالعدول عن هذه الفكرة، وبيَّنوا

(١) ابن سعيد: ص١٧٤. ابن الأثير: ص٧ ص٨٦.
(٢) ابن سعيد: ص١٧٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) زيود: ص٢٩٥.

له عاقبتها، إذ قد يلجأ الخليفة العباسي إلى تعيين محمد بن رائق والياً على مصر ويمده بالمساعدة المادية للتصدي له، ما يؤدي إلى نهاية الحكم الأخشيدي[1].

ويبدو أن الأخشيد اقتنع بوجهة نظر مستشاريه مدركاً أن موقفه مع الدولة الفاطمية الفتية سيكون أضعف من مكانته لدى الخلافة العباسية المتداعية، وأن مصلحته الخاصة تقضي بالبقاء مع العباسيين، ولهذا تراجع عن تنفيذ هذه الفكرة[2]، إلا أنه رأى ضرورة استعمال القوة للتصدي لخصمه الطامع في أملاكه، فمضى يتجهَّز لقتاله، وأعدَّ حملتين من أجل ذلك، بحرية أرسلها إلى سواحل بلاد الشام، وبرية قادها بنفسه. فخرج من القاهرة في (محرم ٣٢٨هـ/ تشرين الأول ٩٣٩م)، وعسكر في الفرما، واستخلف أخاه الحسن بن طغج على مصر، وأرسل طليعة إلى فلسطين للوقوف على استعداد خصمه[3].

كان محمد بن رائق آنذاك يتقدم باتجاه مصر، وعسكر في الرملة، فاصطدمت طليعته بالطليعة الأخشيدية في مناوشات خفيفة، ثم سعى الحسن بن طاهر بن يحيى العلوي في الصلح بين الطرفين، فأرسل الأخشيد كاتبه محمد بن كلا إلى الرملة للتفاوض عنه في شروط الصلح حيث اتفق الطرفان على اقتسام المنطقة، على أن تكون الرملة للأخشيد وطبرية وما يليها إلى الشمال من نصيب محمد بن رائق. وعاد الأخشيد إلى مصر في (جمادى الأولى ٣٢٨هـ/ شباط ٩٤٠م)[4].

ويبدو أن محمداً بن رائق لم يكن صادقاً، فلم يحافظ على بنود الاتفاق مع الأخشيد، إذ ما إن تراجعت القوة الأخشيدية باتجاه مصر حتى سار على رأس قوة عسكرية كبيرة في (شعبان/ أيار) متوجهاً إلى الرملة في طريقه إلى مصر. وعندما علم الأخشيد بزحفه حاول التوصل معه إلى اتفاق يحقن دماء المسلمين إلا أنه لم ينجح في محاولته السلمية، فقرَّر عندئذٍ التصدي له، فخرج على رأس جيشه والتقى بجيش خصمه في العريش في (رمضان/ حزيران)، وجرت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن انهزام الأخشيد، وحتى لا يقع في يد خصمه، عزم على الهرب واللحاق ببلاد البيزنطيين عن طريق البحر أو التوجه إلى بلاد المغرب[5] للاحتماء بالفاطميين، لكن ما جرى من انهماك قوات محمد بن رائق بالسلب والنهب، دفع الأخشيد إلى إعادة

---

(١) انفرد ابن سعيد بالإشارة إلى تفكير الأخشيد في الخروج على الخلافة العباسية والخضوع للفاطميين: ص١٧٦.

(٢) زيود: ص٢٩٦.

(٣) الكندي: ص٢٠٨. ابن سعيد: ص١٧٤.

(٤) ابن سعيد: المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص١٧٨.

تنظيم صفوف قواته، وكرَّ عليها وأخذها على حين غرَّة وهزمها، وقتل وأسر كثيراً من أفرادها. وتمكَّن محمد بن رائق من الفرار والنجاة مع سبعين من أنصاره وتوجه إلى دمشق، فأرسل الأخشيد أخاه أبا نصر الحسين بن طغج على رأس قوة عسكرية لمطاردته، لكن محمداً بن رائق باغته في منطقة اللجون، على بُعد عشرين كيلومتراً من طبرية، فتغلَّب عليه وقتله وأسر بعض مساعديه، وسار بهم إلى دمشق[1].

دفعت هذه التطورات العسكرية الطرفين إلى التفاهم مجدداً، ذلك أن الأخشيد أرسل قواته بقيادة كافور إلى شمالي بلاد الشام، فاستولى على حمص وحلب، وأسر والي حلب محمد بن يزداد، وعاث في المدينة والمناطق المجاورة، كما تعرَّض للأهالي بالأذى، وعاد إلى مصر منتصراً بعد أن عين مساور بن محمد الرومي والياً على حلب[2].

لكن الأخشيد رأى، على الرغم من انتصاره، أنه واقع بين قوتين، قوة الفاطميين من الغرب، وهم الذين ما فتئوا يحاولون انتزاع مصر، وقوة العباسيين من الشرق، الذين كانوا يعملون على الرغم من شعورهم بالخطر المحدق بمصر على إضعاف كل قوة في المنطقة يمكن أن تستغل الظروف السياسية لتستقل بما تحت أيديها، كما أنها لم تكن لترضى بالقضاء على محمد بن رائق وإخراجه من الصراع على بلاد الشام وهي التي قلَّدته أمرها بعد النشاط الكلابي في منطقة حلب وازدياد نفوذ الكلابيين وخلْعهم طاعة العباسيين، وكلَّفته بالقضاء عليهم واستخلاص حلب منهم ومن حلفائهم الأخشيديين[3]، لذلك كان التفاهم مع محمد بن رائق ضرورة سياسية وعسكرية. ومن جهته، أدرك محمد بن رائق أن الموقف السياسي في بلاد الشام يتطلب التعقل والتفاهم مع الأخشيد لمواجهة دسائس العباسيين الذين كانوا يبذرون بذور الشقاق بين الولاة ويدعمون الفوضى في بلاد الشام ومصر على الرغم من أنه كان من صنيعتهم، ما يحرمه من الراحة والهدوء.

كان محمد بن رائق السبَّاق إلى فتح باب التفاهم، فحنَّط جثة أبي نصر الحسين بن طغج وأرسلها في تابوت إلى الأخشيد مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق، وحمَّله رسالة اعتذار عن حادثة القتل عارضاً أن يفديه بابنه مزاحم: «ما أردت قتل أخيك،

---

(١) ابن سعيد: ص١٧٨.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص١٠٥.

(٣) عندما عُيِّن الأخشيد والياً على بلاد الشام في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) عيَّن أبا العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابي نائباً عنه في حلب. وقدم بنو كلاب في عهده إلى بلاد الشام من أرض نجد في عام (٣٢٥هـ/ ٩٣٧م)، وعزموا على تأسيس إمارة لهم في حلب، وأغاروا على معرة النعمان. انظر: ابن العديم: جـ١ ص١٠٣.

وهذا ولدي قد أنفذته إليك لتقيده به»[١].

كان لهذا الموقف أثر كبير في نفس الأخشيد، فامتنع عن الأخذ بثأر أخيه وأكرم غريمه، ورفع منزلته، وردَّه إلى أبيه معززاً في عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، وكان ذلك من الأسباب التي مهَّدت للتقارب بين الطرفين، حيث اتخذ الأخشيد من مزاحم واسطة للصلح الذي تحقَّق بفضل المساعي التي قام بها الحسن بن طاهر بن يحيى العلوي، وتقرر بموجبه أن يكون للأخشيد من الرملة إلى مصر، ويدفع لابن رائق جزية سنوية عن الرملة مقدارها مائة وأربعين ألف دينار، ويحتفظ الأخير بالولايات الشامية الواقعة شمالي الرملة. وتمتَّن هذا الصلح بالتقارب الأسري، فقد زوَّج الأخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق، وتقرر أن يبقى عند الأخشيد مقابل أن يبقى عبيد الله بن طغج عند ابن رائق في دمشق[٢].

عاد الأخشيد إلى مصر بعد أن عقد الصلح مع محمد بن رائق، وما إن وصل إلى الفسطاط حتى وردت الأخبار في (شعبان ٣٢٩هـ/أيار ٩٤١م) بوفاة الخليفة الراضي، ومبايعة أخيه المتقي في (٢٠ ربيع الأول ٣٢٩هـ/ ٢٣ كانون الأول ٩٤٠م)، فأقرّ الأخشيد على مصر، ووصل كتاب التقليد في (شوال ٣٢٩هـ/تموز ٩٤١م) خالياً من ذكر الوضع في بلاد الشام التي يبدو أنها قُلِّدت لابن رائق[٣].

كان الخليفة المتقي ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السلطة، وبخاصة أبي عبد الله البريدي حاكم الأهواز، ومحمد بن رائق وناصر الدولة الحمداني في الموصل. وقد تجدَّد النزاع بين أمير الأمراء بجكم والبريدي، فأرسل الأول جيشاً لقتاله بقيادة نوشتكين وتوزون. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية في المذار لاح النصر في بدايتها للبريدي، فالتمس القائدان المساعدة من بجكم، فخرج من منزله في واسط ليلحق بهما، فتلقَّى وهو في الطريق كتاباً آخر يبشره بالنصر ويطلب منه التوقف عن الزحف، فعاد أدراجه، ولما وصل إلى نهر جور بين الأهواز وميسان هاجم قوماً من الأكراد طمعاً في أموالهم، فطعنه أحدهم في خاصرته، فقتله[٤].

أضحى منصب أمير الأمراء شاغراً بعد مقتل بجكم، فتنافس عليه الأتراك والديلم، ورجحت كفة هؤلاء، فعيَّن الخليفة قائدهم كورتكين في هذا المنصب، لكن الأوضاع استمرت مضطربة في بغداد، فاضطر الخليفة إلى استدعاء محمد بن رائق من بلاد الشام للتخلص من كورتكين، ووضع حد للفوضى التي نجمت عن

(١) ابن العديم: ص١٠٤. ابن سعيد: ص١٧٨.
(٢) ابن العديم. المصدر نفسه. ابن سعيد: ص١٧٨، ١٧٩. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٥٣.
(٣) الكندي: ص٢١٠. ابن سعيد: ص١٧٩. (٤) مسكويه: جـ٢ ص٩، ١٠.

صراعه مع الأتراك، فغادر دمشق في (رمضان ٣٢٩هـ/ حزيران ٩٤١م) في طريقه إلى بغداد، واستخلف على المدينة أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل، فاصطدم بكورتكين وهزمه ودخل بغداد، ومنحه الخليفة لقب أمير الأمراء للمرة الثانية[١].

استغل البريدي اضطراب الأوضاع في عاصمة الخلافة فأعلن الثورة واحتل واسط وأخَّر إرسال المال المقرر عليه، فخرج محمد بن رائق لقتاله، لكن الصلح انعقد بينهما على أن يدفع البريدي جزية سنوية مقدارها مائة وتسعين ألف دينار مقابل سيطرته على واسط[٢].

وسرعان ما تخلَّى الأتراك عن محمد بن رائق، فنشبت الاضطرابات في بغداد بسبب القحط والغلاء الذي ضرب العاصمة آنذاك، فاستغل البريدي هذه الأوضاع المتردية وزحف إلى عاصمة الخلافة على رأس جيشه. ويبدو أن الخليفة المتقي ومحمد بن رائق كانا عاجزين عن صدِّه، فخرجا إلى الموصل للاحتماء بناصر الدولة الحمداني والتماس المساعدة منه، فدخل البريدي بغداد واعتلى منصب أمير الأمراء[٣].

لكن البريدي وأنصاره لم يظفروا بمحبة الناس بفعل إمعانهم في السلب والنهب، ومن جهة أخرى، طمع ناصر الدولة الحمداني في السيطرة على بغداد واعتلاء منصب أمير الأمراء، وتطلع للتمدد باتجاه بلاد الشام، فاستغل وجود محمد بن رائق في الموصل مع ابن الخليفة، فقتله ورمى جثته في نهر دجلة، وذلك في (٢١ رجب ٣٣٠هـ/ ١٠ نيسان ٩٣٢م)، وحتى يبرر فعلته كتب إلى الخليفة يتهم محمد بن رائق بالتآمر عليه ـ الخليفة ـ ولهذا تخلَّص منه[٤].

لم ير الخليفة الضعيف بداً من مكافأة القاتل، فخلع عليه ولقَّبه ناصر الدولة، وعيَّنه أميراً للأمراء في (رمضان/ حزيران ـ تموز)، كما خلع على أخيه أبي الحسن علي ولقَّبه سيف الدولة، وأرسله إلى بغداد على رأس جيش كثيف لمحاربة البريدي، فأخرجه من بغداد، وعاد إليها الخليفة[٥].

استعادة محمد بن طغج سيطرته على بلاد الشام

كان الأخشيد يراقب تطور الأحداث في العراق وبلاد الشام، وعندما علم بمقتل ابن رائق خرج من مصر إلى بلاد الشام للسيطرة عليها، وعيَّن أخاه أبا المظفر

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٩٦ ـ ٩٨. (٢) المصدر نفسه: ص١٠١.
(٣) المصدر نفسه: ص١٠٢. (٤) المصدر نفسه: ص١٠٣، ١٠٤.
(٥) المصدر نفسه: ص١٠٤، ١٠٥.

الحسن بن طغج نائباً عنه في مصر. وعندما وصل إلى دمشق استقبله نائبها محمد بن يزداد الشهرزوري وسلَّمه مقاليد أمورها، فأصلح شؤونها وعاد إلى مصر في (جمادى الأولى ٣٣١هـ/ كانون الثاني ٩٤٢م) مصطحباً معه محمد بن يزداد الشهرزوري، فعيَّنه على شرطتها، وعمد في (آخر ذي القعدة/ ٥ آب) إلى عقد اجتماع لكبار قادته وأعوانه، تقرر فيه استخلاف ابنه أنوجور من بعده[1].

لم يستمر ناصر الدولة في منصبه سوى ثلاثة عشر شهراً حيث ثار عليه الأتراك، وأجبروه على الخروج من بغداد[2]. وبرز في هذه الأحداث القائد التركي توزون، فقلَّده الخليفة شرطة بغداد ثم جعله أميراً للأمراء في (رمضان ٣٣١هـ/ أيار ٩٤٣م)[3].

لم تستمر العلاقة الجيدة طويلاً بين المتقي وبين توزون الذي يُعدُّ من بين أقوى الأمراء الأتراك الذين تولوا منصب أمير الأمراء في العصر العباسي الثاني، وسرعان ما ساءت، فاضطر الخليفة إلى الالتجاء مجدداً إلى ناصر الدولة الحمداني في الموصل. ويبدو أن القوات الحمدانية عجزت عن تحقيق أي نصر على توزون، ما دفع الخليفة إلى التماس المساعدة من الأخشيد، فكتب إليه أنه سائر للقائه، فتجهَّز الأخشيد ملبياً دعوة الخليفة، فغادر مصر في (٢٢ رجب ٣٣٢هـ/ ٢١ آذار ٩٤٤م) بعد أن استخلف عليها أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج ووصل إلى دمشق، ثم توجه إلى الرقة للقاء الخليفة الذي كان قد وصل إليها في (أوائل رمضان/ أواخر نيسان). وعندما وصل إلى حلب هرب منها الحسين بن حمدان، ثم وصل مبعوث الخليفة أبو الحسن أحمد بن عبد الله الخرقي، فاستقبله الأخشيد بالترحاب وأبدى سروره للقاء الخليفة، وأرسل الأموال والهدايا إليه مع أحمد بن سعيد الكلابي. ولما وافى الرقة أحجم عن دخولها خشية على نفسه من سيف الدولة الحمداني الذي كان فيها، وأن يلقى مصير محمد بن رائق نفسه، فاضطر الخليفة أن يعبر الفرات للالتقاء به. وعندما اجتمع الرجلان أظهر الأخشيد الطاعة التامة للخليفة وبالغ في إظهار إجلاله، فأعجب الخليفة به، فخلع عليه وكنَّاه بأبي القاسم واستخلفه على أعماله ثلاثين سنة قائلاً: «قلدتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أنوجور».

وقدَّم إليه الأخشيد الهدايا النفيسة من المال والجواهر والمنسوجات والطيب والدواب كما قدَّم إلى حاشيته، ولم يدع أحداً إلا حمل إليه[4].

وهكذا حصل الأخشيد على تقليد جديد من الخليفة المتقي بولاية مصر على مدى

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص١٠٥. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٥٤.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١١٦. (٣) مسكويه: جـ٢ ص٤٤.
(٤) ابن سعيد: ص١٩٢. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٥٤.

ثلاثين عاماً، وحق توريثها لأبنائه من بعده. والواقع أن هذا التقليد لم يكن إلا اعترافاً بالأمر الواقع لم يكن باستطاعة الخليفة أن يغض النظر عنه، إذ إن الأخشيد كان قد أخذ البيعة لابنه من كبار قادته قبل لقاء الخليفة[1].

وعلم الأخشيد من خلال لقائه مع الخليفة أن هذا يود التفاهم مع توزون، فحذَّره منه، وعرض عليه أن يسير معه إلى مصر وهو على استعداد للقيام بخدمته، مقتدياً بذلك بأحمد بن طولون، فرفض الخليفة هذا العرض، فأشار عليه عندئذٍ أن يستقر في الرقة على أن يمده بالمال والرجال للدفاع عن مقام الخلافة، فرفض المتقي ذلك أيضاً[2]. ولعل هذا الرفض يتعلق بمدى فقدان الخليفة ثقته في القادة الأمراء، ومن بينهم الأخشيد، ويبدو أنه اعتقد أن يُرحِّب به والي مصر في بادئ الأمر، ثم يستغله أو يتخلص منه إذا شكَّل عقبة في طريق تحقيق مآربه، ففضَّل ألا يبتعد عن عاصمة ملكه، وأن يتفاهم مع أمير الأمراء توزون.

ومن جهته عرض الخليفة على الأخشيد أن يسير معه إلى بغداد، ويسلمه منصب أمير الأمراء، وكان الأخشيد يطمع في اعتلاء هذا المنصب، فوافق على العرض، وكان على وشك الذهاب لولا أن نصحه أحد مستشاريه برفض العرض لأنه يؤثر سلباً على حكمه في مصر وبلاد الشام من واقع التنافس مع الأتراك، وفضّل أن يبقى بعيداً عن جو المؤمرات والنزاعات في عاصمة الخلافة[3].

وغادر الخليفة المتقي الرقة قاصداً بغداد في (محرم ٣٣٣هـ/ أيلول ٩٤٤م)، فاستقبله توزون خارجها، وكان قد أمَّنه، لكنه ما لبث أن نقض أمانه، فقبض عليه وسمل عينيه، وبايع أبا القاسم عبد الله بن المكتفي بالخلافة ولقَّبه بـ «المستكفي بالله»[4].

عاد الأخشيد إلى مصر في (جمادى الأولى/ كانون الأول) بعد أن نظَّم أمور بلاد الشام، فعيَّن الحسين بن لؤلؤ على دمشق ثم نقله بعد ستة أشهر إلى حمص وعيَّن مكانه يانس المؤنسي، وولى أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي حلب كما ولى أخاه أنطاكية[5].

استمرت العلاقة الجيدة بين العباسيين والأخشيديين، وقد أقرَّ المستكفي الأخشيد على ولاية مصر وبلاد الشام، ودعا الأخير للأول على المنابر في جميع أنحاء ولايته[6].

(١) سيدة كاشف: ص٨٦. (٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٥٥.
(٣) ابن سعيد: ص١٩٢. (٤) ابن الأثير: جـ٧ ص١٢٨، ١٣٤.
(٥) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٥٥. (٦) ابن سعيد: ص١٩٣.

وحدث في (٢٢ جمادى الآخرة ٣٣٤هـ/ ٢٩ كانون الثاني ٩٤٦م) أن قبض معز الدولة البويهي[١]، المستبد بدولة الخلافة العباسية، على الخليفة المستكفي وخلعه من الخلافة وبايع المطيع[٢] في ظل الصراع العباسي البويهي، فثبَّت المطيع الأخشيد على أعماله وزاد عليها الثغور والحرمين واليمن وخطب له على منابرها[٣]. والراجح أن هذا التقليد على الحرمين واليمن هو رمزي، إذ إن سلطان الأخشيد لم يستقر في تلك الأقاليم التي كانت تحت حكم أسرات محلية ربما خضع أمراؤها اسمياً للخلافة العباسية، ثم إن منح الخليفة التقليد على تلك الديار وتنازله عن سلطانه ونفوذه السياسي يؤكد ما وصلت إليه الخلافة من ضعف، ويبرهن على مدى ما وصلت إليه الدولة الأخشيدية من الاتساع والقوة[٤] بحيث يكون الحجاز واليمن محط أنظار الأخشيد بفعل أن ضمَّه لهذه البلاد سيقوِّي مكانته في العالم الإسلامي بعد أن أضحت دمشق والقاهرة في قبضته.

ومهما يكن من أمر، فقد دعا الأخشيد للخليفة المطيع على المنابر، وإن نجاحه في تدعيم حكمه في مصر واستقرار حكمه في بلاد الشام يُعدُّ حداً فاصلاً في علاقته بالخلافة، وتشهد النقود التي ضربها على تطور هذه العلاقة، فالدنانير المضروبة باسم الراضي بين عامي (٣٢٣ و٣٢٨هـ/ ٩٣٥ و٩٤٠م)، وبعض الدنانير المضروبة باسم المتقي في عام (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)؛ بأن الأخشيد كان لا يزال يدين بالطاعة للخليفة العباسي بدليل أن اسم الخليفة وحده كان يُنقش على النقود، وتغيَّر الوضع منذ العام المذكور عندما راح الأخشيد ينقش اسمه على النقود مع اسم الخليفة[٥].

علاقة محمد بن طغج مع الحمدانيين

سنرجئ بحث العلاقة الأخشيدية ـ الحمدانية بعامة إلى الباب الثالث الخاص بتاريخ الدولة الحمدانية.

---

(١) يمثل البويهيون العنصر الديلمي الذي كان يسكن في جنوبي بحر قزوين، ظهروا على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري، وأسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، وشاركوا الخلافة العباسية في حكمه.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١٥٨، ١٥٩.

(٣) ابن سعيد: ص١٩٧، ويذكر ابن تغري بردي أن الخليفة المطيع جمع لعلي بن الأخشيد جميع ما كان لأبيه وأخيه ـ أنوجور ـ من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين. النجوم الزاهرة: جـ٣ ص٣٢٦.

(٤) سيدة كاشف: ص٩٠، ٩١. (٥) المرجع نفسه.

علاقة محمد بن طغج مع الفاطميين

لم تُحقِّق المحاولتان الفاطميتان للسيطرة على مصر في عهد عبيد الله المهدي أي إنجاز، بل نبَّهت الخلافة العباسية إلى أن استمرار هذه المحاولات يتطلب وجوداً عسكرياً قوياً في هذا البلد. فقد اكتشف مؤنس الخادم الذي تصدَّى للفاطميين أن لهؤلاء أنصاراً في مصر، لذلك عيَّن الخليفة العباسي الراضي محمد بن طغج الأخشيد والياً على مصر بالإضافة إلى ولايته على بلاد الشام، كما ذكرنا.

أراد محمد بن طغج أن يستفيد من مركزه في مصر بين الفاطميين الطامعين في الاستيلاء عليه، والعباسيين الضعاف في المشرق، بتأسيس إمارة وراثية، وكان القائم من جهته حريصاً على الاستيلاء على مصر والتعويض عن فشله السابق وقد سنحت له ظروف طيبة للقيام بمحاولته تمثَّلت في:

ـ حدوث اضطرابات في عاصمة الخلافة العباسية. فقد حدث في بغداد أن قُتل الخليفة المقتدر في عام (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) وخلفه الخليفة القاهر، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه من الفوضى والإسراف في النفقات من جانب الحاشية والخدم، وتسلط الجند الأتراك، واستمر شغب الجند، وغدا منصب الخلافة مرة أخرى هدفاً للازدراء. وحاول مؤنس الخادم الاتفاق مع الوزير ابن مقلة على الخروج على حكم القاهر، لكن هذا الأخير استطاع أن يتخلَّص منه، غير أن الأتراك نجحوا أخيراً في القبض عليه، فخلعوه وسملوا عينيه، وبايعوا الراضي الذي بدأ في عهده عهد إمرة الأمراء، حيث كان الخلفاء مع هؤلاء كالمحجور عليهم.

ـ مضايقة الخليفة الراضي للأخشيد بعد أن أدرك حقيقة أهدافه في مصر، فعيَّن محمداً بن رائق والياً على بلاد الشام وشجَّعه على الاصطدام بالأخشيد، إلا أنه هُزم أمام القوات الأخشيدية في عام (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) وتمكَّن من النجاة.

ـ حدث في مصر أن ثار بعض القادة على حكم الأخشيد، وهم علي بن بدر قائد الأسطول، وبجكم وهو أحد الأمراء، وقائد حامية الإسكندرية حبشي بن أحمد المغربي، فانسحبوا إلى برقة ودخلوا في طاعة القائم، وراحوا يُحرضونه على غزو مصر، فأرسل إليهم خادمه زيدان، وأحد ضباطه ويدعى عامر، المعروف بالمجنون، تعزيزاً لصفوفهم[١].

وجَّه القائم، في ظل هذه الظروف، جيوشه المتمركزة في قاعدة برقة بقيادة

---

(١) الكندي: ص٢٠٧، ٢٠٨. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: جـ١ ص٢٠٩.

القائدين الكتاميين يعيش وبوتزنيت، والمعزَّزة بعناصر قادمة من إفريقيا بقيادة زيدان؛ إلى مصر، فاحتلت الإسكندرية في (٦ جمادى الأولى ٣٢٤هـ/ ٢ نيسان ٩٣٦م)[1].

جاء رد فعل الأخشيد سريعاً، فأرسل أخاه حسن وقائده صالح بن نافع، فاستعادا المدينة بعد قتال، وقُتل يعيش في المعركة، ووقع بوتزنيت في الأسر، وانسحب ما تبقى من أفراد الجيش الفاطمي إلى برقة[2].

وهكذا على الرغم من الظروف الطيبة التي قامت الحملة في ظلها، فقد فشلت في تحقيق الغاية، واضطر الجيش الفاطمي إلى الخروج مرة أخرى من مصر، ويبدو أن مرد ذلك يعود لسببين:

الأول: ظهور الأخشيد الذي استبدَّ بأمور مصر، وأبدى صلابة كافية في صدِّ الهجمات الفاطمية.

الثاني: كثرة الثورات والاضطرابات التي قامت في شمالي إفريقيا ضد الحكم الفاطمي، نذكر منها ثورة ابن طالوت القرشي في طرابلس الغرب، وثورة الخوارج بقيادة أبي يزيد[3].

بعد فشل حملته على مصر، رأى القائم أن من الأفضل لتحقيق أهدافه أن يعيد النظر بسياسته القائمة على القوة واستبدالها بسياسة ودية تجاه الأخشيد، إذ إن تدهور السلطة في بغداد منذ مقتل الخليفة العباسي المقتدر، قد ساعد على التقارب بين الفسطاط والمهدية لا سيما وأن حاكم مصر نجح في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) في الاستقلال بحكم مصر وبلاد الشام وأسس الإمارة الأخشيدية، فأرسل إليه القائم كتاباً قرأه على خاصته، وأرفق به رقعة بخطه لم يقرأها أمام أحد من مستشاريه، فكأنها رسالة خاصة، دعاه فيها إلى الدخول في طاعته[4].

رأى الأخشيد أن يترك لنفسه فرصة للتفكير في الأمر، لذلك لم يكتب ردَّه فوراً متذرعاً بأنه: «لا يقرأ ولا يكتب، ولا يجوز له أن يبوح بما في نفسه إلى كاتب، إذ الصواب يقتضي ذلك. ثم قال: وأنا أتدبر الجواب وأجيب عنه مع من أثق به وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيري يسلكه»[5].

الواضح أن الأخشيد كان يخشى أن يخرج على الخلافة العباسية، فقد كان

(١) الكندي: ص٢٠٧، ٢٠٨. (٢) المصدر نفسه: ص٢٠٨.
(٣) انظر فيما يتعلق بثورة أبي يزيد كتابنا تاريخ الفاطميين في شمالي أفريقيا ومصر وبلاد الشام: ص١٢٠ ـ ١٢٦. ص١٣٤ ـ ١٤٢.
(٤) انظر: نص الرقعة الخاصة عند: ابن سعيد: ص١٧٥، ١٧٦.
(٥) المصدر نفسه: ص١٧٦.

ضعفها يتيح له بأن ينعم بقسط وافر من الاستقلال، وفضلاً عن ذلك فإن من المحتمل أنه كان يكره أن يتخلَّى عن مذهبه السني ويُلقي بنفسه في أحضان الدولة الفاطمية الشيعية[1]، والراجح أن هذا الاحتمال ضعيف الأثر بدليل أنه عندما لم تنصره الحكومة المركزية في بغداد، في عهد الراضي، ضد محمد بن رائق أمير واسط والبصرة الذي كان يحاول آنذاك الاستيلاء على ممتلكاته؛ مال إلى التفكير في التقرب من الفاطميين، وكان على وشك الدعاء لهم في خطبة الجمعة وقطع صلته بالخليفة العباسي، لكن بعض مستشاريه نصحوه بالعدول عن ذلك[2]، ودعَّم هذا التقارب بمشروع زواج ابنته من إسماعيل ابن القائم، وأرسل كتاباً إلى المهدية بهذا المعنى[3].

قرأ القائم كتاب محمد بن طغج الأخشيد أمام مستشاريه، فأشاروا عليه بإجابة هذا الطلب، ومن ثمَّ بعث برده الإيجابي إلى حاكم مصر: «وصل كتابك، وقد قبلنا ما بذلت، وهي وديعة لنا عندك، وقد نحلناها من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار فتوصل ذلك إليها»[4]. ولكن الأخشيد كان يظن أن القائم سيرسل إليه من الهدايا والأموال ما يفخر به، فلما خاب ظنه أوقف مشروع المصاهرة، واتخذ جانب الحياد بين الدولتين العباسية والفاطمية، بعد أن أدرك أن البقاء تحت السيادة العباسية يخدم مصلحته، ولعله كان مدفوعاً في ذلك بثلاثة عوامل هي:

الأول: اضطراب شؤون الدولة الفاطمية في المغرب وانهماكها بإخماد ثورة القبائل.

الثاني: لقد نصحه بعض أتباعه بالعدول عن سياسة التقارب مع الفاطميين.

الثالث: وضعت وفاة الخليفة الراضي في (شعبان ٣٢٩هـ/ أيار ٩٤١م) حداً للتوتر بين بغداد والفسطاط بعد أن عيَّنه الخليفة العباسي المتقي على رأس الإمارة، فكان يذعن للعباسيين ويداري الفاطميين الذين كانوا يراقبون تطور أوضاع مصر عن كثب، وقد اشتدت رغبتهم في الاستيلاء عليها.

علاقة محمد بن طغج مع البيزنطيين

أسفر النضال الذي جرى في مناطق الثغور بين المسلمين والبيزنطيين قبل العهد الأخشيدي إلى رجحان كفة البيزنطيين، وتطلَّب الوضع اتخاذ إجراءات سريعة لإنقاذه وإعادته إلى توازنه على الأقل، فبرز الأخشيد الذي أخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة بعد أن وحَّد مصر وبلاد الشام وشكَّل قوة عسكرية مرهوبة الجانب، كان لها الأثر الكبير في تغيير موازين القوى بين المسلمين والبيزنطيين لصالح المسلمين،

(١) سيدة كاشف: ص٣٦١. (٢) ابن سعيد: ص١٧٦، ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه: ص١٧٧. (٤) المصدر نفسه.

حيث كان لزاماً على البيزنطيين أن يدخلوا في علاقة ودية مع الأخشيديين وفتح صفحة جديدة من السلام مع المسلمين بعامة.

والواضح أن خشية بيزنطية من القوة الأخشيدية المتعاظمة كانت أحد الدوافع لهذا التحرك السلمي، والمعروف أن الأخشيديين الذين نشأوا في بلاد الشام اكتسبوا خبرة في قتال البيزنطيين من واقع اشتراكهم في الحملات الطولونية الموجهة إلى الداخل البيزنطي، كما أنهم اهتموا بأوضاع الثغور الإسلامية التي تشكل خط الدفاع عن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام. واضطر الامبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس إلى مراسلة الأخشيد مباشرة من دون المرور بمقام الخلافة طالباً مهادنته وتبادل الأسرى بين الطرفين، فأرسل إليه سفارة من أجل ذلك مؤلفة من عضوين هما نيقولا وإسحاق[1]، فردَّ عليه الأخشيد بجواب طويل[2] ينم عن ترفُّعه وكبريائه وقوته الكبيرة في المنطقة، ويفتخر على الامبراطور باتساع ملكه الذي يشمل مصر واليمن وأجناد الشام ومكة والمدينة، وحمايته للأماكن المقدسة الإسلامية والنصرانية، ويشير إلى ولائه للعباسيين، وذلك لإحباط أية محاولة لضرب الجبهة الإسلامية والإيقاع بينه وبين الخليفة العباسي، كما استجاب لطلبه بتبادل الأسرى، فجهَّز المراكب في عام (٣٢٥هـ/ ٩٣٧م) لإرسالها إلى الثغور للفداء بعد أن شحنها بالبيزنطيين، وأرسل الثياب والطيب والطعام إلى أسرى المسلمين[3].

والواضح أن الظروف السياسية التي أحاطت بالأخشيد دفعته إلى انتهاج سياسة سلمية تجاه البيزنطيين، فقد كان يتعرَّض لضغط فاطمي متزايد على جبهتين: خارجية، من واقع إرسال الفاطميين حملات عسكرية إلى مصر للاستيلاء عليها، وداخلية، بفعل نشاط الدعاة الفاطميين في مصر الذي أدّى إلى بعض المشكلات، وقد تطلبت تدخلاً سريعاً لحلها، بالإضافة إلى ما كانت تثيره الخلافة العباسية من إشكالات من واقع إرسال العناصر إلى بلاد الشام لإثارة المتاعب في وجهه[4].

ويبدو أن البيزنطيين لم يكونوا صادقين في تعاملهم مع المسلمين، فقد أغارت قواتهم على منطقة حلب وأنزلت فيها الخراب وعادت محملة بخمسة آلاف أسير[5]. وجاء الرد سريعاً على هذه الغارة، فقد غزا أمير الثغور من قِبَل الأخشيد، ثمال، بلاد البيزنطيين من ناحية طرسوس في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤١م)، فقتل وسبى،

(١) ابن سعيد: ص١٦٧.
(٢) انظر: نص الكتاب في المصدر نفسه: ص١٦٧ ـ ١٧٢. زيود: ص٢٨٦.
(٣) ابن سعيد: ص١٧٣. (٤) زيود: ص٢٨٧.
(٥) ابن خلدون: ج٣ ص٤١٧، ويذكر ابن الأثير أن عدد الأسرى خمسة عشر ألفاً. الكامل في التاريخ: ص٧ ص١١٢.

وامتلأت أيدي عسكره بالغنائم، وأسر عدداً من البطارقة ـ القادة ـ البيزنطيين، وعاد من دون أن يستقر في أي منطقة[1]. ومن الأمور الملفتة للنظر أنه على الرغم من الحرب المستمرة بين الحمدانيين والبيزنطيين في منطقة الجزيرة الفراتية، جرى التفاهم بين الطرفين في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٥م) على تبادل الأسرى على نهر اللامس من ناحية طرسوس، على أن هذا الترتيب جرى في الوقت الذي لم يعد فيه لسيف الدولة الحمداني سلطان على إقليم الثغور بفعل انهماكه ببعض المشكلات الخاصة بالخلافة، فقد قدم إلى الأخشيد وهو في دمشق عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٤٦م) أبو عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي الأذني ومعه رسول من قِبل الامبراطور البيزنطي لتنظيم الفداء، والمعروف أن هذا الرجل هو أحد شيوخ الثغور المشهورين، وأدّى دور الوسيط بين المسلمين والبيزنطيين، وقد سبق أن أُوفد في سفارة إلى القسطنطينية، كما رافق السفراء البيزنطيين الذين قدموا إلى بلاط الخليفة المقتدر في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م)[2]، وقد توفي الأخشيد قبل أن يتحقق هذا الفداء، فعاد كافور مع الجيش الأخشيدي إلى مصر واصطحب أبا عمير ورسول الامبراطور إلى فلسطين، فأبحرا من صور إلى طرسوس، فاجتمعا بأمير الثغور ثمال، وكان قد انضم إلى سيف الدولة الحمداني بعد وفاة الأخشيد ودعا له على منابر الثغور، فأتم الفداء في (ربيع الأول ٣٣٥هـ/ تشرين الأول ٩٤٠م)، فعُرف به ونُسب إليه. وكان عدد الأسرى المسلمين ألفين وأربعمائة وثمانين أسيراً من ذكر وأنثى، «وفضل للروم مع المسلمين مائتان وثلاثون أسيراً لكثرة من معهم من الأسرى، فوفاهم ذلك سيف الدولة[3]، ما يدل على أن البيزنطيين كانوا متفوقين على المسلمين في المدة السابقة.

وهكذا لم يقصِّر الأخشيد في أداء واجبه الديني في الجهاد ضد البيزنطيين، إلا أن الظروف السياسية المحيطة به وأطماع القوى المتعددة في ممتلكاته فرضت عليه أن ينتهج سياسة المهادنة مع البيزنطيين، ويستجيب لأية مبادرة سلمية لكي يتفرغ لمواجهة القوى الطامعة في أملاكه، ويوجِّه جهوده للنهوض الاقتصادي في المناطق التابعة له، وإصلاح أمورها، وتثبيت قبضته عليها[4].

وفاة محمد بن طغج

توفي محمد بن طغج الأخشيد في دمشق في (٢٢ ذي الحجة ٣٣٤هـ/ ٢٥ تموز ٩٤٦م)، ونُقل جثمانه إلى بيت المقدس ودفن هناك[5].

(١) ابن الأثير: ج٧ ص١١٢. (٢) سيدة كاشف: ص٣٧٤.
(٣) ابن الأثير: ج٧ ص١٧٤. (٤) انظر: زيود: ص٢٨٨، ٢٨٩.
(٥) الكندي: ص٢١١. ابن الأثير: ج٧ ص١٦٣. ابن خلكان: ج٥ ص٥٩.

الفَصْلُ الثَّامِنْ

خلفاء محمد بن طغج ـ سقوط الإمارة الأخشيدية

خلفاء محمد بن طغج

أنوجور بن محمد بن طغج
٣٣٥ ـ ٣٤٩هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٦٠م

اشتد التنافس على تولي الحكم في مصر بعد وفاة محمد بن طغج الأخشيد، وكان هذا قد ولَّى عهده قبل وفاته ابنه الأكبر أبا القاسم أنوجور، البالغ أربعة عشر عاماً من العمر، على أن يخلفه بعد وفاته، وعيَّن غلامه أبا المسك كافور الأسود وصياً عليه، والراجح أن أنوجور كان في مصر نائباً عن والده عندما توفي في دمشق[1].

ويبدو أن الأخشيد على الرغم من ثقته بأخيه أبي المظفر الحسن بن طغج، وكان يرى ضرورة التعاون معه بفعل دوره الإيجابي في دعم وتثبيت الحكم الأخشيدي، إلا أنه خشي من طموحه الاستئثار بالحكم إن عيَّنه وصيّاً على ابنه أنوجور، ومن ثَمَّ انتزاع الحكم من أولاده، ولعل ذلك هو السبب الذي دفعه إلى تعيين كافور مُدبِّراً لأمور ابنه من بعده دون عمه غارساً بذلك بذور الانقسام في الأسرة الأخشيدية، ومانحاً كافور الفرصة لكي يستبد بالسلطة ويتفرَّد بها[2].

كان أنوجور الوارث الطبيعي لحكم مصر بعد أبيه، وبخاصة أن الخليفة المتقي أصدر في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٥م) تقليداً للأخشيد بتوليته أعماله ثلاثين سنة على أن يخلفه ابنه أنوجور[3]. ومع ذلك، فقد صادفت توليته بعض العقبات منها محاولة تنحيته عن الحكم، فقد بقي كافور في دمشق بعد حادثة الوفاة يرتب أمورها، ووصل نبأ الوفاة إلى مصر قبل عودته إليها، فأسرع الحسن بن طغج إلى دار الإمارة وتبعه الوزير أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل، وانضمَّ إليهما أبو القاسم أنوجور، وأقبل

(١) ابن سعيد: ص١٩٧. وقارن بابن تغري بردي الذي يذكر أن أنوجور كان في دمشق عندما مات والده. النجوم الزاهرة: جـ٣ ص٢٥٥، ٢٩١.

(٢) سيدة كاشف: ص٩٧. زيود: ص٣١٩. (٣) ابن سعيد: ص١٩٢.

الناس للتعزية، ثم انصرف الجميع من دون أن يُقرِّر شيء في تولي السلطة[1]، فعُقد في اليوم التالي اجتماع ضمَّ وجوه الناس من الأمراء والقادة والوزراء والكتَّاب والأشراف والقضاة والشهود، لبحث موضوع خلافة الأخشيد، واستدعوا أبا بكر محمد بن علي الماذرائي لاستطلاع رأيه، فاعترض على طرح الموضوع على بساط البحث لأنه محسوم بفعل أن الأخشيد عقد ولايته لابنه أنوجور قبل وفاته وأن الخليفة المتقي أذن للأخشيد بذلك، وعندما احتج المجتمعون بصغر سنه أجابهم بأن صغر السن لم يكن يوماً مبرراً لتنحية الحاكم، وهو عقد لهارون بن أبي الجيش خمارويه بحكم مصر وكان أصغر سناً من أنوجور، وأضاف الماذرائي إن اضطراب الأوضاع في بلاد الشام التي تفجرَّت بعد وفاة الأخشيد تنذر بعواقب وخيمة، إذا ضيَّع أهل السلطة الوقت في الجدل والاختلاف. وبذلك تمَّ الأمر لأنوجور وأخفق عمه الحسن في تحقيق مطامعه في السلطة[2]. والراجح أن الماذرائي كان يفضل تولية أنوجور لتقوية موقفه والمحافظة على مكتسبات أسرته في ظل حكم ولد صغير، ويبدو أن هذا الأمر لم يكن مضموناً إذا آل الحكم إلى الحسن بن طغج[3].

ومهما يكن من أمر، فقد أبلغ الماذرائي كافوراً بما تمَّ من تولية أنوجور، وكان لا يزال في دمشق. واحتفل أنوجور باعتلائه السلطة، فخرج في موكب يوم الجمعة (١٣ محرم ٣٣٥هـ/ ١٤ آب ٩٤٦م) إلى الجامع العتيق ـ جامع عمرو بن العاص ـ للصلاة، في جميع عساكره التي بمصر، وبين يدي عمه أبو المظفر الحسن بن طغج يحجبه، وخلفه وزيره أبو بكر محمد بن علي الماذرائي، فأدى الصلاة ودُعي له على المنابر وانصرف في موكب أبيه[4].

وما لبث كافور أن عاد إلى مصر على رأس الجيش الذي خرج إلى بلاد الشام مع الأخشيد، فوصل إلى الفسطاط في (صفر/ أيلول). وأقرَّ الخليفة المطيع تولية أنوجور على مصر وبلاد الشام وما كان لأبيه من الولاية[5]، وقُرئ كتاب الخليفة يوم الجمعة (أول ربيع الآخر/ ٣٠ تشرين الأول) على منبر الجامع العتيق[6].

وما جرى في ذلك الوقت في بغداد من استبداد البويهيين بمقدرات الخلافة وسعي الولاة والأمراء إلى التقرب منهم؛ أرسل أنوجور الهدايا إلى معز الدولة البويهي عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) وطلب منه أن يكون أخوه مشاركاً له في إمرة مصر، ويكون من بعده، فأجابه معز الدولة إلى ذلك[7]، وهكذا نال أنوجور موافقة السلطة المركزية في بغداد على استخلاف أخيه.

(١) ابن سعيد: ص١٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ص١٩٧، ١٩٨.
(٣) كاشف: ص٩٥.
(٤) ابن سعيد: ص١٩٨.
(٥) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٩١.
(٦) الكندي: ص٢١٢.
(٧) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٩٨.

ويبدو أن معز الدولة البويهي، وهو يحاول تذليل العقبات التي كانت تعترضه لتوطيد سلطانه في بغداد وانتزاع صلاحيات الخليفة، ونظراً لبُعد المسافة بين العراق ومصر؛ كان مضطرّاً إلى الموافقة على طلب أنوجور، بدليل أنه عندما استتبَّ الأمر له فترت العلاقة بينه وبين الأخشيديين، وأبطل الدعاء لأنوجور على منابر الحجاز ما أدّى إلى صدامات بين قوات الطرفين، كان النصر فيها لقوات معز الدولة، فَخُطب له بمكة، ومع ذلك فقد كان يخطب لأنوجور بين الحين والآخر بعد الخليفة وبعد ركن الدولة وأخيه معز الدولة وولده عز الدولة بختيار[1].

واستبدَّ كافور بالسلطة بوصفه الوصي على أنوجور، وبقي «الاسم والدست لأبي القاسم أنوجور»[2]، ولم يُتح للأمير الصغير أية فرصة للظهور على مسرح الحياة السياسية أو ممارسة أي عمل سياسي، وازداد نفوذه عندما صار يُدعى له على المنابر منذ عام (٣٤٠هـ/ ٩٥١م)، واكتفى أنوجور بما خصَّصه له من راتب سنوي وقدره أربعمائة ألف دينار، وترك له تدبير الأمور، واحتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش وأخْذ الأملاك[3].

وعندما تجاوز أنوجور سن الرشد وشعر بأن من حقه أن يتولى زمام الأمور، حاول التمرد على حكم كافور، وشجَّعه أنصاره على ذلك وقالوا له: «قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش، وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور»[4].

وبدأ أنوجور يُظهر سخطه على كافور، وبدا الجفاء بينهما واضحاً، فغادر الفسطاط متظاهراً بالانصراف إلى الصيد واللهو في الأقاليم، في خطوة تمويهية للخروج إلى الرملة والاستعداد للتصدّي لطموح كافور وعزله من مناصبه واستعادة السلطة. انقسم الجند بفعل هذا الصراع إلى طائفتين: الكافورية أنصار كافور والأخشيدية أتباع أنوجور، فتدخلت والدة أنوجور في الأمر بعد أن شعرت بأن ابنها لا يستطيع التغلب على كافور وخشيت عليه من بطشه، فخوَّفته من عاقبة الفتنة، وأعلمت كافوراً بأن ابنها ينوي الرحيل عن مصر، فكتب كافور إلى أنوجور وصالحه في خطوة سياسية بارعة محافظاً بذلك على مكتسباته، واستمر الوضع على حاله إلى أن توفي أنوجور في (٨ ذي القعدة ٣٤٩هـ/ ٣٠ كانون الأول ٩٦٠م)[5]، ونُقل جثمانه إلى بيت المقدس ودُفن بجوار أبيه[6]، واتهم كافور بدس السم له، وكانت ولايته أربعة عشر عاماً وعشرة أيام[7].

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٠٦، ٢١٠، حكم ركن الدولة الري وأصفهان وهمذان.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٤ ص٢.
(٣) المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٩١، ٢٩٢.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٩٣.
(٥) الكندي: ص٢١٣.
(٦) المقريزي: جـ٢ ص١٤٧.
(٧) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٩٣.

علي بن محمد بن طغج

٣٤٩ ـ ٣٥٥هـ/ ٩٦١ ـ ٩٦٦م

نصَّب كافور بعد وفاة أنوجور أخاه علي أميراً على مصر بالاتفاق مع أعوانه من قادة الجند ورجال أبيه الأخشيد، ودُعي له يوم الجمعة (١٣ ذي القعدة ٣٤٩هـ/ ٤كانون الثاني ٩٦١م) على المنابر[1]، وأقرَّه الخليفة العباسي المطيع على ولاية الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين[2]. واستمر كافور على شغفه بالسلطة والإمارة، فظل يباشر الأمور بنفسه على الرغم من أن الوالي الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره، وعيَّن له المخصَّصات نفسها التي كانت لأخيه من قبل، وقدرها أربعمائة ألف دينار سنوياً، ثم كفَّ يده عن الاضطلاع بشؤون الحكم وحرمه من كل عمل، وشدَّد عليه، ومنع الناس من الاجتماع به باستثناء ندمائه، فأضحى أسيراً في قصره لا عمل له إلا اللهو أو الصلاة. فانصرف أولاً إلى اللهو والشراب مدة من الزمن ثم تاب عن شرب الخمر، ولزم الصلاة وقراءة القرآن، غير أنه كان دائماً يتطلع إلى ممارسة صلاحياته كأمير على مصر، لذلك حاول في عام (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) أن يُنحِّي كافوراً عن تدبير شؤون الدولة فلم يفلح، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى ضعف شخصيته وقلَّة عدد أنصاره في الوقت الذي ازدادت فيه قوة كافور وأضحى صاحب الأمر والنهي[3]. وقد نتج عن هذه المحاولة الفاشلة أن ازداد التباعد بين الرجلين وفسدت العلاقة بينهما. واستمر الوضع على ذلك حتى توفي علي في (١٩ محرم ٣٥٥هـ/ ١٥ كانون الثاني ٩٦٦م)[4]، واتُّهم كافور بدس السم له كما فعل مع أخيه من قبل[5]، وحُمل جثمانه إلى بيت المقدس، ودُفن بجوار أبيه وأخيه بباب الأسباط[6].

كافور الأخشيدي

٣٥٥ ـ ٣٥٧هـ/ ٩٦٦ ـ ٩٦٨م

كان الوارث الشرعي لولاية مصر ولداً صغيراً هو أحمد بن علي، فحال كافور الطامع بالسلطة من دون تعيينه بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه. وبقيت مصر

---

(١) الكندي: ص٢١٤. وقارن بابن تغري بردي الذي يذكر أن علياً اعتلى السلطة يوم السبت في ٢٠ ذي القعدة (٣٤٩هـ). النجوم الزاهرة: جـ٣ ص٣٢٥، ٣٢٦.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٣٢٦.
(٣) سيدة كاشف: ص١٢٧.
(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٣٢٦، ٣٢٧.
(٥) سيدة كاشف: ص١٢٧.
(٦) الكندي: ص٢١٤. المقريزي: جـ٢ ص١٤٨.

بغير أمير أياماً، واقتصر ذكر اسم الخليفة المطيع وحده في خطبة الجمعة، كان كافور خلالها يدير أمورها ومعه أبو الفضل جعفر بن الفرات[1]. وفي (٢٦ محرم ٣٥٥هـ/ ٢٢ كانون الثاني ٩٦٦م) أخرج كافور كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده أمور الشام ومصر والحرمين، وأظهر الخلع التي وصلت إليه من عاصمة الخلافة، فنوديَ به والياً على مصر وما يليها من البلاد، فحقَّق بذلك رغبته في حكمها، والملفت أنه لم يُغير لقبه وهو الأستاذ[2]، متجنباً صَدْم أهل البلد باغتصاب الألقاب إلى جانب اغتصابه السلطة.

يثور الشك حول صحة تقليد الخليفة لكافور الذي لم يكن صاحب الحق الشرعي في الحكم، فهو ليس من أسرة الأخشيد، لكن الواضح أن الخلافة لم تعترض على تفرده بالسلطة لا سيما وأنها اعتادت أن تتعامل معه بوصفه مدبر الأمور في مصر، ما يدل على أنه لم يكن لها الرأي الأول في تعيين ولاة الأطراف، ولا تملك إلا إقرار الأمر الواقع[3]، لكن الراجح أن كافوراً تولى إمرة الديار المصرية باتفاق أعيانها وجندها[4]. وظلَّ الوضع على هذا الحال حتى توفي كافور في (٢٠ جمادى الأولى ٣٥٧هـ/ ٢٢ نيسان ٩٦٨م)، وكانت إمارته على مصر اثنتين وعشرين سنة منها سنتان وأربعة أشهر استقل فيها بالملك، وحُمل تابوته إلى بيت المقدس ودفن هناك، وفي رواية أنه دُفن في القرافة الصغرى بمصر[5].

شغل أبو المسك كافور حيزاً مهماً في تاريخ مصر. كان عبداً أسود من إقليم اللاب في بلاد النوبة، بصاصاً[6]، خصياً، قبيح المنظر، بطيناً، ثقيل البدن، قبيح القدمين، مثقوب الشفة السفلى، أثار إعجاب المؤرخين المسلمين بارتقائه من عبد حقير إلى منصب الإمارة في مصر وعدُّوه من «أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير»[7]. ويبدو أنه جُلب إلى مصر مع عبيد آخرين، فتنقَّل من تاجر إلى آخر حتى حطَّ رحاله في رحاب الأخشيد الذي توسم فيه الذكاء، فقرَّبه إليه، وظلَّت منزلته عنده ترتفع تدريجياً، ويتدرب على مختلف شؤون الإدارة والحكم حتى أضحى موضع ثقته ومن كبار قادته وذوي الشأن في دولته، فعهد إليه بتربية ابنيه أنوجور وعلي، وأمَّره على الجيش الذاهب إلى بلاد الشام لقتال سيف الدولة الحمداني، وبعد وفاته أضحت مقاليد الأمور كلها في يده، وظل الحاكم المطلق في البلاد حتى

---

(١) المقريزي: جـ٢ ص١٤٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) سيدة كاشف: ص٩٧ ـ ١٠١.
(٤) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٣٢٧.
(٥) ابن خلكان: جـ٤ ص١٠٥.
(٦) بصاصاً: يبرق ويلمع ويتلألأ.
(٧) ابن سعيد: ص١٩٩.

وفاة علي بن الأخشيد حيث آل الحكم إليه بفعل صغر سن أحمد بن علي بن الأخشيد، بيد أن حكمه لم يطل أمره، فقد توفي بعد مرور سنتين وأربعة أشهر، كما ذكرنا.

برع كافور في فنون القتال، وكان يجلس صباحاً ومساء لقضاء حوائج الناس، ويتهجَّد ويُمرِّغ وجهه ساجداً ويقول: «اللهم لا تسلط علي مخلوقاً». واشتهر بكثير من صفات الزعامة التي أهَّلته لتبوُّء مركز الصدارة في الإمارة على الرغم من أصله الوضيع، منها: معرفته بطبائع الناس وأساليب معاملتهم، واصطناع الحلم حيناً وإظهار الغضب حيناً آخر، والتوفيق بين الآراء المختلفة، وقدرته على استقطاب الناس، خبيراً بالسياسة، فطناً، ذكياً، جيد العقل، داهية، كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، كما كان يُذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخدع هؤلاء، ويجل أهل البيت ويكرم العلويين أعظم الأكرام[1].

وحرص كافور على أن يكون بلاطه ملتقى العلماء والأدباء والشعراء، كان من بينهم الشاعر المتنبي الذي كان يبحث عن سيد آخر بعد أن يئس من تحقيق رغبته بالولاية في بلاط سيف الدولة الحمداني، ولعله سمع ببلاط كافور وما يلقاه الشعراء والأدباء من تقدير وإكرام، فعقد العزم على الذهاب إلى مصر، وفي رواية أن كافوراً كتب إليه يستدعيه إلى بلاطه، فوصل إلى مصر في عام (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)[2].

رحَّب كافور بقدوم المتنبي وخصَّصه بدار، وخلع عليه وحمل إليه مالاً كثيراً، فمدحه المتنبي، وكان يطمع بأكثر مما نال من عطاء، حيث أمل بأن يُعيِّنه حاكماً على إحدى ولاياته، لكن كافوراً لم يُحقِّق له رغبته، فلما يئس من ذلك تضاءل حماسه له، فهجاه في قصيدة وغادر مصر سراً في (١٠ ذي الحجة ٣٥٠هـ/ ٢٠ كانون الثاني ٩٦٢م).

أحمد بن علي

٣٥٧ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٦٨ ـ ٩٦٩م

اجتمع أعيان مصر وقادتها بعد وفاة كافور وبايعوا أحمد بن علي الأخشيد، وكان صغيراً في الحادية عشرة من عمره، ودُعي له على المنابر بمصر وأعمالها والشام والحرمين. وقد خرج الحسن بن عبيد الله بن طغج والي الشام على هذا الإجماع، فأخذ البيعة لنفسه واستولى على ما كان لكافور من أموال في الرملة[3]، وعيَّن الوزير

---

(١) ابن تغري بردي: ص٤ ـ ٦.
(٢) المصدر نفسه: ص٧ ـ ٩.
(٣) الكندي: ص٢١٥.

أبا الفضل جعفر بن الفرات مسؤولاً عن إدارة الشؤون المالية، وشمول الأخشيدي، صاحب الحمَّام بمصر، على الرجال والعساكر. هذا ولا تشير روايات المصادر أنه تلقَّى تقليداً من الخلافة بأعماله، ويبدو أن لذلك علاقة بسرعة دخول الفاطميين إلى مصر، وما جرى بعد ذلك من الدعاء للحسن بن عبيد الله إما بوصفه وصياً على أحمد بن علي أو بوصفه خليفة له[١] إنما يدل على أن تفاهماً قد حصل بين الطرفين. والمعروف أن الحسن هذا فرَّ من بلاد الشام منهزماً أمام القرامطة ودخل مصر ثم آلت إليه السلطة مدة ثلاثة أشهر استبدَّ خلالها بالأمر، وأساء معاملة السكان، وقبض على جماعة من أعيان الدولة والبلد وصادر أموالهم، فهرب كثير منهم إلى المغرب وعلى رأسهم يعقوب بن كلس، وكان ذلك من الأسباب التي عجَّلت بالغزو الفاطمي، كما اضطربت أوضاع البلد إثر قيام الجند مطالبين بأرزاقهم، وعَجْز الوزير أبي الفضل عن تلبية طلبهم ما دفعه إلى الفرار منهم، فقاموا بنهب داره ودار حاشيته، ثم قبض عليه الحسن بن عبيد الله بفعل سوء سلوكه وشكوى الجند منه، فعذَّبه مدة ثم أعاده إلى عمله[٢].

ولم يرض الأخشيديون أن يكون شمول مدبراً لهم، فراحوا يتنافسون على السلطة، وتسمى كل منهم بالأمير وأقدمت جماعة منهم على مراسلة المعز الفاطمي يستدعونه ليتسلَّم مصر، ووعدوه بالمساعدة والمساندة على أن يملك البلد بغير قتال. وأصاب الناس اليأس والخوف، فانتهز المعز فرصة هذا الاضطراب الذي فشا في مصر، فأرسل جيشاً لغزوها بقيادة جوهر الصقلي، وعندما سمع الحسن بن عبيد الله بأنباء الزحف الفاطمي غادر مصر على عجل وعاد إلى بلاد الشام، فدخلت القوات الفاطمية مصر وأنهت الحكم الأخشيدي.

(١) المقريزي: جـ٢ ص١٤٨. ابن تغري بردي: جـ٤ ص٩.

(٢) ابن تغري بردي: جـ٤ ص٢٣، ٢٤.

سقوط الإمارة الأخشيدية

أهم الأحداث السياسية والعسكرية في بلاد الشام التي أضعفت الحكم الأخشيدي

تمهيد

تعرَّضت السيادة الأخشيدية في بلاد الشام بخاصة لأخطار كبيرة أثارتها قوى متعددة طامعة في هذه البلاد ما أدَّى إلى إضعاف النفوذ الأخشيدي. ابتدأت الثورات ضد هذا الحكم فور وفاة محمد بن طغج الأخشيد على الرغم من سياسته المنفتحة. ويبدو أن سياسته المالية وتعرُّضه لأصحاب الثروات ومصادرة أموالهم بين الحين والآخر؛ جلبت عليه نقمة الطبقة الغنية. وكان لعداء القوى الكثيرة التي شاركت الأخشيديين في أطماعهم، أمثال ابن رائق والحمدانيين والقرامطة وبعض رؤساء القبائل العربية وشيوخها، أثر كبير في اضطراب الأمور وعدم استقرارها، حيث قاموا بانتفاضات عدة أضعفت الحكم الأخشيدي.

الاضطرابات في دمشق

شهدت دمشق على أثر وفاة الأخشيد اضطرابات سياسية، فنهبت العامة خزائنه، ولكنهم لم يستولوا على جميع ما كان قد جمعه في حياته، لأنه كان قد وضع المال في أكياس من الأمتعة لا تلفت الانتباه، فظلت بعيدة عن متناول أيدي العامة. وساهمت هذه الفتنة في تأخير نقل الأخشيد إلى مثواه الأخير في بيت المقدس، بالإضافة إلى الإسراع في إنهاء الأزمة التي نشأت في مصر نتيجة الصراع على السلطة، لأن الماذرائي استغل هذه الاضطرابات وتمكَّن من تثبيت أنوجور والياً على البلاد محققاً رغبة والده الأخشيد والخلافة العباسية[١].

ثورة المهلهل العقيلي

خرج المهلهل العقيلي في جنوبي الشام في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٤٦م) في منطقة

(١) ابن سعيد: ص١٩٦.

طبريا، فتصدى له والي دمشق الأخشيدي شعلة بن بدر، غير أنه قُتل في إحدى معاركه مع هذا الثائر.

ثورة شبيب بن جرير في عمَّان

وثار في عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) شبيب العقيلي والي عمَّان والبلقاء وما بينهما، على حكم كافور بهدف الاستقلال بما تحت يده، ومنتهزاً فرصة الاضطرابات السياسية العامة، والتفَّ الأعراب حوله، فَشكَّل منهم قوة عسكرية تُقدَّر بعشرة آلاف مقاتل أتاحت له الزحف باتجاه دمشق للاستيلاء عليها، وعندما وصل إليها استأمنه كثير من سكان القرى المجاورة وانضموا إلى جموعه، إلا أن سكان المدينة رفضوا الخضوع له وتصدُّوا لجموعه مع الحامية الأخشيدية، وانتهى الأمر بقتله خلال المعارك على أبواب المدينة[١].

ثورة السُلمي في الشراة

وخرج في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) محمد بن أحمد السُلمي، من بني سُليم، في الشراة بين دمشق والمدينة المنورة، وانضم إليه طوائف من العرب الطامعين بالسلطة أو الغنائم. ولما اشتد ساعده وقوي أمره، جهَّز كافور، وكان في دمشق، قوة عسكرية لإخماد ثورته، وأمر أن يبدؤوه بقتال، وطال مقامه وإياهم على تلك الحال، فأسرى عليه في بعض الليالي رجل من بني عقيل يُدعى ثمال الخفاجي؛ فأسره وساقه إلى مصر، فاعتقل مدة، ثم أُطلق سراحه بعد أن شُهِّر به[٢].

ثورة والي بيت المقدس

ثار والي بيت المقدس من قبل الأخشيديين محمد بن إسماعيل الصناجي في عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، إذ إن معاملته السيئة لبطريرك بيت المقدس يوحنا بن جميّع، ومطالبته له بالأموال بأكثر مما كان الرسم جارياً حتى شعر هذا بالغبن ودفعه إلى الذهاب إلى مصر للشكاية، فاجتمع بكافور وشرح له حقيقة الوضع، فتفهم كافور ذلك وكتب إلى والي دمشق الحسن بن عبيد الله بن طغج يأمره بتسوية الموضوع وإنصاف البطريرك، ومَنْع الصناجي من مضايقته، فأرسل الحسن قوة عسكرية من أجل ذلك بقيادة تكين، فتضايق الصناجي من هذه التدابير ورفض طلب كافور ووالي دمشق والتمس من البطريرك أشياء زائدة عن رسومه، فاحتمى البطريرك بتكين، ولم

---

(١) كرد علي، محمد: خطط الشام: جـ١ ص١٨٩.

(٢) الأنطاكي: ص١٠٢.

يدفع إليه ما طلبه، فعظم ذلك على الصناجي، فجمع أتباعه وأنصاره وقَبض على تكين وجنوده، وهاجم كنيسة القيامة التي احتمى فيها البطريرك وأحرق بعض أبوابها وسقطت قُبَّتها، وهاجت جموع العامة فدخلت إلى الكنيسة ونهبتها وقُتل البطريرك في غضون هذه الفوضى. استغل اليهود في المدينة هذا الوضع المتردي فأقدموا على القتل والتخريب ما زاد الأمور تفاقماً وقتلوا أكثر مما قتل المسلمون. وعُيِّن بطريرك آخر من أهل قيسارية اسمه حبيب ويدعى خريصطودلس، فقام بترميم ما تخرَّب من كنيسة القيامة[١].

ولا شك بأن هذه الأحداث جاءت رداً على ما كان يقوم به البيزنطيون ضد المسلمين في الثغور، وبما كانوا يرتكبون من أعمال شنيعة تعدَّت إمكانات الوصف، ولا يُستبعد أن تقوم مثل هذه الحوادث في ظل الوضع المتردي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً[٢].

ثورة أهل طرابلس

قامت في طرابلس في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) ثورة ضد الحكم الأخشيدي نتيجة استبداد الوالي أبي الحسن أحمد بن غرير الأرغلي وظلمه وقسوته في معاملة الأهالي. والمعروف أن طرابلس كانت تابعة آنذاك لولاية دمشق، وأن واليها هو الذي يعين حاكم المدينة. وقام الأهالي بطرد واليهم من المدينة، فتحصَّن بعرقة وأقام بها، وأضحى سكان طرابلس من غير والٍ ولا أمير[٣]. وحدث في غضون ذلك أن وصل الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس إلى طرابلس في حملته الكبرى على بلاد الشام، وكان قد استولى على شمالي البلاد ومنها عرقة فقبض على أبي الحسن أحمد بن غرير الأرغلي وأخذ جميع ماله، ثم نفذ إلى طرابلس فنزل عليها يوم عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة/ ٥ تشرين الثاني) وأقام عليها تلك الليلة، وأحرق ربضها ورجع إلى بلدان الساحل[٤].

غارات القرامطة على بلاد الشام

توقَّفت الهجمات العسكرية القرمطية على بلاد الشام في عهد محمد بن طغج الأخشيد، ولعل لذلك علاقة بمدى تراجع قوتهم بعد الانقسام الذي شهدته الحركة

---

(١) الأنطاكي: ص١١١، ١١٢.　　(٢) زيود: ص٣٢٦.

(٣) الأنطاكي: ص١٣١.

(٤) المصدر نفسه: ص١٢٤ ـ ١٢٦. وقارن بابن الأثير الذي يذكر هذه الحادثة في أحداث عام (٣٥٨هـ): جـ٧ ص٢٨٥.

القرمطية في البحرين بعد وفاة أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنّابي في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٤م)، حين عيَّن القائم الفاطمي أخاه أحمد على رأس الحركة القرمطية بانتظار بلوغ سابور بن أبي طاهر سليمان السن القانوني لخلافته. وقد حاول أحمد أن يتخلَّص من ابن أخيه لينفرد في المستقبل بزعامة الحركة. وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة الفاطمية في إفريقيا تواجه خطر الخوارج، انقسم القرامطة في المشرق إلى قسمين. ضمّ القسم الأول أنصار الفاطميين الملتفِّين حول سابور، وضمّ القسم الثاني الفئة المناهضة للفاطميين بزعامة أحمد الذي نادى بالتقارب مع العباسيين، بالتحديد مع بني بويه المسيطرين على مقدرات الخلافة العباسية. وقد غذَّت الخلافة العباسية والقوى المتعاطفة معها والمعادية للقرامطة أمثال محمد بن طغج هذا الصراع، وكان ذلك من العوامل التي أجهضت هذه الحركة، فتوقفت حملاتها العسكرية طيلة عهد الأخشيد.

غير أن النفوذ الأخشيدي في بلاد الشام تعرَّض لخطر هؤلاء القرامطة بعد أن دب الضعف في جسم الدولة الأخشيدية إثر وفاة الأخشيد، من واقع شن عمليات عسكرية مُنظَّمة أسهمت في زعزعة الثقة بالسلطة الأخشيدية التي وقفت عاجزة عن التصدِّي لها.

وتعاون الحمدانيون مع القرامطة للقضاء على النفوذ الأخشيدي في بلاد الشام، ووثَّق سيف الدولة علاقته بهم وشجَّعهم على غزو هذه البلاد وطرد الأخشيديين منها، بدليل أن هؤلاء عندما هاجموا بلاد الشام في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) تجنَّبوا مهاجمة أملاك الحمدانيين، وكانوا قد طلبوا منه، في عام (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، أن يمدهم بالحديد اللازم لصنع الأسلحة، فأجابهم إلى طلبهم، وأرسل إليهم كميات كبيرة في الفرات ثم بطريق البر إلى هجر[١]. وأحدث القرامطة في حملتهم الكبيرة في العام المذكور أموراً عظيمة، وعجزت القوات الأخشيدية المرابطة هناك عن التصدِّي لهم ودفعهم. وكانت مصر تعاني آنذاك من الغلاء والشدَّة الاقتصادية ومقاومة الفاطميين المتوثبين للاستيلاء على مصر، لذلك لم تتمكَّن من إرسال النجدات إلى بلاد الشام. وفي رواية أن الحملة حدثت في عام (٣٥٣هـ/ ٩٦٤م) وهي التي عُرفت بحملة طبرية، وتمكَّنت بمساعدة الحمدانيين من إحراز النصر على الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيدي الذي كان والياً عليها[٢].

وهاجم القرامطة بقيادة الحسن الأعصم بلاد الشام مرة أخرى في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) فدخلوا دمشق، وساروا إلى الرملة، فتصدَّى لهم الحسن بن عبيد الله

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٣٣٦. (٢) المصدر نفسه: ص٣٢٦.

الأخشيدي غير أنه انهزم أمامهم، فغادر المدينة التي سقطت في أيديهم بعد مقاومة من جانب سكانها، فدخلوها واستباحوها لمدة يومين، وسبوا عشرة آلاف من سكانها، وفرضوا عليهم جزية قدرها مائة وخمسة وعشرين ألف دينار[١]، واضطر الحسن بن عبيد الله أن يصالحهم على مبلغ من المال قدره ثلاثمائة ألف دينار سنوياً، واعترف بسلطتهم ونفوذهم على بلاد الشام[٢]، وبذلك أصبحت هذه البلاد تحت النفوذ القرمطي في أواخر عهد الدولة الأخشيدية وقبيل الغزو الفاطمي لمصر.

وفي الوقت الذي وصلت فيه طلائع الحملات العسكرية الفاطمية إلى مصر كان القرامطة قد ثبَّتوا أقدامهم في بلاد الشام والمناطق المجاورة وفرضوا وجودهم فيها، فأرسلوا في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) إلى بني نمير وغيرهم من القبائل العربية يدعونهم إلى الدخول في طاعتهم، فأجابوهم إلى ذلك، وأخذوا عليهم الإيمان والعهود، كما استرضاهم أبو تغلب بن حمدان، وأرسل إليهم هدايا كثيرة وجميلة قيمتها خمسون ألف دينار[٣].

وهكذا أضحى النفوذ الأخشيدي في بلاد الشام بحكم الزائل قبيل الفتح الفاطمي، واقتضت الضرورة وجود قوة تملأ الفراغ الذي تعرضت له المنطقة وتعيدها إلى وضعها الطبيعي، ومن ثَمَّ كان الفتح الفاطمي للشام بعد أن انتهى الفاطميون من فتح مصر.

الأوضاع الداخلية في مصر وتأثيرها على الحكم الأخشيدي

شهدت مصر ثورات عاتية بعد وفاة الأخشيد. فقد ثار والي الأشمونين، المعروف باسم غلبون بن سعيد المغربي، واستبدَّ بالأمر في منطقة نفوذه حتى شكا منه التجار وأذاعوا أنه يريد أن يثور بها، فأرسلت إليه الحكومة الأخشيدية قوة عسكرية لإخماد ثورته بقيادة شادن الأخشيدي، وذلك في (جمادى الآخرة ٣٣٥هـ/ كانون الثاني ٩٤٧م)، غير أنه كمن لها وقتل كثيراً من أفرادها ونجا قائدها الذي عاد إلى الفسطاط[٤].

أتاح هذا النصر لغلبون أن يزحف إلى الفسطاط للاستيلاء على السلطة في الوقت الذي أرسلت فيه الحكومة الأخشيدية جيشاً آخر للقضاء على ثورته، غير أنه خالف الجيش في الطريق واستطاع الوصول إلى الفسطاط، فدخل دار الإمارة، وفرَّ أنوجور وأنصاره منها ومن بينهم محمد بن علي الماذرائي، فطاردهم أنصار غلبون، فأدركوا

(١) الأنطاكي: ص١٢٨. (٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٨٨.
(٣) زيود: ص٣٣٨. (٤) الكندي: ص٢١٢.

الماذرائي وقد سقط عن بغلته، فأتوا به إلى غلبون، فأكرمه وفوَّض إليه تدبير الأمور بفعل خبرته[1].

لكن الجيش الأخشيدي بقيادة الحسن بن طغج اصطدم به في الفسطاط وهزمه وطرده منها، فخرج إلى الشرقية، فطارده الجند الأخشيديون، وجرت بين الطرفين معركة ثانية انتهت بقتل غلبون في (ذي الحجة ٣٣٦هـ/ حزيران ٩٤٨م). وشُغلت الدوائر الحكومية، والمجتمع المصري بهذه الثورة، فاضطربت الأمور في هذا العام حتى تعذَّر على الناس الذهاب إلى الحج[2].

وازدادت الحالة الداخلية خطورة حين وصلت الفوضى إلى مرحلة تعذَّر معها وجود والٍ أو أمير مدة شهر، بفعل عدم سماح كافور بتنصيب أحمد بن علي بن الأخشيد بعد وفاة أبيه، متذرعاً بصغر سنه، ثم استبدَّ كافور بالسلطة، فانقسم الجند إلى طائفتين: الكافورية، الموالية لكافور، والأخشيدية، وقد ساند أفرادها أسرة الأخشيد، كما مرَّ معنا، وقد أثّر هذا الانقسام على معنويات الجند، فانخفضت درجة الانضباط، وتراجعت القوة القتالية للجيش الأخشيدي.

استمرت الحالة السيئة بعد وفاة كافور، وبدا واضحاً أن الضعف بدأ يدب في جسم الدولة الأخشيدية، ولم يكن للخليفة المطيع من القوة ما يمكِّنه أن يُولِّي على مصر من يشاء، لذلك اجتمع رجال الدولة لاختيار شخص تتفق ميوله مع تطلعاتهم، فوقع الاختيار على أبي الفوارس أحمد بن علي بن الأخشيد، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وعُيِّن الحسن بن عبيد الله بن الأخشيد وصياً عليه أو ولياً لعهده. واستبدَّ الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات بتدبير شؤون دولته، فقبض على طائفة من كبار الموظفين وذوي الرأي، وصادر أملاكهم، غير أنه أخفق في تهدئة أوضاع البلاد في الوقت الذي ساءت فيه الأحوال المالية. وكانت المجاعة، والأوبئة، واضطراب الأمن، قد أفقدت الحكومة كل هيبة واستقرار، ولا سيما حين عجزت عن دفع رواتب الجند، وعن جمع الضرائب، وتفاقمت الثورات، وتمنى الناس الخلاص مما هم فيه. ومما زاد الأمور تفاقماً، هزيمة الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد أمام القرامطة، الذين استولوا على الرملة، فانسحب الحسن إلى مصر، وقبض على الوزير ابن الفرات، وعزم على أن يتولى الأمور بنفسه، لكنه ما لبث أن أطلق سراحه، وفوَّض إليه الحكم وعاد إلى بلاد الشام.

وأدَّت الحالة الاقتصادية المتدهورة دوراً آخر في تراجع قوة الأخشيديين. فقد شهدت مصر منذ عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) حالات من الجفاف استمرت تسعة أعوام،

(١) الكندي: ص٢١٣. (٢) المصدر نفسه.

سببها نقص في فيضان النيل، ونتج عنها اختفاء القمح واضطراب الأسعار، «وتزايدت أثمان الحبوب والأقوات، واقترن بذلك وباء عظيم، وهلك الضعيف من الناس وأكلوا الميتة والجيف، وكانوا يسقطون موتى من الجوع، وزاد الوباء وكثر الموت، ولم يلحق دفنهم، وكان يُحفر لهم حفراً ويرمى فيها عدَّة كثيرة، ويُردم عليهم التراب»[1]. وثقلت وطأة الضرائب على السكان وبخاصة في تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل، فاستغل المعز هذه الأوضاع المضطربة ووجه جيوشه للاستيلاء على مصر.

تغلغل الدعوة الفاطمية في المجتمع المصري

ثمة حقيقة هامة وهي تمكُّن الفاطميين من اختراق الجبهة الداخلية في مصر، واستقطاب بعض المصريين وجذبهم إلى الدعوة الفاطمية. والواضح أنه عندما أسس الفاطميون دولتهم في إفريقيا، كانت هذه الدعوة تنتشر في مصر وبلدان المشرق الإسلامي. وحاول الحكام الفاطميون الأوائل، وبخاصة عبيد الله المهدي والقائم، نشرها في مصر عن طريق الدعاية، فجنَّدوا الدعاة في صفوف قواتهم الغازية وعهدوا إليهم أن يختلطوا بالناس، وينشروا بينهم تعاليم المذهب الإسماعيلي، فأسس هؤلاء نواة لقاعدة شعبية موالية لهم، وسرعان ما أضحى بمصر عدد غير قليل من الموالين للمذهب المذكور.

وكان الفاطميون قد عمدوا في بداية دعوتهم إلى تعيين دعاة مستقرين ونشروهم في الأقاليم ذات المواقع المهمة فيما عُرف بجزر الدعوة، وكانت مصر من بين أهم هذه الجزر. فقد استقر فيها أبو علي الداعي الذي ساعد عبيد الله المهدي على الهرب إلى إفريقيا في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م). وأسس هذا الداعي مدرسة في مصر عُرفت بإخلاصها للفاطميين، وشجَّع تلامذتها عبيد الله المهدي على غزو هذا البلد. وبفضل هؤلاء الدعاة أضحى في مصر عدد غير قليل من الأنصار الذين شجَّعوا بدورهم المعز الذي خلف إسماعيل المنصور (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م) على غزو مصر والاستيلاء عليها. ويبدو أن بعض المصريين كانوا أكثر استعداداً لتقبُّل المذهب العلوي بسبب ميلهم إلى علي بن أبي طالب، والتفافهم حول واليه محمد بن أبي بكر[2].

(١) الأنطاكي: ص١٢٢.

(٢) حسن، إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب: ص٦٩، ٧٠.

وكان الدعاة الفاطميون يعملون في مصر منذ سقوط الدولة الطولونية، وازداد اتصالهم بوجوه مصر منذ قيام الدولة الأخشيدية، من ذلك أن الوزير محمد بن علي الماذرائي اتُهم، حين كان معزولاً في قبضة الفضل بن جعفر بالشام، بأنه كاتب القائم الفاطمي وزيَّن له فتح مصر[١]، وأن أبا الطاهر الذُهلي، الذي تولى قضاء مصر عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م)، ناظر رسولاً قدم إلى مصر من قِبل الفاطميين[٢]، وأن أبا جعفر أحمد بن نصر شيَّد داراً كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب[٣].

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار المذهب الإسماعيلي، ما كان ينتهجه الحكام الفاطميون مع ولاة مصر. فقد اتصل القائم بمحمد بن طغج الأخشيد أكثر من مرة، وحاول استقطابه وإثارة سخطه على العباسيين[٤]، وعلى الرغم من مماطلة الأخشيد في الرد عليه، فإن حُسن استقباله للمبعوث الفاطمي يُوضِّح ما يكُّنه من تقدير للقائم والدولة الفاطمية، وبخاصة بعد أن تعرَّض لمضايقة الخليفة العباسي الراضي الذي أرسل قائده ابن رائق ليستولي على مصر منه، ما دفعه إلى إعطاء الأمر للخطباء بوقف الخطبة للعباسيين والدعوة لأبي القاسم القائم صاحب إفريقيا، على أن إقامة الخطبة للفاطميين لم تتحقَّق لأن مستشاريه نصحوه بعدم الإقدام على هذه الخطوة حتى لا تزيد من سخط الخلافة العباسية، وتثير ابن رائق الطامع في مصر، كما ذكرنا.

والواقع أن محمداً بن طغج الأخشيد حاول التقرب من الفاطميين لا حباً بهم، ولكن خشية على نفوذه وسلطانه منهم، وكأنه أراد أن يحول دون تدخلهم في شؤونه الداخلية، إلا أنه تمادى في سياسة التقارب معهم حين عرض على القائم أن يزوج ابنته من ابنه إسماعيل المنصور، وعلى الرغم من أن هذا الزواج السياسي كان يخدم مصلحة الطرفين، إلا أنه لم يتم ما كان سبباً في توتر العلاقة بين الجانبين[٥].

والحقيقة أن الدعوة الفاطمية صادفت رواجاً في مصر إلى الحد الذي قسَّم المجتمع المصري والجيش إلى طائفتين متعارضتين في التوجه المذهبي، ولولا ما ساد الدولة الفاطمية من اضطراب بسبب ثورة أبي يزيد التي شغلت الفاطميين طوال عهد القائم وشطراً من عهد إسماعيل المنصور؛ لظهرت آثار تلك الدعاية في وقت مبكر، وتمَّ الاستيلاء على مصر قبل عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) بزمن طويل[٦].

(١) ابن سعيد: ص١٧٦.
(٢) ابن الزيات، شمس الدين أبو عبد الله، الكواكب السيارة: ص٦٣.
(٣) ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم: أخبار سيبويه المصري: ص٤٠.
(٤) ابن سعيد: ص١٧٥، ١٧٦. (٥) المصدر نفسه: ص١٧٦، ١٧٧.
(٦) حسن وشرف: ص٧١.

على أن المعز أخذ يُرسل جيوشه ودعاته إلى مصر، فاحتلَّت إحدى فرقه العسكرية بعض الواحات المصرية في عهد ولاية كافور، كما بعث نفراً من الدعاة لتهيئة الأجواء الداخلية للتغيير السياسي والمذهبي المرتقب. وعلى الرغم من أن الحملة العسكرية لم تُحقق أهدافها المرجوة منها، فإن الحملة الدعائية صادفت نجاحاً لا سيما بين الكافورية والأخشيدية وغيرهما من الطوائف، حتى أن كافوراً نفسه تأثَّر بهذه الدعاية الفاطمية، وأولى احترامه وعطفه وتقديره للمعز، لكنه مع ذلك لم يرض بزوال نفوذه، ورأى من حسن السياسة ألا يدين بالطاعة للفاطميين، وبذلك يكون قد شكَّل عقبة أمام التمدد الفاطمي باتجاه مصر والمشرق الإسلامي بدليل أن العلويين في مصر أرسلوا كتاباً إلى المعز يقولون فيه: «إذا زال الحجر الأسود، يعنون كافور، ملك مولانا المعز الدنيا كلها»[١].

يتضح لنا من هذا مدى تأثير الدعاية الفاطمية في مصر على الصعيدين الحكومي والشعبي، كما يتضح صدق ما قاله المعز لأصحابه قبل أن يرسل جيوشه للاستيلاء على هذا البلد بقليل: «إني مشغول بكتب ترد عليَّ من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي»[٢]. وعليه، كان سقوط مصر في أيدي الفاطميين متوقعاً لدى الخاص والعام، وأن العساكر وكبار الموظفين كانوا على علم بذلك[٣].

هيَّأ هذا التغلغل الفاطمي، في صميم الحياة المصرية، الجو لحدوث اصطدامات بين أنصار الفاطميين من الشيعة وبين أهل السنة بلغت ذروتها يوم عاشوراء في (١٠ محرم ٣٥٠هـ/ أول آذار ٩٦١م)، وكان الجنود السودان والأتراك السنة يسألون من يقابلونه: «من خالك؟» فإن لم يقل معاوية، ضربوه. وطاف أحد المتحمسين من السودان في الطرق وهو يصيح «معاوية خال علي»[٤] وأضحت هذه العبارة عنواناً للتمييز بين السنة والشيعة. وكانت الحكومة تسعى جاهدة للمحافظة على النظام، لكن الأمور أفلتت من يدها في هذه القضية. وعندما ورد الخبر بقيام بني الحسن في مكة، ومحاربتهم الحجاج، اجتمع كثير من المصريين بكافور في الميدان بظاهر مدينة الفسطاط، وضجُّوا، وصاحوا: «معاوية خال علي»، وطلبوا منه أن يُرسل قوة عسكرية لنصرة الحجاج على الطالبيين.

وهكذا، فإن الاضطراب السياسي في مصر، وسوء الحالة الاقتصادية، وانتشار الدعوة الفاطمية، كل ذلك حمل أولي الرأي في البلاد على الكتابة إلى المعز يطلبون

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: جـ١ ص١٠٢.
(٢) المصدر نفسه: ص٩٥. (٣) حسن وشرف: ص٧٢، ٧٣.
(٤) المقريزي: خطط: جـ٢ ص٣٢٩.

منه القدوم إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التي دبَّت فيها منذ أن اختفت شخصية كافور، واستجاب المعز لهذا الطلب[1].

استيلاء الفاطميين على مصر وسقوط الإمارة الأخشيدية

استعدادات التجهيز

استفاد المعز من تجارب الماضي، فحرص على تجنُّب ارتكاب الأخطاء نفسها التي ارتكبها آباؤه عندما حاولوا الاستيلاء على مصر، فانتهج أسلوباً مختلفاً، معتمداً على دعاته فيها الذين هيَّؤوا له الأرضية الداخلية، كما كثَّف اتصالاته مع بعض أصحاب النفوذ فيها الذين لم يُخفوا مشاعر ولائهم للفاطميين.

وبدأت منذ عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) استعدادات التجهيز، فأرسل قوة عسكرية استطلاعية إلى مصر في العام التالي، هاجمت واحة سيوة المصرية، ووقف أفرادها على مدى صلاحية الطريق التي ستسلكها الفرق العسكرية إلى مصر[2].

ولما كانت مصر بعيدة نسبياً عن إفريقيا، أمر المعز عامل برقة أفلح الناشب، بحفر الآبار على الطريق بينها وبين تونس، وتمهيدها لسير الحملات العسكرية، وأنشأ في كل منزلة[3] قصراً[4]، وبنى السفن اللازمة للمشاركة في الحملة، ومساندة القوات البرية، وشهد ميناء المهدية نشاطاً كثيفاً. فبنى حسين بن يعقوب متولي البحر، عشرة صنادل من القارب الكبير[5]، وأجبر سكان بعض المدن الصقلية على تزويد دار الصناعة بالعود[6]، واتخذ المعز تدابير استثنائية لتأمين الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة منها:

- عيَّن جوهراً الصقلِّي قائداً للحملة ومتصرفاً في أموال الدولة ومراقبتها لتوفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة، وأمره بالاتصال بالكتاميين في مناطق القبائل الصغرى، والمناطق الأخرى في المغرب، لحشد الجنود، وجبي الضرائب المفروضة على البربر، ولم يرجع جوهر إلا في (محرم ٣٥٨هـ/ كانون الأول ٩٦٨م)، مصطحباً معه الرجال ومحملاً بالأموال التي بلغت أربعة وعشرين ألف ألف دينار[7].
- ذهب بنفسه إلى المهدية وجلب من قصر آبائه خمسمائة حمل من الذهب[8].

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة: ص١٣.
(٢) حسن وشرف: ص٨٢. (٣) المنزلة هي المرحلة.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا: جا ص٩٦، والقصر هو بناء للاستراحة.
(٥) سيرة جوذر: ص٩٨. (٦) العود هو الخشب.
(٧) المقريزي: جا ص٩٧. (٨) سيرة جوذر: ص١٣٩.

- عيَّن نصير الصقلبي، الخازن بالمنصورية، عاملاً على طرابلس الغرب، فأمَّن له مبلغاً كبيراً من المال من مداخيل الجباية للإنفاق على الأسطول وبحارته[1].

وساهم الحاجب جوذر مساهمة فعَّالة في هذا المجهود، فدفع إلى خزينة الحرب كل ما توفر عنده من حسن نظره في شيء باعه من الخزائن، واستخرج بقايا الأموال، الجباية، على ما أضاف إلى ذلك من مال من نفسه عملاً وتقرباً، وكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار واثنين وعشرين ألف درهم[2].

بعد أن أمَّن الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة، جنَّد المعز أعداداً هائلة من أنصاره من القبائل البربرية، وبخاصة كتامة وزويلة بالإضافة إلى الصقالبة، بلغ تعدادها مائة ألف مقاتل[3]، وعسكر هذا الجيش الجرار في رقَّادة تمهيداً للانطلاق إلى وجهته. وتفقَّد المعز هذا المعسكر واستعرض الجيش ومنح أفراده رواتبهم التي تراوحت بين ألف دينار وعشرين ديناراً تبعاً لرتبهم، لحثِّهم على التفاني في القتال. ومنح القائد جوهر الصقلي ثقته الكاملة، وفوَّضه بسلطات عسكرية وسياسية ومالية مطلقة، وأضفى عليه هالة من الاحترام والتقدير، فأمر أولاده وإخوته وولي عهده وكبار رجال دولته، بالترجل بين يديه، وأن يمشوا في خدمته وهو راكب، كما كتب إلى سائر عماله يأمرهم بأن يترجَّلوا مشاة في خدمته إذا قدم عليهم[4]. كان لهذه الثقة الكبيرة لشخص جوهر، أثر شديد في نفسه ما جعله يتفانى في القتال ليكون عند حسن ظن المعز به.

عاد المعز بعد ذلك، إلى المنصورية، فاستدعى عدداً من شيوخ كتامة، وأمرهم بالتزام الهدوء بعد خروج الجيش، وبشَّرهم بفتح المشرق، وخاطبهم قائلاً: «نحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم، واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يُقرِّب الله علينا أمر المشرق كما قرَّب أمر المغرب»[5].

ولعل مجموع ما أنفقه المعز على تجهيز جيش جوهر الصقلي، وخروجه بنفسه ومعه ولي عهده وكبار رجال دولته، لوداعه، وحرصه على الاختلاء به، ولفت نظره إلى أهمية ما هو مقدم عليه؛ يدل على مدى الأهمية التي كان يعلِّقها على الاستيلاء على مصر.

لم يقرر المعز في آخر الأمر، القيام بحملته العسكرية للاستيلاء على مصر إلا عندما ظهر في الأفق السياسي حادثان: **الأول**، وفاة كافور الأخشيدي، **والثاني**، تأزم العلاقة بينه وبين قرامطة البحرين.

---

(١) سيرة جوذر: ص١١٩. (٢) المصدر نفسه: ص٩٢.
(٣) عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار السبع ٤ ـ ٦ ص١٣٧.
(٤) المصدر نفسه: ص١٣٩. (٥) المقريزي: جا ص٩٥، ٩٦.

ففيما يتعلق بالحادث الأول، فقد شجَّعت وفاة كافور، المعز على غزو مصر وبخاصة بعد حال الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي الذي شهده هذا البلد.

وفيما يتعلق بالحادث الثاني، فقد ساءت علاقة المعز بفرع القرامطة في البحرين بوصفه إمام الطائفة الإسماعيلية. فمنذ أن تولى الإمامة ازداد تفوق النزعة المناهضة لأصحاب إفريقيا بين القرامطة الذين كان يمثلهم أحمد بن سعيد الجنَّابي وابنه الحسن الأعصم. وسعى أحمد إلى تمتين علاقته ببني بويه وبني حمدان، مظهراً بذلك انحراف الحركة القرمطية انحرافاً كلياً عن الخط الفاطمي. وراح القرامطة يتصرفون بمعزل عن الإدارة المركزية في إفريقيا، وضد مصالح الفاطميين. ومما لا شك فيه أن المعز أراد السيطرة على القرامطة ليستعين بهم في تنفيذ مشروعاته الشرقية[1]. ففي عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) قام الحسن الأعصم بغارات على بلاد الشام، وعجز الأخشيديون عن صدِّه لانهماكهم بأوضاعهم الداخلية المضطربة، ومواجهة الضغط الفاطمي الواقع عليهم[2]. وتجدَّدت الغارات في عام (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) في عهد وصاية كافور، ثم في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) بعد وفاة كافور حيث تغلَّب القرامطة على الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد والي الشام، كما ذكرنا، من دون أن يرجعوا في ذلك إلى المعز، ما يدل على أن هذه الجماعة كانت تعمل بشكل مستقل ولحسابها الخاص. وأدرك المعز منذ ذلك التاريخ، استحالة الاعتماد على البيت القرمطي، وأن القرامطة أضحوا عقبة في طريق توسعه باتجاه الشرق، وخطراً يهدِّد انتشار الدعوة الإسماعيلية في المشرق، وخشي إن هم تمركزوا في جنوبي بلاد الشام، فقد يتحولون إلى مصر ويستولون عليها قبله.

ولا شك بأن هذا التسرب القرمطي المحتمل باتجاه مصر عن طريق جنوبي بلاد الشام، بعد وفاة كافور، قد دفع المعز إلى الإسراع بالاستعداد للحرب ليسبقهم إلى الأراضي المصرية، وأدرك أن الوقت قد حان للفاطميين لغزو هذا البلد والزحف من جديد باتجاه المشرق[3].

السيطرة على الإسكندرية

انطلقت الحملة من إفريقيا يوم السبت (١٤ ربيع الآخر ٣٥٨هـ/ ٧ آذار ٩٦٩م)، فتقدم جوهر ببطء باتجاه الإسكندرية، وسانده أسطول بحري، ولم يصل إلى حدود الدولة الأخشيدية إلا بعد ثلاثة أشهر[4]. وعندما انتشر خبر هذا الزحف في

(١) الدشراوي، فرحات: الخلافة الفاطمية في المغرب: ص٣٧٧.
(٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص٣٢٦. (٣) الدشراوي: ص٣٧٨.
(٤) عماد الدين: ص١٣٩.

الفسطاط، اضطرب الوضع، واستعد أنصار الفاطميين لاستقبال ذلك القائد بنشر المعلومات التي وزَّعها عليهم الدعاة، ليقيموا الدليل على خضوع المصريين الذين يقاسون من الفوضى والجوع منذ عهد بعيد. ولما لم يصادف جوهر الصقلي مقاومة تذكر، أمر جنده بعدم التعرض للسكان، واستطاع بحنكته أن يستقطب أهل الإسكندرية، ويتألف قلوبهم بما أجزل لهم من المال[1].

الاستيلاء على مصر

أدرك المسؤولون في مصر، وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات، أنه لا طاقة لهم بمقاومة الجيش الفاطمي الجرَّار، فجمع هذا الوزير وجوه القوم للتداول في الأمر، وكانت رسل جوهر الصقلي ترد إليه سراً[2]. واتفق الجميع على تجنُّب اتخاذ أي موقف عدائي، والميل إلى التفاوض في شروط التسليم، وطلب الأمان لأرواح المصريين وأموالهم وأملاكهم، فشكَّلوا وفداً من أجل هذه الغاية برئاسة أحد الشيعة من الفرع الحسيني هو أبو جعفر مسلم، وقد اختاروه بفعل قرابته من الأسرة الفاطمية، وقد دلَّ هذا الاختيار على الحنكة السياسية لأن ذلك كان من العوامل التي أدَّت إلى إجابة جوهر الصقلي لمطالبهم.

خرج أعضاء الوفد من الفسطاط يوم الاثنين (١٨ رجب/ ٦ حزيران) وشايعهم كل قائد وكاتب وعالم وشاهد وتاجر[3]، ما يدل على أن فكرة المقاومة من جانب المصريين كانت شبه معدومة، وكان معنى ذلك أن جوهراً الصقلي كاد يستولي على مصر من دون إراقة دماء، ما يُعدُّ نصراً مؤزَّراً.

اجتمع أعضاء الوفد بجوهر الصقلي في تروجة القريبة من الإسكندرية، وجرت بين الطرفين مباحثات اتفقا بنتيجتها على كتاب الأمان الذي كتبه جوهر الصقلي وأعلنه للمصريين[4]، ويمثل مضمونه أهمية مزدوجة، فهو شهادة بليغة على براعة الدعاية التي أراد جوهر الصقلي أن يستقطب بها أهل مصر المتمسكين بالمذهب السني، إلى القضية الفاطمية من جهة، ويُحدِّد، من جهة أخرى، السياسة التي يعتزم القائد الفاطمي انتهاجها في مرحلة انتقالية ريثما يتدعَّم النظام الجديد[5]، وتقوم هذه السياسة على أربع دعائم:

(١) حسن وشرف: ص٨٥. (٢) المقريزي: جـ١ ص١٠٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) انظر: نص الكتاب في المقريزي: جـ١ ص١٠٣ ـ ١٠٦.
(٥) الدشراوي: ص٣٨١، ٣٨٢.

الأولى: داخلية: فقد أراد جوهر الصقلي أن يُهدِّئ نفوس المصريين، فمنحهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وبلادهم، وشمل هذا الأمان الفئات كافة من جنود ومدنيين، مسلمين ونصارى، وتعهَّد لهم بأن يُحقِّق العدل، وينشر السلام والطمأنينة بينهم، ويعين المظلوم، مع الشفقة والإحسان.

الثانية: خارجية: وتقضي بالتصدِّي لخطر القرامطة الذين غزوا بلاد الشام أكثر من مرة، ومنعوا الحجاج من أداء فريضة الحج، بالإضافة إلى مواجهة البيزنطيين الذين هاجموا شمالي بلاد الشام واستولوا على كثير من مدنه، كما غزوا شمالي العراق، وعبروا دجلة، متجنباً الكشف عن مطامع مخدومه التوسعية. ذلك أن المسلمين في المشرق الإسلامي قد أضحوا منذ عهد بعيد، عرضة لمساوئ القرامطة والبيزنطيين بسبب تقاعس العباسيين، وتبعاً لذلك، فإن مهمة الجيش الفاطمي تتمثَّل في محاربة العدو وتخليص أهل المشرق من الرعب، وتمكينهم من أداء فريضة الحج آمنين مطمئنين، وإعادة الأمن إلى نصابه في البلاد.

الثالثة: دينية: أخذ جوهر الصقلي على نفسه في ذلك العهد تحقيق تطلعات الفاطميين الدينية، واعترف في الوقت نفسه بالحرية الدينية للمصريين، وبأن يقوم بإصلاح ديني شامل من بناء المساجد وإصلاحها، ومع ذلك لم يتوان عن الإشادة بالأئمة الشيعة وتمجيدهم، وأنهم أحق بالخلافة من سواهم. وهو، بالتزامه العمل على احترام مبدأ التسامح، أزال مخاوف المتمسكين بالمذهب السني، وفنَّد بصورة غير مباشرة التهم الموجهة إلى الفاطميين بدعوى أنهم قد حرَّفوا الدين، وأدخلوا بدع عدة مكروهة في الشعائر الدينية، ولا شك بأنه أخفى نواياه الحقيقية، لأن الظروف لم تكن تسمح بالدعوة إلى العقيدة الإسماعيلية، ولا بفرض الشعائر الدينية على النحو المطبق في إفريقيا، وكان همُّه الأساسي عدم إزعاج أناس متعلقين بالمذهب السني[1].

الرابعة: إدارية: تعهَّد جوهر الصقلي للمصريين بأن يقوم بإصلاح شامل في إدارة البلاد بالضرب على أيدي العابثين من قطاع الطرق، وضبط السكة بعدم غشها أو تزييفها.

وفي مقابل منح الأمان للمصريين، قيَّد جوهر الصقلي الوفد المصري بقيود يستطيع من خلالها أن يدخل حاضرة البلاد مطمئناً، فأخذ عليهم العهود والمواثيق أن يذيعوا نصوص الاتفاق بين الخاص والعام، وأن يضمنوا عبور جيشه من الجيزة إلى الفسطاط وذلك بالخروج إليه، والسير في ركابه حتى يعبر الجسر وينزل الفسطاط[2].

(١) الدشراوي: ص٣٨٣ ـ ٣٨٤. (٢) المقريزي: جا ص١٠٦.

وما إن همَّ أعضاء الوفد بمغادرة المعسكر الفاطمي حتى علموا بخروج بعض فئات من الجيش الأخشيدي في الفسطاط، وعزمهم على التصدِّي للزحف الفاطمي. ذلك أن بعض الكافورية والأخشيدية عزَّ عليهم أن يستولي جوهر الصقلي على مصر بتلك السهولة، وأن يزول نفوذهم بدخول الجيش الفاطمي. ولما كانت الجندية مصدر رزقهم ونفوذهم وهيبتهم عزموا على الوقوف في وجهه، وامتنعوا عن طاعة كل ما جاء في عهد جوهر الصقلي، وأمَّروا عليهم نحرير شويزان، ثم نزلوا الجزيرة، وقطعوا جسور الجيزة، وانتظروا جوهراً وجيشه بمنية شلقان شرقي القناطر الخيرية، وهم على أهبة الاستعداد لمقاومة الجيش الفاطمي ومنعه من الدخول إلى الفسطاط[1].

وأُحيط جوهر الصقلي علماً بانتفاض الكافورية والأخشيدية، فأراد نقض عهده ثم تراجع بإلحاح من أبي جعفر، إلا أنه حصل على فتوى من قاضي القضاة أبي طاهر الذهلي تجيز قتال المتمردين[2]. وعندما وصل إلى الجيزة في (١١ شعبان/ أول تموز) أمر مساعده جعفر بن فلاح الكتامي بعبور النهر على رأس فرقة عسكرية فاصطدم بهم وتغلَّب عليهم، فانسحبوا إلى بلاد الشام. عبر جوهر الجسر المقام على النيل بين الجيزة والفسطاط يوم الثلاثاء (١٧ شعبان/ ٧ تموز) وعسكر شمالي القطائع، ووضع أساس مدينة القاهرة[3]، فأرسل إليه أبو جعفر كتاباً باسم سكان مصر يهنئه بالفتح ويسأله إعادة الأمان، فاستجاب لطلبه، ولما كان يوم الجمعة (٢٠ شعبان/ ١٠ تموز) صلّى جوهر الصقلي في الجامع العتيق، صلاة الجمعة، وخطب بالمصلين هبة الله بن أحمد، فلما بلغ الدعاء، قطع الخطبة للعباسيين، وقرأ الدعاء من رقعة كان جوهر قد حرَّرها، أبرز فيها اسم المعز وتلقُّبه بأمير المؤمنين، مقتصراً على ذكر أسلافه الأئمة في انتظار زيادة أسماء علي وفاطمة والحسن والحسين، بعد ذلك ببضعة أسابيع، وتضمَّن الدعاء أيضاً التوسل إلى الله بأن يورث الخليفة مشارق الأرض ومغاربها، وتنويهاً بالجهود المبذولة للجهاد في سبيل الله. وأزال جوهر أمر بني العباس عن السكة والبنود والرسوم وأحلَّ اسم المعز محل ذلك[4].

وهكذا زالت الإمارة الأخشيدية بعد أن عمَّرت ثلاثة وثلاثين سنة ميلادية، وبدأ العهد الفاطمي في مصر وامتدت الدولة الفاطمية، بذلك، من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، واقتربت من العالم الإسلامي الشرقي.

(١) عماد الدين: ص١٥٠، ١٥١. (٢) المصدر نفسه: ص١٥١.
(٣) المصدر نفسه: ص١٥٢.
(٤) المصدر نفسه: ص١٥٢، ١٥٣. المقريزي: جا ص١١٤ ـ ١١٦.

الباب الثالث

الإمارة الحمدانية في الموصل

٣١٨ - ٣٨٠هـ/ ٩٣٠ - ٩٩٠م

الفصل التاسع

الحمدانيون الأوائل

أصل الحمدانيين

ينتسب الحمدانيون إلى جدهم أبي العباس حمدان بن حمدون، من قبيلة تغلب العربية العدنانية، وهو أقدم فرد في هذه الأسرة له دور تاريخي، فكأن الأسرة الحمدانية تبدأ به. أنجب حمدان ثمانية أولاد هم: أبو إسحاق إبراهيم، أبو علي الحسين، أبو السرايا نصر، أبو الهيجاء عبد الله، أبو العلاء سعيد، أبو سليمان داوود[1]، أبو الوليد سليمان، وعلي[2]. اشتهر من هؤلاء الإخوة أبو الهيجاء عبد الله الذي أنجب ولدين هما الحسين ناصر الدولة، وهو مؤسس فرع الأسرة الحمدانية في الموصل، وعلي سيف الدولة وهو رأس الأسرة الحمدانية في حلب، أما الإخوة الآخرون فلم يكن لهم إلا أدوار ثانوية في تاريخ الأسرة.

كانت مساكن تغلب في الجاهلية هضاب نجد والحجاز وتخوم تهامة، ويبدو أن مواطنها قد ضاقت بها بفعل تكاثرها، ثم إن الحروب الطويلة والمتواصلة التي خاضتها القبيلة مع كل من بني بكر وبني يربوع من تميم وبني شيبان وبني سعد بن تميم؛ أجبرها على النزوح شمالاً إلى المجرى الأدنى لنهر الفرات في ديار ربيعة، وذلك في القرن السادس الميلادي، وتمركزت القبيلة في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي في وسط الجزيرة الفراتية بين قرقيسياء وسنجار ونصيبين والموصل شمالاً وعانة وتكريت جنوباً، وهي منطقة خصبة تتخللها أنهار الخابور ودجلة والفرات، كما تتميز بموقعها المتوسط بين الشرق والغرب، وكوَّنت جسراً يربط طرق المواصلات بين الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط، ما أتاح لها أن تشارك في الأحداث المهمة في تاريخ العراق وبلاد الشام[3].

---

(١) الأزدي، علي بن ظافر: أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور: ص١٢.

(٢) السامر، فيصل: الدولة الحمدنية في الموصل وحلب: ج١ ص٤٤.

(٣) قسَّم الجغرافيون المسلمون بلاد ما بين النهرين، الفرات ودجلة، إلى إقليمين: الأسفل الجنوبي والأعلى الشمالي، وسموا الإقليم الأعلى بالجزيرة؛ لأن أعالي دجلة والفرات تتخلَّل =

اعتنق بنو تغلب الديانة النصرانية في الجاهلية بفعل اتصالهم بالبيزنطيين، وظل أكثرهم على هذه الديانة بعد ظهور الإسلام. وبفعل موقع منازل القبيلة، في منطقة الصراع بين القوى الكبرى وقف بنو تغلب إلى جانب الفرس خلال الفتوح الإسلامية المبكرة، كما حاربوا الجيوش الإسلامية إلى جانب البيزنطيين، وحقَّق كل من خالد بن الوليد والمثنَّى بن حارثة الشيباني انتصاراً عليهم في معارك عدة، وما جرى بعد ذلك من انهيار الجبهتين الفارسية والبيزنطية في العراق وبلاد الشام، انعكس على وضع القبيلة التي خضعت للمسلمين في عهد عمر بن الخطاب، وعندما أراد أن يفرض على أفرادها الجزية أسوة بغيرهم من أهل الذمة، أخذتهم العزة وقالوا له: «يا أمير المؤمنين، لا تذلنا بين العرب واجعلها صدقة مضاعفة، ففعل». فقد «كتب عمير بن سعد إلى عمر بن الخطاب ﷺ يعلمه أنه أتى شق الفرات الشامي ففتح عانات وسائر حصون الفرات، وأنه أراد من هناك من بني تغلب على الإسلام فأبوه، وهموا باللحاق بأرض الروم، وقبلهم ما أراد من في الشق الشرقي على ذلك فامتنعوا منه وسألوه أن يأذن لهم في الجلاء واستطلع رأيه فيهم. فكتب إليه عمر ﷺ يأمره أن يضعِّف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض، وإن أبوا ذلك حاربهم حتى يبيدهم أو يسلموا، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة، وقالوا: أما إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج فإنا نرضى ونحفظ ديننا»(١). وصالحهم عمر بن الخطاب «على أن لا يصبغوا(٢) صبياً ولا يكرهوه على دينهم»(٣).

وناصر بنو تغلب الخليفة علي بن أبي طالب في بداية الأمر، غير أنهم ما لبثوا أن انحازوا إلى الأمويين، فحاربوا مع معاوية في صفين، ولعل مرد هذا التحول أنهم نقضوا العهد من واقع تعميدهم لأبنائهم ما دفع الخليفة إلى تهديدهم بالقتل والسبي(٤).

= سهوله، وقُسِّم هذا الإقليم بدوره إلى ثلاث ديارات هي: ديار ربيعة، وديار مضر، وديار بكر، وذلك نسبة إلى القبائل العربية ربيعة ومضر وبكر، التي نزلت في هذا المكان قبل الإسلام. وكانت الموصل قصبة ديار ربيعة، وتقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، وأهم مدنها: الحديثة، تل يعفر، سنجار، بلد، نصيبين، دارا، رأس العين، كفرتوثا وغيرها. وتقع ديار ربيعة شرقي ديار مضر، وتتألف من الأراضي شرقي نهر الخابور المنحدر من رأس العين والأراضي الواقعة شرقي نهر الهرماس. أما قصبة ديار بكر فهي آمد في أعالي دجلة، وأشهر مدنها: ميافارقين، حصن كيفا، تل خافان وغيرها. ومن أكبر المدن الفراتية: الرحبة، قرقيسياء، عانة، الحديثة وغيرها.

(١) البلاذري، الإمام أبو الحسن، فتوح البلدان: ص١٨٦.

(٢) يصبغوا: يُعمِّدوا. (٣) البلاذري: ص١٨٦.

(٤) المصدر نفسه: ص١٨٧.

وكان كثير منهم، في أيام عبد الملك بن مروان، ما زالوا يدينون بالنصرانية، وهو وضع ديني خاص كان يحتم عليهم اتخاذ مواقف معينة للدفاع عن النفس(١).

وعندما زالت الدولة الأموية التي أيَّدها بنو تغلب وساندوها، وحازوا في ظلها العطف والرعاية والمناصب المهمة، ضاع هؤلاء كغيرهم من القبائل في خضم الأحداث السياسية والعسكرية الكبرى التي تلت قيام الدولة العباسية، حيث ذاب الصراع القبلي بفعل اعتماد العباسيين على العناصر الأعجمية من فرس وترك وديلم وفراغنة ومغاربة، ولم يعد العنصر العربي سوى أحد العناصر التي يتألف منها الجيش العباسي.

والواقع أن الحمدانيين الذين انحدروا من بني تغلب استفادوا من تاريخ القبيلة الحافل بالنشاط السياسي والعسكري، بالإضافة إلى الظروف السياسية التي نشأت في العصر العباسي الثاني، فعمدوا إلى إنشاء قوات عسكرية خاصة مكَّنتهم من تأسيس إمارتين في الموصل وحلب.

بروز حمدان بن حمدون على المسرح السياسي

برز الحمدانيون على مسرح الحياة السياسية في مطلع النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، حيث شارك زعيمهم حمدان بن حمدون في الأحداث السياسية في الموصل التي أثارها الخوارج والولاة العباسيون، وهو يطمع في الاستئثار بالسلطة أسوة بما كان يجري في ولايات الأطراف، وكان قد وحَّد عشيرته وأضحى مرهوب الجانب.

كانت الحركة الخارجية قد انقرضت من العراق وما جاوره في العصر العباسي الثاني باستثناء فتناً محلية محدودة سرعان ما أُخمدت. وغدا مذهب الخوارج مجرد فرقة من الفرق الدينية ليس لها نشاط ملحوظ أو انتشار واسع، نذكر من بين هذه الفتن تلك التي قام بها مساور بن عبد الحميد البجلي الموصلي، ولا يبدو أن لخروجه علاقة بالناحية المذهبية بقدر ما ارتبط بالناحية الأسرية، ذلك أن حسين بن بكير، ملتزم شركة الموصل لبني عمران، وأمراء المدينة، قبضوا على ابن له يدعى حوثرة، وسجنوه بالحديثة، وكان حوثرة جميلاً فاستغله حسين لأغراض دنيئة، فكتب إلى أبيه يشرح له وضعه السيء، فغضب وخرج ثائراً، فهاجم الحديثة وأطلق سراح ابنه، فتصدَّى له عامل المدينة الحسن بن أيوب التغلبي بجيش ضخم كان حمدان بن حمدون أحد قادته، وهو صاحب النفوذ في الموصل وما حولها من القلاع(٢).

---

(١) السامر: جا ص٥٥. (٢) ابن الأثير: ج٦ ص٢٣٨، ٢٣٩.

استمر الصراع حول الموصل محتدماً بين مساور الخارجي والولاة العباسيين حتى مقتل مساور في عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٦ - ٨٧٧م) أثناء تصدِّيه لجيش عباسي كان قد خرج لوضع حد لثورته[١]، حيث تحوَّل إلى صراع بين الولاة العباسيين في ظل تراجع قوة الخوارج بفعل الانقسام الذي حصل آنذاك في صفوفهم.

واشترك حمدان بن حمدون في الأحداث التي جرت في عام (٢٦٦هـ/ ٨٧٩ - ٨٨٠م) متحالفاً مع إسحاق بن أيوب التغلبي ووالي الموصل علي بن داوود ضد إسحاق بن كنداج، الذي خرج على الخلافة بسبب إسنادها ولاية ديار ربيعة إلى أتامش وكان يطمع فيها، وجرى اللقاء بين الطرفين بالقرب من الموصل وأسفر عن انتصار ابن كنداج الذي استولى على الموصل وديار ربيعة، وفرَّ حمدان بن حمدون إلى نيسابور[٢].

والواقع أن حمدان بن حمدون لم يكن ليرضى أن يتولى غيره إمارة الموصل، لأنه يعدُّها منطقة نفوذ له، فجدَّد تحالفه مع إسحاق بن أيوب في العام التالي وانضم إليهما عيسى بن الشيخ، واصطدم الجميع بابن كنداج، غير أنهم تعرَّضوا للهزيمة، فهربا إلى نصيبين ثم إلى آمد، فتعقبهم ابن كنداج وهزمهم في معارك متفرقة حتى اضطرهم إلى طلب الأمان، فمنحهم إياه وأقرَّهم على ما بأيديهم[٣].

وكان الخوارج قد انقسموا بعد وفاة مساور في ظل الصراع على الزعامة بين هارون بن عبد الله البجلي ومحمد بن خرزاد الشهرزوري، ففاز الأول وانفرد بزعامة الخوارج بفضل مساندة بني تغلب له، فكثر أتباعه وغلب على القرى والرساتيق وجبى خراجها[٤].

والواقع أن التحالف بين حمدان بن حمدون وهارون بن عبد الله البجلي كان متيناً واستمر أعواماً طويلة نسبياً، بالمقارنة مع تدني قيمة العهود والمواثيق لدى قادة العصر، لأن الارتباطات كانت تقوم على مصالح آنية تزول بمجرد زوالها[٥]. ففي عام (٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) دخلا الموصل، وصلّى هارون بجماعته في المسجد الجامع[٦].

وما حدث في عام (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) من عبور بني شيبان الزاب قاصدين نينوى من أعمال الموصل، للإغارة عليها وعلى بلد، الواقعة شمالي الموصل على بعد سبعة فراسخ، ما شكَّل خطراً على وضع هارون بن عبد الله البجلي ودفعه إلى محاربتهم، فالتمس مساعدة حمدان بن حمدون وانضم إليه متطوعة أهل الموصل وغيرهم، وعبر

---

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٤٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٦٨، ٣٦٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٦٩.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٤٨.
(٥) السامر: جـ١ ص٧٤.
(٦) الطبري: جـ١٠ ص٩.

الجميع إلى الجانب الشرقي وساروا إلى نهر الخابور حيث منازل بني شيبان، فاصطدم الطرفان واقتتلوا، فانهزمت بنو شيبان وتبعهم حمدان والخوارج، وملكوا بيوتهم وانهمكوا بالنهب، فاستغل الشيبانيون هذه الفرصة وكروا عليهم وهزموهم، وقُتل كثير من أهل الموصل ومن معهم[١].

والواضح أن أهل الموصل شعروا بالأمان في ظل حكم هارون، وهم الذين افتقدوا إلى سلطة رسمية تحميهم وتدافع عنهم، نظراً لضعف الخلافة وانهماك والي الموصل ابن كنداج في صراعه مع القادة الأتراك ومع الخلافة، ومع الطولونيين، بهدف توسيع أراضيه في إقليم الجزيرة الفراتية، والمعروف أنه كان يقيم خارج الموصل ويرسل نواباً عنه لحكمها أغلبهم من بني شيبان، الأمر الذي كان يثير الخوارج وحمدان التغلبي وسكان الموصل.

بعد هذا العرض السريع للأحداث التي جرت على أرض الموصل والتي شاركت فيها الأسرة الحمدانية مشاركة فعالة، يمكن رصد الملاحظات التالية[٢].

- تراجع النشاط الاقتصادي بفعل ما أحدثه الصراع من خراب ودمار، حيث اضطر السكان إلى التوقف عن زراعاتهم وصناعاتهم لانعدام الأمن، فقلَّت الأموال التي كانت تُرسل إلى دار الخلافة، وشعر الخليفة المعتضد بذلك ما دفعه إلى الخروج بنفسه لإخماد تلك الفتن.

- أهمية موقع الموصل السياسي والعسكري، والمعروف أنه ارتفع شأن هذه المنطقة في العهد الأموي، حيث كان الأمويون يولُّون عليها من يعتني بعمرانها، كما بنوا جسراً يربط الجانب الغربي من المدينة بخرائب نينوى على جانبها الشرقي، وأصبحت الموصل في أيام مروان الثاني، آخر الخلفاء الأمويين، قاعدة إقليم الجزيرة، وبنى فيها الجامع الذي عُرف فيما بعد بالجامع العتيق.

- سكن الموصل كثير من القبائل العربية التي شاركت في الفتوح، مثل إياد والنمر وتغلب، وظلَّت هجرات العرب إليها لا تنقطع. واعتنقت هذه القبائل أفكار الخوارج والقرامطة، فأضحت بؤرة للفتن ومركزاً للعصيان ضد الخلافة، كما راحت تتنافس فيما بينها على السيادة، وخاضت الحروب الطويلة من أجل ذلك.

- فرض التكتل الخارجي الذي ضمَّ، بالإضافة إلى الخوارج، العرب من القبائل المستقرة والبدوية، والأكراد؛ نفسه على مجتمع الموصل المدني. وقد تقبَّل هذا المجتمع الواقع السياسي الجديد بفعل أن عناصره ضاقوا ذرعاً بولاة العباسيين

---

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٦٨، ٤٦٩.
(٢) عدوان، أحمد: الدولة الحمدانية: ص٨٦ - ٨٩.

وقادتهم الذين أساءوا السيرة وارتكبوا الأعمال المشينة، وتشدَّدوا في طلب الخراج على الغلات، وصادروا الأموال، فكرهوهم وانحازوا إلى الخوارج، فاطمأنوا إليهم، وفتحوا لهم مدينتهم أملاً في التخلص من حكامهم الظالمين أمثال عبد الله بن سليمان بن عمران الأزدي وأذكوتكين، وشعروا بالأمان في ظل حكمهم، ولا يعني ذلك أنهم تحوَّلوا إلى المذهب الخارجي. وأدرك الخليفة المعتمد خطورة ما يجري في الموصل، فعيَّن عليها عاملاً من أهلها هو الخضر بن أحمد التغلبي الذي أعاد الهدوء إلى المدينة وبثَّ الطمأنينة في نفوس أهلها[١].

ـ اتصف الولاة العباسيون بالطموح السياسي، فهم لم يألوا جهداً في الحصول على الحظوة لدى الخليفة تمهيداً للوصول إلى حكم الموصل والجزيرة، ولنا في الوالي إسحاق بن كنداج خير مثل على ذلك. فقد أخذ على عاتقه مهمة القضاء على الخوارج في عام (٢٦٧هـ/ ٨٨٠م) في خطوة للوثوب إلى السلطة بدليل أنه راح يساوم العباسيين وأعداءهم الطولونيين من أجل ذلك، إلا أنه فشل في تحقيق غايته، وترك نشاطه آثاراً سيئة في المنطقة.

نهض الخليفة العباسي المعتضد للقضاء على الفتن المنتشرة في أنحاء الجزيرة الفراتية، وهو الذي اتصف بالشدَّة والحزم حتى هابه القادة والناس، وكرَّس وقته في قمع الحركات المعارضة، والمعروف أن مصادر الاضطرابات كانت ثلاثة:

الأول: القبائل البدوية، وبخاصة بني شيبان الذين كانوا يهاجمون المدن ويقتلون ويسلبون.

الثاني: الخوارج.

الثالث: بنو حمدان، وعلى رأسهم حمدان بن حمدون الذي يطمع في تأسيس إمارة له، وتوافقت مصالحه مع مصلحة الخوارج ضد السلطة المركزية.

ففي (الأول من صفر ٢٨٠هـ/ ٢٢ نيسان ٨٩٣م) خرج المعتضد من بغداد على رأس الجيش ميمماً وجهه شطر الجزيرة الفراتية قاصداً بني شيبان في المكان الذي يجتمعون فيه، في الموصل وبلد، فلما بلغهم خروجه إليهم، وأدركوا عجزهم عن مواجهته، طلبوا منه الأمان والعفو، وجمعوا له الأموال وبذلوا له الرهائن، فأجابهم إلى طلبهم. وهاجم الخليفة بعض جماعات من الأعراب الذين كانوا يهدِّدون أمن الخلافة، عند السن، وقضى عليهم[٢].

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٣١. السامر: جـ١ ص٨٢، ٨٣.
(٢) الطبري: جـ١٠ ص٣٢، ٣٣. ابن الأثير: جـ٦ ص٤٧٦. والسن: مدينة على دجلة فوق تكريت. الحموي: جـ٣ ص٢٦٨.

وجدَّد الخليفة حملته في العام التالي قاصداً حمدان بن حمدون، بعد أن بلغه أنه استقلَّ بماردين ومالَ إلى هارون الشاري ودعا له[١]، فعدَّ ذلك تآمراً على الخلافة وإضعافاً لموقفها. ووجد العرب والأكراد في الجزيرة الفراتية أنفسهم يواجهون قوة الخلافة، فتحالفوا للتصدِّي لها على أن يقاتلوا على دم واحد، غير أن المعتضد هزمهم وطاردهم حتى أغرق كثيراً منهم في نهر الزاب، ثم توجّه إلى ماردين حيث اعتصم حمدان بن حمدون، فلما علم هذا بمسيره هرب ليلاً من القلعة تاركاً ابنه الحسين بها للدفاع عنها، وبعد حصار قصير استسلم الحسين، فاستولى المعتضد على القلعة ونقل ما فيها من أموال وهدمها[٢]، وأرسل قوة عسكرية طاردت حمدان بن حمدون، وظل مقيماً في الموصل حتى بداية عام (٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) وهو يخطط للقضاء على خصومه، مال خلالها إلى استعمال السياسة، فأرسل كتاباً إلى حمدان بن حمدون وإسحاق بن أيوب التغلبي يطلب منهما الاستسلام، فرفض الأول الاستجابة، ويبدو أنه كان في موقف قوي، فتحصَّن في قلعة باسورين بجوار الموصل، شرقي دجلة، في حين وافق الثاني[٣].

أدرك الخليفة عندئذٍ أن حمدان بن حمدون يرغب في اقتطاع جزءٍ هام من أملاك الخلافة ليستقل به ما يشكل خطراً مباشراً على وضع الخليفة، نظراً لقُرب منطقة الجزيرة الفراتية من بغداد، لذلك لا يمكن السماح له بتحقيق رغبته، فحشد الجيش وعيَّن عليه خيرة قادته، أمثال وصيف موشكير ونصر القشوري وغيرهما وأمرهم بمطاردته والقبض عليه. وعندما وصلت قوات الخليفة إلى القلعة هرب حمدان بن حمدون منها ومعه أمواله، في زورق كان قد أعدَّه في دجلة، وعبر إلى الجانب الغربي فأضحى في ديار ربيعة، واختبأ في قلعة له بدير الزعفران، فعبرت في إثره قوة عسكرية حتى أشرف أفرادها على نواحي الدير، فلما شعر بهم ترك أمواله في الدير وهرب في زورق، واصطحب معه كاتبه النصراني زكريا بن يحيى، فطاردوه، حتى التجأ إلى خيمة حليفه القديم إسحاق بن أيوب مستجيراً به، فأجاره هذا، إلا أنه نكث بعهده وسلَّمه إلى الخليفة الذي زجّ به في السجن، وطارد أنصاره، فقبض على كاتبه، وعدد من أقربائه وغلمانه. وتتابع استسلام العرب والأكراد في المنطقة حتى لم يبق ثائر على الخلافة سوى هارون الشاري[٤].

(١) يبدو أن هارون الشاري كان يطمع في منصب الخلافة أو في الإمامة.
(٢) الطبري: جـ١٠ ص٣٧، ٣٨. ابن الأثير: جـ٦ ص٤٨٠.
(٣) المصدران نفساهما: ص٣٩، ٤٨٣.
(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٨٣، ٤٨٤.

الحسين بن حمدان ـ علاقته مع الخلافة العباسية

تمهيد

تراوحت علاقة الأسرة الحمدانية مع الخلافة العباسية في عهد الحسين بن حمدان، الذي خلف والده في زعامة الأسرة، بين التعاون المثمر والعداء وفقاً لتطور الأوضاع السياسية. كان الحسين من طراز القادة الذين ينظرون إلى الأحداث بواقعية ويستغلون الفرص المتاحة لتحقيق طموحهم، اتصف بالمكر والدهاء والمرونة في التعامل السياسي بالإضافة إلى شجاعته الملفتة.

وفي الوقت الذي رأى أن تبديل سياسة الأسرة تجاه هذه الخلافة، هو ضرورة سياسية، دخل في خدمة الخليفة المعتضد الذي كلَّفه ببعض المهمات العسكرية للقضاء على الثائرين وإخماد الفتن والحركات المناهضة للحكم العباسي في الوقت الذي عجز فيه القادة الأتراك عن القيام بهذه الهمة، نذكر من بين هذه المهمات:

القضاء على الخوارج

ظلَّ هارون الشاري الخارجي وحده في ميدان المواجهة مع الخلافة في الجزيرة الفراتية بعد إخضاع الحمدانيين والشيبانيين والأكراد، وكان الخليفة المعتضد قد أبقى نصراً القشوري في الجزيرة الفراتية ليجبي خراجها ويُعيِّن العمال على جبايتها، فكتب هذا كتاباً إلى هارون يتهدَّده ويتوعَّده بقرب وصول الخليفة، لحربه، فأجابه هارون بكتاب تضمَّن رداً عنيفاً من رجل ممتلئ ثقة بربه: «أما ما ذكرت ممن أراد قصدي، ورجع عني، فإنهم لما رأوا حدَّنا واجتهادنا كانوا بإذن الله فراشاً متتابعاً، وقصباً أجوف، ومن صبر لنا منهم ما زاد على الاستتار بالحيطان، ونحن على فرسخ منهم، وما غرَّك إلا ما أصبت به صاحبنا[1] فظننت أن دمه مطلول أو أن وتره متروك لك، كلا... ولعمر الله ما ندعو إلى البراز ثقة بأنفسنا، ولا عن ظن أن الحول والقوة لنا، لكن ثقة بربنا، واعتماداً على جميل عوائده عندنا. وأما ما ذكرت من أمر سلطانك، فإن سلطانك لا يزال منا قريباً، وبحالنا عالماً، فلا قدَّم أجلاً ولا أخره، ولا بسط رزقاً ولا قبضه، قد بعثنا على مقابلتك، وستعلم عن قريب إن شاء الله تعالى»[2].

عرض نصر الكتاب على الخليفة المعتضد، فلما قرأه ثارت ثائرته، فولَّى الحسن بن علي على كورة الموصل وأمره بحرب الخوارج، وألزم مقدمي الولايات والأعمال بطاعته، فعبر الزاب واصطدم بهارون قرب مغلة وانتصر عليه، ودخلت

---

(١) يقصد حمدان بن حمدون.

(٢) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٨٤، ٤٨٥.

فلول قواته أذربيجان، وهام هارون في البرية محاولاً الإفلات من مطارديه العباسيين[1].

شكَّل هارون خطراً جدياً على الخلافة في الجزيرة الفراتية، فكان القضاء التام عليه ضرورة سياسية وعسكرية وعقدية، لذلك خرج الخليفة بنفسه في عام (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) للقضاء عليه، غير أنه وقف عاجزاً أمامه، فعمد عندئذٍ إلى تكليف الحسين بن حمدان بحربه، ويبدو أنه استهدف استقطاب الأسرة الحمدانية واتخاذها حاجزاً يقيه الهجمات القادمة من الشمال، ووضع حد لتحالفها مع هارون لإضعافه.

انتهز الحسين وضع الخليفة الحرج وشدة رغبته في القضاء على هارون الشاري، ووافق على القيام بهذه المهمة مدفوعاً بعاملين:

الأول: حبه لأبيه ورغبته في تحريره.

الثاني: طموحه في أن يكون له شأن لدى الخليفة.

بدليل أنه طلب منه، إن هو نجح في القبض على هارون وسلمه إياه، أن يطلق سراح والده ويرفع الأتاوة عن بني تغلب وإثبات خمسمائة فارس من قومه ينضمون إليه[2]. وافق الخليفة على هذا الطلب وقال له: «لك ذلك، فامض»[3].

اختار الحسين بن حمدان ثلاثمائة فارس، من بينهم وصيف موشكير وقد أمره الخليفة بطاعته، ثم انطلق في إثر هارون يتعقَّبه من مكان إلى آخر حتى قبض عليه وأتى به أسيراً إلى الخليفة المعتضد الذي سُرَّ من تخلُّصه من عدو خطير، فخلع على الحسين خلعاً شرَّفه بها وطوَّقه بطوق من ذهب، كما خلع على جماعة من قادته وأصحابه وإخوانه وأهله لحسن بلائهم، ووفى بوعده، فأطلق سراح حمدان بن حمدون وأزال الأتاوة عن بني تغلب وأثبت خمسمائة فارس منهم ينضمون إليه، وأمر بصلب هارون بعد أن شهَّر به.

وهكذا خان الحسين بن حمدان حليف والده وسلَّمه إلى الخليفة الذي صلبه، وخلَّص الخلافة من عدو شديد المراس مقابل تحرير والده ورفع شأن أسرته ونيل الحظوة لدى الخليفة.

إخضاع بني دلف

بنو دلف العجليين أسرة عربية تنتمي إلى بكر بن وائل أبناء عمومة الحمدانيين،

---

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٤٨٥.

(٢) أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان: ديوان أبي فراس، تحقيق سامي الدهان: جـ٢ ص١٢٨.

(٣) الطبري: جـ١٠ ص٤٣.

سكنوا بلاد الجبال[١]، وبرز منهم في عهد المعتضد أخوان هما بكر وعمر ابنا عبد العزيز بن أبي دلف العجلي، وقد خرجا على الخلافة العباسية في عام (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م)، فأرسل الخليفة إليهم وزيره عبيد الله بن سليمان وغلامه بدر على رأس قوة عسكرية، ففرّقا بين الأخوين من واقع استقطاب بكر وتوليته أعمال أخيه عمر. وبعد أن أخضعا هذا الأخير خلعا الأول عن أعماله فهرب مع أتباعه إلى الأهواز، فأرسل إليه المعتضد وصيف موشكير، فلما وصل إلى حدود فارس وبات في مقابلة بكر، هرب هذا إلى أصبهان، فلم يطارده وصيف وعاد إلى بغداد، فكتب المعتضد إلى بدر يأمره بطلب بكر، فكلّف صاحب أصبهان عيسى النوشري القيام بذلك، إلا أنه فشل في مهمته[٢]، عندئذٍ خرج الخليفة مع بني حمدان لإخضاع الثائر، وتمكّن الحسين بن حمدان من هزيمته وإخضاعه[٣].

القضاء على صاحب الشامة القرمطي

أدّى الحسين بن حمدان دوراً كبيراً في القضاء على الحسين بن زكرويه القرمطي، المعروف بصاحب الشامة. فقد اجتاح هذا القرمطي بلاد الشام في عام (٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) وعاث فيها فساداً وتخريباً، وقد عجز القادة العباسيون الذين أرسلتهم الخلافة أمثال أبي الأغر عن التغلب عليه والقضاء على حركته، لذلك جهَّز الخليفة المكتفي جيشاً آخر عهد بقيادته إلى محمد بن سليمان الكاتب وضمَّ إليه بعض القادة الكبار أمثال الحسين بن حمدان، وأرسلهم لحرب صاحب الشامة، ونزل الخليفة في الرقة ليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية، والتقى الطرفان في مكان قريب من حماة، وجرت بينهما رحى معركة طاحنة في (٦ محرم ٢٩١هـ/ ٢٩ تشرين الثاني ٩٠٣م) أسفرت عن انتصار الجيش العباسي، وأُسر صاحب الشامة وسيق إلى بغداد حيث شُنق مع أصحابه.

وأبلى الحسين بن حمدان بلاء حسناً في هذا القتال بحيث أن محمداً بن سليمان الكاتب، القائد الأعلى للجيش، أشاد بدوره في الكتاب الذي أرسله بعد الانتصار إلى الوزير: «قد تقدمت كتبي إلى الوزير أعزه الله في خبر القرمطي وأشياعه... فلما رأى بعضنا بعضاً حمل الكردوس الذي كان في ميسرتهم ضرباً بالسياط، فقصد

(١) الجبال: هي البلاد المعروفة، باصطلاح العجم، بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من الجبال. وتسمية العجم لهذه البلاد بالعراق غلط. الحموي: جـ٢ ص٩٩.

(٢) الطبري: جـ١٠ ص٤٦، ٤٧.

(٣) ديوان أبي فراس: جـ٢ ص١٢٧، ١٢٨.

الحسين بن حمدان، وهو في جناح الميمنة، فاستقبلهم الحسين ـ بارك الله عليه وأحسن جزاءه ـ بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم، فكسروها في صدورهم، فانفلُّوا عنهم، وعاود القرامطة الحمل عليهم، فأخذوا السيوف، واعترضوا ضرباً للوجوه، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس في أول وقعة، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة، وولوا مدبرين مغلولين، واتَّبعهم الحسين، فرجعوا عليه، فلم يزالوا حملة وحملة، وفي خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة؛ حتى أفناهم الله ﷻ، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتي رجل»[١]. وعندما عاد الجيش إلى بغداد خلع المكتفي على قادته ومن بينهم الحسين بن حمدان، فطُوِّقوا وسُوِّروا وصُرفوا إلى منازلهم[٢].

يبدو أن انتصار الجيوش العباسية على القرامطة لم يكن حاسماً لأن الحركة القرمطية استمرت ناشطة، وقد ظهر قائد قرمطي آخر بعد مقتل صاحب الشامة هو عبد الله بن سعيد، المكنى أبا غانم وسُمي نصراً، فالتفَّت حوله جماعات من الأصبغيين المنتمين إلى الفاطميين والعليصيين، وصعاليك من سائر بطون كلب، وهاجموا جميعاً بلاد الشام[٣]، واستولوا على أجزاء واسعة من أراضيها، فاستسلمت لهم دمشق ودخلوا طبرية ونهبوها، فأرسل الخليفة الحسين بن حمدان على رأس قوة عسكرية للتصدِّي لهم، فالتقى بهم قرب دمشق وأجبرهم على الفرار، فانحازوا نحو بادية السماوة، وكانوا يُغوِّرون المياه خلفهم، فاضطر الحسين بن حمدان إلى التوقف عن مطاردتهم بفعل قلة الماء، وعاد إلى الرحبة[٤]. ويبدو أنه ضلَّ الطريق بفعل دليله جلهمة الكلبي الذي «عدل به، عن عصبية، عن الماء، بعد أن هلك خلق كثير من أصحابه»[٥]. والراجح أن جلهمة كان من أنصار القرامطة أسوة ببعض بطون كلب. وعندما علم الخليفة بذلك أرسل محمد بن إسحاق بن كنداج ومعه المؤن والمياه، وكتب إلى الحسين بن حمدان أن يوافيه من الرحبة وأن يقوم معه بتطويق القرامطة. وعندما علم هؤلاء بذلك، قصدوا هيت على الفرات، فنهبوا السفن في الفرات، وأحرقوا ربض المدينة، فامتنع أهلها بسورهم، فقتلوا من قدروا عليه وأخذوا أموالهم ومتاعهم، وأوقروا[٦] ثلاثة آلاف راحلة من الحنطة، ثم

(١) انظر نص الكتاب عند الطبري: جـ١٠ ص١٠٩ ـ ١١١.

(٢) المصدر نفسه: ص١١٣.

(٣) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٤٩.

(٤) المصدر نفسه ص٥٥٠.

(٥) ديوان أبي فراس: جـ٢ ص١٢٩.

(٦) الوقر: الحمل الثقيل يُحمل على ظهر أو على رأس، وأكثر ما استُعمل الوقر في حمل البغل والحمار. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد: لسان العرب: جـ٥ ص٢٨٩.

خرجوا إلى البرية، وعندما شعروا باقتراب الجيش العباسي، ثار فريق منهم على نصر وقتلوه، وأرسلوا رأسه إلى بغداد واستقروا في عين التمر، فعفا الخليفة عنهم. واستمر فريق آخر بقيادة زكرويه على موقفه المعادي للخلافة العباسية. وهكذا انقسم القرامطة على أنفسهم وجرى بينهم قتال، فكلّف الخليفة المكتفي الحسين بن حمدان بمطاردة المعاندين واجتثاث أصلهم، فتعقبهم وشتّتهم وقتل بعضهم، وأرسل رجلاً منهم كان قد استسلم له، يدعى الكيالي، إلى بغداد مع ستين رجلاً من أصحابه[١]، ومع ذلك فقد ظلّت جيوب لهم تمارس شعائر المذهب القرمطي وتُعكّر صفو الأمن في العراق وفي المنطقة الممتدة بين الكوفة ودمشق على طريق بادية السماوة[٢].

محاربة الطولونيين

استمر الحسين بن حمدان في خدمة الخلافة العباسية، يكلفه الخليفة بمهمات عسكرية للقضاء على المعارضين والثائرين، وقد أسند إليه في عام (٢٩٢هـ/ ٩٠٤م) مهمة أخرى هي حرب الطولونيين والقضاء عليهم وإعادة مصر إلى حظيرة الدولة العباسية.

والمعروف أنه في ذلك العام، ساءت العلاقة بين الخليفة المكتفي وبين هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، فجهّز الخليفة جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، وضمَّ إليه لأول مرة أربعة قادة من بني حمدان هم الحسين بن حمدان وداوود بن حمدان، الملقب بالمزرفن، وسليمان بن حمدان، الملقب بالحرون، ومحمد بن الغمر بن حمدون، وأرسله إلى مصر للقضاء على الطولونيين وإعادة هذه البلاد إلى حظيرة الخلافة.

تقدمت القوات العباسية باتجاه الأراضي المصرية، ولما علم هارون بن خمارويه بزحفها خرج على رأس قواته لوقف تقدمها، لكنه لم يلبث أن لقي مصرعه على يد عمَّيْه شيبان وعدي، فكان لهذا الحدث أثر سيء في نفوس القادة الطولونيين في مصر، حيث استنكروا هذا العمل الإجرامي وراسلوا الحسين بن حمدان، الذي كان يقود الطليعة، طالبين منه الأمان على أنفسهم وحثّوه على التقدم إلى الفسطاط. والراجح أن هؤلاء أدركوا أن زوال الدولة الطولونية بات وشيكاً بفعل الظروف الحرجة التي كان يمر بها الطولونيون، فأرادوا استغلال الموقف لصالحهم[٣].

---

(١) الطبري: جـ١٠ ص١٢٣.
(٢) السامر: جـ١ ص٩٨.
(٣) الكندي: ص١٨٢.

ومهما يكن من أمر، فقد تقدم الحسين بن حمدان واشتبك مع الجيش الطولوني وهزمه، ودخل جنود الخلافة الفسطاط، فدمروها ونهبوا وسلبوا كل ما فيها من متاع وأثاث[١].

وبعد أن تحقّق النصر للحسين بن حمدان، عرض عليه الخليفة ولاية مصر، فرفض العرض وقبل محمد بن الغمر بن حمدون ولاية الصعيد الأعلى وانصرف إليها[٢]. والملاحظ أن الحسين بن حمدان كان كغيره من القادة لا يريد الابتعاد عن مركز الخلافة حتى يحافظ على مركزه ونفوذه، وكان يطمع في أن يوليه الخليفة الموصل وديار ربيعة، وهي بلاد آبائه وأجداده، ثم إن مصر كانت بلاداً مضطربة وخطرة، فقد خرج إبراهيم الخليجي على أثر القضاء على الحكم الطولوني، وما لبث أن احتل مصر[٣]، ومن هذه الرؤية السياسية جاء قرار الرفض.

مهمات متفرقة

اتسع نشاط الحسين بن حمدان خلال عام (٢٩٤هـ/ ٩٠٧م)، فبالإضافة إلى عملياته العسكرية ضد القرامطة، فقد كلفه الخليفة في (رمضان/ حزيران) بإخماد الفتن التي أثارتها بعض القبائل العربية المنتشرة في أرجاء الدولة، مثل تميم وكلب والنمر وأسد وطيء وغيرهم، فاصطدم بهم إلا أنه هُزم أمامهم وطاردوه حتى أبواب حلب[٤]. وقد شجّع هذ النصر قبيلة تميم على الإغارة على حلب، فالتمس واليها ذكا المساعدة من الخليفة، فكلّف الحسين بن حمدان بنجدته، فسار بقواته ليلاً من الرحبة حتى أناخ عليهم بخناصرة، فهزمهم وأسر منهم جماعة وانصرف ولم يجتمع بذكا[٥].

تدخل الحسين بن حمدان في المؤامرات السياسية

بلغت علاقة الخليفة المكتفي بالحمدانيين حد الثقة المطلقة، فبالإضافة إلى اعتماده على الحسين بن حمدان من واقع تكليفه بمهمات عسكرية، فقد عيَّن أخاه أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل في (محرم ٢٩٣هـ/ تشرين الثاني ٩٠٥م)[٦]، وما لبث هذا الخليفة أن توفي في (١٢ ذي القعدة ٢٩٥هـ/ ١٣ آب ٩٠٨م)[٧] ولما يمض ستة أعوام على خلافته، وهو آخر الخلفاء في العصر العباسي

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٣٧ ـ ١٤٠.
(٢) ديوان أبي فراس: جـ٢ ص١٢٩.
(٣) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٤٧ ـ ١٥٠.
(٤) الطبري: جـ١٠ ص١٣٦.
(٥) ابن العديم: جـ١ ص٨٩.
(٦) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٤٧.
(٧) الطبري: جـ١٠ ص١٣٨.

الثاني الذين حاولوا أن يعيدوا إلى الخلافة سطوتها وهيبتها، ويُشكل عهده مرحلة انتقال من عصر الصحوة المؤقتة للخلافة العباسية إلى عصر جديد عاد فيه الخليفة إلى حال الضعف التي كانت سائدة في بداية نفوذ القادة العسكرين، وخضعت مؤسسات الدولة لنفوذ هؤلاء، جرى ذلك بفعل الخلافات الأسرية داخل البيت العباسي وتفاقم الحركات الانفصالية، ما أتاح للقادة الأتراك استعادة قوتهم، وعادوا إلى نهجهم السابق في اختيار خلفاء ضعاف يتحكَّمون بهم.

أثار هذا التحول السياسي لصالح الأتراك بعض العناصر العربية من القادة ووجوه وأعيان وفقهاء بغداد، فانقسم أهل الحل والعقد إلى فئتين متعارضتين. اختارت الفئة الأولى، وعلى رأسها الوزير العباس بن الحسن يسانده القادة الأتراك بقيادة مؤنس الخادم، أبا الفضل جعفر بن المعتضد، وكان صغير السن لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، وقد ضاق أفراد هذه الفئة ذرعاً بتولي خلفاء أكفاء راحوا يُحجِّمون قوتهم ويُقلِّصون سلطتهم، فولوه الخلافة، ولقبوه بالمقتدر، ليكون طوع بنانهم ويتحرَّكون من خلاله. وقد تدخَّلت نساء القصر في هذا الاختيار، وكان لرأيهن القول الفصل في ذلك. فقد بذلت والدة المقتدر «السيدة»[١] جهوداً حثيثة لتولي ابنها منصب الخلافة لينفِّذ طلباتها، ثم حاولت مع قهرمانتها أم موسى الهاشمية في إبقائه في وضع الضعيف[٢].

ورشَّحت الفئة الثانية، وعلى رأسها الحسين بن حمدان ومحمد بن داوود بن الجراح صاحب الديوان، عبد الله بن المعتز لتولي الخلافة، ولعل الحسين هذا كان مدفوعاً بعاملين سياسي وعنصري:

فمن حيث العامل السياسي، فقد كان ساخطاً على الوضع الذي تردَّت فيه الخلافة بعد مرور بضعة أشهر على تولية المقتدر، فهو صبي لا يُقدِّر المسؤولية ولا يفقه شيئاً في الأمور السياسية، ولا وقف على أحوال الملك، فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمر ليس له في ذلك حل ولا عقد، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم، فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال بسوء التدبير الواقع في المملكة[٣].

ومن حيث العامل العنصري، فقد استعاد الأتراك نفوذهم وأضحى الحل والعقد في يدهم، فهم ولاة الأمور الصغيرة والكبيرة، وقد ساندوا المقتدر وتمسكوا به حتى يحافظوا على مكتسباتهم في الوقت الذي ساندت فيه معظم القوى العربية ابن المعتز

(١) هي رومية أو تركية تدعى شغب. (٢) مسكويه: جـ١ ص٢ ـ ٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٣٨ ـ ٢٤١.

القوي كي يقضي على التدخل التركي السافر في شؤون الخلافة، من دون أن يكون للعامل المذهبي، بالنسبة للحسين بن حمدان بشكل خاص، أي تأثير على موقفه المذهبي، والمعروف أنه كان شيعياً متشدداً ويميل إلى علي بن أبي طالب وأهل بيته، وفي المقابل كان ابن المعتز منحرفاً عن علي ومتشدداً في مذهبه السني[١].

واتخذ أعضاء الفئة الثانية قراراً بالتخلص من المقتدر، وكُلِّف الحسين بن حمدان بتنفيذ المهمة. وحاول هذا استقطاب الوزير العباس بن الحسن غير أنه لم يلق تجاوباً، فما كان منه إلا أن قتله في بستانه المعروف ببستان الورد، وكان إلى جانبه فاتك المعتضدي، فاستنكر هذه الجريمة وأنكر على الحسين عمله، فما كان من هذا الأخير إلا أن عطف عليه وقتله وأسرع قاصداً الحلبة وهو يأمل أن يجد المقتدر يلعب الكرة والصولجان فيقتله، ولكن المقتدر بادر بالدخول إلى داره عندما سمع الضجة وأغلق الأبواب، فذهب الحسين إلى المخرَّم ودعا إلى عقد اجتماع في دار سليمان بن وهب حضره القادة والجند وأصحاب الدواوين والقضاة الموالون لابن المعتز الذي حضر الاجتماع، فبايعه الجميع بالخلافة ولقبوه بالمرتضى بالله[٢].

وذهب الحسين بن حمدان في اليوم التالي إلى دار الخلافة على رأس قوة عسكرية ليقبض على المقتدر، غير أنه جوبه بمقاومة عنيفة من جانب الحرس الخلافي بقيادة مؤنس الخادم، ولم يتمكَّن من تحقيق غرضه، فأدرك عندئذٍ أن الأمور تجري لصالح خصمه ما دفعه إلى إن يحمل أهله وأمواله ويتوجه ليلاً إلى الموصل ليحتمي بأخيه أبي الهيجاء عبد الله، ففتَّ ذلك في عضد أتباعه فاتهموه بالتواطؤ مع المقتدر، واضطربت أوضاع ابن المعتز[٣]. وأعيد المقتدر إلى منصب الخلافة فعيَّن أبا الحسن بن الفرات في منصب الوزارة، ونكّل بأنصار ابن المعتز، ثم قبض عليه وسلَّمه إلى مؤنس الخادم الذي قتله يوم الخميس في (١٢ ربيع الآخر ٢٩٦هـ/٨ كانون الثاني ٩٠٩م)، ودُفن بجوار داره[٤].

وجهَّز المقتدر جيشاً بقيادة القاسم بن سيما وأمره بمطاردة الحسين بن حمدان والقبض عليه، فوصل إلى قرقيسياء والرحبة والدالية من دون أن يظفر به، عندئذٍ أمر الخليفة أبا الهيجاء عبد الله أن يتعقَّب أخاه، فلم يسع والي الموصل إلا أن يُنفِّذ أمر الخليفة لكسب رضاه من جهة وعدم مقدرته على مخالفة أمره من جهة أخرى، أو أنه أراد أن يحول دون إرسال الخلافة قوات أخرى لمطاردة أخيه خشية على حياته من القتل[٥].

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٧٢. (٢) مسكويه: جـ١ ص٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٦. ابن الأثير: جـ٦ ص٥٧٠، ٥٧١.
(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٧٢. (٥) الطبري: جـ١٠ ص١٤١.

ومهما يكن من أمر، فقد سار أبو الهيجاء في إثر أخيه من سنجار إلى البرية، فاصطدم به وهزمه واستولى منه على عشرة آلاف دينار، ثم عاد إلى الموصل من دون أن يستثمر انتصاره، ثم اصطدم به مرة ثانية في مكان يُعرف بالأعمى، بين تكريت والسودقانية بالجانب الغربي من دجلة، وهزمه أيضاً وعاد إلى بغداد[1]. وفي ظل هذا الوضع الحرج، رأى الحسين بن حمدان أن يتفاهم مع الخليفة، فأرسل أخاه إبراهيم إلى الوزير ابن الفرات ليتوسط له، فاقتنع الخليفة بوجهة نظر وزيره، وقد أبدى له خشيته من ازدياد عدد المتمردين والمنشقين إذا استمر الخليفة بمعاقبة جميع من شارك ابن المعتز في فتنته، فعفا الخليفة عن الحسين بن حمدان وولّاه أعمال الحرب في قم وقاشان[2]، وحُملت إليه الخلع، ويبدو أن لذلك علاقة باستفحال أمر الصفَّاريين في المشرق، إذ لم يكن في دار الخلافة قائد على مستوى الحسين بن حمدان يتصدّى لخروجهم، هذا إلى جانب إبعاده عن مركز الخلافة.

حروب الحسين بن حمدان مع الصفَّاريين

تُمثل الدولة الصفَّارية امتداداً سياسياً للحركات الانفصالية التي قامت في المشرق الإسلامي في الجزء الجنوبي من إيران أسسها يعقوب بن الليث الصفَّار[3]، الذي استغل فرصة انهماك الخلافة العباسية في قتال الزنج، فتغلَّب على أقاليم إيران الجنوبية وضمَّ إليه بلاد فارس، وتوسع باتجاه خراسان بعد أن قضى على الدولة الطاهرية في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م)، فاشتدت شوكته، وسيطر على سجستان، في أقصى شرقي إيران الجنوبية، ووادي كابل والسند ومكران[4]، ثم كتب إلى الخليفة المعتمد بما آلت إليه الأوضاع في المشرق، غير أن الخليفة لم يرض عن تصرفات يعقوب وتوسعاته، فلعنه أمام حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان[5]، ما أثار غضب يعقوب فقرَّر مهاجمة الخلافة في عقر دارها، فتقدم باتجاه العراق وعندما وصل إلى الأهواز أرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يعقد له على ولايات المشرق وشرطتي بغداد وسامراء، وأن يبطل لعنه أمام الحجاج[6].

شعرت الخلافة بعجزها عن التصدّي للزحف الصفَّاري فأجابت يعقوب إلى طلبه[7]؛ لكنها لم تركن إلى المهادنة إلا بقدر حاجتها إلى التقاط أنفاسها وسنوح

(١) الطبري: جـ١٠ ص١٤١.
(٢) ابن الأثير: جـ٦ ص٥٧٣، وقم وقاشان مدينتان قرب أصبهان، تذكران معاً.
(٣) لُقِّب بالصفَّار؛ لأنه بدأ حياته بصناعة الصفر أي تصفير الأواني النحاسية.
(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٣١٠.
(٥) ابن خلكان: جـ٦ ص٤١٢.
(٦) الطبري: جـ٩ ص٥١٤.
(٧) المصدر نفسه: ص٥١٦.

فرصة أخرى تستغلها للقضاء على الصفَّاريين، وكانت قد أقامت حكماً موالياً لها في إقليم ما وراء النهر بقيادة نصر بن أحمد الساماني، فهدَّدت بذلك الدولة الصفَّارية من الخلف. وتوفي يعقوب في عام (٢٦٥هـ/ ٨٧٨م) وخلفه أخوه عمرو، باختيار الجند له[1]، فاتبع سياسة مغايرة لأخيه بفعل تبدُّل الظروف، فكتب إلى الخليفة المعتمد يعلن طاعته، فأرسل إليه المُوفَّق التقليد بما كان بيد أخيه[2]، غير أن العلاقة الطيبة مع الخلافة لم تلبث أن ساءت، فقد خشي المعتمد من طموح عمرو ونزعاته الانفصالية فأصدر قراراً بعزله عن البلاد التي ولّاه إياها ولعنه بحضرة حجاج خراسان، وقلّدها محمداً بن طاهر، وذلك في عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م)[3].

وفي المدة بين عامي (٢٧١ ـ ٢٧٦هـ/ ٨٨٤ ـ ٨٨٩م) تجدَّد الصراع بين المُوفَّق وعمرو، لم تُحقِّق الخلافة فيه نصراً حاسماً واضطرت إلى الاعتراف بسلطة عمرو فجعلت له شرطة بغداد. وفي عام (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) ولّاه المعتضد خراسان ثم بلاد ما وراء النهر التي كانت في الواقع تحت حكم إسماعيل بن أحمد الساماني وقد أراد أن يضربه بالقوة السامانية النامية، وفعلاً جرى صدام بين الطرفين في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) عند بلخ انتهى بانتصار إسماعيل الساماني وأسر عمرو الصفَّاري، فأرسله إسماعيل إلى الخليفة الذي سجنه، وقُتل في سجنه في عهد المكتفي في عام (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)[4].

تضعضعت الدولة الصفَّارية بعد مقتل عمرو بن الليث، وبرز غلامه سبكري على مسرح الحياة السياسية في ظل الصراع الداخلي على السلطة وقد أراد السيطرة على أملاك الصفَّاريين، فاستولى على فارس بغير إذن الخلافة وقبض على حفيدي عمرو، طاهر ويعقوب، وأرسلهما إلى بغداد الأمر الذي أرضى الخليفة. ويبدو أن الأمور لم تستقم له، فقد نافسه الليث بن علي بن الليث الصفَّار، فزحف من سجستان إلى فارس في عام (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) واستولى عليها، وهرب سبكري إلى أرجان. وعندما علم الخليفة المقتدر بذلك أرسل جيشاً إلى الشرق بقيادة مؤنس الخادم لمساندته، فاجتمع به في أرجان. وخرج الحسين بن حمدان في الوقت نفسه من قُم وتوجَّه إلى البيضاء لمساندة جيش الخلافة، فخشي الليث أن تستولي جيوش الخلافة على شيراز، فأرسل أخاه على رأس قوة عسكرية إلى المدينة للدفاع عنها، واصطحب معه دليلاً حتى يرشده إلى طريق مختصرة ليباغت الحسين بن حمدان منفرداً ويخرجه من المعركة لكنه ضلَّ الطريق، وعانى جيشه من متاعب كثيرة، ووجد نفسه أخيراً يواجه

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٣٦٠، ٣٦١.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٦١.
(٣) الطبري: جـ١٠ ص٧.
(٤) المصدر نفسه: ص٧٦، ٧٧.

جيش مؤنس والسبكري في خواندان. وفي القتال الذي جرى بين الطرفين تعرَّض الليث لهزيمة منكرة وأُسر وسيق إلى بغداد، وعاد الحسين بن حمدان إلى قم[1].

لم يلبث سبكري أن خرج على الخلافة وأوقف متوجباته المالية إليها، فأرسل الخليفة جيشاً لقتاله بقيادة وصيف كامة مع عدد من القادة، بينهم محمد بن جعفر الذي التقى به على باب شيراز وهزمه، فهرب إلى بمٍّ، إحدى مدن كرمان، فلحق به القائد العباسي وهزمه ثانية، ففرَّ إلى خراسان وتوغَّل في مفازتها، فطارده أحمد بن إسماعيل الساماني، حاكم بلاد ما وراء النهر، فأسره غلامه سيمجور مع قائده الفتَّال وأرسلهما أحمد إلى بغداد[2]. وقد اشترك الحسين بن حمدان في القتال بوصفه حاكماً لإقليم شرقي، وقائداً لإحدى الفرق العسكرية في جيش وصيف كامة.

نهاية الحسين بن حمدان

تميز عهد الخليفة المقتدر، الذي امتد خمساً وعشرين سنة (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/ ٩٠٧ ـ ٩٣٢م)، بكثرة العيوب، ظهرت خلاله الخلافة في أبشع صور انحلالها. فكانت دولته «ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة»[3]. وثمة ظاهرة بارزة في عهد المقتدر تمثَّلت بكثرة تولية وعزل الوزراء، فقد تولَّى له أربعة عشر وزيراً.

شجَّعت هذه الظروف السياسية الحسين بن حمدان للعودة إلى بغداد، فاستقبله الخليفة وأكرمه وعيَّنه والياً على ديار ربيعة، وذلك في عام (٢٩٨هـ/ ٩١٠ ـ ٩١١م)، ويبدو أنه كان لكلا الطرفين من الدوافع ما جعله يُقدم على هذه الخطوة.

ففيما يتعلق بدوافع الخليفة، فقد تعرَّضت الحدود الشمالية في الجزيرة الفراتية لغارات البيزنطيين بعد تحالف بيزنطية مع أرمينيا، فاستولوا على بعض الحصون وسلبوا ما فيها ثم دمَّروها وعادوا من حيث أتوا، فأراد الخليفة الاستفادة من خبرات الحسين بن حمدان العسكرية وشجاعته للتصدِّي لهذه الغارات، وهكذا ردَّه إلى ديار ربيعة نظراً لحاجته إليه.

وفيما يتعلق بدوافع الحسين بن حمدان، فقد وجد هذا الأمير نفسه بعيداً عن موطن عشيرته وهو قابع في بلاد نائية مليئة بالفتن والثورات، كما أنه أُقصي عن مركز القرار، فأراد العودة إلى عاصمة الخلافة ليشترك في المداولات السياسية بما يخدم أهدافه ومصلحة عشيرته. وخشي الخليفة أن يظل الحسين في بغداد، وبخاصة

(١) مسكويه: جـ١ ص١٦، ١٧.
(٢) المصدر نفسه: ص١٨، ١٩.
(٣) ابن طباطبا: ص٢٦٢.

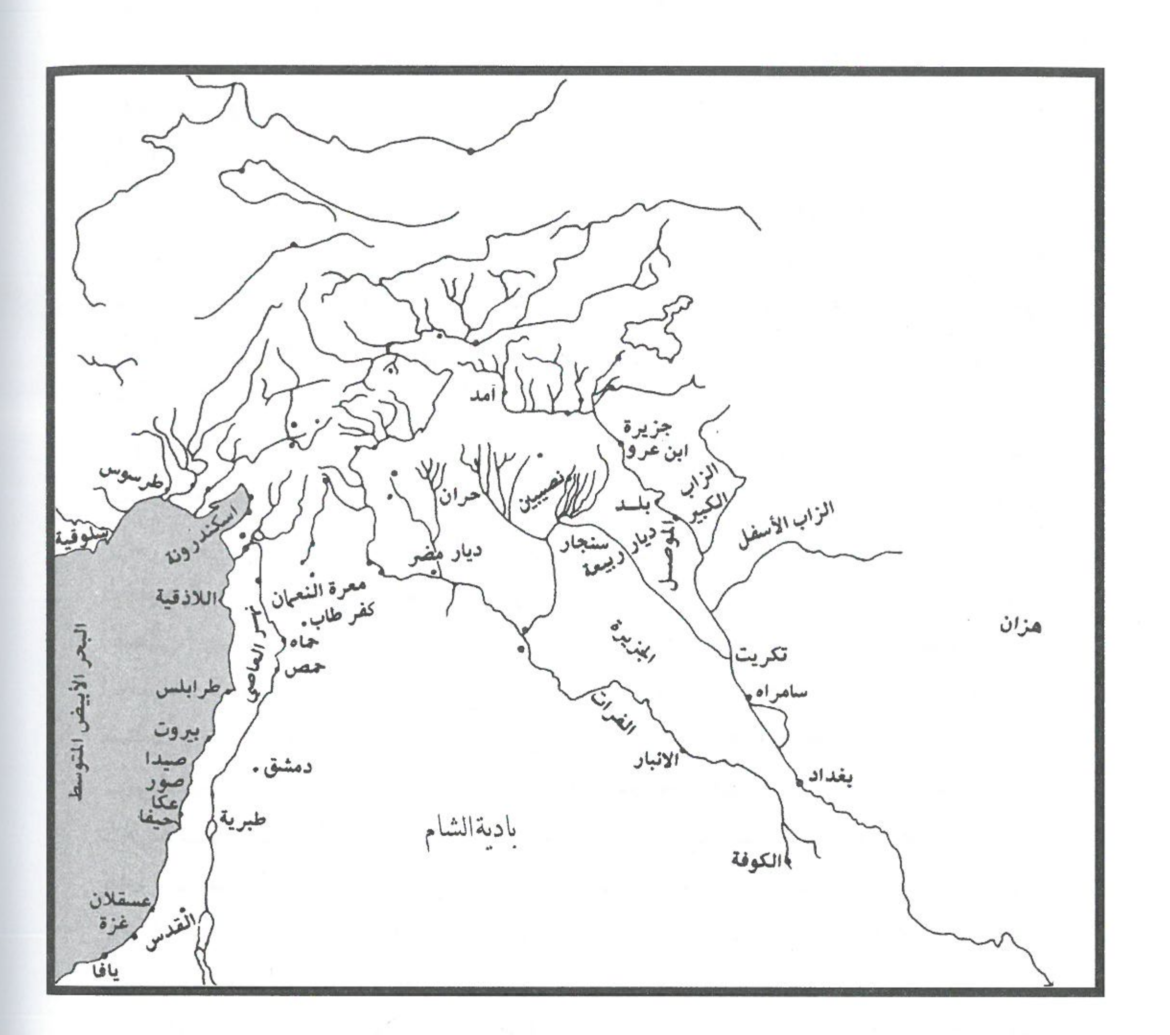
أن له فيها أنصاراً، وهو ذو طموح، وسبق له أن اشترك في المؤامرة التي دُبِّرت لخلعه وتنصيب ابن المعتز، فعيَّنه والياً على ديار ربيعة وجعله في منصب الشريك في إدارة المنطقة مع أخيه أبي الهيجاء الذي كان يتولى الموصل وأعمالها منذ عام (٢٩٣هـ/ ٩٠٥م) ومنها ديار ربيعة، إلا أن الحسين كُلِّف كما يبدو القيام بالأعمال العسكرية، بدليل أنه غزا الصائفة في عام (٣٠١هـ/ ٩١٣ ـ ٩١٤م) وفتح كثيراً من الحصون قرب طرسوس وقتل عدداً كبيراً من البيزنطيين، وأرسل كتاباً إلى بغداد بهذا الصدد[1]. ويبدو أن الخليفة لم يُقدِّر، حين ولّاه على منطقة تُعدُّ مركزاً لتجمع قبيلته وقبائل عربية أخرى مُسانِدة له، ما يمكن أن يقوم به من تمرد على الخلافة.

وما حدث في ذلك العام من عزل أبي الهيجاء عبد الله عن إمارة الموصل في الوقت الذي نجح أخوه الحسين في صدِّ البيزنطيين، لأمر ذو دلالة، إذ إن الخلافة لم تثق بالأخوين، ولعل النصر الذي حقَّقه الحسين في الثغور ونية أخيه في الاستقلال قد دفع الخلافة إلى اتخاذ خطوة العزل، فعيَّنت يُمن الطولوني على إمارة الموصل ثم عزلته وولَّت نحرير الخادم الصغير[2].

ولَّد تصرف الخليفة رد فعل سلبياً من جانب أبي الهيجاء عبد الله، فأعلن الثورة على الخلافة واستقلاله عنها، في الموصل، وسانده أخواله الأكراد[3]، فعمَّت الفتنة في أرض الموصل، وفسدت الأوضاع، غير أن محاولته الاستقلالية لم تنجح، فقد أرسل الخليفة المقتدر جيشاً إلى الموصل على وجه السرعة لقمع الثورة، بقيادة مؤنس الخادم المظفر، ويبدو أن أبا الهيجاء عبد الله وجد نفسه عاجزاً عن المواجهة، فلم يقاوم قوات الخليفة، كما أنه لم يشأ أن يوسِّع شقة الخلاف مع بغداد، فاستسلم للقائد العباسي مستأمناً، فمنحه الأمان، وعندما عادا إلى بغداد خلع الخليفة عليهما الخلع اللطيفة[4].

والواقع أن الخليفة كان يمر آنذاك بظروف حرجة، فقد كانت الحركة القرمطية لا تزال ناشطة، كما أن الفاطميين بدأوا محاولاتهم لغزو مصر للاستيلاء عليها؛ لذلك كان مضطراً إلى المحافظة على علاقته الودية مع قادته البارزين وبخاصة أبناء حمدان، إلا أن امتناع الحسين بن حمدان عن دفع الأموال المتوجبة عليه عن ديار ربيعة، ورفْضه أمر الوزير علي بن عيسى بتسليم البلاد إلى عمال الخليفة، أجبره على إعادة أبي الهيجاء عبد الله إلى إمارة الموصل في عام (٣٠٢هـ/ ٩١٤م)[5] وهو يعلم طمع الحسين بحكمها، فأراد أن يضرب الأخوين بعضهما ببعض.

(١) الطبري: جـ١٠ ص١٤٧.
(٢) ابن الأثير: جـ٦ ص٦٢٤.
(٣) كانت والدة عبد الله كردية.
(٤) ابن الأثير: جـ٦ ص٦٢٤، ٦٢٥.
(٥) المصدر نفسه: جـ٦ ص٦٣٧.



إمارة الحمدانيين في الموصل وحلب

استاء الحسين بن حمدان من تصرف الخليفة، ولم يرض عما اتخذه من تدابير خاصة بوضع إمارة الموصل، فأعلن الثورة في العام التالي مستغلاً انهماك الخليفة بالتصدِّي للغزو الفاطمي لمصر ومتذرعاً بعدم وفاء الوزير بضمانات كان قد ضمنها له[١]، فأرسل الخليفة جيشاً تعداده أربعة آلاف مقاتل بقيادة رائق الكبير لمطاردته، وكتب في الوقت نفسه إلى مؤنس الخادم «يأمره بالمسير إلى ديار ربيعة بعد فراغه من أصحاب العلوي»[٢]، وجهَّز الحسين بن حمدان من جهته جيشاً جراراً بلغ تعداده عشرين ألف فارس. واصطدم الطرفان في معارك عدة تأرجحت بين النصر والهزيمة وانتهت بحصار جيش الخليفة في مكان ضيق، وسدَّ الحسين على أفراده المنفذ الوحيد المؤدي إليه ومنع عنهم المؤن، فضاقت عليهم الأقوات والعلوفات[٣].

وما جرى بعد ذلك من عودة مؤنس الخادم من مصر وزحْفه إلى ديار ربيعة لقتال الحسين بن حمدان، ما بدَّل وجه المعركة، وقلب موازين القوى. إذ ما كاد يصل إلى حدود إقليم الحسين بن حمدان وتقدم إلى آمد، حتى فكَّ الأمير الحمداني الحصار وعاد إلى دياره. ودخل جيش الخليفة الموصل ثم طارد الحسين. ونفَّذ مؤنس الخادم خطة سياسية ذكيةً كفلت له النصر. فقد استقطب معظم رجال جيش الحسين بالأموال، فأخذوا يتسربون من معسكره وينضمون إلى مؤنس ما أسفر عن تبدُّد الجيش الحمداني وضعفت مقاومة الحسين، فمال إلى الاستسلام، فأرسل رسالة اعتذار إلى مؤنس غير أنها لم تسفر عن نتيجة إيجابية. فتقدم القائد العباسي عندئذٍ ونزل بجوار جزيرة ابن عمر شمالي الموصل فرحل الحسين إلى ناحية أرمينيا مع أمواله وأهله وأنصاره. فأرسل مؤنس فرقة عسكرية تبعته إلى تل فافان في أرمينيا، فغادرها الحسين بعد أن أحرقها، فتعقَّبه أفرادها، وظلوا يطاردونه حتى قبضوا عليه وأسروه مع أهله وأكثر أنصاره، واستولوا على أمواله، وذلك في (١٥ شعبان ٣٠٣هـ/ ٢٣ شباط ٩١٦م)[٤].

وسيق الحسين بن حمدان إلى بغداد وسُجن بعد أن شُهِّر به، وقبض الخليفة على أخويه أبي الهيجاء عبد الله وإبراهيم وباقي أفراد الأسرة الحمدانية وسجنهم. والواضح أن كثرة الاضطرابات التي قام بها أبناء حمدان أضعفت ثقة الخليفة بهم، إلا أنه ما لبث أن عفا عنهم في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م)، فأخرجهم من السجن وخلع عليهم، باستثناء الحسين لشدة خوفه منه وحقده عليه. واتصل الحسين بالوزير علي بن

---

(١) مسكويه: جـ١ ص٣٦، ٣٧.

(٢) ابن الأثير: جـ٦ ص٦٣٩.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مسكويه: جـ١ ص٣٦، ٣٧. ابن الأثير: جـ٦ ص٦٣٩، ٦٤٠.

الفرات من وراء قضبان السجن ودبَّر معه مؤامرة أخرى ضد الخليفة. وحدث آنذاك أن امتنع يوسف بن أبي الساج، والي أذربيجان وأرمينيا، عن دفع الأموال المترتبة عليه إلى دار الخلافة ما أثّر على أعطيات الجند فشغبوا، ولما اشتدَّ عليه الخليفة بطلب الأموال تذرَّع بما أخذه يوسف بن أبي الساج وبما صُرف في محاربته، فلم يقبل حجته وتنكَّر له، فعزم الوزير عندئذٍ على إطلاق سراح الحسين بن حمدان بحجة تكليفه بقتال يوسف بن أبي الساج، حتى إذا اجتمع الرجلان اتفقا على التخلص من الخليفة، فنُمي إلى المقتدر بذلك فأمر بقتل الحسين، وذلك في (جمادى الأولى ٣٠٦هـ/ تشرين الأول ٩١٨م)، وعزل ابن الفرات[١].

وعلى هذا الشكل كانت نهاية الحسين بن حمدان الذي كان من أشجع الأمراء وأشدهم بأساً، وهو أول من ظهر أمره من ملوك بني حمدان[٢].

(١) مسكويه: جـ١ ص٣٨، ٥٥، ٥٦. ابن الأثير: جـ٦ ص٦٥٦، ٦٥٧.

(٢) ابن تغري بردي: جـ٣ ص١٩٥.

الفصل العاشر

ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله
مؤسس الإمارة الحمدانية في الموصل
٣١٨ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٠ ـ ٩٦٩م

تمهيد

تقرّب أبو الهيجاء عبد الله، بعد خروجه من السجن في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م)، من الخليفة المقتدر، وما جرى من الاضطرابات في منطقة خراسان والدينور في عام (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) دفع الخليفة إلى إرساله إلى هناك لإخماد الفتن بوصفه أقدر القادة، وقلَّده طريق خراسان والدينور وخلع على أخويه أبي السرايا وأبي العلاء. ومن جهته أراد أبو الهيجاء أن يُثبت أنه عند حسن ظن الخليفة به، فأخمد الفتن وأمَّن الطريق وعاد إلى بغداد[١].

وحدث بعد بضعة أشهر أن هدَّد القرامطة طريق مكة والكوفة، كما تعرَّضت هذه الطريق لغارات الأعراب، فانعدم الأمن، وتعرَّض الحجاج للخطر، وتعطَّل الحج، فأرسل الخليفة أبا الهيجاء لكي يحقِّق الأمن على هذه الطريق الهامة، فاصطدم بالقرامطة بقيادة أبي طاهر بن أبي سعيد الجنَّابي في عام (٣١٢هـ/ ٩٢٤م)، إثر تعرُّضهم لقافلة الحجاج غير أنه تعرّض للهزيمة ووقع في الأسر، ونهب أبو طاهر القافلة وقتل أكثر من ألف حاج من الرجال وثلاثمائة من النساء، وسبى النساء والصبيان وعاد إلى عاصمته هجر.

وما لبث أن أفرج عن أبي الهيجاء وحمَّله رسالة إلى الخليفة يطلب منه أن يُفرج عن البصرة والأهواز ويتركهما له، إلا أن الخليفة رفض الطلب[٢].

والواضح أن الخليفة لم يستطع أن يتخلَّى عن مساعدة الحمدانيين في مواجهة الثورات والفتن وبخاصة أنهم اشتهروا بصبرهم وجلدهم في القتال، لذلك عيَّن أبا

(١) مسكويه: جـ١ ص٧٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية: جـ١١ ص١٤٩. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢١٢، ٢١٣.

الهيجاء حاكماً على الموصل في عام (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) وكلَّفه بتأمين طريق خراسان. سُرَّ الأمير الحمداني بتعيينه حاكماً على ولاية الموصل التي طالما تمنَّاها، إلا أنه لم يشأ أن يغادر بغداد لأنها أضحت مركزاً للدسائس والمؤامرات. ويبدو أنه خشي من أن يفسد خصومه الأمر عليه فيعزله الخليفة، لذلك استقر في بغداد ليكون قريباً من المداولات السياسية، وأناب عنه ابنه الحسن، إلا أنه ضمن أعمال الخراج والضياع بالموصل وقردى وبازبدى وأقاليمها[1].

وحدث آنذاك أن انتشر العرب والأكراد في أرض الموصل وطريق خراسان، فهاجموا العامة ونشروا الفوضى وأحدثوا الاضطرابات، فكتب أبو الهيجاء إلى ابنه الحسن يأمره بالتصدِّي لهم، ففعل، وأجبر العرب على رد ما سلبوه من الناس بعد أن قتل منهم ونكَّل ببعضهم، فأعادوا معظم ما سلبوه، ثم انحدر إلى شهرزود فقاتل الأكراد الجلالية حتى طلبوا الأمان ووعدوه بالكف عن أعمال الشر والفساد، وعاد الهدوء إلى المنطقة[2].

وقُتل أبو الهيجاء في (١٥ محرم ٣١٧هـ/ ٢٨ شباط ٩٢٩م) في غمرة النزاعات الداخلية وهو يدافع عن الخليفة القاهر. والواقع أن كلاً من مؤنس الخادم ونازوك صاحب الشرطة وأبو الهيجاء تحالفوا ضد الخليفة المقتدر، فعزلوه في التاريخ المذكور وبايعوا أخاه محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه بالقاهر، فكافأ الخليفة الجديد أبا الهيجاء بأن أقطعه حلوان والدينور وهمدان وكرمان ونهاوند وشيراز وماسبذان والصميرة والسيروان؛ بالإضافة إلى ما بيده من طريق خراسان والموصل، ثم حدث أن خرج الجند يطالبون بالأرزاق التي قطعها نازوك عنهم، فقتلوه وحاصروا دار الخلافة، وبها القاهر وأبو الهيجاء، ولما همَّا بالخروج وجدا الأبواب مغلقة، ثم هاجمهما الخدم أخذاً بثأر المقتدر وما صنعا به، فقُتل أبو الهيجاء وهو يدافع عن الخليفة، حيث أصيب بسهم قاتل. وعندما أعيد المقتدر بعد يومين من عزله سأل عن أبي الهيجاء وأخيه القاهر فقيل له: «إنهما حيَّان» فكتب لهما أماناً إلا أن ذلك كان بعد فوات الآوان، فقد قُتل أبو الهيجاء وحُمل رأسه إلى المقتدر فحزن عليه كثيراً «وعظم عليه قتله، وقال: ما كان يدخل علي ويسلِّيني، ويُذهب عني الغمّ هذه الأيام غيره»[3].

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٨. (٢) المصدر نفسه: جـ٦ ص٧٠٤، ٧٠٥.
(٣) المصدر نفسه: جـ٦ ص٧٣٦ ـ ٧٤٠.

قيام الإمارة الحمدانية في الموصل

تبدأ ولاية الحمدانيين على الموصل في عام (٢٩٣هـ/ ٩٠٥م) عندما ولّى الخليفة المكتفي أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان عليها، ومع ذلك لا يمكن أن نجعل هذه السنة بداية قيام الإمارة الحمدانية هناك لأن ولايته كانت مزعزعة، تعزله الخلافة تارة وتعيده تارة أخرى، كما لم يُتح له أن يُرسي دعائم إمارته، ولم تتوفر له الظروف والإمكانات لكي يُعلن استقلاله، ثم إن البيت الحمداني كان في ذلك الوقت منقسماً على نفسه نتيجة المنافسة التي قامت بين الأخوين الحسين وأبي الهيجاء عبد الله ما أضعف موقفهما أمام الخليفة.

ويُعد الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله المؤسس الحقيقي للإمارة الحمدانية في الموصل التي قامت في (محرم ٣١٨هـ/ شباط ٩٣٠م)، عندما ولّاه الخليفة المقتدر على ما بيد أبيه من أعمال قردى وبازبدى وعلى إقطاع والده وضياعه، ثم ولّاه الموصل بعد وفاة واليها نحرير الصغير[1]، غير أن الأوضاع العامة وموقف والده المعادي للخليفة انعكس سلباً عليه، فعزله الخليفة عن الموصل في (ربيع الأول/ نيسان) وولّى عليها عَمَّيْه سعيداً ونصراً، لكن قلَّده ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس العين وميافارقين وأرزن من ديار بكر، مقابل مال يدفعه للخلافة كضمان، فاستقر في منطقة نفوذه الجديدة في (ربيع الآخر/ أيار)[2].

ويبدو أن الخليفة المقتدر كان بحاجة إلى خدمات الحمدانيين أصحاب النفوذ في منطقة الجزيرة الفراتية، ولا يمكنه الاستغناء عنها بعد أن تعامل مع اثنين من كبار قادتهم هما الحسين وأبي الهيجاء عبد الله.

اتصف الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله الحمداني بالطموح السياسي، فراح منذ أن تولى أعمال والده يسعى حثيثاً لتكوين إمارة خاصة به في الجزيرة الفراتية تكون الموصل حاضرتها متبعاً في ذلك سياسة ملتوية، ويبدو أنه هدف إلى التخلص من الأمراء الحمدانيين الأقوياء الذين قد ينافسونه على السلطة، فدفع عمه داود إلى الاصطدام بمؤنس الخادم، خسر فيه حياته، وانحاز إلى مؤنس أثناء صراعه مع الخليفة، وقتل عمَّه أبا العلاء سعيد في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)؛ لأنه ضَمِن سراً أعماله من دون علمه، ما أوغر صدر الخليفة الراضي الذي خلف القاهر في عام (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) وقد أنكر هذا العمل وعدَّه تحدياً له؛ لأنه كان ينوي عزله عن ولاية الموصل بسبب انحيازه إلى مؤنس الخادم؛ ولأنه كان يؤخر دفع الأموال المتوجبة عليه أو

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص٧٤٧، ٧٤٨. (٢) المصدر نفسه: جـ٦ ص٧٥٠.

يتوقف عن إرسالها في وقت كانت الخلافة في أشد الحاجة إلى المال، فاستغل أبو العلاء سعيد هذه الحاجة ووعد الخليفة بإرسال الأموال إذا ولّاه الموصل[1].

عبَّر الخليفة الراضي عن غضبه حين علم بمقتل أبي العلاء سعيد فأرسل جيشاً بقيادة الوزير ابن مقلة لقتال الحسن الحمداني، ولما اقترب من الموصل رحل الحسن عنها إلى الزوزان[2] فطارده الوزير العباسي ولكنه لم يظفر به، فعاد إلى الموصل ثم استُدعي إلى بغداد من قِبل ابنه[3]، وعيَّن قبل مغادرته عاملين يثق بهما هما: علي بن خلف بن طبَّاب وماكرد الديلمي، فعاد الحسن الحمداني إلى الموصل واصطدم بهما، وهزم ماكرد عند نصيبين في (ذي الحجة ٣٢٣هـ/ تشرين الثاني ٩٣٥م) وأجبرهما على مغادرة المدينة، فعادا إلى بغداد، ثم استولى على الموصل وديار ربيعة، وراسل الخليفة الراضي يطلب منه العفو وضمان البلاد، فوافق على طلبه وقلَّده حكم البلاد من آمد إلى تكريت مقابل مال يدفعه وفق نظام الضمان[4]. وبعد أن استقر في الموصل أخذ يعمل على تدعيم مركزه وتثبيت دعائم ملكه، فقام بإصلاحات زراعية هدفها زيادة الثروة وكثرة الإنتاج، فأدخل حاصلات زراعية جديدة أدَّت إلى ارتفاع دخل الموصل، فزادت ثروته وكثر أتباعه، ثم استبدَّ بالسلطة واستأثر بمداخيلها، ووقف الخليفة عاجزاً عن التصدِّي له والقضاء عليه. وهكذا قامت الإمارة الحمدانية في منطقة الجزيرة الفراتية وعاصمتها الموصل.

العلاقة بين الحسن الحمداني والخلافة العباسية

في عهد الراضي: في غمرة الصراع بين القادة على منصب أمير الأمراء، تولى بجكم هذا المنصب في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) إثر تغلبه على ابن رائق. وفي الوقت الذي كانت فيه الخزانة العامة خالية، حتى أن الخليفة عجز عن تأمين أرزاق الجند؛ كان الحسن الحمداني يمتنع عن إرسال الأموال المتوجبة عليه إلى بغداد، لذا قرَّر الخليفة الراضي مهاجمته وطرده من الموصل والاستيلاء على أمواله، على الرغم من معارضة العامة التي كرهت هذا التوجه؛ لأن أفرادها كانوا يكنُّون المودة والمحبة

---

(١) مسكويه: جـ١ ص٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) الزوزان: كورة حسنة بين جبال أرمينيا وبين خلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل. الحموي: جـ٣ ص١٥٨.

(٣) لقد أغرى أنصار الحسن الحمداني في بغداد ابن الوزير بعشرة آلاف دينار مقابل أن يستحث والده على العودة إلى المدينة، فكتب هذا لأبيه بأن الأمور في العاصمة غير مستقرة وتستلزم حضوره فوراً.

(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٢.

للحسن الحمداني بفعل ما كان يمدهم به من الدقيق والأقوات في أوقات الشدة، وما كان يتصدق به على الضعفاء، ولكفاءة أخيه علي في حماية الثغور وعنايته بغزو الصائفة وغيرها[1]، كما أن الصولي، الذي كان يرافقه في الحملة وبعض المخلصين، نصحوه بألا يغادر سامراء وبخاصة أن ابن رائق كان يتوثَّب لاحتلال بغداد والاستيلاء على السلطة، وأن الحسن الحمداني أبدى استعداده بدفع أكثر مما يتوجب عليه من الأموال[2].

لم يتقبَّل الخليفة هذه النصيحة بفعل شدَّة غضبه على الحسن الحمداني وأعرض عنها، عندئذٍ أعرب الصولي عن خشيته من إمكان انضمام الحسن الحمداني إلى أعداء الخليفة إن هو أصرَّ على رفضه، غير أن ذلك لم يثن الخليفة عن إصراره على الزحف نحو الموصل لحربه، فخرج في (محرم ٣٢٧هـ/ تشرين الثاني ٩٣٨م) متوجهاً إلى الموصل واصطدم قائده بجكم بالحسن الحمداني في الكحيل على بُعد ستة فراسخ من الموصل وانتصر عليه، فهرب الحسن الحمداني إلى نصيبين، وعندما لحق به بجكم، سار إلى آمد، وكان الخليفة قد دخل الموصل في غضون ذلك[3]. عند هذه المرحلة من الصراع، عاد بجكم إلى الموصل في حين رجع الحسن الحمداني إلى نصيبين في طريقه إلى الموصل للاجتماع بالخليفة الراضي، ولعله أراد الاستسلام والتفاهم معه[4].

كان ابن رائق يراقب عن كثب تطور الصراع بين الخليفة والحسن الحمداني، فاستغل فرصة خروج الأول إلى الموصل لحرب الثاني وتقدم إلى بغداد التي كانت خالية ممن يدافع عنها، ومعه ألف مقاتل من القرامطة، فدخلها ونهبها، وقوي أمره حتى فكَّر في عزل الخليفة، حيث «كاتب في أمر الخلافة جماعة»[5].

وأجرى الحسن الحمداني مباحثات سرية مع بجكم بناء على طلبه، بشأن الصلح، وتعهد بدفع الأموال المتوجبة عليه، من دون أن يعلم بالتطورات السياسية والعسكرية التي حصلت في بغداد، وهذا خطأ سياسي بطبيعة الحال، فابتهج بجكم بهذا الحل وعرض مبدأ الصلح على الخليفة، لكن هذا رفض، في بادئ الأمر، توقيع الصلح بفعل طمعه في الموصل ذات الأراضي الزراعية الخصبة وأكثرها ضياع آل حمدان،

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٧٨.

(٢) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، أخبار الراضي والمتقي بالله: ص١١٥.

(٣) المصدر نفسه. مسكويه: جـ١ ص٤٠٥.

(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٧٨، ٧٩.

(٥) مسكويه: جـ١ ص٤٠٥، ٤٠٦. الصولي: ص١٢٠.

ما ينعش الخزانة المركزية الفارغة ويتيح له الصرف على شؤون الخلافة، وهذه نظرة مالية بحتة، وما زال بجكم يضغط عليه حتى قَبِل[1].

والواقع أنه حصل خلاف بين أتباعه وبين أهل الموصل، كما أن جنده أخذوا في التسلل إلى بغداد بعد أن استقطبهم ابن رائق، وعلم بالتطورات السلبية في بغداد ما جعل موقفه حرجاً ودفعه إلى الموافقة على الصلح، على الرغم من أنه لم يُحصِّل ما صرفه على الحملة وهو مبلغ مائة ألف دينار بالإضافة إلى ما استولى عليه ابن رائق من مبلغ مماثل، إذ لم يعطه بجكم سوى مبلغ ضئيل من أصل خمسمائة ألف درهم دفعها الحسن الحمداني له معجلاً واحتفظ هو بالباقي[2].

ويبدو أن بجكم خطَّط للتحالف مع الحسن الحمداني ضد الخليفة والقادة الأتراك المنافسين له وبخاصة ابن رائق، ومتَّن هذا التحالف بالتقارب الأسري بالزواج، فقد زوَّج ابنته الصغرى للحسن الحمداني من دون علم الخليفة الذي وقف صدفة على هذا الزواج عندما وقع عقد الزواج في يده[3].

وفي الوقت الذي كان فيه بجكم يجري مباحثات مع الحسن الحمداني وصل أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد إلى الموصل، مبعوثاً من قبل ابن رائق من أجل الصلح، فاجتمع بالخليفة وأجرى معه مباحثات سياسية انتهت باتفاق الطرفين على أن يخرج ابن رائق من بغداد مقابل أن يتولى ديار مضر: حران والرها والرقة، بالإضافة إلى العواصم وقنسرين[4].

شجَّع نجاح الحسن الحمداني وضعف الدولة العباسية الأخشيديين في مصر على إعلان استقلالهم، ويبدو أن الخلفاء أخطأوا عندما تركوا حكم بلاد الشام ومصر بعد سقوط الطولونيين بأيدي الولاة ولم يحكموها مباشرة، لكن الواقع أن الخلافة العباسية الضعيفة كانت تتعرَّض لضغط حمداني من الشمال وضغط أخشيدي من الجنوب، وتواجه خطر البيزنطيين، ورأى القيمون في بغداد أنهم عاجزون عن المقاومة على الجبهات الثلاث، وعلى الرغم من أن الحمدانيين والأخشيديين كانوا في الواقع مستقلين ولا يرتبطون بالخلافة إلا برباط روحي والتبعية الاسمية حتى لا يصبحوا خارجين على طاعة الخليفة، ما يضعف مركزهم وهيبتهم أمام الرأي العام الإسلامي، إلا أن الظروف السياسية كانت تقضي أن تظل الوحدة قائمة وتأمين قوة فاعلة، لأن كلا البلدين كان مهدداً بالأخطار. فبلاد الشام مهددة بالخطر البيزنطي وغارات القرامطة في حين أن مصر كانت مهددة من جانب الفاطميين في المغرب؛

(١) الصولي: ص١٣١.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٧٩.
(٣) الصولي: ص١٣٢.
(٤) مسكويه: جـ١ ص٤٠٨.

بالإضافة إلى الخطر القرمطي[1].

كان على الحسن الحمداني وهو ينظم شؤون إمارته أن يهتم بالأخطار التي تواجهه ويستعد للتصدِّي لها، وهي محاولات الخلافة العباسية لعزله عن ولاية الموصل، والفتن الداخلية، وخطر البيزنطيين، وتهديد الأخشيديين الذين كانوا يعدون بلاد الشام مجالاً حيوياً لدولتهم في مصر. وفي ظل هذه الظروف السيئة، توفي الراضي في (١٥ ربيع الأول ٣٢٩هـ/ ١٨ كانون الأول ٩٤٠م) وتبعه بجكم، ما أزال الضغط عن صدر الحمدانيين[2].

في عهد المتقي: دعا بجكم، الذي كان في واسط عند وفاة الراضي، إلى عقد اجتماع عام يحضره الوزير سليمان بن الحسن وجميع الوزراء السابقين وأصحاب الدواوين والقضاة والفقهاء وبنو هاشم والشخصيات البغدادية البارزة، لاختيار خلف للخليفة المتوفى، فاختار المجتمعون إبراهيم بن المقتدر، بناء على رغبة بجكم، واتخذ الخليفة الجديد لقب المتقي بالله[3].

وتدل هذه الظاهرة على أن عقد هذا المجلس لم يكن إلا إجراء شكلياً للمحافظة على المظاهر الشرعية في انتخاب الخلفاء، بالإضافة إلى النفوذ الواسع الذي تمتع به أمير الأمراء، لذلك تركَّز الصراع بين القادة حول هذا المنصب.

تحسَّن وضع أبي عبد الله البريدي حاكم البصرة على أثر مقتل بجكم في إحدى رحلات صيده[4] فاعتقد الناس أنه سيتولى حتماً منصب أمير الأمراء، وطمع البريدي فعلاً في هذا المنصب وبخاصة بعد أن انضم إليه في البصرة نصف جند بجكم الديالمة في الوقت الذي انضم فيه النصف الآخر إلى الحمدانيين في الموصل[5]. والواقع أن هذا الانقسام لم يكن عفوياً إنما ارتبط بالتوجهات السياسية السائدة، فتقدم إلى بغداد ودخلها في (٢ رمضان ٣٢٩هـ/ ٣١ أيار ٩٤١م)[6].

ويبدو أن الخليفة المتقي لم ير في ابن رائق الرجل القادر على إنقاذ الدولة، بفعل مواقفه المتقلبة وممالأته بني بويه الديالمة في الأهواز وفارس والقرامطة في البحرين، ولا تظهر قوته إلا في الجبهة الضعيفة، أي في بغداد[7]، لذلك لم يأذن له بالمثول بين يديه ولم يُقلده إمرة الأمراء تقليداً رسمياً واكتفى بأن جعله

(١) عدوان: جـ١٤٧، ١٤٨.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٨٩، ٩٣، ٩٤.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٢، ٣.
(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٩٣، ٩٤.
(٥) المصدر نفسه: ص٩٤. مسكويه: جـ٢ ص١٢، ١٣.
(٦) مسكويه: جـ٢ ص١٤، ١٥.
(٧) محمود حسن أحمد وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي: ص٣٨٠.

وزيراً[1] بحكم الواقع، إلا أن البريدي جمع إلى منصبه المدني قيادة الجيش فأضحى في حكم أمير الأمراء.

لم يكن البريدي فعلاً رجل الموقف، فقد عجز عن تلبية حاجات الجند ومطالبهم المتزايدة، وأضحى هدفاً لدسائسهم، فاضطربت الأوضاع في بغداد واضطر إلى مغادرتها، وعاد إلى واسط[2]. فاستدعى الخليفة القائد التركي محمد بن رائق من بلاد الشام ليوليه إمرة الأمراء مرة أخرى تحت ضغط الصراع بين العصبيتين التركية والديلمية، فدخل بغداد في (٢٦ ذي الحجة ٣٢٩هـ/ ٢١ أيلول ٩٤١م) وتقلَّد المنصب، فتفاهم مع البريدي وقلَّده منصب الوزارة[3]. وظل الأمر على ذلك مدة ثم اختلف الرجلان بفعل سياسة ابن رائق المعادية للديلم، فجمع البريدي جيوشه وهاجم بغداد، فاضطر الخليفة المتقي وابن رائق إلى الهرب والتجأ إلى بني حمدان[4]، وهو أول خليفة ترك بغداد خوفاً وطلباً للنجدة.

كان الحمدانيون يمثلون القوة التي تلجأ إليها الخلافة العباسية إذا ضاقت بها الأحوال في العراق، وهم من جهتهم معنيون مباشرة باستقرار أوضاع العراق، الذي يشكل الدرع الخلفي لهم في مواجهتهم للبيزنطيين في مناطق الثغور، لذلك تطلعوا إلى حكمه من خلال اعتلاء منصب أمير الأمراء، كما أنهم عدُّوا ابن رائق عقبة في طريقهم للسيطرة على بلاد الشام والاستقلال بها، وهي في نظرهم منطقة نفوذ لهم، فتخلَّص الحسن الحمداني منه بالقتل في (رجب ٣٣٠هـ/ نيسان ٩٤٢م)[5]. والمعروف أن الحسن الحمداني كان على علاقة غير جيدة مع ابن رائق الذي كان يُبدي احتقاره لبني حمدان بوصفهم أعراب. وساد هذه العلاقة سوء الظن، وأن كليهما كان يحاول الغدر بصاحبه لتخلو له الساحة السياسية ويستأثر بمنصب أمير الأمراء. وربما اتفق الخليفة المتقي مع الحسن الحمداني سراً على التخلص من ابن رائق على أن يسند إليه إمرة الأمراء مقابل التحالف معه مادياً وأدبياً وانتشاله من ورطته[6]، أو أن الحسن الحمداني كان متأكداً من رغبة الخليفة التخلص منه وبخاصة أنه كتب إليه يبرِّر عملية القتل من واقع أنه اكتشف خيانة ابن رائق وتآمره على الخليفة[7]. ومهما يكن من أمر، يبقى هذا الصراع حلقة من حلقات التنازع السياسي على منصب أمير الأمراء.

(١) مسكويه: جـ٢ ص١٥، ١٦. (٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص١٦، ١٧.
(٣) المصدر نفسه: جـ٢ ص٢٢، ٢٣. ابن الأثير: جـ٧ ص٩٦ ـ ٩٨، ١٠١.
(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص١٠٢. (٥) المصدر نفسه: ص١٠٤.
(٦) السامر: جـ١ ص٢٣٨. (٧) ابن الأثير: جـ٧ ص١٠٤.

استدعى الخليفة الحسن بن حمدان بعد مقتل ابن رائق، فأثنى عليه، وخلع عليه، وعقد له لواء وولاّه إمرة الأمراء ولقَّبه ناصر الدولة، وذلك في (الأول من شعبان ٣٣٠هـ/ ٢١ نيسان ٩٤٢م)، كما خلع على أخيه علي ولقّبه سيف الدولة[1]، وأمر أن يُنقش اسماهما على الدنانير والدراهم، وهذه فضيلة لم يسبقهما إليها أحد.

ولما عاد الخليفة إلى بغداد بصحبة أمير الأمراء الجديد، غادرها البريدي إلى واسط من دون أن يصطدم بهما، فاستُقبلا بكل مظاهر التشريف. ومتَّن الخليفة علاقته بناصر الدولة بالتقارب الأسري، فقد زوَّج ابنه أبا منصور بعلوية ابنة ناصر الدولة[2].

ويبدو أن البريدي لم يركن إلى الهدوء، فجهَّز جيشاً وخرج على رأسه من واسط يريد بغداد، فخاف أهل المدينة من أعماله الوحشية، فهربت جماعة من وجوه أهلها، وفرَّ الخليفة إلى الزبيدية على الجانب الشرقي لدجلة، ما يدل على أنه كان يشك في قدرة حلفائه الجدد على التصدِّي للزحف البريدي[3].

نهض ناصر الدولة لوقف زحف البريديين، فأرسل قوة عسكرية بقيادة أخيه سيف الدولة اصطدمت بقوات البريدي عند قرية كيل، جنوبي المدائن بفرسخين، وهزمتها وأسرت كثيراً من أفرادها، وانسحب البريدي إلى واسط في جو الهزيمة القاتم[4].

وعندما وصلت أنباء هذا الانتصار إلى بغداد، استبشرت العامة، وأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم، وأكثروا الدعاء لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة في المساجد والطرق. وعاد الخليفة المتقي من الزبيدية إلى بغداد، وكذلك فعل من غادرها من السكان. ودخل ناصر الدولة بغداد ومعه الأسرى وسط ترحيب السكان، وتعقَّب سيف الدولة البريدي إلى واسط، ففرَّ هذا إلى البصرة[5].

نفَّذ ناصر الدولة، بعد أن استقر في بغداد، مشروعات اجتماعية عدة لتحسين أوضاع السكان المعيشية، وتحقيق الأمن، وبدأ بإصلاح الأوضاع الاقتصادية المتردية. فالأسعار كانت مرتفعة بفعل انعدام الأمن والاستقرار، والقيمة الشرائية للنقود منخفضة بسبب تلاعب الصيارفة والعيارين في عيار الدنانير، فأصلح السكة لضبط العملة والتدقيق في عيارها، وأمر بتصفية العين والورق، وضرب دنانير سمَّاها الإبريزية من أجود عيار، فكان الدينار بعشرة دراهم، وبيع بثلاثة عشرة درهماً[6].

(١) ابن خلكان: جـ٢ ص١١٤.
(٢) الأزدي، علي بن ظافر: أخبار الدولة الحمدانية: ص١٧.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٢٩، ٣٠. (٤) المصدر نفسه: ص٢٨، ٢٩.
(٥) المصدر نفسه: ص٣٠.
(٦) المصدر نفسه: ص٣١. ابن الأثير: جـ٧ ص١٠٧.

وقد بلغه أن الصيارفة يتعاطون الربا، فأحضرهم وحذَّرهم بإنزال العقاب بهم إن لم يتوقفوا عن هذا التعامل، وأحلفهم «فتحسَّن قبيح أمرهم قليلاً»، ثم وضع نظاماً جديداً للمصروفات العامة. فحتى يوفر الأقوات التي تُصرف على السجناء عمد إلى التقتير، ولما اشتكى هؤلاء من الجوع أبدى امتعاضاً كبيراً دفعه إلى إطلاق سراح قسم منهم وقتل الباقين، فخلت السجون من سجنائها. وعمد إلى إسقاط أرزاق الجند المولَّدين من المرتزقة بحجة توفير الأموال لحرب البريدي، وضيَّق على الخليفة، فقلَّص نفقاته ونفقات أهله، وصادر ضياعه، وفرض على الناس الضرائب الباهظة[1].

والواقع أن ناصر الدولة استغلَّ مركزه ونفوذه في سبيل تحسين مصلحته لا سعياً وراء تحسين الأوضاع العامة، كما اتصف بالتبذير. فعندما زوَّج ابنته من ابن الخليفة بلغ الصداق نصف مليون درهم، وجعل النحلة مائة ألف دينار، وعندما قصد ابن الخليفة داره بعد عقد القران، نُثرت عليه دُرًّتا دنانير التقطها من كان معه، وأصحاب ناصر الدولة. وقد كلَّف احتلال البصرة وطرد البريديين منها مليوني دينار، بالإضافة إلى استمراره في دفع نصف مليون دينار شهرياً للجيش المرابط في واسط بقيادة أخيه سيف الدولة، وكانت معظم هذه المبالغ تذهب إلى جيوب المستفيدين من الأتراك بقيادة توزون الذين تفاقم جشعهم، وتمادوا حين أساءوا معاملته، وهاجموا معسكره في واسط ونهبوه، ما اضطره إلى الفرار تحت جنح الظلام إلى بغداد[2].

وبرز مستغلو الفرص للإثراء على حساب العامة، فعرض أبو الحسين علي بن مقلة، وهو من الوزراء المحترفين، على ناصر الدولة أن يستوزره ويطلق يده في جباية الضرائب عن طريق سبعين وكيلاً له جشعين، مقابل مال يدفعه له، فرحَّب ناصر الدولة بهذا العرض[3].

كانت نتائج الإصلاح الاقتصادي سلبية، إذ إن التغيير السريع في قيمة العملة خلق وضعاً اقتصادياً غير مستقر على الرغم من أنه أدَّى إلى تحسُّن مؤقت في القيمة الشرائية، وذلك لأن الداء لم يكن يكمن في نوع العملة وعيارها وشكلها، بل في الظروف السيئة التي عطَّلت مفاعيل الإصلاح الاقتصادي، فلم يؤد الاقتصاد في النفقات، والضرائب المفروضة، وتحسين عيار النقد؛ إلى انتعاش الوضع الاقتصادي، لأن هذه الأموال كانت تُصرف على الجيوش وفي مشروعات غير انتاجية. أما الأسعار فقد ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً، ومات الناس جوعاً، وتفشَّت

---

(١) الصولي: ص٢٣٨، ٢٤١. ابن الأثير: جـ٧ ص١١٦.
(٢) الصولي: ص٢٣٤. (٣) المصدر نفسه.

الأوبئة بينهم، وعزَّ كل شيء من سائر الأطعمة والملبوس[1].

وعمد ناصر الدولة إلى تنظيم الأوضاع الداخلية وتوطيد الأمن، فضرب بشدة على أيدي الفاسدين والعابثين، وقام بنفسه بأعباء صاحب الشرطة، فكان ينظر في الجنايات ويقيم الحدود[2]، كما اهتم بالشؤون الإدارية، فعزل الموظفين الكبار وعيَّن مكانهم موظفين يثق بهم مثل بدر الخرشني الحاجب، فقد عزله من منصبه وولَّى مكانه أبا بكر أحمد بن خاقان، والمعروف أن هذا المنصب يختص بتشريفات الخليفة[3].

تميَّز عهد ناصر الدولة كأمير للأمراء بالشدَّة، ودفعته حاجته إلى المال، إلى اتخاذ تدابير قاسية انعكست سلباً على وضعه. فقد تعرَّض لمؤامرة كادت تودي بحياته، وضايقه الخليفة بفعل التدابير التي اتخذها ضده، واختلف أخوه سيف الدولة مع الأتراك، واستولى البريدي على الجامدة من أعمال واسط؛ ما دفعه إلى مغادرة بغداد عائداً إلى الموصل، وقد ضجَّ الناس من ذلك والتمسوا منه البقاء في بغداد حتى لا يسيطر الأتراك على المدينة. والواقع أن أهل بغداد عاشوا سنوات طويلة قاسية في ظل ظلم الأتراك واستبدادهم، كما أن تولي الحمدانيين إمرة الأمراء، أعادت الأمل إلى العرب باستعادة حيويتهم وأهميتهم بعد ابتعادهم طويلاً عن المشاركة الفعَّالة في الأحداث السياسية. فقد استطاعت الأسرة الحمدانية أن تشق لها طريقاً وسط الزحام لتتصدَّر السلطة، ما أثار عليها حقد العناصر الأعجمية المنافسة، التركية والفارسية، وعلى الرغم من ذلك لم يستجب ناصر الدولة لنداءات العامة وأعيان بغداد بالبقاء، وعاد إلى الموصل حيث موقعه الطبيعي. وبذلك انتهى حكم الحمدانيين لبغداد الذي استمر ثلاثة عشر شهراً تقريباً[4].

والواقع أن التنازع على السلطة استمر ناشطاً، فقد اشترك سيف الدولة مع أخيه ناصر الدولة في قتل أمير الأمراء ابن رائق، ثم احتل واسط وأقام بها واتخذها قاعدة انطلاق لاحتلال البصرة وطرد البريديين منها، ولكنه واجه صعوبات منعته من تحقيق رغبته وأدَّت إلى إنهاء حكمه في واسط. فقد تعرَّض لمحاولة قتل قام بها الديالمة، فأحبطها وقبض على مدبريها وأرسلهم إلى أخيه في بغداد، فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر[5]. وتآمر عليه الأتراك في واسط بقيادة توزون وخجخج بسبب

---

(١) الصولي: ص٢٣٧. (٢) مسكويه: جـ٢ ص٣٨.
(٣) السامر: جـ١ ص٢٤٥.
(٤) الصولي: ص٢٣٨، ٢٣٩. ابن الأثير: جـ٧ ص١١٦.
(٥) الصولي: ص٢٢٨، ٢٢٩.

التأخر في أرزاقهم. فقد ماطل أخوه ناصر الدولة في إرسال الأموال إليه لصرفها على الجند ما عرَّضه إلى امتهانهم واحتقارهم، ولما جلب كاتبه أبا عبد الله الكوفي الأموال أهانوه. عند ذلك قرَّر أن يتخلَّص من زعمائهم أو يبعدهم عن واسط. فولَّى توزون الجامدة على أن يقوم بحمايتها وينفرد بحاصلاتها، وأرسل خجخج إلى المذار ليجمع أموالها ويحميها[1]. غير أن هذا التدبير لم يحل دون ازدياد العلاقة سوءاً بين الطرفين وبخاصة عندما دفعه طموحه في إقامة دولة له في بلاد الشام باستخدام الأتراك الذين معه في واسط، فكان يحاول إقناعهم بالتقليل من أهمية العراق ويؤلبهم على أخيه ناصر الدولة، فصدقوه في أخيه ورفضوا المسير معه إلى بلاد الشام وترك العراق، ثم هاجموه في ليلة (٣٠ شعبان ٣٣١هـ/ ٨ أيار ٩٤٣م) فنهبوا معسكره وأحرقوه، وفرَّ سيف الدولة إلى بغداد[2].

ويبدو أن هذه المؤامرة من قبل الديالمة والأتراك ضد الحمدانيين مردها إلى تعصبهم العنصري، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي الذي أدى دوراً كبيراً في ذلك.

وعندما وصل سيف الدولة إلى بغداد، كان أخوه ناصر الدولة قد غادرها عائداً إلى الموصل، في حين تقدم توزون باتجاه المدينة للسيطرة عليها. وما إن اقترب منها حتى غادرها سيف الدولة إلى الموصل من دون أن يصطدم به، وكان قد تعهد للخليفة بالتصدي له إذا توجه إلى بغداد، وأعطاه الخليفة أربعمائة ألف درهم لصرفها على جنده. ومهما يكن من أمر، فقد دخل توزون بغداد، وقلَّده الخليفة إمرة الأمراء، وذلك في (٢٥ رمضان ٣٣١هـ/ ٢ حزيران ٩٤٣م)[3]، فاستغل البريدي خروجه فزحف نحو واسط ودخلها وطرد من بها من أصحابه[4]..

استأثر توزون بالسلطات كافة، وجرّد الخليفة من كل سلطة، واستكتب أبا جعفر ابن شيرزاد على غير رضى منه، إذ لم يرتح الخليفة لهذا التعيين، ولم يشك في أن هذا الرجل الذي جاء إلى بغداد من البصرة إنما ينوي أن يوفِّق بين البريديين وتوزون ضده، ونصحته حاشيته بالقبض عليه، فرفض خشية من سطوة توزون؛ عندئذٍ نصحه أعوانه بالخروج من بغداد إلى الموصل والاحتماء بناصر الدولة. وفعلاً طلب توزون من الخليفة التفاهم مع البريديين على مال يحملونه ويفرغه لابن حمدان. فرفض ذلك[5].

ويبدو أن المتقي لم يشأ أن يفرِّط بالحمدانيين، لأنه:

(١) مسكويه: جـ٢ ص٣٩. (٢) المصدر نفسه: ص٣٩ ـ ٤١.
(٣) المصدر نفسه: ص٤١ ـ ٤٤. ابن الأثير: جـ٧ ص١١٧.
(٤) ابن الأثير. المصدر نفسه. (٥) مسكويه: جـ٢ ص٤٧.

ـ أدرك أنه سيحتاج إليهم يوماً لمواجهة توزون وعبث الأتراك في بغداد، وهم الذين يشكلون قوة العنصر العربي وسنداً قوياً للخلافة.
ـ يرتبط بهم برباط المصاهرة.
ـ حرص على أن تكون حدود بلاده الشمالية مع البيزنطيين في أيدٍ قوية تستطيع المحافظة عليها، وهي أيدي ناصر الدولة[1].

وشُغل توزون بقتال أعدائه ما اضطره إلى مغادرة بغداد، فاستغل الخليفة الفرصة وأرسل إلى ناصر الدولة يلتمس المساعدة، فأرسل إليه قوة عسكرية، بقيادة ابن عمه الحسين بن سعيد، وما إن اقترب من بغداد حتى خرج إليه الخليفة مع أهل بيته وأعيان بغداد، وذلك في (٢ صفر ٣٣٢هـ/ ٥ تشرين الأول ٩٤٣م)، وسار معه إلى تكريت[2].

خشي توزون من التجاء الخليفة إلى الحمدانيين وتحالفه معهم؛ لأن من شأن ذلك أن يشكل خطراً عليه، وحتى يتفرَّغ لقتالهم تفاهم مع البريدي فصاهره وعقد له على واسط، وأنزل قواته في بغداد[3].

وخرج ناصر الدولة على رأس جيشه إلى بغداد لقتال توزون، فاستقبله الخليفة في تكريت، وتقرَّر أن يذهب المتقي إلى الموصل في حين يعسكر ناصر الدولة في تكريت للتصدي لتوزون. ودارت بين الطرفين معركتين عند أسفل تكريت بفرسخين هُزم فيهما ناصر الدولة، فانسحب مع أخيه سيف الدولة إلى الموصل، ولما تبعهما توزون هربا إلى نصيبين ومعهما الخليفة، ودخل توزون الموصل في جو الانتصار[4].

نتيجة لهذا التطور السلبي، اضطر ناصر الدولة إلى مراسلة توزون يدعوه إلى الصلح، فاشترط أن يعود الخليفة إلى بغداد ويحمل ناصر الدولة إليه الأموال على أن تكون الإمارة لعبد الواحد، ابن المتقي، فوافق ناصر الدولة على تلك الشروط في حين عارضها أصحابه وأخوه سيف الدولة بالإضافة إلى الخليفة[5].

والواقع أن ناصر الدولة أدرك مدى قوة توزون، وأنه لا يستطيع الوقوف في وجهه لذلك لم يطالب بمنصب أمير الأمراء، ويبدو أنه كان كارهاً لهذا المنصب بدليل أنه وافق من دون تردد على تنصيب عبد الواحد ابن المتقي للإمارة، وهو أحد الشروط المقترحة بينه وبين توزون. أما سيف الدولة فقد رفض عرض الصلح، ولعله أراد

(١) عدوان: ص١٦٨. (٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١٢٤.
(٣) ابن كثير: جـ١١ ص٢٠٧. (٤) مسكويه: جـ٢ ص٤٨، ٤٩.
(٥) المصدر نفسه: ص٤٩.

الإمارة لنفسه هذه المرة بدلاً من أخيه. وعارض الخليفة اقتراح الصلح لعدم اطمئنانه إلى نوايا توزون وأنه لن يتنازل بسهولة عن الإمارة لابنه. ويبدو أن توزون قَبِل بهذا الشرط؛ لأنه أراد أن يخدع خصومه حتى يتم الصلح ثم لا يلتزم به ويبقى في منصب أمير الأمراء، أو أنه رأى أن القوة لا تُستمد من هذا المنصب وأنما من شخصيته وقوته ومكانته في الجيش، وأنه بوصفه صاحب القوة في الدولة يستطيع أن يتحكم بابن الخليفة ويسلبه السلطة.

عند هذه المرحلة من الصراع، بدأ الخليفة يشعر بملل الحمدانيين، وأن ناصر الدولة خذله في المعاهدة التي أبرمها مع توزون، وضاق ذرعاً بمقامه عنده، فكتب إلى محمد بن طغج الأخشيد في مصر يشكو حاله ويدعوه للحضور إليه في محاولة لإيجاد مخرج مما هو فيه. والتقى الرجلان في الرقة، ودعاه الأخشيد إلى مصر، ولكن الخليفة أبى، ورأى أن يتفاهم مع توزون، فكتب إليه يخبره بأن الوحشة بينهما سببها ممالأته للبريديين، وعرض عليه مصالحة الحمدانيين إن كان يرغب في الاتفاق معه على أن يعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لمدة ثلاثة أعوام مقابل ثلاثة ملايين وستمائة ألف درهم يدفعها ناصر الدولة له[1].

كانت الأوضاع السياسية في المنطقة تنذر بحصول تغيير سريع من واقع زحف البويهيين الديالمة من المشرق باتجاه العراق، وقد شعر توزون بأن الخطر البويهي بات قريباً من حدوده عندما استولى أحمد بن بويه على واسط وزحف إلى بغداد؛ لذلك وافق على عرض الخليفة ليتفرَّغ لمواجهة البويهيين[2].

عاد الخليفة بعد هذا الاتفاق إلى بغداد، فاستقبله توزون بالحفاوة وقبَّل الأرض بين يديه، ولكن العلاقة بينهما ما لبثت أن ساءت بسبب مواقف كل منهما السابقة والمتعارضة أبداً، ومال المتقي إلى طلب المساعدة من البويهيين لوضع حد للنزاعات الداخلية بين الأمراء، فقبض عليه توزون وخلعه من منصبه وسمل عينيه وعيَّن مكانه أبا القاسم عبد الله ابن المكتفي ولقَّبه بالمستكفي بالله، وذلك في (١٤ صفر ٣٣٣هـ/ ٦ تشرين الأول ٩٤٤م)[3].

علاقة ناصر الدولة مع البويهيين

تأسيس الدولة البويهية: ظهر بنو بويه على مسرح الأحداث في أوائل القرن

---

(١) مسكويه: جـ٢ ص٤٩، ٥٠.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١٢٥، ١٢٦.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٧٢ ـ ٧٥.

الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[1]، وأسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية في حكمه، وعظم نفوذ هذه الأسرة حتى سُمي العصر العباسي الثالث باسمها.

هاجرت هذه الأسرة من الشمال، من بلاد الديلم، المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة، وهو علي بن شجاع بن بويه الذي ولّاه مرداويج الزياري[2] بلاد الكرج[3].

ويبدو أن علياً كانت تراوده نزعات تتعدى الاستقلالية إلى التوسع على حساب جيرانه، بالإضافة إلى الطموح السياسي الذي تحقَّق له سريعاً، حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، واستمال الناس بحسن سياسته، وتمكَّن بفضل مقدرته العسكرية والإدارية، وكرمه، وحسن معاملته لأتباعه؛ من بناء جيش قوي، انتزع به معظم بلاد فارس في خلال مدة قصيرة، واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه، وذلك في (جمادى الآخرة ٣٢٢هـ/ حزيران ٩٣٤م)[4].

كان علي يستولي على هذه البلاد باسم الخليفة العباسي ظاهرياً، لكن في باطن الأمر، كان يهدف إلى إقامة دولة خاصة به، مستغلاً ضعف الخلافة السياسي والعسكري وعجزها عن التدخل في هذه المناطق الجبلية النائية لترتيب أوضاعها، ثم أرسل إلى الخليفة العباسي الراضي يطلب منه الاعتراف بسلطانه، وهذا طبيعي، فإنه كان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه سيطر على إحدى ولاياتها رغم إرادتها، فأراد أن يُكسب حكمه صفة شرعية، وقد تم له ما أراد[5].

التفت علي بعد ذلك إلى مرداويج الزياري، فعمل على كسب رضاه، فعرض عليه أن يدخل في طاعته، وأن يكون ما بيده من بلاد تابعة له يخطب له فيها، وكان طبيعياً أن يرحِّب مرداويج بهذا العرض، فقلَّده أرّجان، وأرسل إليه علي أخاه حسن رهينة ليكفل له حسن التنفيذ[6].

ويبدو أن الظروف السياسية كانت تعمل لمصلحة البويهيين، ففي عام (٣٢٣هـ/

---

(١) راجع فيما يتعلق بظروف ظهور الأسرة البويهية: مسكويه: جـ١ ص٢٧٥ ـ ٢٧٩.
(٢) هو مؤسس الدولة الزيارية الانفصالية في طبرستان في عام (٣١٦هـ).
(٣) الكرج: مدينة بين همذان وأصفهان في منتصف الطريق. الحموي: جـ٤ ص٤٤٦. راجع مسكويه: جـ١ ص٢٧.
(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص١٤، ١٥.
(٥) المصدر نفسه: ص١٥، ١٦، ٢٢.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٣.

٩٣٥م) قُتل مرداويج، فاستغل علي هذه الفرصة وسيطر على بلاد الجبل التي كانت تحت حكم وشمكير الزياري، شقيق مرداويج، وأرسل أخاه حسن، الذي فرَّ بعد مقتل مرداويج إلى عراق العجم، فسيطر على أصفهان والري وهمذان والكرج وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً[1].

تطلع علي بن بويه بعد ذلك إلى تأمين حدود الأقاليم التي استولى عليها، وتطلبت سياسته الاستيلاء على كرمان والأهواز قبل الدخول إلى العراق الذي كان محط أنظاره، لأن هذين الإقليمين يُشكلان ممراً طبيعياً لأي غزو محتمل لإقليم فارس إن من ناحية الشرق أو من ناحية الشمال، لذلك أرسل أخاه أحمد على رأس قوة عسكرية، فاستولى على كرمان في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) بعد معركة القنطرة، وأضافها إلى أملاك آل بويه، ثم سيطر على الأهواز، ما أثار الخلافة العباسية، وعندما حاولت استعادة الأهواز تعرَّض جيشها بقيادة بجكم للهزيمة[2].

نتيجة لهذه التطورات، تمَّ لبني بويه توسيع قاعدتهم بما يتماشى مع تطلعاتهم التوسعية، وأضحى نزولهم من الأهواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها.

كانت الأوضاع في العراق مضطربة نتيجة اشتداد النزاعات بين ابن رائق، والي البصرة وأمير الأمراء من جهة، وبين أبي عبد الله البريدي، والي الأهواز السابق والفار من وجه قوات الخلافة من جهة ثانية، وقد التجأ إلى علي بن بويه وأطمعه في دخول العراق[3].

وفي المقابل، كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي، وبفشل أمراء الأمراء، كما اختلَّت المالية العامة، وفرغت خزينة الخلافة، ووقع الخلفاء في ضائقة مالية شديدة بفعل تحكُّم الأتراك وجشعهم.

نتيجة لذلك، تطلع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم وأثبتت جدارتها، لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين أن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حُرموا منها أو أُبعدوا عنها. وأخيراً مال الخليفة المتقي إلى طلب المساعدة من البويهيين لوضع حد للنزاعات الداخلية بين الأمراء وبخاصة بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين توزون، ولكنه أُقيل من منصبه.

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٧، ٤٤. (٢) المصدر نفسه: ص٥٤ ـ ٥٦.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٥٠.

وفي عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م) بدت الفرصة التي كان ينتظرها أحمد بن بويه سانحة، حيث توفي توزون وخلفه كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد في إمرة الأمراء، الذي تعسَّف في جباية الأموال ما دفع بعض أمراء المدن إلى الاتصال بأحمد بن بويه وتشجيعه على الزحف إلى بغداد.

وفي (١١ جمادى الآخرة ٣٣٤هـ/ ١٨ كانون الثاني ٩٤٦م) دخل أحمد بن بويه بعسكره إلى بغداد من دون مقاومة تذكر، فخرج منها الأتراك، واختفى الخليفة المستكفي في البداية إلا أنه عاد فظهر ورحَّب بأحمد بن بويه وخلع عليه وعيَّنه أميراً للأمراء ولقَّبه معز الدولة، ولقَّب أخاه علياً عماد الدولة، كما لقَّب أخاه حسن ركن الدولة[1]، ومن ثَمَّ أضحت هذه الألقاب الفخمة التسمية المألوفة للأمراء البويهيين.

وهكذا أسَّس الويهيون في فارس والعراق والأهواز وكرمان والري وهمذان وأصفهان إمارات وراثية دامت حتى عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، وقد أدّى نظام الوراثة هذا إلى خلق نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على متقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق، لكن شاب هذا الاستقرار بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيع الأسرة البويهية.

الصدامات بين ناصر الدولة ومعز الدولة

اتسمت علاقة ناصر الدولة الحمداني مع معز الدولة البويهي بالعدائية، وذلك بفعل التنازع على منصب أمير الأمراء. لقد عدَّ الأول نفسه أميراً للأمراء منذ أن عيَّنه الخليفة المتقي في هذا المنصب في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤١م)، ومن ناحية أخرى، رأى الثاني أن الحمدانيين تابعين له بوصفه أمير الأمراء الشرعي الذي عيَّنه الخليفة المستكفي ومنحه السلطات كافة لإدارة شؤون الدولة وتوابعها، ويبدو أنه شعر بأن الحمدانيين ينوون الاستقلال بمنطقة الجزيرة الفراتية، وبخاصة أن ناصر الدولة أصرَّ على عدم إرسال الأموال المتوجبة عليه إلى بغداد، وكان لا بد من الصدام المسلح لحسم الموقف لصالح أحد الطرفين.

أرسل معز الدولة جيشاً إلى الموصل لإخضاع ناصر الدولة، بقيادة اثنين من قادته، هما ينال كوشة التركي وموسى فيادة، ثم خرج في إثره ومعه الخليفة المطيع، وما إن وصل الجيش البويهي إلى عُكبرا، على بُعد عشرة فراسخ من بغداد، حتى انفصل ينال كوشة عنه وانضم إلى الجيش الحمداني، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى كرهه للديلم، والمعروف أن معظم الجيش الحمداني كان يتألف من العنصر التركي

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص١٥٧.

المعادي للديلم. ومن جهته، خرج ناصر الدولة من الموصل على رأس جيشه متوجهاً إلى بغداد لحرب البويهيين وطردهم من عاصمة الخلافة[1].

وجرى القتال بين الجيشين عند عُكبرا. وفي الوقت الذي كان فيه القتال دائراً، انتهز ناصر الدولة خروج معز الدولة من بغداد، فأرسل أخاه أبا العطاف، جابر بن عبد الله بن حمدان، على رأس قوة عسكرية لاحتلال المدينة بالتنسيق مع ابن شيرزاد، فدخلها وحكمها باسم ناصر الدولة، ولم يلبث هذا أن سار إلى بغداد ودخلها في (رمضان ٣٣٤هـ/نيسان ٩٤٦م)، وعسكر جيشه في الجانب الشرقي ـ الرصافة ـ مخلفاً ابن أخيه، الحسين بن سعيد بن حمدان، على حرب البويهيين. وأقدم على عمل جريء لم يقدم عليه سوى القلائل من الحكام المستقلين، فخلع طاعة الخليفة المطيع وحذف اسمه من الخطبة ومنع التعامل بسكته، وضرب سكة على غرار تلك التي ضربها في عام (٣٣١هـ/ ٩٤٣م) وعليها اسم المتقي[2]، فأزال بذلك كل مظهر من مظاهر الاعتراف بالخلافة العباسية، وهي خطوة نحو الانفصال عن جسم الخلافة والاستقلال بما تحت يديه[3]. وعندما علم معز الدولة بهذه الأنباء هاجم تكريت التابعة للحمدانيين، فدخلها ونهبها وعاد مسرعاً إلى بغداد، ونزل في الجانب الغربي ـ الكرخ ـ[4].

ونشبت الحرب بين الطرفين في بغداد، وبدت كفة الحمدانيين هي الراجحة، فقد فرض ناصر الدولة حصاراً على الجيش البويهي ومنع عنه الإمدادات، وحال أعراب ناصر الدولة، المنتشرون في الجانب الغربي، بين جيش معز الدولة والغلات، فارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعة بينهم[5].

وشنَّ معز الدولة هجوماً نهرياً فاشلاً على الجيش الحمداني، فيئس هذا من تحقيق الفوز، فمال إلى التفاهم مع ناصر الدولة ومغادرة الأهواز لولا أن قام بمحاولة أخيرة ناجحة غيَّرت مجرى القتال. فقد أوهم الحمدانيين بحشد قواته في أحد أطراف بغداد ليلاً في الوقت الذي كانت قواته تستعد لشن هجوم من طرف آخر. وقد نجحت خطته وأدَّت إلى هزيمة الجيش الحمداني، فانسحب ناصر الدولة مع ابن شيرزاد نحو الشمال واستقر في عُكبرا[6]. ومن جهته ثبَّت معز الدولة أقدامه في بغداد وسيطر على مقدرات الخلافة بصورة مطلقة، فأدرك عندئذٍ الأمير الحمداني استحالة المضي في مشروعه التوسعي واضطر أن يتفاهم مع معز الدولة، فأرسل إليه

(١) مسكويه: جـ٢ ص٨٩.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١٦١.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٨٩ ـ ٩١.
(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص١٦١.
(٥) مسكويه: جـ٢ ص٩١.
(٦) المصدر نفسه: ص٩٢ ـ ٩٦.

مبعوثاً يطلب الصلح، وتوصَّل الطرفان إلى توقيع اتفاقية في (محرم ٣٣٥هـ/آب ٩٤٦م) تضمَّنت ما يلي:

١ ـ أن يكون في يد ناصر الدولة من حد تكريت وما يليها شمالاً، ويضاف إلى أعماله مصر والشام على أن لا يحمل عن الموصل وديار ربيعة شيئاً مما كان يحمله من المال.

٢ ـ أن يحمل ناصر الدولة عن مصر والشام مثل ما كان يحمله الأخشيد محمد بن طغج عنهما.

٣ ـ أن يرسل ناصر الدولة الميرة إلى بغداد ولا تؤخذ لها ضريبة[1].

الملفت في هذه الاتفاقية اعتراف البويهيين بسيطرة ناصر الدولة على بلاد الشام ومصر، والمعروف أن الحمدانيين لم يكن لهم نفوذ في مصر أو في بلاد الشام، وأن أقصى ما وصلوا إليه آنذاك هو سيطرتهم على حلب. والراجح أن معز الدولة كان يرغب في إبعاد الحمدانيين عن بغداد بخاصة والعراق بعامة ودفعهم إلى بلاد الشام ومصر مدركاً أنهم سيصطدمون حتماً بالأخشيديين، فيتخلَّص بذلك من خصمين قويين، وأن ناصر الدولة كان يخشى من قوة أخيه سيف الدولة وسطوته فأراد إبعاده عن منطقة الجزيرة الفراتية، بدليل أنه عندما طلب سيف الدولة منه أن يوليه على ولاية كبيرة ترضي طموحه، أجابه ناصر الدولة: «الشام أمامك وما فيه أحد يمنعك منه»[2]. والجدير بالذكر أن محمد بن طغج الأخشيد كان قد توفي في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م) وخلفه ابنه أنوجور، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، في ظل صراع على السلطة، وخلو بلاد الشام من القوات الأخشيدية بعد أن غادر كافور هذه البلاد عائداً إلى مصر على رأس الجيش الأخشيدي. ولعل هذه الإجابة كانت إيحاء لسيف الدولة أن يستقل عن أخيه، والمعروف أن العلاقة بين الأخوين شابها التنافس وعدم الثقة الكبيرة على الرغم من حبهما المتبادل وتعاونهما.

ومهما يكن من أمر، فقد عقد ناصر الدولة الاتفاقية من دون علم جنده الأتراك الذين عارضوا هذا التوجه وثاروا ضده بقيادة تكين الشيرازي، وهمُّوا بالقبض عليه إلا أنه تمكَّن من الفرار إلى الموصل، فلحقوا به، ولما اقتربوا من المدينة، فرَّ إلى نصيبين والتمس المساعدة من معز الدولة في بغداد، فأمدَّه بجيش من عنده، اصطدم بالثائرين وهزمهم، وأُسر تكين الشيرازي، وسُملت عيناه أمام ناصر الدولة الذي استعاد سلطته في الموصل، وعادت القوات البويهية إلى بغداد محملة بالهدايا الفاخرة[3].

(١) مسكويه: جـ٢ ص١٠٨.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص١١١.
(٣) ابن الأثير: جـ٧ ص١٧٢، ١٧٣.

الواقع أن هذا الصلح كان في مصلحة ناصر الدولة الذي وسَّع أملاكه بحيث شملت فعلياً مناطق الجزيرة الفراتية كلها، ونظرياً بلاد الشام ومصر، غير أنه لم يكن على مستوى الأحداث، فلم يحسن التصرف، وبرهن عن قصر نظر في الحقل السياسي حيث كان باستطاعته أن يكون حاكماً على مناطق شاسعة تشمل العراق وبلاد الشام ومصر، وأن يخلف الدولة الأخشيدية المتداعية. والحقيقة أنه لم يتمكَّن من الانعتاق من الثوب البدوي، وظلَّ هدفه الأسمى جباية الضرائب فقط[١].

لم تستقر العلاقة بين الحمدانيين وبين البويهيين، واستمر النزاع يدب بينهما بين حين وآخر. ففي عام (٣٣٧هـ/ ٩٤٨ ـ ٩٤٩م) تلكَّأ ناصر الدولة في إرسال مال الضمان المتوجب عليه، ما دفع معز الدولة إلى مهاجمة الموصل مرة ثانية وأجبره على توقيع صلح آخر قلَّص بموجبه نفوذه، وجاء فيه:

١ ـ يحمل ناصر الدولة عن الموصل وديار ربيعة وديار مضر والرحبة والشام، في كل سنة، ثمانية ملايين درهم.

٢ ـ يقيم ناصر الدولة الخطبة لعماد الدولة ومعز الدولة وابنه بختيار.

٣ ـ يُسلِّم ناصر الدولة ابنيه، الفضل والحسين، إلى معز الدولة رهينتين تكفل حسن تنفيذه لبنود الاتفاق.

٤ ـ يخطب ناصر الدولة لمعز الدولة في ولايته[٢].

وبذلك أضحى ناصر الدولة مجرد تابع للبويهيين في حين كان باستطاعته أن يكون نداً لهم لو أحسن التصرف.

ساد الهدوء العلاقات بين الطرفين بين عامي (٣٣٧ ـ ٣٤٥هـ/ ٩٤٨ ـ ٩٥٦م) قبل أن تتعكَّر من جديد. ففي عام (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) انتهز ناصر الدولة فرصة خروج معز الدولة من بغداد لإخماد ثورة روزبهان الديلمي في الأهواز، فهاجم المدينة علَّه يحقِّق بعض المكاسب، ولما قضى الأمير البويهي على هذه الثورة، عاد مسرعاً إلى بغداد ليتولى أمر الحمدانيين، ولما كان هؤلاء عاجزين عن مواجهته، رحلوا عن المدينة[٣].

وامتنع ناصر الدولة في العام التالي عن إرسال الأموال المتوجبة عليه لدار الخلافة، فتجهَّز معز الدولة وسار نحو الموصل لتأديبه، فراسله الأمير الحمداني وضمن البلاد منه بمليوني درهم سنوياً، وحمل إليه مثلها، فعاد معز الدولة إلى بغداد بسبب تعرّض بلاده للفتنة ولأنه لم يثق بأصحابه[٤].

(١) السامر: جـ١ ص٢٦٣.
(٢) مسكويه: جـ٢ ص١١٥.
(٣) المصدر نفسه: ص١٦٢، ١٦٣.
(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٢١٩.

وفي عام (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) تأخر ناصر الدولة كعادته في دفع الأموال المتوجبة عليه، فنقم عليه معز الدولة، وخرج لحربه والقضاء نهائياً على الإمارة الحمدانية وضمّ أملاكها إلى دولته. وعندما علم الحمدانيون بتقدم القوات البويهية خرجوا من الموصل إلى نصيبين على عادتهم، ومنعوا الميرة عنها. ودخلت القوات البويهية المدينة، فاضطهد أفرادها السكان ونهبوا أموالهم، غير أنهم عانوا من نقص في المؤن، كما دمَّر ابنا ناصر الدولة، أبو المرجَّى وهبة الله، إحدى الفرق البويهية العسكرية في سنجار، وعلى الرغم من ذلك، فقد لحقت القوات البويهية بالحمدانيين إلى نصيبين للتضييق عليهم والحصول على الأقوات اللازمة، وبخاصة أنهم علموا بأن فيها أموالاً كثيرة. وطلب معز الدولة في الوقت نفسه مدداً من بغداد، ففرَّ ناصر الدولة إلى ميافارقين متخلياً عن جيشه بعد أن يئس من الصمود، فلجأ جنوده إلى الأمير البويهي مستأمنين، كما التجأ أخوه أبو زهير إليه مستأمناً أيضاً[١].

ورأى ناصر الدولة أن يلجأ إلى أخيه سيف الدولة في حلب، فاستقبله بالترحاب وأكرمه وتوسط بينه وبين معز الدولة. كانت الأوضاع السياسية في الموصل تضغط على معز الدولة وتدفعه إلى التهدئة. فقد عجز عن ضبط النواحي وجباية الأموال، وتوقف الناس عن حمل الخراج بفعل ما كان يقوم به جند ناصر الدولة المستأمنين من مضايقات في الموصل وأعمالها حالت من دون وصول الفلاحين إلى غلاتهم. غير أن معز الدولة لم يعد يثق بناصر الدولة بفعل تقلباته ونقضه العهود، ورفض أن يضمِّنه ما تحت يده، فضمَّنها إلى أخيه سيف الدولة. وهكذا تمَّ الصلح على أن تكون الموصل وديار ربيعة والرحبة لسيف الدولة على مال يحمله في كل سنة وقدره مليونين وتسعمائة درهم، يدفع منها مليون درهم مقدماً[٢]. عاد ناصر الدولة بعد عقد الصلح إلى الموصل ليحكم بعهدة أخيه في حين عاد معز الدولة إلى بغداد بعد أن اطمأن على الأوضاع في الموصل.

لم يستمر الصلح مدة طويلة، فقد نقضه ناصر الدولة على عادته في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) عندما تلكَّأ في إرسال الأموال ما سمح بإعادة الأمور إلى سابق عهدها من الاضطراب. فزحف معز الدولة في العام التالي إلى الموصل مرة أخرى لتأديبه، فغادرها ناصر الدولة إلى نصيبين للاحتماء بقلاعه هناك ولما تبعه معز الدولة، غادرها إلى ميافارقين، إلا أن أبناء ناصر الدولة دخلوا الموصل واستولوا على ما

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٢١، ٢٢٢. مسكويه: جـ٢ ص١٧١.
(٢) مسكويه: جـ٢ ص١٧٤، ١٧٥.

كان بها من كراع وسلاح وثياب لمعز الدولة وحملوها إلى قلعة كواشي، وأحرقوا سفن معز الدولة، واستأمنت حاميتها من الديلم إليهم. وعندما علم الأمير البويهي بما جرى في الموصل، تقدم نحوها، فغادرها الحمدانيون إلى سنجار وتراسلوا في عقد الصلح. وافق الأمير البويهي على مبدأ الصلح، ولكنه رفض بإصرار إسناد الولاية إلى ناصر الدولة وضمَّنها ابنه أبا تغلب مقابل ستمائة ألف درهم عن بقية عام (٣٥٣هـ/ ٩٦٤م)، وستة ملايين ومائتي ألف درهم عن كل سنة من عام (٣٥٤ حتى عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٥ حتى عام ٩٦٨م)، على أن يُطلق الحمدانيون سراح الأسرى الذين في قبضتهم، ويكون أبو تغلب ولي عهد أبيه[١].

وفاة ناصر الدولة

يبدو أن الأحداث التي شهدها عهد ناصر الدولة وتتابعت عليه قد أثَّرت على حالته النفسية، فالهجمات العسكرية التي شنَّها البويهيون على الموصل وتوابعها بين حين وآخر، وتوغلهم في أراضي إمارته، وضمان أخيه سيف الدولة بدفع الأموال المتوجبة عليه إلى معز الدولة، وإلحاح البويهيين على زيادتها، وعقْد معز الدولة لابنه أبي تغلب ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة، ووفاة أخيه سيف الدولة في حلب، وكان شديد المحبة له؛ كل ذلك أدَّى إلى فساد أخلاقه، واختلال قواه العقلية وأخذ يفرط في سوء الظن بأولاده والتقتير عليهم وعلى حاشيته، وأُصيب بالصمم، وفَقَدَ احترام أولاده، فأعرضوا عن مشورته، وضاقوا ذرعاً بتدخله في شؤونهم، ووقوفه ضد طموحاتهم السياسية. من ذلك أن أبا تغلب وإخوته باستثناء حمدان فكَّروا، بعد وفاة معز الدولة البويهي في عام (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، في مهاجمة بغداد وطرد البويهيين منها، إلا أن والدهم نصحهم بالتريث حتى تنفد أموال عز الدولة بختيار الذي خلف والده معز الدولة وبخاصة أنه انصرف إلى اللهو، فينفضّ الجنود من حوله؛ ما أثار غضبهم، فقبض عليه أبو تغلب مستغلاً شيخوخته وضعفه واعتقله في قلعة أردمشت ليلة السبت (٢٤ جمادى الأولى ٣٥٦هـ/ ٧ أيار ٩٦٧م)[٢].

وكان ناصر الدولة قد التمس المساعدة من ابنه حمدان، الذي آثره على إخوته، عندما بدأ الخلاف يدب بينه وبين ابنه أبي تغلب، وكان إذ ذاك يلي الرحبة وماردين من قِبل والده واستولى على الرقة بعد وفاة عمه سيف الدولة، ولما علم بما آل إليه

(١) مسكويه: جـ٢ ص٢٠٣ ـ ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٣٨، ٢٣٩. ابن خلكان: جـ٢ ص١١٦، ١١٧. وأردمشت قلعة حصينة قرب جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة الموصل على جبل الجودي، وقد عُرفت فيما بعد بقلعة كواشي. الحموي: : جـ١ ص١٤٦.

وضع أبيه، أرسل إلى أخيه أبي تغلب يستنكر ما فعله ويطالبه بإطلاق سراحه، ثم سار إلى نصيبين، فاتصل بمن أطاعه من الحمدانيين وحرَّضهم على قتال أخيه[١].

وظلَّ ناصر الدولة معتقلاً في سجنه حتى توفي يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول ٣٥٨هـ/ ٣ شباط ٩٦٩م)، ودُفن في الموصل في جبل التوبة شرقي المدينة[٢].

هل لنا أن نصدر حكماً على مؤسس الإمارة الحمدانية في الموصل ونضعه في المرتبة التي يستحقها؟ إذا استثنينا المقدرة العسكرية وقوة العزيمة التي اتصف بها أمراء ذلك العصر، اتسم ناصر الدولة بالفشل السياسي الذي لازمه طوال حياته، فهو، بالإضافة إلى قسوته ونقضه الدائم للعهود، لم يُقدِّم لأهل الموصل خدمات تُذكر، وقامت سياسته الداخلية على استنزاف موارد البلاد، وسياسته الخارجية على الصراع العسكري غير المنظم، ما أدَّى إلى إضعافه وإشاعة الفوضى في إمارته، بل إنه فشل حتى في التوفيق بين أولاده، فانقسموا على أنفسهم وتنازعوا فيما بينهم[٣]، والواقع أن سلوكه السياسي ينم عن بداوة متأصلة، ولم يتمتع مطلقاً بصفات رجل الدولة.

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) ابن خلكان: جـ٢ ص١١٦.

(٣) السامر: جـ١ ص٢٦٩.

الفصل الحادي عشر

خلفاء ناصر الدولة ـ نهاية الإمارة الحمدانية في الموصل

خلفاء ناصر الدولة

التنازع الأسري بعد وفاة ناصر الدولة

خلَّف ناصر الدولة تسعة أبناء ذكور وابنتين، هم: أبو المرجَّى جابر، أبو القاسم هبة الله، أبو البركات لطف الله، أبو الفوارس محمد، أبو طاهر إبراهيم، أبو المظفر حمدان، أبو عبد الله الحسين، أبو المطاع ذو القرنين، والغضنفر فضل الله أبو تغلب عدة الدولة، وهو أشهرهم، أما الابنتان فهما جميلة وعلوية[1].

استمر النزاع بعد وفاة ناصر الدولة بين أولاده وانقسم البيت الحمداني على نفسه إلى قسمين، ترأس حمدان القسم الأول في حين تزعَّم أبو تغلب القسم الثاني وتأرجحت مواقف بعض الإخوة الباقين بين القسمين. فساند أبو البركات لطف الله شقيقه أبا تغلب كما وقفت شقيقته جميلة إلى جانبه، والمعروف أن هؤلاء الثلاثة من أم واحدة هي فاطمة بنت أحمد، الكردية.

عمد أبو تغلب، على أثر خلافه مع إخوته، إلى التفاهم مع عز الدولة بختيار الذي خلف والده معز الدولة بعد وفاته في عام (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، فطلب منه تجديد الضمان عليه بوصفه وريث والده، والتمس منه الخلع والعهد والعقد ليقطع الطريق على إخوته والمخالفين له من الجند ويستوثق من المؤيدين له، فاستجاب له الأمير البويهي مقابل مليون ومائتي ألف درهم سنوياً[2].

الواقع أن أبا تغلب مزَّق بتصرفه هذا وحدة الأسرة الحمدانية في الموصل، حيث برز الصراع واضحاً بين الإخوة المنقسمين على أنفسهم، وكانت كفة أبي تغلب هي الراجحة حيث تتابعت الهزائم على حمدان. وظلَّ أبو تغلب يضايق أخاه حمدان وعماله في ضياعه، وأرسل إليه أخاه أبا البركات على رأس جيش لقتاله، فاستقطب معظم أصحابه، واضطر حمدان إلى الالتجاء إلى بختيار في بغداد، فاستقبله وأكرمه

(١) الأزدي: ص٢٠، ٢١.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٧٠، ٢٧١.

ووعده بالتوسط بينه وبين أخيه، فأرسل النقيب أبا أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، سفيراً في الصلح بين الأخوين بوصفه من العلويين الذين يميل إليهم الحمدانيون والبويهيون على السواء، وبعد أن تمَّ الصلح عاد حمدان إلى الرحبة[1].

الواقع أن النزاع لم ينته بهذا الصلح، بل تجدَّد وبشكل أعنف. فقد أرسل أبو تغلب جيشاً بقيادة أخيه أبي البركات إلى الرحبة لطرد حمدان منها، فاستولى عليها وعيَّن أحد أنصاره حاكماً عليها وعاد من حيث أتى، فاستغل حمدان هذه الفرصة، فهاجمها ليلاً واستعادها، ثم اصطدم بأخيه أبي البركات في (٣ رمضان ٣٦٠هـ/ ٣٠ حزيران ٩٧١م)، فهزمه وأسره بعد أن أصابه، وتوفي بعد ثلاثة أيام متأثراً بجراحه[2].

نهض أبو تغلب للأخذ بثأر أخيه أبي البركات، فسار إلى قرقيسياء، وأرسل قوة عسكرية بقيادة أخيه هبة الله لمهاجمة الرحبة، ففرَّ حمدان منها مع أخويه إبراهيم والحسين اللذين انحازا إليه خوفاً من أبي تغلب، وتوجَّهوا إلى بغداد، فوصلوا إليها في (ذي الحجة ٣٦٠هـ/ تشرين الأول ٩٧١م)، واستقبلهم بختيار بالترحاب، واستولى أبو تغلب على قلعة ماردين التابعة لحمدان، وصادر أمواله وممتلكاته[3].

مهَّد التنازع الأسري في الموصل لتدخل البويهيين في شؤون الحمدانيين، وقد انتهج الأمير البويهي بختيار سياسة والده تجاه هؤلاء حيث عدَّهم تابعين له وعليهم أن يعلنوا ولاءهم ويدفعوا الضريبة السنوية لبغداد، فوعد حمدان وأخويه، إبراهيم وذي القرنين أبي المطاع، الذي كان رهينة عنده منذ عهد ناصر الدولة، بالمساعدة ضد أخيهم أبي تغلب، غير أنه تباطأ عمداً في تنفيذ وعده بهدف استغلالهم وزيادة حدة الصراع بين الإخوة، واتخاذ ذلك ذريعة لمهاجمة الموصل. فاستغل أبو تغلب هذه الفرصة واستقطب أخويه إبراهيم وذي القرنين وسلخهم عن أخيه حمدان، ففرَّا من بغداد إلى الموصل، فاستقبلهما أخوهما بالترحاب وأكرمهما[4].

انزعج بختيار من فرار الأخوين، وشجَّعه حمدان على مهاجمة الموصل والقضاء على أبي تغلب، وهوَّن عليه أمره، كما أقنعه الوزير محمد بن بقية على القيام بهذه المهمة. والمعروف أنه كانت بين هذا الوزير وأبي تغلب وحشة، فقد احتقره أبو تغلب في رسائله حيث لم يراسله كالوزراء السابقين لانحطاط منزلته في نفوس الناس، وأبى أن يُوفيه جميع ذلك الحق، فاغتاظ محمد بن بقية منه[5].

(١) مسكويه: جـ٢ ص٢٥٤ ـ ٢٥٧.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٨٤.

(٣) مسكويه: جـ٢ ص٢٨٩ ـ ٢٩٢. وقارن بابن الأثير الذي يذكر الحادثة في أحداث عام (٣٥٨هـ).

(٤) مسكويه: جـ٢ ص٣١٦.

(٥) المصدر نفسه.

اتخذ بختيار من حادثة الفرار ذريعة لشن الحرب، فزحف باتجاه الموصل في عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م). واقتدى أبو تغلب بأبيه، فتخلّى عن المدينة بعد أن أخلاها من المؤن والميرة والكتّاب والدواوين، وسار إلى سنجار، ومنها انحدر إلى بغداد منتهزاً فرصة ابتعاد الأمير البويهي عنها وخلوها من جنده، وعسكر في قرية القادسية، على نهر الدجيل على بُعد ثلاثة فراسخ من المدينة، واستقطب أهلها من واقع معاملته الحسنة لهم[1]، والمعروف أن أبا تغلب كأبيه ناصر الدولة كان يخشى من ازدياد نفوذ البويهيين ويعمل على طردهم من العراق.

وعندما علم بختيار بزحف أبي تغلب إلى بغداد، أرسل وزيره محمد بن بقية مع الجيش لمنعه من دخول المدينة، كما أرسل جيشاً آخر بقيادة نائبه سبكتكين التركي للتصدي له واعتقاله. ويبدو أن سبكتكين هذا لم يكن مخلصاً لسيده، وربما اغترَّ بما تحت إمرته من جند كثيف للقيام بانقلاب ضده والقضاء على الحكم البويهي في العراق، فتوافقت مصلحته في ذلك مع مصلحة أبي تغلب الحمداني، فأجرى معه مفاوضات سرية أسفرت عن تنسيق العمل وتوزيع الأدوار. فكان على سبكتكين أن يقبض على الخليفة المطيع ووالدة بختيار وحرمه ويعلن العصيان في بغداد، أما أبو تغلب، فكان عليه أن يعود إلى الموصل للقضاء على بختيار الذي كان لا يزال معسكراً في أطراف البلدة مع قوة عسكرية قليلة العدد[2]، وبذلك يمكن التخلص من الأسرة البويهية الحاكمة في العراق.

لكن سبكتكين لم يُنفِّذ الخطة المتفق عليها، ويبدو أنه خشي الانقلاب على سيده فتهرَّب من وعده ولحق ببختيار، ما فتَّ في عضد أبي تغلب وجعله يتخلّى عن مشروعه، فغادر بغداد عائداً إلى الموصل، وأجرى مفاوضات مع بختيار في الدير الأعلى خارج المدينة. ووصل في غضون ذلك كل من الوزير محمد بن بقية وسبكتكين وحمدان، وقد نصحوا بختيار بوقف المفاوضات مع أبي تغلب واستئناف قتاله. ويبدو أن الأمير البويهي لم يقتنع بنصيحتهم، فقد ملَّ الحرب والبُعد عن بغداد ومباهجها، كما شعر بتعصب أهل الموصل للحمدانيين وكرههم له، لذلك وافق على شروط الصلح التي جاءت على الشكل التالي:

١ - تخفيض الأموال المفروضة على أبي تغلب.

٢ - تلقيب أبي تغلب بلقب سلطاني من جانب الخليفة.

٣ - تزويج أبي تغلب بابنة بختيار.

٤ - يُفرج أبو تغلب عن أملاك أخيه حمدان وأسبابه[3]، ويعيد إليه قلعة ماردين

---

(١) مسكويه: جـ٢ ص٣١٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٣١٨.
(٣) أسبابه: قرابته.

وكل ما أخذه منها، لأن والده أعطاها إياه[1].

وبعد أن تمَّ الصلح الذي عُقد في (رجب ٣٦٣هـ/ نيسان ٩٧٤م) عاد أبو تغلب إلى الموصل، ورجع بختيار إلى بغداد[2].

لم يكن انسحاب البويهيين من الموصل سوى هزيمة ساحقة، وتُعدُّ المعاهدة الجديدة التي تَمَّ التوصل إليها نصراً لأبي تغلب الحمداني تُوِّج بمنح الخليفة العباسي له، بناء على مشورة بختيار، لقب عدة الدولة مكافأة له على إنجازاته الجهادية ضد البيزنطيين وإرسال الخِلع السلطانية إليه، كما أسند إليه حكم إقليم الجزيرة الفراتية وخاطبه بلهجة تدل على التقدير، ونُقلت زوجته إليه يوم الخميس (٢٠ ذي الحجة/ ١١ أيلول)[3].

ويبدو أن أبا تغلب لم يُنفِّذ كامل بنود الصلح، فقد اتُّهم بقتل جماعة من أصحاب بختيار كانوا قد استأمنوا إليه، فعادوا إلى الموصل ليأخذوا ما لهم بها من أهل ومال، كما واجه هذا الصلح معارضة من جانب بعض مستشاري بختيار، منهم الوزير محمد بن بقية والنائب سبكتكين، وقد عدُّوا بنوده مهينة لهم، فضغطوا عليه لاستئناف الحرب. وتقدمت القوات البهويهية نحو الموصل، فخرج أبو تغلب منها كعادته تجنباً للاصطدام بها، ودخلها بختيار، ثم تَمَّ الصلح بين الطرفين على البنود السابقة، وعاد كل طرف إلى مقره[4].

الصراع التركي - الديلمي وأثره على الحمدانيين

وما جرى آنذاك في بغداد من نزاع بين الأتراك والديلم انعكس سلباً على الوضع الحمداني. فقد ظل حمدان يعمل على الانتقام من أخيه أبي تغلب. وحدث بعد أن عاد بختيار إلى بغداد أن طالبه الجند بأرزاقهم، غير أن خزينة الدولة لم يكن فيها ما يكفي من المال للإنفاق عليهم، فثار هؤلاء عليه، كما واجه ثورة أخرى متزامنة مع ثورة الجند، فقد وقعت فتنة بين الأتراك بقيادة سبكتكين وبين الديلم، فأراد بختيار أن يستغلها لصالحه والتخلُّص من الجند الأتراك، فذهب إلى واسط والأهواز ليتخذهما قاعدة انطلاق ضد سبكتكين في بغداد، مرتكباً خطأ سياسياً وعسكرياً فادحاً، إذ لم يكن له أنصار في تلك المناطق، كما أن أهله وأمواله وأتباعه كانوا في

---

(١) مسكويه: جـ٢ ص٣١٩. ابن الأثير: جـ٧ ص٣١٤، ٣١٥.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٣١٤.
(٣) المصدر نفسه: ص٣١٥. مسكويه: جـ٢ ص٣٢١.
(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص٣١٥.

بغداد تحت رحمة الأتراك، لذلك فشل في القضاء على سبكتكين وجنده، وأضحى هذا القائد التركي المستبد في بغداد بعد أن صدَّ هجوماً ديلمياً[1].

وما حدث في (١٥ ذي القعدة ٣٦٣هـ/ ٧ آب ٩٧٤م) من خلع الخليفة المطيع بسبب مرضه وتحت ضغط سبكتكين، ما دفع هذا الأخير إلى اختيار ابنه الطائع خليفة، ومنحه الخليفة الجديد الامتيازات التقليدية بحيث أضحى في موقع أمير الأمراء[2].

أضحى موقف بختيار حرجاً بعد هذه التطورات، فلم يستطع البقاء في الأهواز، فانسحب إلى واسط وأخذ يلتمس المساعدة من الخارج، فاتصل بعمه ركن الدولة في فارس وابنه عضد الدولة، كما اتصل بأبي تغلب الحمداني ووعده بإسقاط ما عليه من الأموال المستحقة، وأرسل إلى عمران بن شاهين في البطائح، بين واسط والبصرة، وكان يتمتع بقدر من الاستقلال عن بغداد[3]، وقد تفاوتت ردود الفعل وفقاً لمصلحة كل طرف.

كان ركن الدولة يعمل على أن يكون البويهيون قوة متحدة ومتماسكة تواجه ما يعترضهم من مشكلات، أما ابنه عضد الدولة، فكان يطمع بحكم العراق بعد أن شعر بضعف ابن عمه بختيار، بدليل أن الحملة التي قادها إلى واسط، بما تحويه من تجهيزات وعديد، لم تكن مجرد حملة إنقاذ بل حملة احتلال لأراضي ابن عمه والاستقرار بها[4]، وأرسل إليه ألا يبرح مكانه حتى يلحق به ويُدير نواحيه، وراح يماطله بالمسير حتى يزداد موقفه صعوبة أو يقتله الأتراك، ووعده أبو تغلب بالمسير إليه ولكنه كان مخادعاً فأرسل أخاه أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة إلى تكريت على رأس قوة عسكرية ليقيم بها وينتظر نتيجة المعركة بين الأتراك والديلم، وقد طمع في حكم بغداد، ورفض عمران بن شاهين التعاون معه لما كان بينهما من عداوة وقتال[5].

وفي المقابل، استقطب بختيار حمدان بن ناصر الدولة وكان في بغداد، فأغراه بالانضمام إليه، وعيَّنه على مقدمة جيشه، ويبدو أن لهذه الاستجابة علاقة بالعداوة بين الأخوين[6].

وحاصر الأتراك واسط، وعرض سبكتكين على بختيار اقتسام العراق بينهما من

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٣١٦، ٣١٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٣١٨.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٣٢٩.
(٤) فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية: جـ٢ ص١٠٢.
(٥) مسكويه: جـ٢ ص٣٢٩ ـ ٣٣٣.
(٦) المصدر نفسه: ص٣٣٥.

دون تدخل خارجي على أن يسيطر سبكتكين على بغداد وواسط ويحكم بختيار البصرة والأهواز، ويكون الديالمة مع بختيار والأتراك مع سبكتكين، لكن بختيار رفض العرض ودعاه إلى الطاعة، عند ذلك، شدَّد سبكتكين الحصار على واسط[1].

وأرسل بختيار كتاباً إلى الخليفة الطائع في بغداد يُحذِّره فيه من مؤامرات الأتراك، ويُذكِّره بما حصل للخليفة المتقي على يد توزون التركي، ووعده بزيادة إقطاعاته في السواد إذا انضم إليه. وحدث في غضون ذلك أن توفي كل من الخليفة المطيع وسبكتكين، فاختار الأتراك ألبتكين قائداً عليهم واستمروا في حصار واسط. وجدَّد القائد الجديد القيادة لحمدان، إلا أن الأمير الحمداني رأى بعد وفاة سبكتكين، أن الأتراك قد اختلَّ نظامهم، وكان قد علم بمسير عضد الدولة باتجاه العراق ما سيقوِّي موقف بختيار، وأن مصلحته تقضي بالتحول إلى المعسكر الديلمي، فاستقبله بختيار وأكرمه وجعله على مقدمة جيشه ما أثَّر في نفوس الأتراك[2].

ونشبت الحرب بين الطرفين، واستمرت أسابيع عدة جُرح خلالها حمدان ووقع أسيراً في أيدي الأتراك، فمنَّ عليه ألبتكين وأطلق سراحه. وأنهكت الحرب قوات الديلم ما اضطر بختيار إلى تجديد دعوات الاستغاثة، فأرسل إلى أبي تغلب يستعجله القدوم، وإلى عضد الدولة يطلب منه سرعة اللحاق به، ويعلمه أن مملكته قد خرجت من يده وأنه أحق بها ممن غلب عليها، وحاول في الوقت نفسه التفاهم مع ألبتكين فعرض عليه أن يتسلم قيادة جيشه ويمنحه لقب إصبهلار[3].

وعد أبو تغلب بختيار بالقدوم إليه، لكنه استغل خلو بغداد من الجند الأتراك فهاجمها ودخلها ونهبها وظفر بالكثير منها، فلما علم ألبتكين ذلك عاد مسرعاً إلى عاصمة الخلافة، فخرج أبو تغلب منها ومنع عنها المؤن الواردة من الموصل. ووصل عضد الدولة آنذاك إلى واسط واقترح على بختيار التوجه بسرعة إلى بغداد لقتال ألبتكين، وحاصراها من الشرق والغرب، فساءت أوضاعها، وثار أهلها ضد الأتراك. وحتى يُخفف الضغط عنه، خاض ألبتكين المعركة الفاصلة مع البويهيين بين نهر ديالى ومدينة المدائن على الجانب الشرقي لنهر دجلة في (١٤ جمادى الأولى ٣٦٤هـ/ ٣٠ كانون الثاني ٩٧٥م) وأسفرت عن انهزامه ومقتل عدد كبير من أتباعه، وغرق عدد آخر في نهر دجلة. ودخل عضد الدولة بغداد في جو الانتصار[4]، وفرَّ ألبتكين مع من نجا نحو تكريت، ثم ساروا إلى دمشق حيث انخرطوا في النزاع الذي كان دائراً هناك بين الفاطميين والولاة العباسيين

---

(١) مسكويه: جـ٢ ص٣٣٣، ٣٣٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٥.
(٣) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٢٤.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٢٨، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧ ـ ٣٤٣.

والحمدانيين، فدخلوا المدينة بدعوة من أهلها ليساعدوهم ضد الفاطميين(١).

النزاع الأسري البويهي وأثره على الحمدانيين

أدرك بختيار فوراً مدى تأثير الانتصار على مستقبله السياسي، وبخاصة أن عضد الدولة كان ينوي اجتياح أراضيه وضمها إلى نفوذه وقد طمع بالعراق وإن لم يعلن ذلك صراحة خشية من معارضة والده ركن الدولة، فلجأ إلى الحيلة لإزاحة ابن عمه عن الحكم، فأثار الجند عليه، فطالبوه بأرزاقهم ومكافأتهم على انتصارهم على الأتراك، وكان بختيار لا يملك المال، فأشار عليه عضد الدولة أن لا يعدهم بما لا يقدر عليه والتشديد عليهم، وأن يُبدي لهم عدم الاهتمام بالإمارة والرئاسة عليهم. وظنَّ بختيار أن ابن عمه ناصح له ففعل ذلك، وتنازل عن الإمارة وأغلق داره وصرف كتَّابه وحجَّابه، هذا في الوقت الذي كان فيه عضد الدولة يدفع الجند باتجاه التصعيد. وعندما اشتدت الأزمة تدخل في الأمر، فقبض على بختيار وأخويه في (٢٦ جمادى الآخرة ٣٦٤هـ/ ١٣ آذار ٩٧٥م) ووضعهم في الإقامة الجبرية وتسلَّم الحكم معلناً عدم كفاءة ابن عمه في إدارة الحكم وتنازله باختياره عن الإمارة عجزاً عنها(٢)، مدعياً أنه صاحب الحق الشرعي في ميراثه بوصفه خليفة عماد الدولة ووريثه في فارس، وأن كلاً من معز الدولة وابنه بختيار كانا نائبين لعماد الدولة في العراق، وتقرَّب من الخليفة الطائع بالأموال والهدايا، وجدَّد ضمان الموصل لأبي تغلب بناء على طلبه لما كان يجمعهما من مودة(٣).

وأرسل عضد الدولة إلى والده يعلمه بالتطورات السياسية الجديدة، فردَّ عليه بجفاء وأمره أن يُطلق سراح ابن عمه ويعيد إليه أملاكه وتهدَّده إن هو أصرَّ على تنفيذ أهدافه. لم يكن أمام عضد الدولة إلا الاستجابة الفورية لقرار والده، فأطلق سراح ابن عمه وأعاده إلى مركزه، إلا أنه اشترط عليه أن يحكم كنائب عنه، وأن يقيم الدعوة له على المنابر، فوافق بختيار على ذلك(٤).

انسحب عضد الدولة من العراق بعد إخفاقه في إزاحة ابن عمه والحلول مكانه وعاد إلى فارس، فنهض بختيار لترتيب أوضاعه وتثبيت مركزه في العراق، فعاهد الخليفة الطائع، وتفاهم مع العديد من أمراء الأطراف كان من بينهم عمران بن شاهين وأبو تغلب الحمداني، لكن عضد الدولة الذي ظل يطمع في حكم العراق،

(١) مسكويه: جـ٢ ص٣٣٧ ـ ٣٤٣.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٢٨، ٣٢٩. مسكويه: جـ٢ ص٣٤٢، ٣٤٣.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٣٤٦، ٣٤٧.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٥٢.

زحف إلى بغداد بعد وفاة والده في عام (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) ودخلها في العام التالي فتنازل له ابن عمه عن الحكم بعد أن عجز عن مقاومته، وكان واضحاً أنه لم تكن لديه الرغبة أو المقدرة على الحرب. وخرج بختيار من عاصمة الخلافة برفقة حمدان بن ناصر الدولة، واشترط عليه عضد الدولة أن يسير إلى بلاد الشام وألا يتعرَّض لأعمال أبي تغلب الحمداني، فحلف له على ذلك(١). فلما وصل إلى عُكبرا حرَّضه حمدان على مهاجمة الموصل والاستيلاء عليها وطرد أبي تغلب منها وأوحى إليه بكثرة أموالها وأنها أطيب من الشام، وضمن له مساعدته وحمايته عن طريق أنصاره فيها، فاستجاب لإغرائه(٢)، ناقضاً بذلك العهد الذي قطعه على نفسه أمام ابن عمه، ونزل الرجلان في تكريت. فلما علم أبو تغلب بذلك، استقطب بختيار بالهدايا الثمينة، وعرض عليه القبض على أخيه حمدان وأبدى بالمقابل مساعدته على حرب عضد الدولة وطرده من بغداد، فوافق على ذلك بعد تردُّد. فقبض بختيار على حمدان وسلَّمه إلى أبي تغلب الذي سجنه في إحدى قلاعه، ثم قتله بمساعدة أخته جميلة، وفرَّ ابنه أبو السرايا إلى بغداد ملتجئاً إلى عضد الدولة(٣).

وسار بختيار إلى الحديثة، فاجتمع مع أبي تغلب الذي برَّ بوعده، وسارا معاً إلى بغداد على رأس خمسة وعشرين ألف مقاتل، واصطدما بعضد الدولة عند قصر الجص قرب سامراء في (١٨ شوال ٣٦٧هـ/ ٢٩ أيار ٩٨٧م)، وتعرَّضا للهزيمة وأُسر بختيار في المعركة وقُتل بعد ذلك بقليل بأمر من عضد الدولة، وانسحب أبو تغلب نحو الموصل في جو الهزيمة القاتم(٤).

بعد أن قضى عضد الدولة على ابن عمه بختيار وقتله قرَّر القضاء على حليفه أبي تغلب، والمعروف أن سياسته العامة تجاه الحمدانيين تسير على المخطط البويهي الذي رسمه معز الدولة وهو القضاء على هؤلاء وانتزاع الجزيرة منهم. وما إن تقدم نحو الموصل حتى غادرها أبو تغلب جرياً على عادة الحمدانيين المتبعة، وأخلاها من المؤن والمال والكتبة ورؤساء الدواوين، وهذا يعني أنه كان عاجزاً عن المقاومة، فدخلها عضد الدولة، وكان قد احتاط عندما وقف على ما يفعله الحمدانيون إذا ما انسحبوا من الموصل، فحمل معه الميرة والعلوفة والأزواد، كما اصطحب معه عدداً من رجال الموصل القاطنين في بغداد وتكريت وسائر الأطراف، فعيَّنهم في المناصب الإدارية، ورفض العرض الذي قدَّمه أبو تغلب بعقد الصلح، وحتى يقطع عليه كل أمل بالعودة أجابه: «هذه البلاد أحب إليَّ من العراق»(٥).

(١) ابن كثير: جـ١١ ص٢٩٠.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٥٩.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٣٧٩، ٣٨٠.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٨٠ ـ ٣٨٢.
(٥) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٦٠.

وأرسل عضد الدولة فرقه العسكرية لمطاردة أبي تغلب، فتعقَّبته من مدينة إلى أخرى، من نصيبين إلى ميافارقين إلى أرزن إلى الحسنية من أعمال الجزيرة، ولحق أخيراً ببلاد البيزنطيين، فاجتمع بالقائد البيزنطي بارداس، ويبدو أنه التمس مساعدته، غير أن هذا القائد كان منهمكاً في حرب بعض الخارجين على الدولة، فلم يتمكَّن من تقديم المساعدة. فغادر أبو تغلب عندئذٍ الأراضي البيزنطية إلى آمد[1].

واستولت القوات البويهية بقيادة أبي الوفاء على ديار ربيعة وديار بكر، ففتَّ ذلك في عضد أبي تغلب، ومال إلى الصلح، فأرسل إلى عضد الدولة يستعطفه فاشترط عليه القدوم إليه، فرفض أبو تغلب خشية على حياته. ووسَّعت القوات البويهية في غضون ذلك رقعة انتشارها حين تقدَّمت إلى ديار مضر، وكان سعد الدولة الحمداني أمير حلب قد أعلن ولاءه لعضد الدولة منذ انهيار بختيار. وتعبيراً عن المودة والرضى لم يأخذ عضد الدولة سوى منطقة الرقة وترك باقي الإقليم لسعد الدولة بوصفه تابعاً له، فنشر قواته في ربوعها. ومع نهاية عام (٣٦٨هـ/ منتصف ٩٧٩م) كان عضد الدولة قد استولى على كامل إقليم الجزيرة الفراتية، وعاد إلى بغداد في جو الانتصار، فاستقبله الخليفة الطائع في قطربل، بين بغداد وعُكبرا[2].

نتيجة لنزول الكوارث بالحمدانين، وبفعل أنه فقد كل أمل في النصر أو الصلح، رحل أبو تغلب إلى بلاد الشام على أمل أن يجد من يساعده، وقد طمع في الاستيلاء على دمشق، فمنعه واليها قسَّام التراب[3] وصدَّه عنها خشية من أن ينتزعها منه إما قهراً وإما بأمر العزيز الفاطمي، فرحل إلى طبرية وكتب إلى العزيز الفاطمي في مصر يطلب إمداده بتعزيزات عسكرية لفتح دمشق على أن يحكمها باسمه، فماطله وطلب منه القدوم إلى مصر، إلا أنه رفض ذلك خشية على حياته. وهنا تخلَّى عنه معظم أفراد جيشه وبعض أفراد أسرته، فقد فارقه أخوه أبو طاهر وابن عمه أبو الغطريف، والتجأوا إلى عضد الدولة مستأمنين[4].

كانت فلسطين آنذاك مثار نزاع بين دغفل بن المفرج بن الجراح، والي الرملة والموالي للفاطميين، وبين بني عقيل، فأرسل الوزير الفاطمي يعقوب بن كلّس جيشاً بقيادة غلامه الفضل بن أبي الفضل لضم بلاد الشام وتنظيم أوضاعها، فحاول التفاهم مع أبي تغلب على إخراج قسَّام من دمشق وتسليمه إياها، إلا أن أبا تغلب رفض العرض، لأنه فيما يبدو لم يكن يرغب في أن يكون تابعاً للفاطميين[5].

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٦١.
(٢) مسكويه: جـ٢ ص٣٩٢.
(٣) كان قسَّام التراب أحد قادة ألبتكين فانقلب عليه وتسلم الحكم في دمشق.
(٤) مسكويه: جـ٢ ص٤٠١.
(٥) المصدر نفسه: ص٤٠١، ٤٠٢.

والواقع أن أبا تغلب عرض على الفضل أن يسير معه إلى دمشق فرفض الفضل ذلك حتى لا يستوحش قسَّام ويلجأ إلى المقاومة بسبب ما جرى بينه وبين أبي تغلب من قبل، وهو يريد الاستيلاء عليها سلماً[1].

ومهما يكن من أمر، فقد تحالف أبو تغلب مع بني عقيل، فسار إلى الرملة في (محرم ٣٦٩هـ/آب ٩٧٩م) في محاولة للاستيلاء عليها ما أثار شكوك دغفل والفضل. وفي المعركة التي جرت بين الطرفين في (صفر/أيلول) تعرَّض أبو تغلب لهزيمة قاسية، ووقع أسيراً في يد دغفل الذي قتله، وأرسل الفضل رأسه إلى العزيز، وصُلبت جثته ثم أُحرقت. فانتهت بذلك حياة أمير حمداني قوي، ولم يبق من الأسرة الحمدانية، من يملأ مكانه، وقد ترك ولدين هما أبا الهيجاء أحمد وأبا النصر نصر الله[2].

نهاية الإمارة الحمدانية في الموصل

استعاد الحمدانيون بعد عشر سنوات نفوذهم في الجزيرة ولكن لمدة محدودة تُعدُّ بمثابة صحوة ما قبل الموت. فبعد مقتل أبي تغلب رحل أخواه أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين إلى بغداد ودخلا في خدمة شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة البويهي، فلما توفي في (جمادى الآخرة ٣٧٩هـ/ أيلول ٩٨٩م) وخلفه أخوه بهاء الدولة، استأذناه بالذهاب إلى الموصل، فأذن لهما، ويبدو أن قادته عارضوا هذا التوجُّه لما فيه من خطأ سياسي كبير فنصحوه بإعادتهما إلى بغداد، فكتب بهاء الدولة إلى خواشاذة عامله على الموصل يأمره بمنعهما من دخول المدينة، فأرسل إليهما يأمرهما بالعودة، إلا أنهما رفضا الاستجابة وواصلا سيرهما حتى نزلا بظاهر المدينة، فرحَّب بهما أهلها وثاروا على الأتراك والديلم الذين أرهقوهم بالضرائب والتعدي والسلب والنهب، فصادروا أموالهم وممتلكاتهم. ودخل ابنا حمدان الموصل بفضل مساعدة سكانها ورحَّلوا خواشاذة ومن معه إلى بغداد، ووفدت عليهما القبائل العربية مرحبة وبخاصة بنو عقيل[3]، في خطوة عُدَّت كرد فعل للهيمنة الأعجمية على منطقة الجزيرة الفراتية بعامة، إذ إن العنصر العربي لم يتقبَّل الخضوع للعناصر الأعجمية.

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٣٦٦.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٦٦، ٣٦٧. مسكويه: جـ٢ ص٤٠٢، ٤٠٣.
(٣) أبو شجاع، محمد بن الحسين، الملقب ظهير الدين الروزراوري: ذيل كتاب تجارب الأمم: جـ٣ ص١٧٥.

كانت الظروف السياسية مهيأة للأخوين لإعادة إحياء الإمارة الحمدانية، فقد ساندتهما العامة والقبائل العربية، كما كان باستطاعتهما تجنيد ثلاثين ألف مقاتل من الغلمان الحمدانية؛ غير أنهما لم يحسنا التصرف، فقد خشيا عواقب الصراع العنصري، فكتبا إلى الإدارة المركزية في بغداد يبديان ولاءهما للسلطان، وبرَّرا ثورة العامة من واقع أنهما عاجزان عن ضبطها لما في نفوس أفرادها من الديلم[1].

وظهرت آنذاك في الأفق السياسي قوة جديدة غيَّرت موازين القوى بشكل لافت هي قوة الأكراد، وكانوا يمثلون كتلة كبيرة في منطقة الجزيرة الفراتية بزعامة باذ بن دوستك الكردي، الذي أدرك ما وصلت إليه أوضاع الأسرة الحمدانية من تردي في ظل عجز رجالها عن أداء دور سياسي وعسكري فاعل، فقرَّر وراثتها، وكان قد استقر في ديار بكر وملك كثيراً من مدنها، فاستولى على ميافارقين ووصلت بعض قواته إلى نصيبين فاستولت عليها، وتغلَّب على فرق عسكرية عدَّة كان صمصام الدولة قد أرسلها للقضاء عليه، ودخل الموصل واستولى عليها، وقوي أمره، فأرسل إليه صمصام الدولة قوة عسكرية بقيادة زيار بن شهراكويه، بالغ في تجهيزها، واصطدمت به وأخرجته من الموصل، وملكها الديلم[2].

وزحف باذ إلى الموصل في عام (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) للاستيلاء عليها وطرد الحمدانيين منها، وهو يعلم أنهم يفتقرون إلى المال والرجال، ونزل في الجانب الشرقي، فالتمس الأخوان الحمدانيان المساعدة من محمد بن المسيب، أمير بني عقيل، فاشترط عليهما أن يعطياه جزيرة ابن عمر ونصيبين وبلد وبضعة أماكن أخرى في الجزيرة الفراتية، فوافقا على ذلك[3].

ووضع الحلفاء خطة محكمة تكفل لهم النصر، فأرسلوا إبراهيم الحمداني على رأس قوة عسكرية ليشغل باذ في ظاهر الموصل، في حين سار الحسين الحمداني على رأس ألفي فارس مع العقيليين إلى بلد ليعبروا إلى الجانب الشرقي مقابل باذ. وهكذا باغته الحلفاء من الخلف وأحاطوا بجيشه البالغ ستة آلاف مقاتل، وقد خذله أهل الموصل بعد أن كانوا قد وعدوه بالمساعدة[4].

وتحرَّج موقف الزعيم الكردي، فحاول اللجوء إلى الجبل هرباً من ضغط القتال، فلم يتمكَّن، إذ سقط على الأرض خلال انتقاله من فرس إلى آخر، فاندقَّت ترقوته وأصابه فالج منعه من الحراك. وفشل ابن أخته، أبو علي الحسن بن مروان، في

(١) أبو شجاع: جـ٣ ص١٧٦.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٥. (٣) مسكويه: جـ٣ ص١٧٦، ١٧٧.
(٤) المصدر نفسه.

مساعدته على الركوب، فتركه في أرض المعركة وانسحب مع خمسمائة فارس إلى الجبل للاحتماء به. ووقع باذ بين القتلى وبه رمق، فعرفه أحد بني عقيل فقتله وحمل رأسه إلى بني حمدان، وحُملت جثته إلى الموصل، وصُلبت على باب دار الإمارة[1].

خلف الحسن بن مروان خاله باذ في زعامة الأكراد، وعندما هاجم الحمدانيون ديار بكر في محاولة لاسترجاعها، فرّ إلى حصن كيفا الواقع على نهر دجلة حيث يقيم أهل باذ، فتزوج من امرأته وملك جميع أمواله، وزحف إلى ديار بكر فملك ما كان لخاله من حصون وقلاع، ونظم شؤون الدفاع عنها، وواصل الحرب ضد الحمدانيين، فاصطدم بالحسين الحمداني عند ميافارقين وانتصر عليه وأسره، إلا أنَّه منَّ عليه وأطلق سراحه، فالتحق بأخيه إبراهيم الذي كان يحاصر آمد، فأشار عليه أن يعقد الصلح مع الحسن بن مروان وينسحب من ديار بكر ويتوجَّه إلى غيرها، إلا أن أخاه رفض عرضه وأصرَّ على مواصلة الحرب، وزحف لقتال الحسن بن مروان، واضطر الحسين إلى الدخول في طاعة أخيه، غير أنهما تعرَّضا للهزيمة، ووقع الحسين مرة أخرى في الأسر، فأساء الحسن بن مروان معاملته، وضيَّق عليه حتى شفع له العزيز الفاطمي، فأطلق سراحه، فمضى إلى مصر حيث قلَّده صاحب مصر ولاية حلب، فأقام هناك حتى توفي. وانسحب إبراهيم إلى نصيبين ملتجئاً إلى محمد بن المسيب العقيلي، غير أن هذا قبض عليه مع ابنه علي والمزعفر، أمير بني نمير، وقتلهم صبراً[2]، وهذا يعني أن بني عقيل تخلَّوا عن تحالفهم مع الحمدانيين، والراجح أنهم طمعوا في وراثتهم وسط الصراع الدامي الذي كانت تشهده المنطقة، فسار محمد بن المسيب إلى الموصل في عام (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) واستولى عليها، وأقرّ بهاء الدولة البويهي أخاه المقلد بن المسيب عليها في عام (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)[3].

وعلى هذا الشكل، انتهى حكم الحمدانيين في الموصل والجزيرة الفراتية وآلت السلطة إلى العقيليين واستقر الحسن بن مروان في ديار بكر. والواقع أن الأسرة الحمدانية فشلت في تأسيس إمارة مستقرة ثابتة الأركان بفعل أن أمراءهم نهجوا خلال حياتهم السياسية السلوك القبلي والعشائري، فافتقروا إلى فن الحكم، ولم يكونوا رجال دولة، وكان عهدهم عبارة عن سلسلة من الصراع الدائم مع أطراف عدة، العباسيين والبويهيين والأكراد والقبائل الضاربة في الجزيرة الفراتية، بالإضافة إلى النزاعات الأسرية، ما سهَّل على أعدائهم أن يقضوا عليهم.

(١) مسكويه: جـ٣ ص١٧٧، ١٧٨. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٣٥.
(٢) مسكويه: جـ٣ ص١٧٨، ١٨٨. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٣٥، ٤٣٨.
(٣) مسكويه: جـ٣ ص١٧٩، ٢٨٣. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٣٨، ٤٨٣، ٣٨٤.

البَابُ الرَّابع

الإمارة الحمدانية في حلب

٣٣٣ ـ ٤٠٧هـ/ ٩٤٤ ـ ١٠١٧م

الفصل الثاني عشر: سيف الدولة الحمداني: الأوضاع الداخلية والعلاقة مع الأخشيديين.

الفصل الثالث عشر: سيف الدولة الحمداني: العلاقة مع البيزنطيين.

الفصل الرابع عشر: خلفاء سيف الدولة ـ نهاية الإمارة الحمدانية.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَرَ

سيف الدولة الحمداني

٣٣٣ ـ ٣٥٦هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٦٧م

الأوضاع الداخلية والعلاقة مع الأخشيديين

قيام الإمارة الحمدانية في حلب

التفت ناصر الدولة، بعد تثبيت أقدامه في الموصل، إلى توسيع رقعة أراضيه عن طريق ضمّ بلاد الشام، فاستغل وفاة محمد بن رائق في (٢١ رجب ٣٣٠هـ/ ١١ نيسان ٩٤٢م) ليهاجم هذه البلاد، وقد عدَّ نفسه وريثاً لابن رائق ويجب أن تنتقل أملاكه إليه. والمعروف أن الأمير الحمداني نظر إلى بلاد الشام على أنها منطقة نفوذ له ومجاله الحيوي ورفض أن ينازعه عليها أحد، ولاحت مطامحه في حلب وضواحيها، وتُعدُّ هذه المدينة ذات أهمية بالغة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمواجهة البيزنطيين وتبوُّء مركز متقدم في العالم الإسلامي، بفضل ما تتمتع به من حصانة عسكرية ومركز متميز وإمكانات اقتصادية وبشرية وسياسية هامة، بالإضافة إلى موقعها على خطوط المواصلات بين إيران والعراق من جهة وبلاد الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، وغدت منذ عهد طويل قاعدة لا يمكن من دونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام[1]، في الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة الفراتية والأناضول وشمالي بلاد الشام وأواسطه، ما يُعدُّ أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد ضد البيزنطيين، لذلك

---

(١) قسَّم المسلمون بلاد الشام بعد فتحها خمسة أجناد، أو مناطق عسكرية هي: جند قنسرين وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص، ثم تغيَّرت هذه التقسيمات في العهود اللاحقة لتستقر في بداية العهد الأموي، وبعد معركة مرج راهط في عام (٦٤هـ/ ٦٨٤م)، من الناحية النظرية على الأقل، على قسمين هما: شمالي بلاد الشام وجنوبي بلاد الشام. وانقسمت بلاد الشام الجنوبية بدورها إلى قسمين: قسم فلسطيني، ومركزه الرملة، وقسم دمشقي، وكانت دمشق كبرى مدن هذا القسم، وتُعدُّ مدينة حلب مركزاً للقسم الشمالي.

كان ضمُّها إلى الموصل بمثابة فتح الطريق أمام ناصر الدولة ليتبوَّأ مركزاً متقدماً في العالم الإسلامي.

وساعدت الظروف السياسية، التي كانت تمر بها بلاد الشام بعامة وحلب بخاصة بعد وفاة ابن رائق، ناصر الدولة لتحقيق تطلعاته حيث استقلَّ نواب ابن رائق بما تحت أيديهم. فقد انفرد محمد بن يزداد الشهرزوري بحكم دمشق، وانضوى تحت جناح محمد بن طغج الأخشيد، فأقرَّه هذا على عمله، وحكم أحمد بن علي بن مقاتل مدينة حلب ومعه مزاحم بن محمد بن رائق كمساعد له في إدارة شؤونها[1].

ونهض ناصر الدولة لضمّ حلب إلى الموصل، فعيَّن أحد أتباعه، ويُدعى علي بن خلف، والياً على ديار مضر والشام، وأرسله لانتزاعها من يد أحمد بن علي بن مقاتل، وطلب من يانس المؤنسي أن يساعده، وكان والياً على مصر. اجتمع القائدان في منبج، وأرسل يانس المؤنسي كاتبه ومعه غلامه نذير إلى حلب وحمَّلهما رسالة إلى أحمد بن علي بن مقاتل يدعوه فيها إلى طاعة الحمدانيين، فرفض هذا دعوته وكان يرغب بالاستقلال بحلب، واستعدَّ لمواجهة القوات الحمدانية، فاصطدم بها على شاطئ الفرات ثم في وادي بطنان بين منبج وحلب، إلا أنه تعرَّض للهزيمة. ودخلت القوات الحمدانية مدينة حلب وضمَّها ناصر الدولة إلى الموصل[2].

أثار ضمّ حلب إلى الموصل، محمد بن طغج الأخشيد، فنهض لاستعادة نفوذه في شمالي بلاد الشام وتثبيت أقدامه فيها، فدخل محمد بن يزداد في طاعته وسلَّم إليه دمشق، فأقرَّه عليها، ثم تقدَّم باتجاه حلب، فخشي علي بن خلف على مركزه فيها في ظل انهماك ناصر الدولة في محاربة البريديين، فترك طاعة الحمدانيين وانضمَّ إلى الأخشيد الذي استوزره، وارتفع شأنه عنده، حتى إذا رأى الأخشيد فيه الرفعة وكثرة الأتباع، أمر بالقبض عليه وسجنه، وظل مسجوناً حتى وفاة الأخشيد في (ذي الحجة ٣٣٤هـ/ تموز ٩٤٦م). وتسلَّم يانس المؤنسي ولاية حلب حتى عام (٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، فاعترف بسيادة الأخشيد وخطب له على المنابر في المناطق الواقعة تحت نفوذه[3].

لم ييأس ناصر الدولة من استعادة سيطرته على حلب، فأجرى في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م) مباحثات مع أمير الأمراء توزون لاقتسام مناطق النفوذ بينهما، أسفرت عن اتفاق يقضي بأن:

- يتولي ناصر الدولة الأراضي في الموصل إلى آخر أعمال بلاد الشام.

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٠٦. ابن الأثير: جـ٧ ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص١٠٦.   (٣) المصدر نفسه.

- يسيطر توزون على أعمال السن إلى البصرة، بالإضافة إلى ما يفتحه من وراء ذلك.
- لا يتعرَّض أحدهما لعمل الآخر[1].

ونتيجة لهذه القسمة، ولَّى ناصر الدولة أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل، حلب وديار مضر والعواصم، وكان قد استقطبه، فسار إليها من الموصل، إلا أنه لم يتمكَّن من دخول المدينة، لذلك عهد ناصر الدولة إلى أحد أفراد البيت الحمداني القيام بذلك. فعيَّن ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان والياً على المنطقة وما يفتحه من بلاد، فتوجَّه إلى بلاد الشام في (رجب ٣٣٢هـ/آذار ٩٤٤م) يرافقه أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل، فاستولى على الرقة عنوة بعد أن منعه أهلها من دخولها وأسر واليها محمد بن حبيب البلزمي، وأحرق قسماً من البلدة وقبض على زعمائها، ثم توجَّه إلى حلب[2].

أدرك واليها يانس المؤنسي أنه عاجز عن التصدِّي للقوات الحمدانية، فهرب منها مع أحمد بن العباس الكلابي، فطارده الأمير الحمداني إلى معرة النعمان ثم إلى حمص فدخل المدينة وهرب منها واليها إسحاق بن كيغلغ، وأخضع الحسين القبائل العربية المجاورة وعاد إلى حلب[3].

أقام الأمير الحمداني مدة قصيرة في حلب حيث تعرَّض لهجوم نفَّذه محمد بن طغج الأخشيد، واضطر تحت ضغط القتال إلى مغادرتها إلى الرقة ولكنه لم يتمكَّن من دخولها، لأن الخليفة المتقي لم يأذن له بذلك، وكان قد وصل إليها هارباً من توزون ومعه سيف الدولة الحمداني الذي فارق أخاه ناصر الدولة لخلاف وقع بينهما، وأُغلقت أبواب المدينة في وجهه، وتوترت العلاقة بينه وبين ابن عمه سيف الدولة، فتوسط الخليفة بينهما، ثم غادرها إلى حران فالموصل. واختبأ محمد بن مقاتل حتى دخل الأخشيد مدينة حلب، فخرج من مخبئه واستأمنه، فقلّده الأخشيد أعمال الخراج والضياع في مصر[4].

واجتمع الخليفة المتقي مع الأخشيد في الرقة، فاعترف له ولأبنائه من بعده بحكم بلاد الشام قاطعاً بذلك الطريق أمام الحمدانيين للولوج إلى هذه البلاد، وأضحى الأخشيد من القوة ما مكَّنه من إعادة بسط سيطرته على كامل البلاد، واستقطب كلّاً من علي بن خلف ويانس المؤنسي وعلي بن مقاتل.

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٠٧.

(٢) المصدر نفسه: جـ١ ص١٠٨. ابن الأثير: جـ٧ ص١٣٢.

(٣) ابن العديم: جـ١ ص١٠٨.

(٤) المصدر نفسه: ص١٠٩. ابن الأثير: جـ٧ ص١٣٣.

ومرَّ الأخشيد أثناء عودته من الرقة بمدينة حلب، فعيَّن عليها أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي، وولّى أخاه مدينة أنطاكية[1]. وأدرك الحمدانيون بعد هذه التطورات السياسية أن بلاد الشام لا تؤخذ إلا بالقوة المسلحة، فلم يُعيروا تقليد الخليفة للأخشيد أي اهتمام، كما لم يكن له أي تأثير سلبي على مطامعهم فيها.

وبرز آنذاك سيف الدولة الحمداني كرجل طموح يسعى إلى تأسيس إمارة مستقلة له تُشبع نزوته السياسية، إذ لم يقنع بتبعيته لأخيه ناصر الدولة والعمل في ظله، وأمل، بما حقَّقه من إنجازات وما قدَّمه من خدمات جليلة إلى الأسرة الحمدانية، أن يكافئه بولاية يحكمها، لكن خاب أمله عندما ولّى أخوه ابن عمه الحسين بن سعيد إمارة الثغور والعواصم وما يفتحه من بلاد الشام، ما كان له أثر سيء في نفسه.

ويبدو أن ناصر الدولة انتابه القلق من أخيه سيف الدولة ووجوده معه، وبخاصة بعد أن بدت ملامح الشجاعة والطموح السياسي تظهر عليه، وارتاب في نواياه لذلك راح يفكر بالتخلص منه من واقع إبعاده عن الموصل ومنطقة الجزيرة الفراتية، فلفت نظره إلى بلاد الشام مدركاً في الوقت نفسه ما يحيط بهذه البلاد من مصاعب بسبب التنازع عليها بين الخلافة والأخشيديين، وكانت هزيمة ابن عمه الحسين بن سعيد أمام الأخشيد في حلب لا تزال ماثلة أمام عينيه.

والواقع أن سيف الدولة تطلع إلى حكم بلاد الشام منذ عام (٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، وكان آنذاك نائباً لأخيه ناصر الدولة في واسط، فحاول أن يُزهِّد الأتراك في العراق ويُرغِّبهم بقصد بلاد الشام، إلا أنه فشل في ذلك بفعل بُعد الشام عن العراق، وقد نضجت ظروف الاستيلاء عليها في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) بعد أن غادرها الأخشيد عائداً إلى مصر وترك فيها نواباً ضعافاً، غير أنه كان بحاجة إلى الرجال والمال، فطلب من أخيه أن يمده بألف رجل وبقدر من المال، فرفض ناصر الدولة طلبه وردَّ عليه بجفاء، وفشلت محاولاته العديدة في إقناعه حتى أنه لجأ إلى زوجته الأثيرة عنده، فاطمة الكردية. عند ذاك، انتابت سيف الدولة الريبة من أخيه، فغادر الموصل على عجل إلى بلد. ويبدو أن ناصر الدولة استدرك الواقع السياسي، وشعر بأنه أخطأ بحق الأسرة الحمدانية وبحق أخيه، بفعل أن طموح الأسرة يتعدى الموصل وإقليم الجزيرة الفراتية إلى بلاد الشام ومصر، وأن أي نجاح يُحققه أحد أفرادها يصب في المصلحة العامة، كما أن أخاه كان ساعده الأيمن وسانده بإخلاص في كل ما صادفه من صعاب، فتراجع عن موقفه وأرسل إلى أخيه ما يلزمه من الرجال ومعهم خمسين ألف دينار، وشجَّعه على المسير إليها، ونصحه باستغلال فرصة

(١) ابن العديم: جـ١ ص١١١.

الاضطراب التي كانت تشهدها، لأن أهلها يساندون من يُنقذهم من هذه الحالة[1].

وهكذا هيَّأ ناصر الدولة لأخيه الجيش الذي استولى بواسطته على حلب وأسَّس الإمارة الحمدانية في شمالي بلاد الشام.

وما حدث من حسد إخوة الوالي أبي الفتح عثمان بن سعيد الكلابي نائب الأخشيد، وحقدهم عليه بفعل علو مكانته، أتاح لسيف الدولة أن يدخل المدينة، فقد استدعاه الكلابيون ووعدوه بتسليمها له، فسار نحوها[2].

وأدرك أبو الفتح عثمان بن سعيد أنه عاجز عن التصدِّي له في ظل انفضاض الكلابيين من حوله وافتقاره إلى حامية أخشيدية، وحتى يحافظ على حياته، خرج من المدينة واجتمع بسيف الدولة على نهر الفرات وأعلن ولاءه له، فأكرمه سيف الدولة من دون إخوته وأركبه معه العمارية[3]. ودخل الأمير الحمداني المدينة يوم الاثنين (٨ ربيع الأول ٣٣٣هـ/ ٢٦ تشرين الأول ٩٤٤م)، وأعلن قيام الإمارة الحمدانية[4].

وأخذ سيف الدولة يُوطِّد نفوذه في حلب، فعزل قاضيها أحمد بن محمد بن ماثل وولّى أبا حصين علي بن عبد الملك الرقي[5]، واستولى على ما حولها من المدن والقرى، ثم أقام الخطبة للخليفة العباسي المستكفي ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه من بعدهما، ووجد الخليفة نفسه عاجزاً عن التدخل والحد من نفوذ سيف الدولة، فاعترف بالأمر الواقع، فبارك خطوته وأرسل إليه الخلع.

المشكلات الداخلية التي واجهت سيف الدولة

واجه سيف الدولة خلال حياته السياسية أخطاراً داخلية عدة نجمت عن خروج الأعراب وثورات القرامطة على حكمه، وقد هدَّدت كيان إمارته. والواقع أن سياسة الحمدانيين العامة المالية والاقتصادية القاسية، أثارت القبائل العربية سواء في الجزيرة الفراتية أو في بلاد الشام، والمعروف أن الحمدانيين عمدوا إلى توفير المال اللازم للإنفاق على مشروعاتهم العمرانية وحروبهم التي لا تنقطع وبلاطهم الفخم؛ فنهبوا أموال الناس. أما ثورات القرامطة فقد اتصفت بالفردية بفعل الطموح الشخصي وانتشار المذهب القرمطي والخارجي بين قبيلة كلب بشكل خاص.

ففي عام (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م) ظهر قرمطي في بلاد الشام، دعى نفسه صاحب الخال

(١) التنوخي، أبو علي المحسن: نشوار المحاضرة: جـ١ ص٢٤٠.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص١١١. الكامل في التاريخ: جـ٧ ص١٥٣، ١٥٤. يبدو من رواية ابن الأثير أن أبا الفتح عثمان بن سعيد كان يتولى حلب نيابة عن يانس المؤنسي.
(٣) العمارية: هودج يجلس عليه. (٤) ابن العديم: جـ١ ص١١٢.
(٥) المصدر نفسه.

وتلقَّب بالهادي وسُمِّي بالمبرقع، فادعى النبوة وراح يدعو الناس إلى دعوته فساندته قبائل طيء وكلب، وأخذ يهاجم المدن والقرى. وحدث أن خرج بعض الأعراب، وعاثوا في أعمال حمص، واعتصموا بقرية الحدث، إحدى قرى الثغور الجزرية، فخرج أبو تغلب بن داوود بن حمدان، ابن عم سيف الدولة ونائبه على حمص، لإخضاعهم، فتصدَّى له صاحب الخال وأسره. وما إن علم سيف الدولة بما جرى لابن عمه حتى خرج من حلب للتصدِّي لصاحب الخال وتحرير ابن عمه، فمرَّ بمعرة النعمان، وسار منها إلى حماة ثم إلى حمص، والتقى بصاحب الخال في قرية وادي العرب على بُعد خمسين ميلاً من حمص، فهزمه وقتله وحرَّر ابن عمه، وهدم قرية الحدث[1]، وغرَّم أهلها خمسة آلاف دينار لتمردهم عليه[2].

وفي عام (٣٤٣هـ/ ٩٥٤م) ثارت قبيلة بني كلاب وعاثت في نواحي بالس، بين حلب والرقة، وكان سيف الدولة منهمكاً في حرب البيزنطيين، فترك الجبهة البيزنطية وسار إلى بالس وأخضعها، ولم يُسِئ إلى أسراها وبخاصة النساء، فأكرمهن وأعادهن إلى أهلهن.

وتكتَّلت في السنة التالية قبائل عامر بن صعصعة، وهي عقيل وقشير والعجلان وأبناء كعب من ربيعة بن عامر وكلاب بن عامر، ضد سيف الدولة. وعقد الحلفاء مؤتمراً في سلمية قرب حمص، وقد عبَّروا عن سخطهم وغضبهم مما نالهم من ظلم وطغيان من سيف الدولة مما لم يتعوَّدوه، وقرَّروا القيام بالاضطرابات والفتن في أراضي إمارته، وانحاز بعض جنود من كعب إلى جماعة الثائرين، فأغاروا على عماله وساندتهم العامة، ما يدل على أن كثيراً من السكان كانوا ساخطين على الحكم الحمداني. وشُغل سيف الدولة عنهم بفعل قدوم وفد بيزنطي لطلب الصلح، فاستغل الحلفاء هذه الفرصة فتمادوا في عبثهم في أطراف الإمارة، وقتلوا والي قنسرين الصباح بن عمارة، فغضب سيف الدولة ونهض لوضع حد لتعدياتهم، فخرج في (١١ صفر ٣٤٤هـ/ ٦ حزيران ٩٥٥م) إلى قنسرين ونفَّذ عملية مطاردة ضد الثائرين، فاستسلمت بنو كلاب، فعفا عنهم، وتابع تعقُّب بقيتهم، فاشتبك معهم في معارك عدة وهزمهم في سلمية، ففروا إلى بادية السماوة وتوغلوا فيها، فطاردهم حتى تدمر، وضيَّق عليهم حتى اضطروا إلى الاستسلام وطلب العفو، فعفا عنهم، وفرَّقهم في الجزيرة الفراتية، وعاد إلى حلب[3].

---

(١) وتُعرف بالحدث الحمراء لحمرة أرضها. (٢) ابن ظافر: ص٣١، ٣٢.

(٣) أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان: ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق سامي الدهان: جـ٢ ص١١، ١٢.

ويبدو أن سياسة التسامح مع القبائل العربية، تتعلق بمدى حاجة سيف الدولة إلى استقطابها وعدم توسيع هوَّة الخلاف معها، لأنها تُشكِّل عنصراً مهماً في إمارته، ثم إنه أراد أن يتفرَّغ لخطر أشد من خطر هؤلاء وهو خطر البيزنطيين، فرأى أن يُبرِّد الجبهة الداخلية.

وتعرّض حكم سيف الدولة لثورة أخرى في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) قام بها أهل حرَّان ضد عامله هبة الله بن ناصر الدولة بسبب ظلم موظفيه، فانتهزوا فرصة غيابه عند عمه في حلب وطردوا هؤلاء الموظفين، وعندما حاول هبة الله دخول المدينة إثر عودته من حلب صدَّه أهلها وأغلقوا الأبواب في وجهه، فاضطر أن يلتمس المساعدة من عمه، فقدم سيف الدولة على رأس جيشه، فدخل المدينة، واستسلم الحرانيون[1].

وما حدث في تلك السنة لدى عودة سيف الدولة من غزوة له ضد البيزنطيين حيث أصابته غشية، وظنَّ الناس أنه مات، فاستغلَّ هبة الله الفرصة ليقطع ما تيسَّر من أراضي الإمارة، فدخل حرَّان وأعلن العصيان، وأوهم أهلها بأن عمه سيف الدولة قد توفي وأنه كتب إلى أبيه ناصر الدولة لينجده بجيش، وطلب منهم أن يساندوه ويقفوا معه ضد كل من يحاربه، وأن يقسموا على ذلك، وهذا يعني أنه لم يكن يثق بهم، فحلفوا على الإخلاص له، إلا أنهم استثنوا عمه من القسم[2].

وعندما أفاق سيف الدولة من غشيته أُخبر بعصيان ابن أخيه فغضب وأرسل غلامه نجا إلى حرَّان للقبض عليه، وما إن وصل إليها حتى غادرها هبة الله إلى والده ناصر الدولة في الموصل، فدخل نجا المدينة وأعاد سلطة سيف الدولة فيها، واشتطَّ في جباية الأموال، وصادر منهم مليون درهم، ففاق بتعسفه هبة الله[3].

واغترَّ نجا بما تجمَّع لديه من أموال وأعلن عصيانه على سيده، وسار إلى ميافارقين تاركاً حرَّان من دون والٍ، وقصد أرمينيا، فقتل واليها أبا الورد، واستولى على خلاط وملاذكرد[4]، واتصل بمعز الدولة البويهي، وكان آنذاك في نصيبين، وعرض عليه التحالف ضد سيف الدولة، والمعروف أن العلاقة بين البويهيين والحمدانيين آنذاك كانت سيئة[5].

لم يركن سيف الدولة إلى الهدوء، وهو يرى خروج أحد غلمانه عليه، فخرج من

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٤٣. (٢) مسكويه: جـ٢ ص١٩٧.

(٣) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٤٤، ٢٤٥.

(٤) ملاذكرد أو منازجرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يُعدُّ من أرمينيا وأهله أرمن. الحموي: جـ٤ ص٢٠٢.

(٥) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٤٧.

حلب لإخضاعه، ولما وصل إلى ميافارقين، خشي نجا على نفسه فهرب من بين يديه، وملك سيف الدولة الأراضي والقلاع التي أخذها من أبي الورد. لم ينج نجا بفعلته، فقد وثب عليه غلمان سيف الدولة وقتلوه بين يديه في داره بميافارقين في (ربيع الأول ٣٥٤هـ/آذار ٩٦٥م)، فحزن عليه سيف الدولة حزناً شديداً، وقتل قاتله[١].

وثار في عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) قرمطي آخر يدعى مروان العقيلي وكان قد استأمن من سيف الدولة، ورافقه في بعض حملاته الجهادية ضد البيزنطيين، وتولى السواحل نيابة عنه، فاستولى على حمص وما جاورها، فأرسل إليه الحاجب قرغويه غلامه بدر فاشتبك معه في غربي كفرطاب بين معرة النعمان وحلب، ورمى بدر مرواناً بنشابة مسمومة أثناء القتال، غير أنه وقع في أسره، وقتله مروان صبراً، وتوفي بعد أيام من أثر ضربة بدر، وعاد قرغويه إلى حلب[٢].

وشهد عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) أيضاً ثورة أخرى هدَّدت الإمارة الحمدانية في الصميم قادها رشيق النسيمي، وكان هذا القائد قد فرَّ إلى أنطاكية بعد سقوط طرسوس في يد البيزنطيين. وكان في أنطاكية آنذاك رجل مغمور يدعى حسن الأهوازي يعمل على ضمان المستغلات لسيف الدولة، فاجتمع برشيق النسيمي وحرَّضه على الثورة على سيف الدولة مستغلاً غيابه عن حلب، في ميافارقين، بعد خسارته أمام البيزنطيين، وأنه لن يعود. فاستجاب رشيق النسيمي له، وأعلن الثورة. وحتى يُقوِّي موقفه اتصل بالامبراطور البيزنطي والتمس مساعدته مقابل مبلغ ستمائة ألف درهم سنوياً، وسانده الأهالي، فطردوا عمال سيف الدولة من أنطاكية، وزوَّر كتاباً ذكر فيه أن الخليفة العباسي قلَّده أملاك سيف الدولة وجميع أعماله، فَقُرئ على منبر أنطاكية. واستغل حسن الأهوازي ما تجمَّع لديه من المال وكوَّن فرقة عسكرية، واستأمن إليه دزبر بن أونيم الديلمي وجماعة من الديلم الذين كانوا مع الحاجب قرغويه في حلب[٣].

وطمع رشيق النسيمي في توسيع رقعة نفوذه بالاستيلاء على حلب، فتقدم نحوها على رأس خمسة آلاف مقاتل، فتصدَّى له يمن، غلام الحاجب قرغويه، عند أرتاح وهي من أعمال حلب، إلا أنه انهزم أمامه واستسلم له، وتابع رشيق النسيمي زحفه باتجاه حلب فتصدّى له بشارة الخادم عند أسوارها، إلا أنه تغلَّب عليه ودخل

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٤٧، ٢٤٨. وقارن بابن كثير، الذي يذكر أن سيف الدولة أمر بقتله: جـ١١ ص٢٥٣.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٥٨، ٢٥٩. ابن العديم: جـ١ ص١٤٠، ١٤١.
(٣) ابن العديم: جـ١ ص١٤١.

المدينة في (الأول من ذي القعدة/ ٢٩ تشرين الأول)، لكن امتنعت عليه القلعة، فحاصرها ثلاثة أشهر تخلَّلها قتال بين الطرفين، قُتل خلاله رشيق النسيمي، فقد طعنه أبو يزيد الشيباني فسقط عن حصانه، فتلقاه أحد المقاتلين وقتله وحزَّ رأسه ومضى به إلى الحاجب قرغويه، الذي عاد إلى حلب. وفرَّت قوات رشيق النسيمي إلى أنطاكية واختار أفرادها دزبر بن أونيم خلفاً له، وعقدوا له الإمارة فاستوزر أبا علي الأهوازي، وحاول أن يصبغ حركته بالصبغة العلوية لاستقطاب الشيعة هناك وتقوية موقفه، والمعروف أن المبادئ الشيعية كانت تلقى صدى واستجابة لدى العامة، فخرج قرغويه من حلب إلى أنطاكية للقضاء عليه إلا أنه تعرّض للهزيمة واستسلم كثير من أفراد جيشه، فعاد إلى حلب وتحصَّن بقلعتها. واستولى دزبر على المدينة في (جمادى الأولى ٣٥٥هـ/ أيار ٩٦٦م)، واستقر بها، وأقام وزيره مع جنده في قنسرين فانضم إليه بنو كلاب، وجبى الخراج من حلب وحمص، وعيَّن الولاة والقضاة والشيوخ والعمال على الولايات، ما استدعى تدخل سيف الدولة شخصياً، فزحف على رأس قواته إلى حلب فدخلها، وبات فيها مريضاً، قد أصابه الفالج وبطل شقه الأيسر، فتحامل على نفسه ونفَّذ عملية مطاردة للثائرين حتى سبعين، شرقي حلب. وعندما رأى بنو كلاب سيف الدولة انحازوا إلى صفوفه ما أضعف موقف دزبر. وجرى اللقاء الدامي بين الطرفين عند هذه المدينة وأسفر عن انتصار سيف الدولة، ووقع دزبر والأهوازي في أسره، فقتل الأول من يومه واستبقى الثاني أياماً ثم قتله[١].

علاقة سيف الدولة مع الأخشيديين

التفت سيف الدولة، بعد أن ثبَّت أقدامه في حلب وجوارها إلى التوسع، فاستولى على قنسرين والثغور الشامية وأنطاكية وحمص، واستعد للزحف نحو دمشق، في ظل ضعف الخلافة العباسية وتراجع النفوذ الأخشيدي في بلاد الشام الذي اقتصر على حكم ولاة ضعاف. وصلت أنباء هذه التطورات إلى محمد بن طغج الأخشيد في مصر، فرأى أن أطماع سيف الدولة قد تجاوزت الحد، فتدخَّل لدى الخليفة العباسي المستكفي وشكا له ما أقدم عليه الأمير الحمداني، وطلب منه أن يحدَّ من اندفاعه، إلا أن الخليفة كان عاجزاً عن التأثير المثمر، وحتى يُهدِّئ من روع الأخشيد، ويُعبِّر له عن ثقته به أرسل الخِلع له ولابنه أنوجور.

كان من الطبيعي، بعد هذا التطور السلبي، أن ينهض محمد بن طغج الأخشيد

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٤١ ـ ١٤٤. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٥٥، ٢٥٦.

للدفاع عن نفوذه في بلاد الشام وينتقم من سيف الدولة ويطرده من أملاكه التي استولى عليها بالقوة، فأرسل جيشاً ضخماً إلى بلاد الشام بقيادة كافور ويانس المؤنسي. والتقى الجيش الأخشيدي بسيف الدولة عند الرستن، في منتصف الطريق بين حمص وحماة، وجرى بينهما قتال ضارٍ أسفر عن هزيمة الجيش الأخشيدي، وغرق بعض أفراده في نهر العاصي عندما ازدحموا على جسر الرستن، وأمر سيف الدولة قواته بألا يقتلوا أحداً من الجند الأخشيدي وقال لهم: «الدم لي والمال لكم»، ما أكسبه سمعة طيبة، أضاف إليها مأثرة أخرى حين أطلق سراح الأسرى الأخشيديين الذين بلغوا أربعة آلاف أسير، فمضى هؤلاء وشكروا فضله[١].

الواضح أن تصرف سيف الدولة ينم عن بُعد نظر، فقد كسب عطف المسلمين، وحُبَّ رجال الأخشيد واحترامهم، وظهر أمام الخلافة بمظهر من لا يرغب في خوض معارك جانبية مع جيرانه المسلمين، وإنما هو متفرغ للجهاد ضد البيزنطيين، وذلك في خطوة لاكتساب ثقتها، وهذا ما تمَّ فعلاً، فقد أرسل الخليفة إليه الخِلع. والواقع أنه اتخذ من تصرفه هذا غطاء لتحقيق مطامعه في السيطرة على كامل بلاد الشام ومصر.

كانت دمشق الهدف التالي لسيف الدولة، وبخاصة أن حاميتها باتت ضعيفة بعد الهزيمة التي مُني بها الجيش الأخشيدي، وأصبحت مدينة مفتوحة أمامه، فتقدم إليها على رأس قواته، ووصل إلى مشارفها. ويبدو أن الدمشقيين كانوا متخوفين منه وقد شعر هو بذلك، وحتى يطمئنهم كتب إليهم كتاباً تعهد لهم فيه بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم مبيناً دوره في جهاد البيزنطيين. واستغل التأثير الديني في نفوسهم فأوحى إليهم أنه لم يأت طامعاً أو غازياً وإنما مدافعاً عنهم ضد عدوهم وعدو الله، ودعاهم إلى المواظبة على حياتهم العادية. وقُرئ الكتاب على منبر المسجد الجامع وأُرسلت نسخة منه إلى محمد بن طغج الأخشيد في مصر، ثم دخل سيف الدولة إلى المدينة في (رمضان ٣٣٣هـ/ أيار ٩٤٥م)[٢].

وكان الجيش الأخشيدي قد تقهقر بعد خسارته إلى دمشق عن طريق حمص، فطاردته القوات الحمدانية، فمضى إلى الرملة، وأرسل كافور وهو في الرملة رسالة إلى سيده في مصر يُخبره بتطورات الوضع العسكري في بلاد الشام وهزيمته أمام سيف الدولة[٣].

---

(١) ابن العديم: جا ص١١٣.

(٢) المصدر نفسه: ص١١٣، ١١٤. ابن ظافر: ص٣٠. وقارن بابن الأثير الذي يذكر أن سيف الدولة حاصر دمشق في هذه السنة فلم يفتحها أهلها له: ج٧ ص١٥٤. وانظر نصَّ الكتاب عند ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بمصر: جا ص١٩٣.

(٣) ابن ظافر: ص٣٠.

الواقع أن محمد بن طغج الأخشيد كان واقعاً تحت الضغط الفاطمي وأراد أن يتفرَّغ لهذا الخطر القادم من المغرب، لذلك لم يشأ أن يفتح جبهة جديدة في بلاد الشام تستنزف قواه، فمال إلى التفاهم مع سيف الدولة. فأرسل إليه يطلب الموادعة والوفاق واقتسام بلاد الشام على أن يحتفظ سيف الدولة بما في يده من المدن، وأن يبذل له الأخشيد عن دمشق ما كان يدفعه لابن رائق[١]، ويعني ذلك أن يحتفظ سيف الدولة بالأراضي الواقعة شمالي دمشق، وتكون دمشق وما يليها جنوباً تحت سيطرة الأخشيد.

رفض سيف الدولة سياسة التفاهم مع الأخشيد وردَّ عليه بقساوة حين قال له: «جوابك إذا دخلت مصر إنشاء الله»[٢]. وهكذا توضَّحت سياسة سيف الدولة، فهو لن يكتفي ببلاد الشام وهدَّد الأخشيد بالزحف إلى مصر، وأخذ يستعد للتقدم نحو الرملة. ونتيجة لهذا الرفض لم يكن أمام الأخشيد سوى الخروج بنفسه إلى بلاد الشام للثأر لهزيمة جيشه عند الرستن وطرْد سيف الدولة من الأراضي التي اغتصبها. فغادر مصر على رأس جيش ضخم متوجهاً إلى دمشق واستخلف على مصر ابنه أنوجور، وعسكر في الرملة ثم تقدم نحو طبرية. وكان أحد قادته، ويدعى عيسى كيل، قد انضم إلى سيف الدولة في دمشق، فاستقطبه الأخشيد ببذل الأموال والخِلع والمناصب، وأرسل إليه خاتمه ليدعو له بين سكان دمشق ويحضهم على الترحيب به، والوقوف معه ضد سيف الدولة، فاستجاب له، فاستأذن سيف الدولة وكان يرافقه في الشماسية لإخضاع بعض الأعراب، وطلب منه السماح له العودة إلى دمشق لدخول الحمام، فأذن له. والطريف أن عيسى هذا شرب وسكر ودعا الناس إلى الأخشيد، ولما أفاق من سكره هرب ليلاً إلى طبرية وانضم إليه، فخلع عليه وأهداه فرساً. استجاب الدمشقيون لدعوة عيسى كيل، وكانوا يكرهون سيف الدولة، ربما لأسباب مذهبية. وكان لهذا التوجه الدمشقي أثر في انهزامه، إذ عندما عاد إلى دمشق بعد قضائه على ثورة الأعراب، منعه أهلها من الدخول، فانسحب إلى حمص في طريقه إلى حلب، ويبدو أنه شعر بتفوق الأخشيد عليه في العتاد والعدد وبخاصة بعد أن انضم إليه معظم أفراد جيشه[٣].

تقدم الأخشيد إلى دمشق عندما علم بانسحاب سيف الدولة ودخلها، ثم تعقَّب سيف الدولة إلى حمص، غير أن هذا غادرها إلى قنسرين، وظل الأخشيد يطارده حتى نزل معرة النعمان، فجمع سيف الدولة عساكره واصطدم به في قنسرين في (شوال/ حزيران). وحقَّق سيف الدولة انتصاراً في بداية المعركة، فهزم مقدمة الجيش

---

(١) ابن ظافر: ص٣٠. (٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن العديم: جا ص١١٤. ابن سعيد: ص١٩٤.

الأخشيدي وهاجم خيمة الأخشيد وهو يظنه في المقدمة، غير أن الأخشيد، الذي كان مختبئاً مع فرقته الصابرية، ظهر فجأة في ميدان المعركة، ورجحت كفته وهزم سيف الدولة. وفرَّ الأمير الحمداني من أرض المعركة ناجياً بنفسه، ولم يتعقّبه أحد من جنود الأخشيد، فتوجَّه إلى إقليم الجزيرة الفراتية، ودخل الرقة، ويبدو أنه أراد أن يدخل حلب فمنعه أهلها، فدخلها الأخشيد، وأفسد أصحابه في جميع النواحي، وقطعوا الأشجار التي كانت في ظاهر حلب وكانت كثيفة جداً، وانتقم الجنود الأخشيديون من السكان لميلهم إلى سيف الدولة، وبالغوا في إيذائهم[١].

لم يتمكَّن الأخشيد من البقاء مدة طويلة في حلب، وبخاصة بعد تقدم سيف الدولة إليها وقد عسكر في مواجهة قواته، مدركاً أن الحرب ستدوم إلى أن يقضي أحد الطرفين على الآخر، فعاد إلى دمشق ومال إلى التفاهم، وقد عدّه الطريق السليم، فتردَّدت الرسل بينهما، وأدى الحسن بن طاهر العلوي دوراً هاماً في تقريب وجهات النظر، وتوصَّل معهما إلى عقد اتفاق صلح في (ربيع الأول ٣٣٤هـ/ تشرين الأول ٩٤٥م) تضمَّن البنود التالية:

- أن يكون لسيف الدولة من جوسية[٢] إلى حمص وسائر أعمالها.
- أن يكون للأخشيد من دمشق وما بين يدها إلى آخر أعمالها.
- يدفع الأخشيد أتاوة لسيف الدولة عن دمشق.
- التقارب الأسري بالزواج، فيتزوج سيف الدولة فاطمة ابنة أخي الأخشيد عبيد الله بن طغج[٣].

عارض أركان حرب الأخشيد ما أقدم عليه من الصلح، وكانوا يودون مواصلة القتال للقضاء على سيف الدولة، فطلبوا من شيخ شيوخ دمشق، وكان الأخشيد يأنس به، أن يلومه على ما أقدم عليه من الصلح والمصاهرة مع سيف الدولة، فلما حدَّثه الشيخ برَّر تصرفه بقوله: «.. إعلم أن علي بن حمدان كاتبناه من الرملة فبذلنا له فلم يفعل، وكاتبناه من طبرية، فامتنع، ثم سرنا إليه ورزقنا الله تعالى النصر عليه وعلى أصحابه الظفر، فلم ينصرف وخيَّم حذاءنا بوجه صفيق وقلة حياء، فتوقفت عنه، فقال لي الغلمان: دعنا نمضي تلقاءه، ففكَّرت في قولهم، ولم أخل من أحد وجهين: إما أن يهزمنا ويرزق علينا النصر فتكون الفضيحة، وإما أن نرزق عليه

(١) ابن سعيد: ص١٩٤. ابن العديم: جـ١ ص١١٤، ١١٥.

(٢) جوسية: قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق. الحموي: جـ٢ ص١٨٥.

(٣) ابن سعيد: ص١٩٤. وقد ذكر أن فاطمة ابنة الأخشيد، ولكن الصحيح ما ذكره ابن العديم من أنها ابنة أخيه عبيد الله: جـ١ ص١١٥.

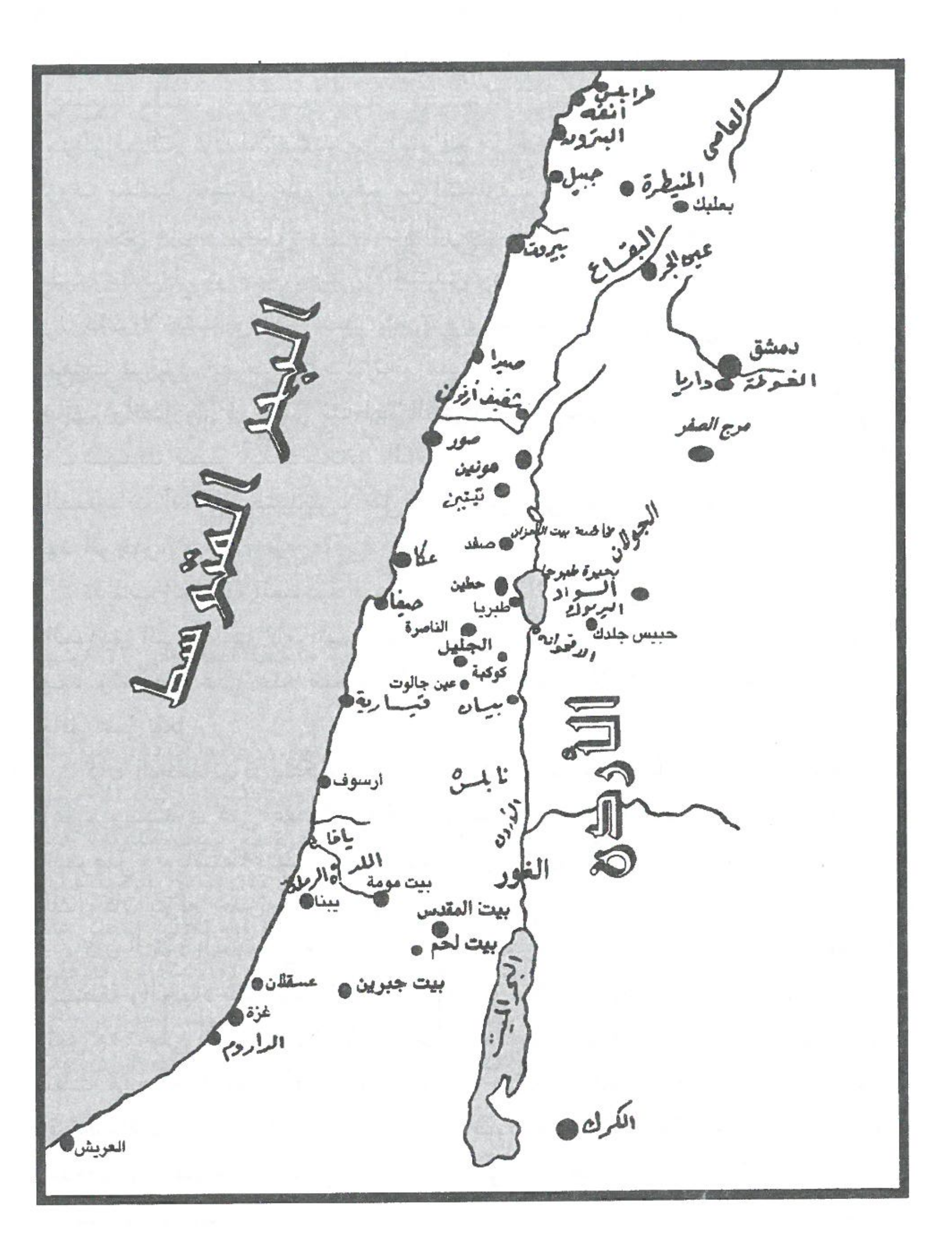
النصر فنأخذه، فإيش أعمل به؟ هل هو أكثر من أن أنزله في مضرب يشبهه وأنفق عليه ما يصلح له، ثم أجهزه وأرده إلى أخيه وأهله لأنهم لا يتركونه؟ وأقل ما كان يكفيني له مائتا ألف دينار، ثم لا أطيق غلماني من إذلالهم والشجب والتجني عليَّ بما عملوه، ويطلبون مني الأعمال والولايات، فرأيت أن مسالمته ومصالحته أفضل وأصلح...»[١].

والواقع أنه كان للأخشيد من الدوافع ما جعله يُقدم على عقد الصلح في ظل ظروف سياسية معقَّدة، على الرغم من انتصاره[٢]، لعل أهمها:

- لم تكن هزيمة سيف الدولة حاسمة لدرجة تدفعه إلى الاستسلام، بدليل أنه زحف إلى حلب وعسكر في مواجهة الجيش الأخشيدي، وليس من المستبعد أن يستأنف القتال.
- كان الأخشيديون في مصر يتعرضون لضغط فاطمي مزدوج، فالفاطميون في المغرب يترقبون الفرص للتحرك نحو مصر والاستيلاء عليها، ومن جهة أخرى كثَّف دعاتهم وأنصارهم في مصر نشاطهم الدعوي حتى أقلقوا الأخشيديين.
- شهدت مصر آنذاك بعض الحركات الانتفاضية التي أثارت الاضطراب والصعوبات أمام الأخشيديين، مثل ثورة غلبون في منطقة الأشمونين التي قامت في عهد أنوجور.
- تذبذب الخلافة العباسية في تعاملها مع الأخشيديين، فعلى الرغم من العهود والمواثيق التي بذلتها لأمرائهم، كانت تُرسل القادة والولاة إلى بلاد الشام لتُهدِّدهم بهم، وتحرص على عدم منحهم الفرصة للتنفس والاستراحة، ولم يكن الأخشيد بغافل عما تفعل.
- كان الحمدانيون يُشكِّلون قوة كبيرة في المنطقة ذات ثقل سياسي وعسكري فاعل، ويستندون على عصبية عربية قوية منتشرة في بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية والموصل، وباستطاعتهم تجهيز جيش كبير لا يجتمع لأحد، وقد أدرك الأخشيد ذلك وكان يتوقَّع حدوثه عند الضرورة.
- كان النفوذ الحمداني في الموصل قد استقر منذ مدة، وربط الحمدانيون مصيرهم بالمنطقة والجهاد ضد البيزنطيين، ونظروا إلى بلاد الشام، وبخاصة منطقتها الشمالية وثغورها، على أنها مجالهم الحيوي ولا يمكنهم أن يتخلوا عنه. وقد أدرك الأخشيد بفطنته هذه الظاهرة، ورأى في وجودهم حاجزاً منيعاً ضد الخطر البيزنطي المشترك، وقوة فاعلة لحماية بلاد الشام ومصر، توفِّر جهوده وتؤمِّن الدفاع عنه، ولهذا فإن مصلحته الشخصية، ومصلحة المسلمين العامة تقضي في تنمية هذه القوة الفتية وتشجيعها.

(١) ابن سعيد: ص١٩٥.

(٢) زيود: ص٣١١ ـ ٣١٥.



القسم الجنوبي من بلاد الشام

ـ اتصف الأخشيد بالواقعية وبُعد النظر السياسي، فتجنَّب الدخول في صراعات أدرك أنها لن تؤدي إلى نتائج إيجابية من واقع إنهاء إحدى القوتين الأخشيدية والحمدانية، وفي ذلك خسارة كبيرة للقوة الإسلامية العامة، وفضَّل تحقيق المصالح الإسلامية العليا في المنطقة القاضية بتوحيد الجهود ضد العدو الخارجي.

ـ كان الأخشيد رجل سلام لا يحب سفك الدماء، فقد رأينا أنه في حربه مع محمد بن رائق تصرَّف التصرف نفسه وتنازل له عن بعض أملاكه، ودفع له الأتاوة على الرغم من انتصاره عليه.

أما سيف الدولة فقد وافق على هذا الصلح ضمن سياسة خاصة بانتظار الظروف التي تتيح له استئناف التوسع باتجاه الجنوب، بدليل أنه ما إن توفي الأخشيد في (٢٢ ذي الحجة ٣٣٤هـ/ ٢٥ تموز ٩٤٦م) حتى ضمَّ دمشق وتابع طريقة إلى الرملة ليضمها في محاولة لامتلاك الأقاليم الأخشيدية وتوحيد بلاد الشام.

هدأت الأوضاع، مؤقتاً، في بلاد الشام بعد عقد اتفاق الصلح بين سيف الدولة والأخشيد، وتفرَّغ الأول للجهاد ضد البيزنطيين. وعلى أثر وفاة الأخشيد خلفه ابنه أنوجور، وكان في دمشق مع وصيه كافور، لكن أموراً طارئة حدثت في مصر استدعت عودتهما، فانسحبا مع معظم قواتهما من دمشق، فخلت المدينة من حامية قوية تردُّ عنها الحمدانيين، فاستغل سيف الدولة هذه الفرصة وهاجمها، ناقضاً بذلك الاتفاق المعقود مع الأخشيديين، ودخلها في (صفر ٣٣٥هـ/ أيلول ٩٤٦م) واستسلم حاكمها الأخشيدي يانس المؤنسي، ثم توجّه سيف الدولة إلى الرملة واستولى عليها، وراودته أفكار في مواصلة الزحف إلى مصر وانتزاعها من الأخشيديين، لكن أوضاع دمشق المضطربة دفعته إلى التوقف عن الزحف والعودة إلى المدينة، ذلك أن سياسته المالية واشتطاطه في طلب الأموال، من واقع مطالبة الدمشقيين بودائع الأخشيد، بالإضافة إلى محاولة مصادرة الأملاك الخاصة وتحويلها إلى ملكية خاصة له؛ أثارت الدمشقيين، ويروي المؤرخون أن سيف الدولة كان يتنزه يوماً في الغوطة بظاهر دمشق مع الشريف العقيقي[1]، أحد وجهاء المدينة، فأعجبته وقال للعقيقي: «والله ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد. فقال له العقيقي: هي يا مولاي لأقوام كثيرة. فقال له سيف الدولة: لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرأون منها». فأسرَّها الشريف في نفسه، وأعلم أهل دمشق بذلك، فخشوا أن يصادر سيف الدولة أملاكهم، فكاتبوا كافور الأخشيدي يستدعونه ليخلِّصهم من طغيانه[2]، فاستغل كافور

---

(١) عند ابن الأثير: العقيلي: جـ٧ ص١٦٤.

(٢) ابن سعيد: ص١٩٨. ابن العديم: جـ١ ص١١٧.

هذه الفرصة الثمينة لكي يستردَّ ما فَقَدَه الأخشيديون من الأراضي في بلاد الشام، فغادر مصر على رأس جيش ضخم واصطحب معه أنوجور. وخرج سيف الدولة من دمشق للتصدي له وعسكر في اللجون، على بُعد عشرين ميلاً من طبرية، وأقام أياماً في مواجهة الجيش الأخشيدي. وحدث يوماً أن تفرَّق العسكر الحمداني في القرى بحثاً عن العلف والقوت، فداهمتهم القوات الأخشيدية، وجرى قتال ضار بين الطرفين أسفر عن انهزام الجيش الحمداني ومقتل وأسر الكثير من أفراده، واضطر سيف الدولة إلى الانسحاب إلى دمشق، فأخذ أهله وأمواله ومتاعه وسار خفية إلى حمص من دون أن يعلم به أحد من الدمشقيين، وكان ذلك في (جمادى الآخرة ٣٣٥هـ/ كانون الثاني ٩٤٧م)، فأعاد تنظيم صفوف قواته، وجمع جيشاً كبيراً من الأعراب من بني عقيل ونمير وكلب وكلاب، وخرج على رأسه من حمص للاصطدام بالجيش الأخشيدي، وكان هذا الجيش قد دخل دمشق إثر انتصاره، ثم قام بعملية مطاردة للقوات الحمدانية واصطدم بها في مرج عذراء من غوطة دمشق. وحقَّق سيف الدولة انتصاراً في بداية المعركة، غير أنه تعرَّض في النهاية لخسارة جسيمة اضطرته إلى الانسحاب إلى حلب، فطاردته القوات الأخشيدية، فعبر إلى الرقة، وانفضَّ عنه يانس المؤنسي واستقر في أنطاكية، ودخل الأخشيديون حلب في (ذي الحجة/ تموز)[١].

التفت كافور بعد انتصاره إلى تنظيم بلاد الشام، فعيَّن يانس المؤنسي والياً على حلب بعد أن استماله، وتعهد هذا بالتصدي لسيف الدولة، وقدَّم له أحد أولاده رهينة تكفل ولاءه وإخلاصه، وولّى بدر الأخشيدي على دمشق[٢]، ثم عاد مع أنوجور إلى مصر.

لم يمكث يانس المؤنسي في حلب أكثر من شهر، فقد هاجمه سيف الدولة في (ربيع الآخر ٣٣٦هـ/ تشرين الثاني ٩٤٧م)، فلم يصمد أمامه وهرب إلى سرمين في طريقه للالتحاق بكافور، فأرسل إليه سيف الدولة فرقة مطاردة بقيادة إبراهيم بن البارد العقيلي، فسبى عياله وأمواله، ثم مال الطرفان الحمداني والأخشيدي إلى الصلح وتردَّدت الرسل بينهما، واتفقا على إعادة إحياء صلح عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) مع إلغاء البند المتعلق بدفع الأخشيديين الضريبة عن دمشق، لأن كافور رفض أن يدفعها، فتوقف المدُّ الحمداني باتجاه جنوبي بلاد الشام، واستقر السلام بين الطرفين وتفرَّغ سيف الدولة للجهاد ضد البيزنطيين انطلاقاً من حلب.

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص١٦٤. ابن ظافر: ص٣٠، ٣١. ابن العديم: جـ١ ص١١٧، ١١٨.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. ابن العديم: المصدر نفسه: ص١١٨.

الفَصْلُ الثَالِث عَشَر

سيف الدولة الحمداني

٣٣٣ ـ ٣٥٦هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٦٧م

العلاقة مع البيزنطيين

طبيعة ميدان المواجهات العسكرية

الثغور والعواصم الإسلامية: يُعَدُّ ظهور إقليم الثغور[١] والعواصم[٢] في شمالي الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، حلقة من سلسلة حلقات التطوُّر التي مرَّ بها النظام الإداري في الدولة الإسلامية منذ أن فتح المسلمون تلك الجهات، وقد تأثَّر بعوامل عدَّة أهمّها:

العامل الجغرافي، المتعلّق بسَيْر الحملات العسكرية إلى آسيا الصغرى، والجدير بالذِّكر أنّ المسلمين كانوا يَنْوون استكمال العمليات العسكرية بعد فتح الجزيرة الفراتية وشمالي بلاد الشام لتأمين فتوحهم في تلك المناطق، بالسيطرة على منطقة الدروب، وهو ما كان يخشاه الامبراطور البيزنطي هرقل بعد خروجه من إنطاكية إلى القسطنطينية، فجهَّز قوّة عسكرية تُقدَّر بثلاثين ألف جندي للدفاع عن الدروب[٣]. ويبدو أن المسلمين علموا بهذه الخطوة العسكرية من جانب البيزنطيين، فقرَّروا أن يرسلوا جيشاً لفتح الدروب والإغارة على الأراضي البيزنطية القريبة منهم، ثم تقديم تقرير عن وضع البلاد لتحديد الخطوة المُقبلة[٤]، وهذا يعني تحديد مهمّة الجيش بالاستطلاع، وتقصّي الأخبار ليتصرَّف القادة المسلمون على أساسها.

(١) الثغور: جمع ثغر، كل موضع قريب من أرض العدوِّ. الحموي: جـ٢ ص٧٩.

(٢) العواصم: جمع عاصم، حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية، وقصبتها أنطاكية، وكان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء، وأكثرها الجبال فسُمِّيت بذلك. المصدر نفسه: جـ٤ ص١٦٥.

(٣) الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر: فتوح الشام: جـ٢ ص٧.

(٤) المصدر نفسه.

وضمن هذا الإطار، وضع الخليفة عمر بن الخطاب، الذي اضطرَّ إلى استكمال الحرب مع البيزنطيين، أساس نظام جديد لتنفيذ هذا الغرض، بعد أن «قسم الأرزاق وسمَّى الشواتي والصوائف، وسدَّ فروج الشام ومسالحها، وذلك في عام (١٧هـ/ ٦٣٩م)»[١]. ونتيجة لهذا التوجّه، أرسل أبو عبيدة بن الجراح أوّل صائفة إلى بلاد البيزنطيين تعدادها أربعة آلاف مقاتل، بقيادة ميسرة بن مسروق العبسيّ، وقد عُرِفت هذه الغزوة بغزوة مرج القبائل داخل الدروب أو غزوة الحطمة[٢]، وتمثِّل بداية الدخول إلى الأراضي البيزنطية في ظلّ ذهول البيزنطيين. والمعروف أن حملات الشواتي والصوائف استمرّت ناشطة وبشكل كثيف في العهد الأُمويّ والعهد العباسي الأول قبل أن تتراجع نسبيّاً في العهود العباسية اللاحقة، وقد أحيا سيف الدولة الحمداني هذه «الاستراتيجية» متّبعاً خُطى المسلمين الأوائل.

عامل الجهاد الديني، بتحويل دار الحرب إلى دار الإسلام من واقع فتح كافّة الأراضي البيزنطية، وبخاصة العاصمة القسطنطينية، ويتعلّق بهذا العامل الجهادي ما ورد في القرآن الكريم من المرابطة والغزو. يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران/ ٢٠٠]. والمراد بالمرابطة هنا، في أحد وجوهها، مرابطة الغزو في نحو العدو وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين[٣]، وقد أبرز الفتح الإسلامي أُسس هذا التنظيم الجهادي من واقع الاحتكاكات الأُولى على أطراف الدولة البيزنطية.

وهكذا وجد المسلمون المنفذ لِمَا يجيش في صدورهم من رغبة في الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، والميدان الذي يقرِّب دخولهم إلى دار الآخرة بنفسٍ راضية؛ لذا تعدَّدت غزواتهم إلى بلاد البيزنطيّين[٤].

وحرص المسلمون، منذ أن فتحوا بلاد الشام، على تحصين مناطق الحدود الفاصلة بينهم وبين البيزنطيّين حيث تاخمت حدودهم حدود الامبراطورية البيزنطية، وقد تشكَّلت هذه الحدود من سلسلتي جبال طوروس وطوروس الداخلية، يحميها خطٌّ طويل ومتعرِّج من القلاع المعروفة بالثغور، وقد سُمِّيت بذلك مجازاً؛ إذ كان الثغر بالمعنى المعروف هو الميناء البحري، ويمتدّ هذا الخطّ من ملطية على الفرات

(١) الطبري: جـ٤ ص٦٤. (٢) الواقدي: جـ٢ ص٥ ـ ١٤.
(٣) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم: جـ١ ص٤٤٤.
(٤) الجنزوري، علية عبد السميع: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى: ص٣٠.

الأعلى إلى طرسوس القريبة من ساحل البحر المتوسّط، وتُقسم هذه الثغور إلى مجموعتين، إحداهما تحمي إقليم الجزيرة الفراتية، وتُسمّى ثغور الجزيرة، وهي الشمالية الشرقية، والأخرى هي الجنوبية الغربية، والمعروفة باسم الثغور الشامية[١].

والراجح أنّ الثغور الشامية كانت، أيام عمر وعثمان، أنطاكية وغيرها من المدن المدعوّة بالعواصم[٢]، لكن مع تقدّم الفتوح إلى الأمام، أضحى خطّ الثغور محمياً بموقعه الطبيعي، وبالتالي أصبح حامياً لخطّ العواصم.

تتركّز الثغور الجزرية والشامية في أرض الجزيرة الفراتية في شمالي العراق من جهة وأرض الشام من جهة أخرى، كما تتّصل بأرمينيا من ناحية الشرق والشمال الشرقي، وبآسيا الصغرى من ناحية الشمال، ويقع ساحل البحر المتوسّط بالقرب منها، ثم إنّ ارتباط أعالي الجزيرة الفراتية والشام واضح من الناحية الجغرافية.

تشمل الثغور الجزرية منبج وسميساط والحدث وحصن منصور وملطية وزبطرة، في حين تتألف الثغور الشامية من الإسكندرون وبياس والمصيصة وعين زربة وأذنة وطرسوس وأولاس والكنيسة السوداء والهارونية، ويلاصق هذه الثغور برّاً من بلاد البيزنطيين إقليم كبادوكيا، أمّا من ناحية البحر، فيجاور إقليم سلوقية البيزنطي[٣].

تتخلّل الطرق المؤدِّية إلى الثغور ممرّات جبليّة، وهي التي اجتازها كلّ من المسلمين والبيزنطيّين خلال غزواتهم المتبادلة، أهمّها:

ـ الدَّرب الذي يصل مرعش بالبستان، ويحمي حصن الحدث، الذي يقع على ضفاف نهر آق صو[٤].

ـ الدرب المعروف باسم أبواب قيليقيا، ويبلغ طوله سبعين ميلاً، يبدأ من سفح هضبة آسيا الصغرى جنوبي طوانة، وينتهي عند السفح الجنوبي لجبال طوروس، وتقع بالقرب من طرفه الشمالي قمة يبلغ ارتفاعها نحو ألف قدم، تُشرف على السهول الجنوبية في كبادوكيا، والمنحدرات الشمالية لجبال طوروس. وقامت على هذه القمّة قلعة لؤلؤة المنيعة، والتي تُعَدُّ مفتاح ممر قيليقيا، وتتحكّم في الطريقين اللذين يلتقيان بالقرب منها، وهما الطريق الشمالي المؤدّي إلى طوانة، والطريق الغربي الذي ينتهي عند هرقلة؛ لذلك كانت محطّ أنظار المسلمين والبيزنطيين الذين تبادلوا امتلاكها.

(١) يقسم البعض الثغور بعامة إلى ثلاثة أقسام: شامية وجزرية وبكرية. انظر قدامة بن جعفر: كتاب الخراج، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة: ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٢) البلاذري: ص١٦٨. الحموي: جـ٢ ص٨٠.
(٣) قدامة بن جعفر: ص٢٥٣، ٢٥٤.
(٤) ليسترينج، كي: بلدان الخلافة الشرقية: ص١٥٤، ١٥٥، ١٦٥، ١٦٦.

وكان ما يُجْمَع من ثغور الشام من خراج يُنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها، وهي المراقب والحرس والموكلين بالدروب والمخائض والحصون، وما شابه ذلك من الأمور التي يحتاج إليها الجند[١].

حرص المسلمون، لدى تأسيس الثغور:

- أن تقوم على أبواب الطرق لرصد تحرّكات العدو والتصدّي له.
- بعيدة عن البحر وقريبة من الصحراء التي يحسنون القتال فيها.
- أن تكون محصّنة بثنيات الأنهار ومنعطفات الجبال أو بالخنادق يحفرونها أو بغير ذلك من الموانع الطبيعية أوالاصطناعية التي تضمن لمواقعهم ميزة عسكرية فائقة.

وكان المسلمون يغزون الأراضي البيزنطية في الربيع والصيف ـ الصوائف ـ والشتاء ـ الشواتي ـ. تبدأ الغزوات الربيعية لعشرة أيام تخلو من شهر أيار، بعد أن يكون الناس أربعوا دوابهم، وحَسُنت أحوال خيولهم، فيُقيمون ثلاثين يوماً، وهي بقية أيار وعشرة من حزيران، فإنّهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكناً، وكانت دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً، ثم يُقفلون، فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً، وهي بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشرٍ تخلو من تموز، فيقيمون لوقت قفولهم ستّين يوماً. أمّا الشواتي، فإنْ كان لا بدّ منها فليكن مما لا يبعد فيه المحارب ولا يُوغل، وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في آخر شباط، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من آذار، فإنهم يجدون مواشيهم كثيرة، ثم يرجعون ويربعون دوابهم[٢].

أما العواصم، فهي سلسلة من الحصون الداخلية الجنوبية بين حلب وأنطاكية، وقصبتها أنطاكية وربما دخل فيها ثغور المصيصة وطرسوس وتلك النواحي. واخْتُلف في وضع حلب، فزعم بعضهم أنها ليست منها، وإنما هي من أعمال قنسرين، وبعضهم يزعم أنها منها، ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان زمان يزيد بن معاوية، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً، فلمّا اسْتُخلف هارون الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصيَّرها جنداً، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون، فسمّاها العواصم؛ لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها، فتعصمهم وتمنعهم من العدوّ إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر، وجعل مدينة العواصم منبج، وأسكنها عبد الملك بن صالح بن

(١) ڤازيلييف: العرب والروم: ص٩٠.

(٢) قدامة بن جعفر: ص٢٥٣. ڤازيلييف: ص٩١.

علي بن عبد الله بن عباس، وذلك في عام (١٧٣هـ/ ٧٨٩م)[١]. والواقع أنّ هارون الرشيد هدف إلى خلق منطقة حدودية على الأطراف على غرار منطقة الأطراف البيزنطية، تعصم الغزاة وتساعدهم على صدّ غارات البيزنطيين، وبذلك تتميّز عن الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية.

تُقسم المنطقة الفاصلة بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية في العهد الحمداني إلى ثلاث مناطق تبدأ من نقطة على الفرات تقع فوق سميساط، وتمرّ بين حصن منصور وزبطرة، وفوق الحدث ومرعش، وقد اتبعت سلسلتي جبال طوروس حتى أبواب قيليقيا ونهر اللامس، واتّجهت من ناحية نحو الشمال إلى شرقي سميساط فأرمينيا.

الأولى: المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية، وتجتاز هذه المنطقة ليكادونيا وكبادوكيا وأعالي نهر هاليس، قزل إرماق، وليكوس والمجرى الأعلى لنهر الفرات أو قره صو، النهر الأسود.

الثانية: المنطقة الوسطى، وتشمل إقليم ملطية ونهر القباقب، والضفة اليمنى لنهر الفرات من ملطية إلى النهر الأزرق، والثغور الجزرية بين ملطية ومرعش والمجرى الأعلى لنهر جيحان، والمجرى الأعلى لنهر سيحان وكبادوكيا وقيصرية.

الثالثة: المنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية، وأشهر أجزائها إقليم الفرات بين النهر الأزرق والثغور الشامية، إقليم طوروس وممراته، إقليم جيحان الأوسط وقيليقيا وممرات طوروس القيليقية، وبوابات قيليقيا إلى قيصرية[٢].

يمثِّل تاريخ الثغور والعواصم المراحل المختلفة للصراع الكبير بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية من أجل السيادة على شرقي وجنوبي آسيا الصغرى، وأدّت الحروب المتواصلة بينهما إلى إخلاء المنطقة من سكّانها، لذلك عمد الخلفاء من حينٍ إلى آخر، إلى نقل جماعات من مختلف أرجاء الدولة إليها، ما جعل سكانها خليطاً من نصارى مستعربة، وصقالبة[٣] وفرس وزط[٤] وتُرك وبيالصة[٥] وأرمن الذين شكّلوا قوّة عسكرية ضاربة طالما ساندت البيزنطيّين[٦].

(١) الحموي: جـ٤ ص١٦٥، ١٦٦.

(٢) Canard, M: Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie, Tom I, P. 761.

(٣) الصقالبة: من برابرة الشمال، ظهروا لأوّل مرة في عهد الامبراطور جستنيان: (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، عبروا الدانوب وتغلغلوا في أعماق الأقاليم البيزنطية، واستقرّوا في بعضها.

(٤) الزطّ: هم النور.

(٥) البيالصة: من أصل بيزنطي لكن يخالفون البيزنطيّين في العقائد، لذلك كانوا يساعدون المسلمين في غزواتهم.

(٦) ابن خرداذبة: ص٢٥٤.

وشغلت المنطقة الحدودية مكانة خاصَّة عند المسلمين بوصفها أماكن للجهاد ضدّ البيزنطيّين، فقصدها المتطوّعة واستقرّوا فيها ليشنّوا الغارات على أعدائهم. وكانت طرسوس قاعدة الجهاد قد استقطبت عدداً كبيراً من المتطوعة، وقصدها الغزاة من كلِّ أنحاء الدولة الإسلامية.

الثغور البيزنطية: عندما تسلَّم الامبراطور هرقل زمام الحكم في القسطنطينية في عام ٦١٠م، كان الخراب والدمار قد حلّا بالامبراطورية، وساءت أوضاع البلاد الاقتصادية والمالية، وأصاب الشلل أجهزة الإدارة الحكومية، وأضحى النظام العسكري الذي يستند على تجنيد المرتزقة عديم الفائدة بعد أن عجزت الدولة عن القيام بذلك بفعل فراغ الخزانة من الأموال. ويَكْمن دور المال مع تنامي الدولة الإسلامية وتهديد المسلمين للمناطق الجنوبية لبلاد الشام، وتعرَّضت الأقاليم الكبيرة الواقعة في وسط الامبراطورية لغارات الأعداء؛ فاستقرّ الصقالبة والآفار في البلقان في حين وطّد الفرس وجودهم في قلب آسيا الصغرى، ولم يكن ثمّة وسيلة لإنقاذ الامبراطورية التي أضْحت بحاجة ماسَّة للدفاع عن نفسها، سوى قيام حركة إصلاح داخلية.

وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية تتعرَّض للضغط الخارجي وسوء الأوضاع الداخلية، انصرف هرقل إلى القيام بإصلاحات بالغة الأهمّية وهَبَتها قوَّة جديدة. لقد التفت في بادئ الأمر إلى إعادة تنظيم أقاليم الدولة بما أدخله من نظام الأجناد، وترتَّب على ذلك التخلُّص من أُسس النظام الإداري الذي وضعه الامبراطوران دقلديانوس وقسطنطين، والذي لم يَعُد ملائماً لسدِّ حاجات العصر[1].

وجرى تقسيم الأراضي التي لم يمسَّها العدوّ بالضرر إلى أقاليم عسكرية كبيرة، وهي المعروفة بالأجناد، يتولّى حكم كلّ منها قائد عسكري، فاتّخذت التنظيمات الإدارية الجديدة بذلك طابعاً عسكريّاً خالصاً[2].

ويتمثّل هذا النظام في استقرار الجند في أقاليم آسيا الصغرى وبلاد الشام؛ ولذا جرى إطلاق لفظ أجناد على الأقاليم العسكرية التي نشأت بعد ذلك، وأضحى هذا اللفظ، الذي كان يُطلق على لواءٍ من الجند، يُطلق على الأراضي التي تشغلها القوات العسكرية، وتقرَّر منح الجند مساحات من الأرض كحلٍّ للاضطراب المالي بشرط أن تكون الخدمة العسكرية مقابل ذلك وراثية.

قسَّم هرقل آسيا الصغرى إلى أربعة أجناد، هي:

---

(١) العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية: ص١٢٠.

(٢) Vasiliev, A: The Byzantine Empire, p 227. Ostrogorsky, G: History of the Byzantine State, p 56.

الأرمنياك: يقع إلى الشمال الشرقي ويتاخم أرمينيا.

الكارابيسيان: يقع على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى.

الناطليق: يقع في المنطقة الشرقية.

الأبسيق: يقع قرب بحر مرمرة على الساحل الغربي.

أمّا الأقاليم الواقعة إلى الشرق والجنوب من هذه الجهات، فكانت في أيدي الفرس، لذلك لم يشملها نظام الأجناد[1].

ويُعدُّ نظام الإقطاع العسكري الأساس الذي قام عليه جيش وطني قويّ، وهو الذي حرَّر الامبراطورية مما تفتقر إليه من الجند المرتزقة الذين يُكلّفون الدولة أموالاً طائلة، وغدا الجند الفلّاحون، الذين حصلوا على إقطاعات مقابل الالتزام بالخدمة العسكرية والنازلون في الإقطاعة، عنصراً ثابتاً في قوات الجيش البيزنطي، وأمدَّتهم إقطاعاتهم بالوسائل الاقتصادية التي تكفل لهم سبيل العيش، فكان كلّ منهم يخرج إلى الحرب بسلاحه وفرسه[2]. وخلَّص هذا النظام الجديد الخزانة من عبءٍ ثقيل؛ إذ انخفض ما تُنفقه الحكومة على الجيش والدفاع عن الامبراطورية من أموال. ومن النتائج التي ترتَّبت أيضاً على قيام هذا النظام أن أصبح من اليسير تجنيد جيش من داخل الامبراطورية يتراوح عديده بين مائة وثلاثة عشر ألفاً، ومائة وثلاثين ألفاً موزّعين على مختلف المناطق التي تُشكّل الامبراطورية، بعد أن جرى استخدام المرتزقة من البرابرة زمناً طويلاً.

وحلَّ نظام الأجناد محل حكومات الأقاليم التي فَقَدَت أهمّيتها، والتي كانت تُعدُّ من أهمِّ مظاهر الإدارة البيزنطية. ونتج عن ذلك أن تغلَّبت الصفة العسكرية على إدارة الامبراطورية، وأُعيد النظر بتنظيم القوات المسلَّحة، وأتاح هذا التغيير تنشيط القوة العسكرية، ووهب حياة جديدة للامبراطورية.

وإذ سار خلفاء هرقل على نهج سياسته الثغرية، هيَّأ لعملية تجديد الامبراطورية، وأعطاها دفعاً قويّاً إلى الأمام، فتلك الأقاليم التي استنفدت ما لديها من قوّة ضاربة، جرى العمل على تعميرها من الخارج بمستوطنين جمعوا بين الفلاحة والجندية[3].

ويُعدُّ أمر تنظيم الثغور من أهمِّ ما جرى من تطوّر بيزنطي في أوائل العصور الوسطى، وهو بمثابة العمود الفقري للإدارة الجديدة في الدولة البيزنطيّة وفيما جرى اتّخاذه من أساليب جديدة للدفاع العسكري[4].

---

(١) العريني: ص١٢١.

(٢) المرجع نفسه: ص١٢٢.

(٣) Ostrogorsky: p118.

(٤) العريني: ص١٦٢.

ومنذ (٢٨ رجب ٦٧هـ/ ١٧ شباط ٦٨٧م)، كان يحضر جلسات المجلس الامبراطوري قادة الثغور الخمسة، ثغر تراقيا في أوروبا، وثغور الأبسيق والأناطوليك والأرمنياق والكارابيسيان في آسيا الصغرى[١].

وما حدث من تطوّر جديد في نظام الثغور الذي أقامه هرقل وخلفاؤه يرجع إلى ما أوجده الامبراطور ليو الثالث (٩٨ ـ ١٢٣هـ/ ٧١٧ ـ ٧٤١م) من تغييرات؛ إذ قرّر تقسيم ثغر الأناطوليك بسبب ضخامة مساحته بهدف إحباط محاولات اغتصاب العرش طالما كان يسيطر على هذا الإقليم الكبير قائد واحد، ولذا جعل الشطر الغربي من هذا الإقليم ثغراً مستقلاً باسم تراقيسيون، وعمد ابنه وخلفه قسطنطين الخامس (١٢٣ ـ ١٥٨هـ/ ٧٤١ ـ ٧٧٥م) إلى شطر إقليم الأبسيق إلى شطرين بعد أن تعرّض لأخطار جديدة، وجعل الشطر الغربي ثغراً مستقلاً واشتهر باسم البقلار[٢]. ولم يكن في آسيا الصغرى زمن الأسرة الأيسورية (٩٢ ـ ٢٢٨هـ/ ٧١١ ـ ٨٤٣م) سوى خمسة ثغور هي: الأناطوليك، الأرمنياق، تراقيسيان، الأبسيق والبقلار. والراجح أنه جرى قبل مهاجمة المسلمين لأقاليم الأطراف، أن انفصل عن ثغري الأناطوليك والأرمنياق بعض المناطق، وقد تكوّنت فيها حكومات الأطراف، واتّخذ قادتها إجراءات دفاعية بصورة مستقلّة عن قائدي الثغرين الكبيرين، وعلى هذا النّحو قام ثغر سلوقية في غربي قيليقيا بعد انفصاله عن ثغر الأناطوليك، ونشأ ثغر خرسيانون من أراضي مُنتزعة من ثغر الأرمنياق[٣]. وعندما ازدادت حدَّة الغارات الإسلامية في القرن الثامن الميلادي، دُعِّمت تلك الجهات بحاميات اتّخذت اسم حرس الحدود، مهمّتها مساعدة قادة الثغور[٤]، وقد وهب التنظيم الإداري الجديد الجهاز العسكري قدراً من المرونة.

تعرَّض نظام الثغور لتطوّر كبير بالغ الأهمّية في عهد الأسرة المقدونية (٢٣٥ ـ ٤٧٤هـ/ ٨٦٧ ـ ١٠٨١م)، فالاتجاه الذي جرى اتّخاذه منذ القرن السابع الميلادي ظلّ مُتَّبعاً، لكن ما حدث من تقسيم الثغور الكبيرة إلى وحدات ثغرية صغيرة أدَّى إلى اكتمال نظام الثغور، وجرى تبسيط الإدارة المدنية في الأقاليم، فاندمجت إدارة الثغر في حكومة الإقليم. وفي النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي تقرّر إلغاء

---

(١) Ostrogorsky: p119. Vasiliev: pp226 , 227.

(٢) Ibid: p140. Ibid: p250. سُمِّي بثغر البقلار نسبة إلى مَنْ كان ينزل به من الجند المعروفين قديماً بهذا الاسم.

(٣) العريني: ص١٩١، ١٩٢.

(٤) العدوي، إبراهيم: الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية: ص٩.

وظيفة متولي إدارة الثغر، وأضحت السيادة للقائد العسكري، وذلك بفعل ما تعرّضت له الامبراطورية مِنْ أخطار مِنْ جانب المسلمين. وارتقت المناطق التي كانت تتّخذ اسم دروب، إلى مكانة الثغور بحيث أصبح لدى الامبراطورية تسعة وعشرين ثغراً منها سبعة عشر ثغراً في آسيا الصغرى، أهمّها الأبسيق وعاصمته نيقية، والأفتيماني وعاصمته نيقوميديا، والتراقسيون في الجنوب الغربي من هضبة الأناضول، والبقلار وبافلاغونيا بالقرب من البحر الأسود، والأرمنياق، وخالديا، وخرشنة، وليكاندوس، والجزيرة، وسيواس، وكلونيا، والناطليق، وكبادوكيا الجنوبية التي تشكّلت بها حكومة مستقلّة بفعل تعرُّضها لغارات المسلمين من دروب قيليقيا، لذلك فُصِلت بالحصون وذُخِّرت بالعساكر[١].

أهميَّة الثغور البيزنطية: ترتَّب على نظام الثغور البيزنطي نتائج بالغة الأهمية، لعلّ أهمّها[٢]:

- لم يعد للجيش القديم، الذي تألف من متبربرين، من وجود، ولم يبقَ منه سوى الحرس الامبراطوري في القسطنطينية، وحلَّ محلّه جيش جديد من الجند الفلّاحين، واستقرّ هذا الجيش فيما يُعرف بالثغور أو الأجناد.
- أضحى من اليسير تجنيد جيش من داخل الامبراطورية.
- انخفض مقدار المال الذي كانت الدولة تنفقه على الجيش والدفاع عن الامبراطورية، وذلك بسبب توزيع الأراضي على الجُند.
- تألّفت طبقة من الجند الفلّاحين اشتهرت بالحرص الشديد على الدفاع عن أملاكها التي تعتمد عليها في معيشتها.
- تولّى إدارة الثغر حاكم يُدعى ستراتيجوس، واتّخذ لقب بطريق، يُعيّنه الامبراطور؛ لذا كان اتّصاله به بشكل مباشر، لكن اقتصرت مهمّته على قيادة القوات العسكرية المرابطة في ثغره، بالإضافة إلى إدارة الإقليم، وأضحى كأنه نائب الامبراطور.
- انقسم جيش الثغر إلى قسمين أو ثلاثة أقسام، يُطلق على كل قسم لفظة كتيبة ـ تيرما ـ يتولّاه موظف يُدعى الطرماخ، وانقسم كل قسم بدوره إلى ثلاثة أقسام اتّخذ كل قسم منها اسم سرية ـ مويرا ـ ويُسمّى قائدها باسم درنجار، وتضمَّن كل قسمٍ منها عشر فصائل، يتولّى كلّ منها قائد يُسمّى قومس.

---

(١) العريني: ص٣٥٢ ـ ٣٥٥.

(٢) المرجع نفسه: ص٣٥٨ ـ ٣٦١. رنسيمان، ستيفن: الحضارة البيزنطية: ص١٦٣ ـ ١٦٦، ١٧١، ١٧٢. Camb: Medieval History IV, p734. Bury, J.B: The Eastern Roman Empire p226.

- حدَّدت الامبراطورية واجبات الفرق العسكرية المختلفة بردّ غارات المسلمين ضدّ الأراضي البيزنطية، فإذا عبروا الحدود الشرقية، تولّى قائد المنطقة أو الجهة التي اجتازوها إخطار قائد الثغر بذلك، فيقوم القائد بإنذار الثغور المجاورة، ويُرسل قوّة من الفرسان لتعقُّب آثار المُغِيرين، فيحتلّ المشاة الدروب التي سوف يستخدمها المُغيرون عند عودتهم، وتحتشد في الوقت نفسه قوات الثغور المجاورة وتقصد ما تتوقعه من هدف المغيرين، فإذا نجح توقُّعهم وقع المغيرون في الكمين الذي ينصبونه لهم.

- بلغ عدد أفراد الجيش البيزنطي مائة وعشرين ألف جندي كحدٍّ أقصى، أقام سبعون ألفاً منهم في الثغور الشرقية في مواجهة المسلمين، يُضاف إليهم عددٌ كبير من الغلمان الذين يرافقون الجيش، ويقومون بنصب الخيام وحفر الخنادق، فضلاً عن وحدات من المهندسين لإقامة المعسكر لقضاء اللّيل، والأطبّاء لإسعاف المرضى والمصابين[1].

- استمرّ نظام الثغور قويّاً وفعّالاً مدة ثلاثة قرون ونصف، والمعروف أن عصر الجند الفلّاحين يُعدُّ من أزهى عصور التاريخ البيزنطي، فقد بعث هذا النظام القوّة العسكرية البيزنطية وأخذت الدولة تزداد تماسكاً، واستطاعت أن تسترجع أجزاء كثيرة من الأراضي التي فقدتها في آسيا الصغرى والبلقان.

التنظيمات العسكرية

تنظيمات الجيش الحمداني: جهد سيف الدولة، منذ أن كان شابّاً يعمل في خدمة أخيه ناصر الدولة، على محاربة البيزنطيين والدفاع عن الحدود الإسلامية. وازدادت رغبته في الجهاد عندما أضحى أميراً حاكماً على حلب، في الوقت الذي انتقل فيه القتال من جبهة الجزيرة الفراتية إلى الجبهة الشامية، وتطلّبت حركة الجهاد مع البيزنطيين جهداً مادياً ومعنوياً كبيراً، لذلك اهتمّ بتوفير المال والرجال لكي يستطيع الاستمرار في هذه الحركة. فقد جنَّد مقاتلين من القبائل العربية الضاربة في منطقة الجزيرة الفراتية وبلاد الشام من بني عقيل ونمير وكلاب، وقد شكّلوا العمود الفقري لقوّاته المسلّحة، كما جنَّد المتطوعة الذين رغبوا في الجهاد ضدّ البيزنطيّين، هذا إلى جانب العنصر الأعجمي؛ كالترك والدَّيْلم، وقد تبوّأ بعضهم مراكز قيادية، أمثال نجا وقرغويه ولؤلؤ. واستغل الشعور الديني لإقناع جنوده بأنهم يُؤدّون فريضة الجهاد بقتال البيزنطيّين، كما استغلّ طمعهم المادي في الحصول على الغنائم، ليُحثّهم على

---

(١) رنسيمان: ص١٧١. Bury: p226.

القتال، كما كان يُغدق عليهم ما يتخلّف في ميدان القتال من الأموال والأسلاب. واشتهر غلمانه بشدَّة البأس في القتال، وكان يلقى الجمع الكثير بالعدد اليسير.

تألّف الجيش الحمداني من فِرق عسكرية من الفرسان والمشاة من حملة الأقواس والسِّهام، وقد شكَّلت طليعة الجيوش. كان الفرسان يحملون الرايات الملوّنة والمزخرفة بالآيات والنقوش، ويغطّون أبدانهم، شأن المشاة، بالتروس الضخمة، ويحملون بأيديهم الرماح الطويلة والأقواس التي يرمون بها النّشاب. واستعمل الجيش الحمداني آلات ذات أصوات حادَّة يقرعونها أثناء الحرب، فتقوم بعمل مزدوج، إثارة الحماسة في نفوس الجُند المسلمين، والرُّعب في نفوس الجند البيزنطيّين، حيث تختلط أصواتها بأهازيج الجند الحماسية وبهدير الإبل التي تحمل معدَّات الحرب، كما تُثير الفزع في خيولهم، فتجمح وتهرب[1].

واستعمل أفراد الجيش الحمداني من الأسلحة، الرماح الطويلة والسيوف والأقواس الضخمة والفؤوس والجواشن[2] واللَّت[3] المضرَّس والمستوفي، والمناطق والتجافيف[4]. وشكّل الخيل عنصراً هامّاً في القتال، حتى اختار منها سيف الدولة أندرها وأكثرها أصالة، وكان له حصان مشهور أبتر عنده يُدعى الفحّى[5] نسبة إلى سواد لونه. ويذخر شعر المتنبي، وهو شاعر الحرب الحمدانية، بوصف الخيل وآداب الفروسية ما يدلّ على أن فرسان سيف الدولة تركوا أثراً فاعلاً في نفسه. وابتكر سيف الدولة حركة القفز وخصَّص لها كتيبة كان أفرادها من الشجاعة، حتى أنّهم كانوا يقومون بالقفز من قمّة إلى قمّة حتى ينقضُّون على العدوّ كالصاعقة وينالون منه، لكن سيف الدولة سرَّح أفراد هذه الكتيبة بعد ذلك لتعارضها مع آداب الفروسية على الأغلب[6].

كان الجيش الحمداني يدخل المعركة وفق خطة مُحكمة ومدروسة بدقّة، ويخضع أفراده لنظام صارم، وقد أعدُّوا لكل أمر عُدَّته، وتداركوا كل خلل، ونظَّموا الخدمة اليومية، وأخذوا بنظام الكشافة والطلائع، فكانوا جنوداً غلاظاً جبابرة يستميتون في المعارك والاحتفاظ بالنصر، ومن العسير أن يتقهقروا أو يرتدُّوا أو انتزاع أيّ موقع منهم إذا كان يحميه ألف جندي.

---

(١) Schlumberger, G: Un Empereur Byzantin au dixième siècle, Nicephore Phocas: pp210, 211.

(٢) الجواشن: الدروع الكبيرة.

(٣) اللتّ: عمود طويل مربّع له مقابض مدوَّرة، كان سيف الدولة يحمله في حروبه.

(٤) التجافيف: ما يُجلَّل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح.

(٥) ابن العديم: جا ص١٣٠، لعلها الفحمي. (٦) Schlumberger: p224.

تنظيمات الجيش البيزنطي: حدث في أثناء القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أن فرعاً جديداً من الجيش زادت أهميّته هو التاجماتا، أي الفرق الأربع للحرس الامبراطوري، وهي فرقة المدارس، والدبادبة، ووحدة الجند المسمّاة أريتموس وهي فرقة المراقبة، والهيكاناتي[1]. ويبدو أن الفرقة الأخيرة أنشأها نقفور الأوّل، أمّا الفِرق الأخرى، فمنحدرة عن حرس القصر، وكلّها من فرق الفرسان، والراجح أنّها لم تكن ذات قوّة عظيمة، حيث لم يتجاوز عدد أفراد فرقة المدارس ألف وخمسمائة جندي، ويرأس كل فرقة منها قائد يُسمّى دمستق، أي ضابط القصر، باستثناء فرقة المراقبة التي كانت تحت قائد كتيبة. وأُلحق بهذه الفرق الأربع فرقة مشاة تعدادها أربعة آلاف جندي، وكانت هذه الفرق الخمس تعسكر عادةً في تراقيا أو بيثينيا وترافق الامبراطور عندما يخرج في حملة عسكرية حيث تكون تحت إمرته، وفي حال عدم خروجه بنفسه إلى الحرب، يتولّى دمستق فرقة المدارس قيادتها العليا نيابةً عنه[2].

وحُدِّدت واجبات فرق الجيش كافّة بدقّة، ففرق ألْوية الثغور مسؤولة عن حراسة مناطق الحدود والدفاع عنها ضدّ الغارات الأجنبية، وإذا قام الجيش البيزنطي بهجوم مضاد خرجت فرق الحرس الامبراطوري الأربع من القسطنطينية بقيادة الامبراطور أو دمستق المدارس، فيلحق بها، عند نقاط معيّنة من الطريق العسكري الذي يخترق آسيا الصغرى، فصائل من جند الثغور المختلفة[3].

ووُجِدَ إلى جانب تلك الفرق العسكرية فرقة الحدود، مهمّتها صيانة القلاع والحصون والنقاط العسكرية الهامّة والممرّات الجبلية والطرق المهدَّدة من جانب الأعداء، وقد منح الامبراطور جنودها إقطاعات يقومون على زراعتها مع أُسرهم مقابل خدماتهم العسكرية.

كان الحذر الطابع العام عند وضع الخطط العسكرية، حيث كانت هجمات المسلمين المفاجئة والكثيرة تُفشل أيّ سياسة عسكرية جريئة، كما أن الجيش البيزنطي لم يكن أحياناً يُضارع الجيش الإسلامي في العدد، وأنه كثير النفقة، لذلك كان على الجنود البيزنطيين أن يُحقّقوا المنفعة المرجوّة من دون إسراف في إضاعة الأرواح أو العتاد، وأن يتجنَّبوا التسرّع والتهوّر، ويحرصوا على عدم الوقوع في الكمائن أو التعرّض للهجمات المفاجئة، وألّا يتركوا أجنحتهم بغير حراسة، وأن يعتمدوا على نظام الكشافة والطلائع، وأن يستخدموا الحيل.

---

(١) Bury, J.B: The Imperial Administrative System in the Ninth Century pp 47-68.

(٢) رنسيمان: ص١٦٤، ١٦٥.

(٣) Ramsy, Sir W.M: Historical Geography of Asia Minor pp 197, 198.

وفعلاً طبّق العسكريّون المبادئ العسكرية الموضوعة، فنصبوا شبكة من محطّات المراقبة على طول خطّ الجبهة مع المسلمين تتّصل بمراكز القيادة بواسطة نظام الإشارات، وتنقل تحرّكات العدوّ، في الوقت الذي يحتشد المشاة في القلاع والحصون، ويقوم الفرسان بغارات على مواقع العدوّ بهدف قطع خطوط مواصلاته[1].

وينقسم الفرسان والمشاة إلى فرق ثقيلة السلاح وفرق خفيفة السلاح، ولكل منها لباس خاص، ودور محدَّد في القتال.

يلبس الفارس ذو السِّلاح الثقيل خوذة من الفولاذ ودرعاً من الزّرد يغطّيه من رقبته إلى فخذيه، وقفازاً من الحديد وأحذية من الفولاذ، ويحمل عباءة خفيفة أو برنساً يرتديه فوق سلاحه أيام الصيف الحارة. ويتكوّن سلاحه من سيفٍ عريض وخنجر ورمح وقوس للرماية عن ظهور الخيل، وجعبة للسِّهام. وإذا كان ممّن يقفون في الصفوف الأمامية ويقومون بالهجوم، جُعل لحصانه دروعاً فولاذية على صدره وعصابات فوذلاية على جبهته. وأمّا الفارس ذو السلاح الخفيف، فيكون من الرماة عادة، ويلبس سترة من الزّرد.

يلبس الجندي المشاة ذو السلاح الثقيل درعاً من الزّرد يُغطّي نصفه الأعلى، وخوذة فولاذية، ويتسلّح بالسيف والرمح والفأس ذي النّصل القاطع من ناحية والسنّ المُدبَّبة من ناحية أخرى. ويلبس الجندي المشاة ذو السلاح الخفيف، وهو إما رامياً بالقوس أو قاذفاً بالحربة، قميصاً طويلاً من الزّرد يصل إلى ركبتيه أو درعاً خفيفاً في بعض الأحيان، ويحمل جعبة للسِّهام تحتوي على أربعين سهماً، وفأساً في حزامه، ويُعلّق خلفه ترساً صغيراً مستديراً[2].

استخدم الجيش البيزنطي النار الإغريقية والإشارات النارية التي تُوقد على قمم الجبال والتلال لرصد تحركات الجيوش الإسلامية من جبال طوروس حتى القسطنطينية[3]، واعتمد على الفرق الكشّافة الاستطلاعية والجواسيس الذين كانوا يتغلغلون بين صفوف المسلمين، لرصد خططهم العسكرية، واستعمل الأسلحة المعروفة بالدبابات، والأساطيل[4].

ورافق الجيش البيزنطي فرقة من المهندسين لتذليل العقبات الطبيعية وإنشاء الجسور لعبور الأنهار[5].

---

(١) Camb: Medieval History IV p740.

(٢) انظر فيما يتعلق بالتجهيزات العسكرية للفرسان والمشاة: بينز. نورمان: الامبراطورية البيزنطية ص١٦٧ - ١٨٢.

(٣) Bury: p247.

(٤) Ibid: p229.

(٥) بينز: ص١٨٢.

النهضة السياسية في بيزنطية

إنّ المرحلة التي تعنينا من تاريخ العلاقات الحمدانية - البيزنطية هي المرحلة التي حكمت خلالها الأسرة المقدونية (٢٥٣ - ٤٤٩هـ/ ٨٦٧ - ١٠٥٧م)؛ لأن التوغّل البيزنطي في عمق الأراضي الإسلامية إنما وقع في عهد هذه الأسرة. والواقع أن الصدامات العسكرية بين المسلمين والبيزنطيّين، منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الثالث الهجري، كانت عبارة عن غارات متبادلة على مناطق الحدود، ونادراً ما حدث توغّل في عُمق أراضي كلّ منهما، وكان الهدف البارز من تلك الحروب هو الاستيلاء على ممرات جبال طوروس ومعاقلها.

وتغيّر، منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، هدف الصراع وسَيْر المعارك، حيث مالت كفّة القتال لصالح البيزنطيّين، واستمرّت على مدى قرنين في اضطراد تصاعدي. فتجاه العالم الإسلامي، الذي أخذ في الانقسام والتفتّت وراح يفقد وحدته ويتجزّأ إلى إمارات ودُوَيْلات سلطانية مستقلّة أو شبه مستقلّة في ظلّ الخلافة العباسية الضعيفة؛ كانت بيزنطية تشهد في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حركة إصلاحية جدَّدت قوّتها ونشاطها، وتخلَّصت من هذه الانقسامات الدينية التي عانى منها العالم البيزنطي في القرون السابقة؛ فكانت وحدة الإيمان الأرثوذكسي تشدّ من الوحدة الوطنية السياسية.

واعتلى باسيل الأوّل عرش الامبراطورية البيزنطية في عام (٢٥٣هـ/ ٨٦٧م)، وهو من الأسرة المقدونية ذات الجذور الأرمنية، والتي بذلت جهداً طيّباً في إصلاح نظم الدولة ومؤسّساتها العامة، وتوطيد دعائم الإدارة وهيبة الدولة في قلوب السكّان، فحقّقت حظّاً وافراً من السعادة والرّخاء للبلاد والعباد، واستطاعت الثبات في وجه الأخطار الخارجية التي هدَّدت الكيان البيزنطي في ذلك العهد.

وهكذا نرى الامبراطورية البيزنطية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أكفأ عدّة وأمضى سلاحاً لاستئناف الهجوم ضدّ العالم الإسلامي الشرقي المفكّك الأوصال؛ تلقّى ضرباتها سيف الدولة الحمداني وحده تقريباً، واستولت على الأقاليم الواقعة فيما وراء جبال طوروس، مثل أنطاكية في شمالي بلاد الشام والحصون الواقعة على الفرات مثل ملطية والرّها، وبمساعدة الأرمن الذين اعتلى عددٌ كبير منهم عرش الامبراطورية، أمثال يوحنا زمسكيس الذي خلف نقفور فوكاس؛ وحلَّ النفوذ النصراني في أرمينيا محل النفوذ الإسلامي.

لكن الامبراطورية البيزنطية لم تستطع أن تُحقّق انتصارات سهلة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على حساب المسلمين، بفعل انهماكها في حلّ مشكلاتها الداخلية وصدّ خطر البلغار. وغيّر ظهور سيف الدولة المعادلة العسكرية مع

البيزنطيين، فانحسر المدّ البيزنطي التوسّعي على حساب المسلمين. وقد وجد القادة البيزنطيّون فيه خصماً عنيداً وصلباً سبَّب لهم الكثير من الهزائم، وحافظ على حدود الدولة الإسلامية، وتوغّل أحياناً في عمق الأراضي البيزنطية، لكن ذلك كان بمثابة الصحوة العابرة؛ لأن بيزنطية سوف تنهض من عثرتها وتستأنف مسيرتها الظافرة على حساب المسلمين بعد وفاة سيف الدولة.

ومهما يكن من أمر، فأمام هذه الانتصارات التي حققتها بيزنطية في عهد الأسرة المقدونية، استطاعت أن تواجه معاً الصقالبة والبلغار في البلقان بنجاح أكبر من نجاحها في الولايات الشرقية التي أفاد منها كبار الإقطاعيّين من العسكريّين في آسيا الصغرى، فالتوسّع الديني، والسياسة البيزنطية التي قامت على دفع الشعوب بعضها ضدّ بعض، والانتصارات العسكرية التي حقّقتها جيوشها؛ كلُّ ذلك ساعد بالتضافر والتضامن على تحقيق مثل هذه النهضة التي بفضلها عاد النفوذ البيزنطي إلى أقاليم مرَّت بتطوّرات جذرية منذ الغزوات الصقلبية الكبرى[1].

مراحل المواجهات العسكرية بين سيف الدولة والبيزنطيّين

امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيّين، حتى أنه غزا بلادهم أربعين غزوة انتصر في بعضها وحلّت به الهزيمة في بعضها الآخر[2]، وكان إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام مسرحاً لتلك الحروب التي مرَّت بمرحلتين، امتدَّت الأُولى على مدى عامي (٣٢٤ - ٣٣٣هـ/ ٩٣٨ - ٩٤٤م)، في حين شغلت الثانية المدة الزمنية بين عامي (٣٣٣ - ٣٥٦هـ/ ٩٤٤ - ٩٦٠م).

المرحلة الأُولى: الصراع على أرمينيا

ظهر في مرحلة اليقظة البيزنطية وتفكُّك أوصال الخلافة العباسية وضعفها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، سيف الدولة الحمداني الذي أخذ على عاتقه مواجهة البيزنطيّين والدفاع عن حدود الدولة الإسلامية، والمعروف أن العدوّ الوحيد للمسلمين في الشرق الأدنى كان آنذاك البيزنطيّون، وقد حمل راية الجهاد منذ أن كان أميراً في خدمة أخيه ناصر الدولة في الموصل، فانطلق مدفوعاً بعاطفته الدينية لحربهم ومنعهم من فرض سيطرتهم على أرمينيا، واستعادة الأراضي التي استولوا عليها في إقليم الجزيرة الفراتية، وذلك بالنيابة عن أخيه.

---

(١) بروي، إدوار: الشرق الأدنى، ازدهاره وأزماته: (القرنان التاسع والعاشر)، فصل في كتاب تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، بإشراف موريس كروزيه: ص٢١٤ - ٢١٧.

(٢) ابن ظافر: ص٢٤.

ظلّت الامبراطورية البيزنطية حتى عام (٣١٥هـ/ ٩٢٧م) منهمكة في قتال سيمون ملك بلغاريا[1]، ما عَرْقل نشاطها الهجومي على الأراضي الإسلامية في الشرق، واقتصرت جهودها على اتّخاذ تدابير دفاعية، ولجأت من أجل ذلك إلى التحالف مع أرمينيا والمحافظة على ما بينها وبين المسلمين من الهدوء[2].

وبدَّلت بيزنطية سياستها الشرقية بعد القضاء على سيمون البلغاري، فتحوَّلت من الدفاع إلى الهجوم، وتولّى القائد الشهير يوحنا كوركواس تنفيذ ذلك منتهزاً فرصة الأوضاع السيّئة التي كانت تمرّ بها الخلافة العباسية آنذاك بفعل تهديد القرامطة للعراق ونشوب ثورات القادة وأُمراء الأطراف، ما منع قسماً كبيراً من الجيش الإسلامي من القيام بأيٍّ مجهودٍ عسكريّ، على أن المنطقة المحيطة بجبال طوروس ظلّت محافظة على ما سادها من الهدوء والاستقرار، في حين غدت أرمينيا وأعالي الجزيرة الفراتية مسرحاً للقتال بين المسلمين والبيزنطيّين[3].

قام سيف الدولة بأُولى غزواته في عام (٣١٢هـ/ ٩٢٤م)، وهو في الحادية والعشرين من عمره، حين خرج لصدِّ الدمستق يوحنا كوركواس عن آمد وسميساط، غير أنه فشل في مهمّته، ودخل الدمستق سميساط، ونصب خيمته في مسجدها الكبير، وقرع النصارى النواقيس وسبوا وانقلبوا عائدين، فطاردهم المسلمون واستردُّوا بعض الغنائم وأسروا نسيب الامبراطور البيزنطي وأرسلوه إلى بغداد[4]. وهاجم القائد البيزنطي ملطية في عام (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) بمساعدة مليح الأرمني صاحب الدروب، فدخلها واستباحها، فالتمس أهلها المساعدة من بغداد، فأرسل الخليفة المقتدر في العام التالي حملة بقيادة مُؤنس الحاجب لاستعادتها؛ فلما علم يوحنا كوركواس بذلك انسحب منها بعد أن مكث فيها ستّة عشر يوماً[5]. والمعروف أن هذه المدينة التي اشتهرت بأهمّيتها العسكرية بفعل أنها تواجه ثغر ليكاندوس البيزنطي، كانت هدفاً للمحاولات البيزنطية المتكرّرة، لذلك جدَّد يوحنا كوركواس هجماته عليها في عام (٣١٩هـ/ ٩٣١م)، واستولى عليها، فندب الخليفة سعيد بن حمدان أمير الجزيرة الفراتية، فاستردَّها بسهولة ويُسر، ثم استولى عليها القائد البيزنطي من جديد في (الأول من جمادى الآخرة ٣٢٢هـ/ ١٩ أيار ٩٣٤م)[6]،

(١) انظر: العريني: ص٣٨٤ ـ ٣٩٣.
(٢) Ostrogorsky: p241.
(٣) Ibid: p244.
(٤) ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان: ص٥٣. ابن تغري بردي: جـ٣ ص٢٥٨.
(٥) مسكويه: جـ١ ص١٤٧. ابن الأثير: جـ٦ ص٧٠٨ ـ ٧١٠.
(٦) ابن الأثير: جـ٦ ص٧٦٤، ٧٦٥. جـ٧ ص٣١.

وأضحت منذ ذلك التاريخ حتى عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) من أملاك الامبراطورية البيزنطيّة. ويُعدُّ الاستيلاء عليها في ذلك الوقت خطوة فاصلة في التقدّم البيزنطي على حساب المسلمين، فقد أجلى يوحنّا كوركواس أهلها المسلمين عنها[1]، وبنى حصناً على الجهة المقابلة من الفرات سمّاه رومانوبوليس نسبة إلى الامبراطور رومانوس ليكابينوس، غير أنه وجد ندّاً له في شخص سيف الدولة الحمداني، الذي تولّى آنذاك قيادة الجهاد الإسلامي ضدّ البيزنطيّين.

وخرج سيف الدولة في (٢٦ ذي القعدة ٣٢٦هـ/ ٢٤ أيلول ٩٣٨م) إلى حصن دارم، وأرسل الحسن بن علي القواس على رأس سريّة إلى حصن التل[2]، وسار هو إلى حصن زياد بأرض أرمينيا بين آمد وملطية، فأقام عليه تسعة أيام حتى شارف على فتحه، لولا أنْ هاجمه يوحنا كوركواس على رأس جيش كثيف، فاضطرّ سيف الدولة إلى الانسحاب، تحت ضغط القتال، إلى سميساط، فطاردته القوّات البيزنطية، ففرَّ إلى ضيعة تُعرف بالمقدمية حيث أعاد تنظيم قوّاته واستعدّ لجولة أخرى مع البيزنطيّين، لكنه تشاءم من اسمها، والراجح أنّ موقعها لم يكن ملائماً لخوض معركة ناجحة، فانتقل منها إلى مكان أكثر ملاءمة، بين حصني سلام وزياد في أرمينيا، وجرى اللّقاء بينه وبين يوحنا كوركواس في هذا المكان في (ذي الحجّة/ تشرين الأول) وأسفر عن انتصار واضح لسيف الدولة، ووقع سبعون بطريقاً ـ قائداً ـ أسرى في يده، واستولى على سرير الدمستق وكرسيه[3].

وفي عام (٣٢٨هـ/ ٩٣٩ ـ ٩٤٠م) خرج سيف الدولة غازياً أرمينيا، فنزل مانزيكرت يريد قاليقلا من نواحي خلاط، وكان البيزنطيون قد بنوا بجوارها مدينة سمّوها هفجيج، فلمّا علموا بمسيره أحرقوها وغادروا المنطقة، فعاد سيف الدولة إلى أرزن[4]، ومكث فيها حتى انحسار الثلج، ثم خرج إلى خلاط وتوغّل فيما وراءها. واضطرّ كل من ملك أرمينيا وخرذان ملك الكرج إلى الاعتراف بسيادته، ثم

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٣١.
(٢) لعله تل بطريق بأرض الروم من الثغور، وقد دمَّره سيف الدولة بعد ذلك. الحموي: جـ٢ ص٤٠.
(٣) ابن ظافر: ص٢٧.
(٤) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط. الحموي: جـ١ ص١٥٠.

اجتاز الأراضي التي خضعت له، وظهر في بلاد الأرمن البيزنطية، فهاجم موش، من ناحية خلاط، فخرَّبها، وهدم قلاعاً منيعة، ووطئ أماكن لم يطأها أحد من المسلمين قبله؛ ما أثار الامبراطور البيزنطي، فكتب إليه متوعّداً ومنذراً، فردَّ عليه سيف الدولة بمهاجمة قلونية في آسيا الصغرى، فأحرق ربضها واستولى على ما في ضياعها، وكتب إلى الامبراطور من هناك ما أفزعه، فأرسل جيشاً لصدِّه، تعرّض للهزيمة[1]، وبدا أن سيف الدولة سوف يسيطر على كامل أرمينيا، غير أن ما حدث من نزاعات داخلية في عاصمة الخلافة والصراع مع الأخشيديين في بلاد الشام، منعه من المضيّ في غزواته، فعاد كي يستأنف التدخل في أوضاع الخلافة في بغداد، ما أعطى الفرصة لبيزنطية لمهاجمة الأراضي الإسلامية، فاقتربت قوّاتها في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤١ - ٩٤٢م) من حلب، فنهبت وخرَّبت وسبت نحو خمسة عشر ألف نسمة من حمشوش[2].

المرحلة الثانية: الصراع على شمالي بلاد الشام

انتقل الصراع بين الحمدانيّين والبيزنطيّين من أعالي إقليم الجزيرة الفراتية، أرمينيا، إلى شمالي بلاد الشام، على أثر انتقال سيف الدولة إلى حلب وتأسيسه إمارة له في ربوعها في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م). والمعروف أن الحدود بين الدولتين، الحمدانية والبيزنطية، تبدأ من نقطة على الفرات تقع شمالي سميساط، وتمرّ بين حصن منصور وزبطرة، وشمالي الحدث ومرعش، وقد اتبعت سلسلتي جبال طوروس حتى أبواب قيليقيا ونهر اللامس، واتّجهت، من ناحية، نحو الشمال إلى شرقي سميساط فأرمينيا[3].

وبعد أن استقرّ سيف الدولة في حلب دخلت العلاقات الحمدانية - البيزنطية في دور جديد، وكان الأمير الحمداني الذي خرج منتصراً من صراعه مع الأخشيديين في بلاد الشام، قد وجَّه كامل اهتمامه إلى حرب البيزنطيّين الذين حقّقوا إنجازات مهمّة على حساب المسلمين في إقليم الجزيرة الفراتية، ذلك أن يوحنّا كوركواس استولى على ميّافارقين وآمد ودارا ونصيبين والرّها، فامتد الطرف البيزنطي نتيجة ذلك نحو الشرق، وأضحى لبيزنطية من المكانة والهيبة ما مهّد الطريق للهجوم الواسع الذي قام به فيما بعد الامبراطوران نقفور فوكاس ويوحنا زمسكيس، وما جرى من إجلاء

(١) ابن ظافر: ص٢٧، ٢٨.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص١١٢. ابن العبري: ص٥٧.
(٣) العريني: ص٤١٧، ٤١٨.

القبائل العربية عن الجهات المُتاخمة للحدود البيزنطية، أسهم أيضاً في التوسّع البيزنطي نحو الشرق[1].

غير أن حروب سيف الدولة لم يكن هدفها الاستقرار، بل منع البيزنطيين من التوسّع على حساب المسلمين، وهذه «استراتيجية» محدودة ونظرة ضيقة إلى الأمور، ولعلّ لذلك علاقة بمدى ما كان يمرّ به العالم الإسلامي الشرقي آنذاك من انقسام وتفكُّك، بالإضافة إلى تراجع القوة الميدانية للمسلمين في الوقت الذي كانت فيه بيزنطية تمرّ بمرحلة نهضة سياسية وعسكرية، فهل حقّق سيف الدولة هدفه؟ الواقع أن البيزنطيّين وقد طبعوا حروبهم ضدّ المسلمين في القرن العاشر الميلادي بالطابع الديني الصليبي، استطاعوا أن يمدّوا حدود دولتهم إلى شمالي بلاد الشام باستيلائهم على حلب متجاوزين قوّة الحمدانيّين.

ففي عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) حقّق سيف الدولة انتصاراً على البيزنطيّين قرب مرعش، ذلك أن يوحنا كوركواس هاجم مرعش وبغراس، التي تبعد أربعة فراسخ عن أنطاكية[2]، فقتل وسبى مِنْ دون أن يلقى مقاومة؛ فأسرع سيف الدولة نحو تلك المنطقة، وحاصر الجيش البيزنطي في شعاب الجبال التي تزخر بها، فأنقذ الأسرى والغنائم[3].

وحدث في غضون ذلك تبدّل جوهري في بلاد البيزنطيّين، فقد أُزيح الامبراطور رومانوس ليكابينوس عن العرش من جانب ولديه ستيفن وقسطنطين، فاستغلّ الامبراطور قسطنطين السابع هذا الانقلاب وتولّى العرش البيزنطي في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، فنفى ولدي رومانوس وأمر بطرد كل مَنْ يمتّ إليه بصلة أو تعاوَنَ معه، مِنْ وظائف الدولة ومِنْ بينهم يوحنا كوركواس، وعيَّن برداس فوكاس دمستقاً في الشرق، فتولّى أبناؤه الثلاثة نقفور وليو وقسطنطين قيادة ثغور الناطليق وكبادوكيا وسلوقية[4].

افتتح قسطنطين السابع عهده مع المسلمين بالاتفاق على تبادل الأسرى، على الرغم من الحروب المستمرّة بين الحمدانيّين والبيزنطيّين. وقد جرى التبادل في (ربيع الأول ٣٣٥هـ/ تشرين الأول ٩٤٦م)[5].

استأنف البيزنطيون نشاطهم العسكري في عام (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م)، فأغاروا، بقيادة

(١) العريني: ص٤٠٧، ٤٠٨. Ostrogorsky: p246.
(٢) الحموي: جـ١ ص٤٦٧.
(٣) ابن ظافر: ص٣٠. ابن الأثير: جـ٧ ص١٥٤.
(٤) Rambau, A: L’Empire Grec au dixième siècle, Constantine porphyrogenète, p39.
(٥) ابن الأثير: جـ٧ ص١٧٤. Ibid: p325.

الدمستق برداس فوكاس، على أطراف بلاد الشام، فسبوا وأسروا، فطاردهم سيف الدولة واستردَّ منهم ما أخذوه، ثم هاجم حصن برزويه قرب السواحل الشامية إلى الشمال من أفامية، وحاصره، وكان تحت حكم أبي تغلب الكردي، وقد جعله مأوى للصوص وقطّاع الطرق. وحدث في هذه الأثناء أنْ حاصر ليو بن برداس فوكاس حصن الحدث، فالتمس سكّانه المساعدة من سيف الدولة، لكن هذا لم يشأ أن يترك حصن برزويه حتى يفتحه، ما أعطى ليو فرصة طيبة للاستيلاء عليه فدخله، ودمّر سوره[1]. والجدير بالذِّكر أن سيف الدولة لم يتمكّن من فتح حصن برزويه إلَّا في السنة التالية[2]، ثم سار إلى ميافارقين واستخلف ابن أخيه محمد بن ناصر الدولة على حلب[3]، لكن هذا النصر الذي حقّقه سيف الدولة لا يُقارَن بما أحرزه البيزنطيون، الذين استولوا على مرعش وزحفوا نحو طرسوس بقيادة ليو بن برداس فوكاس، وذلك في عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، فتصدَّى لهم محمد بن ناصر الدولة عند بوقا شمالي أنطاكية، إلَّا أنه تعرّض للهزيمة وقُتل أربعمائة من جنده وأُسِر الكثير[4].

أثارت انتصارات البيزنطيين سيف الدولة، فقرَّر أن يثأر ويستعيد الأراضي الإسلامية التي استولوا عليها، فجهَّز جيشاً ضخماً بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل، وخرج على رأسه في (١٥ ربيع الأول ٣٣٩هـ/ الأول من أيلول ٩٥٠م) غازياً الأراضي البيزنطية، واصطحب معه ثلاثة من الشعراء هم المتنبي وأبا فراس وأبا زهير المهلهل، وانضمَّ إليه أربعة آلاف مقاتل من طرسوس بقيادة القاضي أبي حصين، فهاجم إقليم كبادوكيا واستولى على كثيرٍ من مدنه وقتل وسبى كثيراً من البيزنطيّين، فاخترق قيصرية ـ قيسارية ـ وسمندو وخرشنة، ووصل إلى صارخة الواقعة على بُعد سبعة أيّام من القسطنطينية مهدّداً العاصمة البيزنطية، وانتصر على قوّة عسكرية بيزنطية بقيادة ليو بن برداس فوكاس، وأسر عدداً من قادتها وكثيراً من جنودها، وغنم أموالاً طائلة[5].

عند هذه النقطة من التوغّل الحمداني، رأى سيف الدولة أن يتوقف ويعود أدراجه إلى حلب، وبخاصة أنّه دخل فصل الشتاء الذي لا يمكن معه مواصلة العمليات العسكرية، متخلّياً عمّا حقّقه من إنجازات، غير أنه لم يتّخذ تدابير الحيطة والحذر مرتكباً خطأً عسكريّاً فادحاً كلَّفه غالياً.

(١) الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي: ص٧٧.
(٢) ابن ظافر: ص٣٢. ابن العديم: جا ص١١٩.
(٣) الأنطاكي: ص٧٧. (٤) ابن العديم: جا ص١٢٠.
(٥) ابن ظافر: ص٣٢. الأنطاكي: ص٧٨. ابن الأثير: ج٧ ص١٨٩، ١٩٠.

كان ليو بن برداس فوكاس يراقب تحرّكات سيف الدولة عن كَثَب، وعندما علم بعودته أسرع إلى جبال طوروس ليسدَّ عليه الطريق، وحشد جيشه في منطقة خرشنة، وكمن له في درب الجوزات[1] بين البستان والحدث، وهو الدَّرب الذي أراد أن يخرج منه، وضيَّق عليه المسالك. وإذ حصره ليو في هذا الدرب الصعب وعزله عن مقدّمة جيشه؛ تخلّى عنه عدد من جند الثغور، واقتلع الجنود البيزنطيّون الأشجار وسدوا بها الطرق، كما ألقوا الحجارة الضخمة من قمم الجبال على الجنود المسلمين، في الوقت الذي كان فيه ليو يضرب ساقة الجيش الإسلامي بعنف. ووجد سيف الدولة نفسه في مأزق حرج وخطير، فقتل الأسرى البيزنطيّين الذين في حوزته حتى لا يُشكّلوا قوّة تنقلب عليه، وعقر جماله وكثيراً من دوابه، وتخفّف من أحماله، وقاتل ببسالة، ونجا بأعجوبة مع نفر يسير من جنده، وقُتل الباقون أو أُسِروا، واستردَّ البيزنطيّون ما بقي من السَّبي الذي كان المسلمون قد غنموه، وأخذوا سواده وكراعه وأمواله وغنموا غنائم وافرة، وعاد سيف الدولة إلى حلب في (جمادى الآخرة/ تشرين الثاني)، ويُسمّي الثغريّون هذه الغزاة غزاة المصيبة[2].

الواقع أن حملة سيف الدولة لم تستند على خطة عسكرية سليمة، لذلك كانت نتائجها كارثية، وصدمته في الصميم، وأتاحت للبيزنطيين أن يعيثوا فساداً في ديار المسلمين، إلَّا أنه صمّم على الثأر، فجهَّز جيشاً وخرج على رأسه في (جمادى الأولى ٣٤٠هـ/ تشرين الأول ٩٥١م)، فأحرق القرى حتى عربسوس قرب المصيصة، وعلم أن جيشاً بيزنطياً محتشداً في سمندو في وسط آسيا الصغرى وتعداده أربعين ألف جندي، فأراد أن يهاجمه، فتهيّب جنده الإقدام على ذلك[3]، والواقع أنهم خشوا الاصطدام بالجيش البيزنطي وكارثة درب الجوزات ما زالت ماثلة أمامهم.

وما قام به سيف الدولة في عام (٣٤١هـ/ ٩٥٢م) من تجديد الاستحكامات وإقامة الأسوار حول المدن التي تقع على الطريق المؤدّي إلى حلب، مثل رعبان وتلّ خالد، وما حدث من ردّ هجمات البيزنطيّين بقيادة قسطنطين بن بارداس فوكاس الذي حاول أن يمنع سيف الدولة من إعادة بناء مرعش[4] التي دمَّرها البيزنطيّون منذ عام (٣٣٧هـ/ ٩٤٨ ـ ٩٤٩م)، دفع هؤلاء إلى التحوّل إلى الجزيرة الفراتية، فاستولوا

(١) يُعرف هذا الدَّرب أيضاً بمقطع الأنفار أو الأثفار، ويسمّى بدرب الكيكرون، ويبعد عن طرسوس مدة يومين.
(٢) الأنطاكي: ص٧٨، ٧٩. (٣) ابن ظافر: ص٣٣.
(٤) المصدر نفسه: ص٣٤. ابن العديم: جا ص١٢١.

على مدينة سروج[١]، وهاجموا آمد، غير أنهم ارتدّوا على أعقابهم بفضل جهود أميري ميافارقين وآمد[٢].

وتُعدُّ الحملة التي قام بها سيف الدولة في عام (٣٤٢هـ/ ٩٥٣م) ضدّ الأملاك البيزنطية، من أهمّ الحملات التي تدلّ على ما اشتهر به من الإقدام والبسالة وسرعة البتّ بالأمور، وشدّة الذكاء[٣]؛ إذ جعل هدفه مدينة ملطية التي تُشكِّل مصدر خطر على الأملاك الإسلامية في إقليم الجزيرة الفراتية. وعندما بلغ حران القريبة من الرها، واطمأنّ على ولاء القبائل العربية في ديار مُضر، توجّه إلى دلوك من نواحي حلب بالعواصم، حيث كان يعسكر جيشه، ثم عبر فروع نهر الفرات ونهر سنجة[٤]، وانتهى إلى سفح جبال طوروس، واتّخذ طريقه إلى درب القلّة المؤدّي إلى زبطرة، الواقعة بين ملطية وسميساط والحدث، وهي هدف الحملة، فنهب أرباضها وأرباض عرقة وملطية، غير أن الدمستق برداس فوكاس كَمِنَ له في درب مردان قرب ملطية، واصطدم به. كانت كفّة المسلمين هي الراجحة في بداية القتال، حيث استطاع سيف الدولة أن يستدرج عدوَّه إلى ميدان ملائم، وتفوّق عليه، فتراجع الدمستق تحت ضغط القتال، فعبر سيف الدولة عندئذ بطن هِنزيط[٥]، وألفى نفسه أمام سميساط، فدخلها، إلّا أنه انسحب منها بعد ذلك عندما علم أن برداس فوكاس استغلّ غيابه، وهاجم أطراف بلاد الشام. وأدرك الأمير الحمداني عدوّه بناحية مرعش عند نهر سيحان[٦]، فاصطدم به وانتصر عليه أيضًا وقُتل البطريق ليو بن الملائين في المعركة، ووقع قسطنطين بن برداس فوكاس في الأسر، فحمله سيف الدولة معه إلى حلب، وكان مريضاً، فاعتنى به سيف الدولة بنفسه، مبرهناً عن فروسية نادرة، غير أن قسطنطين لم يلبث أن توفي، فاهتمّ سيف الدولة بدفنه وفقاً للمراسم النصرانية، وكتب إلى أبيه يُعزّيه[٧]. وعلى الرغم من هذه المعاملة الحسنة، فقد شاع في

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٠٠.
(٢) Canard: I p772.
(٣) العريني: ص٤١٩.
(٤) سنجة: هو نهر عظيم لا يتهيّأ خوضه لأن قراره رمل سيّال، كلما وطئه الإنسان برجله سال به فغرّقه، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم، وهما من ديار مضر. الحموي: جـ٣ ص٢٦٤، ٢٦٥.
(٥) هِنزيط: من الثغور الرومية، تمتدّ حتى منابع نهر الفرات، وبطن هِنزيط هو السّهل الواقع حولها. الحموي: جـ٥ ص٤١٨.
(٦) نهر سيحان: هو نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة، وهو نهر أذنة بين أنطاكية والروم، يمرّ بأذنة ثم ينفصل عنها نحو ستّة أميال فيصب في بحر الروم. الحموي: جـ٣ ص٢٩٣.
(٧) ابن ظافر: ص٣٤، ٣٥. الأنطاكي: ص٨٣، ٨٤.

القسطنطينية بأن قسطنطين مات مسموماً، وترتَّب على ذلك ما جرى من إساءة معاملة الأسرى المسلمين[١]. ودخل سيف الدولة حلب في جوّ الانتصار الباهر، فعُقِدت له القباب، وزُيِّنت المدينة، وتغنّى الشعراء بالمجد الذي أحرزه[٢].

التفت سيف الدولة، في عام (٣٤٣هـ/ ٩٥٤م)، إلى تشييد حصن الحدث، ففاجأه الدمستق برداس فوكاس على رأس جيشٍ ضخم يُقدَّر بخمسين ألف مقاتل من الأرمن والتُّرك والروس والبلغار والصقالبة والخزر، وجرى قتالٌ عنيف بين الطرفين استمرّ من أوّل النهار إلى وقت العصر، وأسفر عن انتصار سيف الدولة، وقُتل ثلاثة آلاف مقاتل من جيش الدمستق ووقع عدد كبير في الأَسْر، كان من بينهم صهره تيودوس الأعور - أعور جرم - وابن ابنته وعدد من البطارقة، واستطاع برداس فوكاس أن ينجو بنفسه، واختبأ ابنه نقفور في سقاية الحدث حتى جنَّ الليل، فخرج ولحق بأبيه، وعاد سيف الدولة إلى حلب عن طريق سمندو بعد أن أنهى بناء حصن الحدث ومعه الأسرى في (رجب/ تشرين الثاني)[٣].

وحاول برداس فوكاس، في العام التالي، استرجاع الحدث، فحاصرها ونقب سورها، لكنه فكَّ الحصار عنها وغادر المنطقة عندما علم بقدوم سيف الدولة لقتاله[٤].

ترتَّب على الهزائم التي تعرّض لها البيزنطيّون أن مال الامبراطور قسطنطين إلى التفاهم مع سيف الدولة، فأرسل إليه سفارة تلتمس منه الصُّلح. وقَدِمت السفارة إلى حلب مع وفد من الثغور يمثل طرسوس وأذنة والمصيصة، غير أن سيف الدولة رفض الاستجابة لطلبه، لأن البيزنطيّين كانوا قد قتلوا الأسرى الذين وقعوا في أيديهم من الأُسرة الحمدانية. وتبدَّدت المحاولة الأخيرة التي قام بها برداس فوكاس لمهاجمة سيف الدولة، وما جرى بعد ذلك من الاستغناء عن خدمات برداس فوكاس بسبب كبر سنّه، وتعيين ابنه نقفور مكانه في شؤون الحرب والقتال. وبفضل مساعدة أخيه ليو، عادت السياسة البيزنطية إلى انتهاج خطط يوحنا كوركواس التي ترمي إلى مدِّ حدود الدولة البيزنطية في الشرق على حساب الحمدانيّين، وجرى الاستعانة بقادة كبار للقيام بتنفيذ ذلك، أمثال يوحنا زمسكيس وباسيل ليكابينوس، وستشهد مناطق الحدود الثغرية ضغطاً بيزنطيّاً متزايداً.

(١) Rambau: p426.
(٢) ابن ظافر: ص٣٥.
(٣) الأنطاكي: ص٨٤، ٨٥. ابن ظافر: ص٣٥. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٠٩. ابن العديم: جـ١ ص١٢٣.
(٤) الأنطاكي: ص٨٥.

ففي عام (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) غزا سيف الدولة بطن هِنزيط، ونزل على شاطئ نهر أرسناس، وعبر إلى الجانب الآخر في الزواريق، فهاجم يانس بن زمسكيس في تلّ بطريق وهزمه وفتح الحصن، وعاد إلى آمد عن طريق درب الخياطين. واصطدم أثناء عودته، بالدمستق ويانس اللذين سدّا عليه الدرب، فانتصر عليهما وأجلاهما عنه، وتابع طريقه. وكان سيف الدولة قد خلّف ابن عمّه أبا العشائر الحسين بن علي بن حمدان في دلوك من نواحي حلب، وكلّفه بمهاجمة حصن عرمدا، وعمارة عرنداس، فتصدّى له ليو بن الدمستق وانتصر عليه وأسره، وحمله إلى القسطنطينية، وتوفي في الأسر[١].

وفي (جمادى الآخرة/ أيلول) غزا سيف الدولة الأراضي البيزنطية مع أهل الثغور، وأرسل سريّة إلى سمندو اصطدمت بالقائد البيزنطي ستراتيغوس بن البلنطس وأسرته، ثم هاجم سيف الدولة حصن زياد وحاصره، غير أنه فكّ الحصار عنه وعاد إلى حلب ليتصدّى للدمستق الذي كان يزحف على بلاد الشام. وخرّب سيف الدولة في هذه الغارات مواضع بيزنطية كثيرة مثل خرشنة، وصارخة، غير أن البيزنطيّين تمكّنوا من دخول طرسوس، فأحرقوها وسبوا ما صادفوه من أهلها. وما كاد سيف الدولة يستقرّ في حلب حتى هاجم البيزنطيّون ميافارقين، فأحرقوا قراها، وسبوا أهلها، وعادوا إلى معسكرهم[٢].

نتيجة الانتصارات الحمدانية المتوالية وفشل البيزنطيّين في وقف الغارات الإسلامية، بدّل البيزنطيّون خططهم السياسية والعسكرية لتتلاءم مع التطوّر الجديد، فحتى يضعوا حدّاً نهائياً لنشاط سيف الدولة العسكري قرّروا:

ـ التخلّص منه عن طريق التآمر، فكاتبوا في (جمادى الأُولى ٣٤٦هـ/ آب ٩٥٧م) بعض غلمانه بالقبض عليه وتسليمه إلى الدمستق عند قدومه لمحاربته، كان من بينهم أبو الحسن وهو أخ للقائد ناصر. وامتدّت الخيانة إلى الحرس الأميري الذي أبدى أفراده استعداداً لتسليم سيف الدولة إلى ليو فوكاس في الوقت المناسب، لكن المؤامرة ما لبثت أن اكتُشفت، فقد أخبر بعض الغلمان ابن كيغلغ بالمؤامرة، فأعلم سيف الدولة، الذي ألقى القبض على المتآمرين وعاقبهم بأن قتل منهم مائة وثمانين، وقبض على زهاء مائتي غلام، وكان معظمهم من الأرمن والأتراك كان قد اشتراهم وأدخلهم في عِداد جيشه[٣]. وتشير هذه المؤامرة المحبطة إلى دلالات عدّة أهمّها:

(١) الأنطاكي: ص٨٥، ٨٦. ابن العديم: جا ص١٢٣، ١٢٤.
(٢) الأنطاكي: ص٨٧. ابن العديم: جا ص١٢٤. ابن العبري: ص٥٩، ٦٠.
(٣) ابن العديم: جا ص١٢٤.

١ ـ عجز البيزنطيّين عن هزيمة سيف الدولة، على الرغم من تفوّقهم العسكري.
٢ ـ خطورة استخدام العناصر الأجنبية في الجيش بفعل سهولة استقطابهم من قِبل العدوّ وإغرائهم بالمال.
٣ ـ تدمير المناطق الحدودية وإفراغها من الوجود العسكري الإسلامي، فهاجموا، بقيادة الدمستق نقفور فوكاس، حصن الحدث، واستولوا عليه صلحاً، فأجلوا أهله عنه وهدموه[١].

والواقع أن هذا الأسلوب الجديد في التعامل السياسي والعسكري كان فاشلاً ولم يُحقّق الهدف المُرتجى، بدليل استمرار الغارات الحمدانية على الأراضي البيزنطية والتصدّي الحمداني للغارات البيزنطية المضادّة. ففي عام (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) توغّل البيزنطيّون، بقيادة يانس بن زمسكيس، في الأراضي الإسلامية، وتقدّموا إلى آمد وأرزن وميافارقين، ففتحوا حصوناً عدة وحاصروا حصن اليماني القريب من آمد.

وجاء الردّ الحمداني سريعاً على هذه الحملة، فأرسل سيف الدولة جيشاً مؤلّفاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة غلامه نجا للتصدّي للبيزنطيّين وإخراجهم من الأراضي الإسلامية، غير أنه تعرّض للهزيمة وتكبّد خمسة آلاف قتيل وثلاثة آلاف أسير، واستولى يانس على جميع سواده، وعاد نجا إلى حلب يجرّ أذيال الخيبة[٢].

وتوالت انتصارات البيزنطيّين في هذا العام، فقد هاجم باسيل البراكمومينس، بالتعاون مع يوحنا زمسكيس، سميساط واستوليا عليها. وحتى يتفرّغ لحرب المسلمين في الشرق عقد الامبراطور قسطنطين السابع معاهدات صلح مع جيرانه، أمثال الروس والبلغار والمجريّين والفرنجة، بالإضافة إلى المعزّ الفاطمي في شمال إفريقيا الذي كان يتهيّأ لانتزاع مصر من السيطرة الأخشيديّة. وما حقّقه البيزنطيّون في الشرق من انتصارات، وما وقع من النزاع بين مُعزّ الدولة البويهي المستبد بدولة الخلافة العباسية في بغداد، والحمدانيّين في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام؛ شجّعه على المضيّ في الزحف إلى أن تجاوز نهر دجلة[٣].

وحاصر القائدان البيزنطيان رعبان، ما اضطرّ سيف الدولة إلى أن يخرج بنفسه للتصدّي لهما، فاصطدم بهما عند قلعة رعبان قرب الفرات في (شعبان ٣٤٧هـ/ تشرين الثاني ٩٥٨م)، إلّا أنّه تعرّض للهزيمة، وقُتل كثير من جنده وأُسر آخرون. وأدخل القائدان البيزنطيان إلى القسطنطينية في موكبهما ألفاً وسبعمائة أسير[٤]. وبدا واضحاً أن كفّة البيزنطيّين ستكون الراجحة، بعد أن أضحى الطريق مفتوحاً أمامهم

(١) الأنطاكي: ص٨٧، ٨٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٨٨.
(٣) العيني: ص٤٢٢. Rambau: p427.
(٤) الأنطاكي: ص٨٨، ٨٩.

إلى طرسوس وأنطاكية وبيت المقدس وامتداد الحدّ البيزنطي إلى ما وراء الفرات.

توفي الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في (شعبان ٣٤٨هـ/ تشرين الأول ٩٥٩م)، وخلفه ابنه رومانوس الثاني، ولم يتجاوز وقتذاك العشرين من عمره[1]. وما جرى من صراعات أسرية على السلطة أدّت إلى تعرُّض رومانوس الثاني لمؤامرة، وعلى الرغم من أنها لم تنجح، فإن الامبراطور لم يعش طويلاً، إذ مات مجنوناً في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) من دون أن يترك مِنْ بعده إلَّا سمعة سيّئة.

لم يرد في التاريخ البيزنطي أيّة إشارة إلى أحداث داخلية مهمّة حصلت في عهده، وإنما وجّه اهتمامه إلى ما يجري من الحوادث وراء الحدود. واشتهرت حكومته التي سيطرت عليها زوجته تيوفانو والطواشي برنجاس بالقدرة العسكرية، غير أن ما هو أكثر دلالة على قوّتها ما أعدّته من حملة بقيادة نقفور فوكاس نجحت في استعادة جزيرة كريت من المسلمين، وذلك في عام (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، والمعروف أن الامبراطور قسطنطين السابع فشل في عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) في استعادة الجزيرة.

وعيَّن رومانوس الثاني ليو فوكاس دمستقاً في الشرق، وكلَّفه بحرب المسلمين، وكان هذا القائد قد اشتهر في سائر أنحاء العالم الإسلامي بما حقّقه من انتصارات على المسلمين في بلاد الشام.

ففي عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) اجتاح ليو طرسوس واستولى على حصن الهارونية[2] في (أول شوال/ ٥ كانون الأول)، ثم توجّه إلى ديار بكر، فتصدَّى له سيف الدولة، فعاد إلى بلاد الشام وهو يقتل ويدمّر ويهدم الحصون والقلاع، وتوّج حملته بأسر محمد بن ناصر الدولة الحمداني[3].

كان لهذه الهزيمة ردّ فعل عنيف من جانب المسلمين، حتى أنّهم أعلنوا الجهاد، وهاجم المسلمون في مصر كنائس النصارى، وركب كافور الأخشيدي إلى دار الصناعة ليطرح مركباً عظيماً كان بها في البحر، إيذاناً ببدء الحرب ضدّ البيزنطيّين[4]، كما دفعت سيف الدولة إلى أن يعبر بجيشٍ كبيرٍ الحدود البيزنطية. وقد هيّأت الحملة البيزنطية على كريت له الفرصة للمضيّ في طريقه، إذ اشترك فيها خيرة قوّات الامبراطورية، وأُفرغت الثغور البيزنطية من الجند إلَّا مَنْ كان في جيش

(١) الأنطاكي: ص٩١.

(٢) الهارونية: حصن صغير قرب مرعش بالثغور الشامية غربي جبل اللّكام بناه هارون الرشيد. الحموي: جـ٥ ص٣٨٨.

(٣) الأنطاكي: ص٩١، ٩٢. مسكويه: جـ٢ ص١٧٧.

(٤) الأنطاكي: ص٩٣.

ليو ببلاد الشام، وربما كان من بين دوافع سيف الدولة تخفيف الضغط البيزنطي عن عبد العزيز بن عمر بن شعيب، حاكم كريت، بدليل أن حملة الأمير الحمداني بدأت في الوقت الذي أخذت الحملة البيزنطية في النزول إلى الجزيرة[1].

خرج سيف الدولة في عام (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) على رأس جيشٍ كبير، تِعْداده ثلاثون ألف مقاتل، وتوغّل في الأراضي البيزنطية حتى خرشنة، وهو يقتل ويسبي ويحرق ويفتح الحصون من دون أن يحفل بما خلّفه وراءه ليو من جند في بلاد الشام، وهذا خطأ عسكري سيكلّفه غالياً.

ويبدو أن ليو تجنَّب الدخول في معركة سافرة مع سيف الدولة الذي يتفوّق عليه في العدد والعتاد، وفضّل أن يكمن له في ممرات جبال طوروس، وهذا تفكير عسكري سليم، فاحتلّ الدروب الرئيسة في جبال طوروس التي تحتّم على سيف الدولة أن يجتازها عند عودته. وفعلاً بلغ الجيش الحمداني بعد انتصاره سفح جبال طوروس من الجهة الشرقية واتّخذ طريقه في دربٍ صخريّ ضيّق اشْتُهر باسم مغارة الكحل، ويُعدُّ من أهمّ الدروب التي كانت تسلكها الفرق العسكرية الإسلامية، واتّخذ الحصن الذي يُشرف على هذا الدرب الاسم نفسه.

واحتشدت القوّات البيزنطية في هذا الدرب وضمَّت، بالإضافة إلى قوات ليو، قوّات الثغور البيزنطية، وبخاصة كبادوكيا، وقوات المناطق المجاورة المتمرّسة على الحرب في الجبال، حتى إذا تقدَّم سيف الدولة بمن معه من الأسرى وبما يحمل من الغنائم، انقضَّ عليه ليو بقواته. وقد رفض سيف الدولة نصيحة الطرسوسيّين بألَّا يسلك هذا الدرب أثناء عودته، لأن البيزنطيّين ملكوه من خلف ظهره، وأن يعود معهم من دربٍ آخر. ويبدو أن رفضه ناجمٌ عن اعتزازه بنفسه وإعجابه برأيه ولتفادي القول بأنه أصاب برأي غيره، وهذا تفكير سياسي وعسكري ضيّق وغير سليم. وفي المعركة التي دارت بين الطرفين، الحمداني والبيزنطي في (١٥ رمضان/ ٨ تشرين الثاني)، تعرّض سيف الدولة لخسارة جسيمة وصلت إلى حدِّ الكارثة، فقد وضع ليو السيف في قوّاته، ونجا سيف الدولة مع ثلاثمائة مقاتل بشقّ النفس، وعاد إلى حلب، واستردَّ ليو الأسرى البيزنطيّين والغنائم، واستولى على خزائن سيف الدولة وأسلحته ودوابه[2].

وهكذا أدَّى استبداد سيف الدولة برأيه إلى هزيمةٍ قاسية أثَّرت سلباً في نفوس المسلمين الذين وضعوا كل ثقتهم به في مواجهة البيزنطيّين.

(١) العريني: ص٤٤٧.

(٢) الأنطاكي: ص٩٤. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٢٩. ابن العديم: جـ١ ص١٢٧.

وما جرى في بيزنطية في عام (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) عقب انتصار ليو فوكاس الشهير في مغارة الكحل، وعودة أخيه نقفور فوكاس منتصراً من كريت، من تعيين هذا الأخير دمستقاً في الشرق مكان أخيه، أن دخلت العلاقات الحمدانية البيزنطية في طورٍ جديد، حيث نَقَل الدمستق الجديد الحرب إلى قلب الدولة الحمدانية، وتوزَّعت الغارات البيزنطية الشديدة بين العواصم والفرات، وانتهت في أوائل (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) باستيلائه على حلب.

كان هدف نقفور، الأوّل، الاستيلاء على قيليقيا تمهيداً للولوج إلى بلاد الشام، فهاجم مدينة عين زربة بفعل ضعف حاميتها، فضلاً عن صعوبة قدوم الإمدادات لنجدتها، كما أنها تقع على الطريق المباشر القصير الذي يمتدّ من قيصرية إلى حلب التي هي الهدف الأسمى له.

واحتشدت العساكر القادمة من القسطنطينية ومن ثغور آسيا الصغرى في قيصرية بكبادوكيا، وقد بلغ عديدها مائة وستين ألف جندي، مدعّمين بالدبابات وأدوات الحصار. تحرّكت هذه الجحافل باتّجاه عين زربة سالكة الطريق المباشر الذي يربطها بقيصرية، وعندما وصلت إليها ضربت حصاراً مركّزاً عليها، فتصدّى لها رشيق النسيمي حاكم طرسوس، إلّا أنه تعرّض للهزيمة وفَقَدَ نحو خمسة آلاف قتيل وأربعة آلاف أسير(١).

والواقع أن المدينة جرى تشييدها في موقع منيع في سفح جبل شديد الانحدار يحيط بها سور ذو حائط مزدوج، وتتوقف استدارته عند الجهة الملاصقة بالجبل، وتطلّ قمّته على المدينة، وأن كل مَنْ يستولي عليها يصبح باستطاعته الدخول إلى المدينة بسهولة، فأرسل نقفور قوّة عسكرية من الفرسان ارتقت القمّة واحتلّتها. وتعرّضت أسوار المدينة لقذائف المجانيق، فأحدثت بها ثغرة. ولما رأى سكان المدينة ما حدث من احتلال البيزنطيّين للجبل، وأن نقفور قد ضيَّق عليهم ومعه الدبابات، وقد وصل إلى السور وشرع في النقب؛ طلبوا الأمان، وقبلوا أن يُسلِّمواالمدينة مقابل الإبقاء على حياتهم، فأمَّنهم نقفور، وفتحوا له باب المدينة، فدخلها في (محرم ٣٥١هـ/ شباط ٩٦٢م)، وكان جنده الذين في الجبل قد سبقوه إليها، فندم على منح السكان الأمان حيث كان باستطاعة جنده الاستيلاء على المدينة في يُسر وسهولة، فنقض عهده، وأصدر أوامره إلى سكانها بأن يجتمعوا بالمسجد الجامع، ومَنْ تأخر في منزله قُتِل، فخرج مَنْ أمكنه الخروج، فلما أصبح أنفذ رجاله إلى المدينة، وكانوا ستّين ألفاً، وأمرهم بقتل مَنْ يجدوه في منزله، فتعرَّض للقتل كل

(١) الأنطاكي: ص٩٦.

ما صادفه الجند بشوارع المدينة ودورها، ثم جمع السلاح وأمر مَنْ في المسجد بأن يخرجوا من المدينة إلى حيث يشاؤون، وهدَّد مَنْ يبقى بالقتل، غير أن عدداً كبيراً منهم لقي حتفه بسبب شدَّة الزحام والبرد والجوع، ومَنْ نجا منهم لجأ إلى طرسوس، وتعرّضت المدينة للنهب ودمَّر البيزنطيّون الدور والأسوار(١).

وظلّ نقفور واحداً وعشرين يوماً في المنطقة وحول المدينة، استولى خلالها على أربعة وخمسين حصناً عنوة وصلحاً، وارتكب جنوده كثيراً من الأعمال الوحشية والبشعة، وأظهر من الشدَّة والصرامة والقسوة ما اعتقد أنها تُلقي الرعب في نفوس السكان من المسلمين بهذه الجهات وعلى الأطراف، فيجلون عنها، فتعرّض السكان للقتل والتشريد والعذاب ما أدّى إلى هلاك عدد كبير منهم، ومَنْ نجا مِنَ القتل مِنَ الأطفال، جرى عليهم الرقّ، ولم تنجُ الأشجار والنباتات من يد التخريب، فأمْسَت المناطق المجاورة لعين زربة خراباً يباباً(٢).

ولا يبدو أن نقفور فوكاس استولى في هذه الحملة على طرسوس والمصيصة؛ إذ لم تتعرّض هاتان المدينتان لحصار البيزنطيّين، والراجح أن ما حدث من انهزام ابن الزيّات حاكم طرسوس ووفاته، قضى على كل مقاومة في هذه الناحية(٣). والمعروف أن ابن الزيات ثار على سيف الدولة إثر هزيمته، فقطع اسمه من الخطبة في طرسوس وأعمال الثغور وأقامها للخليفة المطيع وحده، ثم خرج بنفسه على رأس أربعة آلاف مقاتل لمحاربة البيزنطيّين، فهزمه نقفور وقتل أكثر جنده، كان من بينهم أخ له. ولمّا عاد إلى طرسوس وجد أن السكان أعادوا الخطبة لسيف الدولة وراسلوه بذلك، فصعد إلى روشن في داره فألقى نفسه منه إلى نهر تحته فغرق، وراسل أهل بغراس الدمستق، وبذلوا له مائة ألف درهم، فأقرَّهم وترك معارضتهم(٤).

والواقع أنه لم يكن الاستيلاء على قيليقيا بالنسبة لنقفور فوكاس يتطلّب استعداداً كبيراً بعد الانتصارات البيزنطية، إنَّما كان عليه الآن أن يواجه عدوّه سيف الدولة شخصيّاً بكلّ قوّته، فيخضع أقاليمه الخصبة، ويهاجم عاصمته(٥). وتحتَّم عليه من

(١) مسكويه: جـ٢ ص١٩٠. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٣٦، ٢٣٧. وقارن بالأنطاكي الذي ذكر أن احتلال عين زربة جرى في ذي القعدة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م). ويبدو أن ابن العديم نقل عنه. جـ١ ص١٢٨.

(٢) مسكويه: جـ٢ ص١٩٠، ١٩١. (٣) العريني: ص٤٥١.

(٤) مسكويه: جـ٢ ص١٩١. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٣٧. ابن ظافر: ص٣٦، ٣٧.

(٥) Schlumberger: p206.

أجل ذلك أن يستولي على ممرّات جبال الآمانوس[1]، وسوف يُؤمّن هذا الإجراء للبيزنطيّين السيطرة على قيليقيا، ويُسهّل لهم النفاذ إلى بلاد الشام والمسير إلى حلب. وتعود شهرة هذه الجبال إلى أنّ جميع الغزاة اجتازوها، فمنها غزا المسلمون قيليقيا وما يليها من جهات آسيا الصغرى، ولا بدّ لنقفور فوكاس أن يجتازها ليُهاجم سيف الدولة في قلب دولته[2].

غير أن فصل الشتاء قد أقبل، وبدأت الثلوج تتساقط لتسدَّ الممرّات الجبلية، كما أن موسم الصوم أضحى على الأبواب، ويبدو أن الدمستق فكّر وقتذاك القيام بانقلاب وتسلُّم الحكم بفعل ما اشتهر به الامبراطور رومانوس الثاني من الخفّة والطيش، لذلك كان عليه أن يكون قريباً من العاصمة والاتّصال ببعض العناصر المؤيّدة له[3].

ومهما يكن من أمرٍ، فقد قرّر نقفور فوكاس العودة إلى القسطنطينية على أن يستأنف حملاته العسكرية في الربيع القادم بعد عيد القيامة، وترك جيشه في قيصرية[4].

أتاح انسحاب نقفور فوكاس من قيليقيا الفرصة لسيف الدولة لاستئناف نشاطه الجهادي، فأعاد بناء ما تهدَّم من عين زربة، وأنفق في ذلك ثلاثة ملايين درهم، على أنّ هذه المدينة فقدت أهمّيتها، بدليل أن البيزنطيّين لم يُقدموا على الاستيلاء عليها مرّة أخرى[5].

توّج نقفور فوكاس نشاطه العسكري في شمالي بلاد الشام باستيلائه على حلب، وكان قد استأنف حملاته العسكرية بعد عيد القيامة، فاستولى في (ربيع الأول ٣٥١هـ/ نيسان ٩٦١م) على المدن والحصون التابعة لإمارة حلب، في خطوة متقدّمة للوثوب إلى حلب نفسها، فسقط في يديه وأيدي قادته من المدن دلوك ورعبان ومرعش وعينتاب، وأرسل قوّة عسكرية بقيادة ابن أخته تيودور استولت على منبج وأسرت أميرها الشاعر أبا فراس الحمداني الذي كان خارجها، وأرسله نقفور فوكاس إلى القسطنطينية حيث ظلّ في الأسر مدة أربعة أعوام، حتى فداه سيف الدولة[6].

---

(١) جبال الآمانوس: شعبة من سلسلة جبال طوروس، تتّصل بقيليقيا من جهة الشرق وتفصلها عن بلاد الشام.

(٢) العريني: ص٤٥٢. (٣) المرجع نفسه.

(٤) ابن الأثير: ج٧ ص٢٣٧. (٥) الأنطاكي: ص٩٦.

(٦) ابن ظافر: ص٣٧. الأنطاكي: ص٩٧.

وردَّ سيف الدولة بأن أرسل جيشاً من أهل طرسوس، الذين أعلنوا ولاءهم له، بقيادة حاجبه قرغويه، فأغار على الأراضي البيزنطية، كما بعث غلامه نجا إلى ميافارقين ليُطَمْئن أهلها، فاصطدم أثناء عودته بقوّة بيزنطية عند حصن زياد يوم السبت (٢٤ شعبان/ ٢٧ أيلول) وانتصر عليها، واستأمن خمسمائة من أفرادها.

واعتقد البيزنطيون في غمرة اندفاعهم نحو الجنوب أنهم إنما يقاتلون ويُقتلون في سبيل نصرة المسيح والامبراطور الذي يمثّله على الأرض، وأنهم بقتالهم المسلمين إنما يبلغون أطراف الامبراطورية البيزنطية المؤدّية إلى بيت المقدس، فينتزعونه من المسلمين[1].

أراد نقفور فوكاس أن يباغت سيف الدولة، فأحاط حملته بالكتمان، وتقدم باتجاه المدينة في (ذي القعدة/ كانون الأول) على رأس جيش يقدّر بمائتي ألف فارس، وثلاثين ألف راجل بالجواشن، وثلاثين ألف صانع للهدم وتطريق الثلج، وأربعة آلاف بغل عليها حسك حديد يطرحه حول عسكره ليلاً[2]، واستطاعت كشافته أن تجتاز نهر القويق[3]، على الرغم من حرص المسلمين على حراسة مخاضاته، وذلك بفعل براعة نائبه يوحنا زمسكيس.

غير أن سيف الدولة ما لبث أن علم بزحف الجيش البيزنطي، فاستعدّ لملاقاته، فأرسل قوّة عسكرية بقيادة غلامه نجا لعرقلة تقدّمه ريثما ينتهي من إعداد جيش ضخم يخوض به المعركة الفاصلة، على أنه حدث أن تقدَّمت القوات البيزنطية من الشمال الغربي، في حين اتّخذ نجا طريقه نحو الغرب إلى الأثارب[4]، ثم انحرف نحو الشمال كي ينقضّ على مؤخرة الجيش البيزنطي. ويبدو أن نقفور فوكاس علم بواسطة جواسيسه بأخبار حملة نجا، فبدَّل خطّته وتوجه نحو الجنوب حتى بلغ تُبَّل[5]، ومن ثم توجّه إلى قلعة عزاز، على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً شمالي حلب، فأضحى الطريق مفتوحاً أمامه إلى حلب[6].

وتعجَّل سيف الدولة في الخروج بنفسه للتصدّي للجيش البيزنطي من دون أن

---

(١) Schlumberger: p218. (٢) ابن العديم: ج١ ص١٢٩.

(٣) قويق: هو نهر مدينة حلب، مخرجه من قرية تُدعى شناذر على ستة أميال من دابق، ثم يمرّ في رساتيق حلب ثمانية عشر ميلاً إلى حلب، ثم يمتدّ إلى قنسرين اثني عشر ميلاً ثم إلى المرج الأحمر إثني عشر ميلاً، ثم يفيض في أجمة هناك. الحموي: ج٤ ص٤١٧.

(٤) الأثارب: قلعة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب ثلاثة فراسخ. الحموي: ج١ ص٨٩.

(٥) تُبَّل: من قرى حلب ثم من ناحية عزاز، إلى الشمال من حلب. الحموي: ج٢ ص١٤.

(٦) ابن العديم: ج١ ص١٢٩. Schlumberger: pp227, 228.

يستكمل استعداداته، فجمع ما تيسَّر من الجند، فبلغوا أربعة آلاف بين فارس وراجل، وسار إلى عزاز، غير أنه عندما شاهد ضخامة الجيش البيزنطي عاد إلى حلب وعسكر بظاهرها. وعلم في غضون ذلك بأن البيزنطيّين توجَّهوا نحو العمق قرب أنطاكية، فأرسل غلامه نجا على رأس ثلاثة آلاف مقاتل كطليعة للتصدّي لهم، ثم لحق به بعد الظهر، ونادى في الناس: «مَنْ لحق بالأمير فله دينار»، هذا على الرغم من إدراكه بأنّ المعركة خاسرة. وما إن سار فرسخاً حتى لَقِيَه بعض العرب، فأخبروه بأن البيزنطيّين لم يبرحوا جبرين[١]، وأنهم سوف يصبحون في حلب، فعاد أدراجه إلى المدينة ونزل على نهر قويق، ثم تحوّل في الغد فنزل على باب اليهود، وهو الباب الشمالي من أبواب حلب، ووضع خطّة عسكرية لمواجهة الموقف تقضي بحصر الجيش البيزنطي بين فكي كماشة، فنصح الحلبيّين بإغلاق أبواب المدينة والدفاع عنها من الداخل عندما يحاصرها الجيش البيزنطي، في حين يحاصره هو من الخارج، فيضطر أفراده للقتال على جبهتين، لكن الحلبيّين رفضوا هذه الخطة وأصرُّوا على الاشتراك في الجهاد خارج أسوار المدينة، وبخاصة أنّ فيهم مَنْ كان يعجز عن السير إلى بلاد البيزنطيين للغزو، وقد قربت الآن المسافة، فلما رأى إصرارهم بذل خزائن السلاح لهم وعسكر في جبل بانقوسا شمال المدينة[٢].

ووصل الجيش البيزنطي إلى حيِّ الهزازة شمال غربي المدينة في ثمانين ألف فارس، فوقع القتال في أماكن متفرّقة، ثم قدمت مؤخرة الجيش البيزنطي في أربعين ألف راجل مزوّدين بالرماح وفيهم يوحنا زمسكيس، واتّخذ الجيش مواقعه على النهر وأحاط أفراده بسيف الدولة، فجرى قتال ضار بين الطرفين، ولم يستطع سيف الدولة الصمود بجيشه القليل العدد، واضطرّ إلى الانسحاب إلى بالس، ثم انحرف إلى قنسرين فبات بها، وقد تكبّد خسائر فادحة في الأرواح، وأُسر من جنده جماعة كثيرة، وقُتل أبو داود بن حمدان، وأبو محمد الفياضي كاتب سيف الدولة، وبشرى الصغير غلام سيف الدولة، ومات عند باب اليهود كثير من السكان من فرط الزَّحمة[٣]. واستولى نقفور فوكاس على دار سيف الدولة التي تقع خارج حلب وتُسمى الدارين، فنهب ما تحويه من مال ودواب وسلاح، وخرّب الدار، وملك الربض التي حولها[٤]، ثم حاصر المدينة يوم السبت (١٨ ذي القعدة/ ١٨ كانون الأول).

حاول نقفور فوكاس التفاهم مع السكان لحقن دمائهم، وقد وافقوا بعد مفاوضات

(١) جبرين الفستق: قرية على باب حلب، بينهما نحو ميلين. الحموي: جـ٢ ص١٠١.
(٢) الأنطاكي: ص٩٨. (٣) ابن العديم: جـ١ ص١٣٠.
(٤) مسكويه: جـ٢ ص١٩٢. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٣٨.

معه على تسليم المدينة مقابل الأمان، غير أنه كان مخادعاً، وكان قد قرَّر اقتحام المدينة عنوةً، وبخاصة بعد أن تأكّد من عدم وجود سيف الدولة فيها، فضيَّق الحصار عليها، وأحدث جنوده ثلمة في السور عند باب قنسرين، فقاتلهم الحلبيون عليها ومنعوهم من الدخول عبرها، فتراجعوا إلى جبل جوشن خارج المدينة، وسدَّ أهل حلب الثلمة[١].

وما جرى بعد ذلك من الاضطراب في المدينة، بفعل ما أقدم عليه رجال الشرطة من التعدّي على الأملاك الخاصّة، ونهب المنازل وخانات التجار؛ دفع السكان المقاتلين إلى ترك أماكنهم على الأسوار، ومضوا إلى دورهم ومتاجرهم ليدافعوا عنها، ما هيَّأ للبيزنطيّين الفرصة لاعتلاء السور وفتح الأبواب ودخول المدينة، وذلك ليلة الثلاثاء (٢٢ ذي القعدة/ ٢٢ كانون الأول)، فوضعوا السيف في الناس، وارتكبوا مجزرة رهيبة ذهب ضحيتها كثير من السكان الأبرياء، وأطلقوا سراح أسراهم الذين كانوا في المدينة، وعددهم ألف ومائتا رجل، وسبوا بضعة آلاف صبي وصبية من المسلمين، ونهبوا الأموال والمتاع، ثم عمدوا إلى خباب الزيت فصبّوا فيها الماء حتى فاض الزيت على الأرض، وهدموا وأحرقوا المساجد والأسواق وأكثر دُور المدينة، واستمرَّت أعمال القتل والحرق والنهب ثمانية أيّام[٢].

على أن انتصار نقفور فوكاس لم يكن شاملاً، فقد استعصت عليه القلعة، وقد لجأ إليها عدد من المقاتلين لا سيما من الديالمة ومن رجال الحكومة ومَنْ لهم أموال فضلاً عن كثير من العلوية وبني هاشم. وعلى الرغم من سوء أوضاع المعتصمين وما تعرّضوا له من الشدَّة والجوع بسبب قلّة المؤونة، حتى أنهم كانوا يتسلّلون ليلاً للبحث عن الأقوات[٣]؛ فإنّ حاميتها شكَّلت مصدر خطر على الجنود البيزنطيين، إذ كانوا ينقضُّون عليهم من حينٍ إلى آخر، ما أثار ابن أخت الامبراطور، وأصرَّ على الاستيلاء على القلعة، على الرغم من معارضة الدمستق، الذي رأى أن ينصرف عنهم بفعل أنهم عراة، وإذا نزلوا هلكوا لأنهم لا يجدون قوتاً. وعندما اقترب من باب القلعة قذف الدَّيلم عليه حجراً فأصابه، فانقلب ثم نهض وهو مُدوَّخ، فرماه أحد الديلم برمح فأنفذ صدره ومات من ساعته، وحُملت جثته إلى الدمستق، فلما رآه مقتولاً انتقم من الأبرياء والعُزّل، وذبح جميع الأسرى المسلمين باستثناء الشبان، وكان لِزاماً عليه أن يهاجم القلعة، غير أنه بدلاً من أن يقوم بذلك،

(١) مسكويه: جـ٢ ص١٩٢.
(٢) المصدر نفسه: ص١٩٢، ١٩٣. ابن العديم: جـ١ ص١٣١ ـ ١٣٣.
(٣) ابن العديم: جـ١ ص١٣٤.

قرّر الارتداد عن المدينة[1]، ولعلّ لذلك علاقة بالأسباب التالية[2]:

١ ـ لقد خَشِيَ أن يُباغته سيف الدولة بهجومٍ مضاد، فاكتفى بما أحرزه من انتصارٍ عليه واستباحة عاصمته، وتخريب بلاده.

ـ لقد علم بانضمام قائده نجا إليه في قنسرين ما يُقوّي وضعه العسكري.

ـ لقد أصاب جنده التعب والإرهاق الذي نجم عن هذه الحروب العنيفة، ثم إنّ تنظيم الجيش البيزنطي لم يتهيّأ لممارسة حروب طويلة الأمد.

ـ ما شاع عن قدوم إمدادات من دمشق إلى حلب، بفعل أنّ هذه الكارثة أثارت العالم الإسلامي، فنبذ المسلمون ما بينهم من خلافات ووحّدوا كلمتهم ونهضوا لقتال العدوّ المشترك.

ـ رأى أن يهتمّ بما يجري في القسطنطينية من الأُمور، لا سيما أنه لم يصل إليه، منذ زمن طويل، من الأنباء عما يُدبَّر بالبلاط من المؤامرات التي تجري دائماً ضدّ قائد منتصر.

ـ ما شاع من الأنباء التي تشير إلى تدهور صحة الامبراطور رومانوس الثاني، ما جعل قادة القوات البيزنطية في آسيا الصغرى يتطلّعون إلى العرش البيزنطي.

حملت كلّ هذه الأسباب مجتمعةً نقفور فوكاس على أن يأمر جنده بالارتداد عن حلب بعد ثمانية أيّام من الاحتلال. أمّا النتائج التي ترتّبت على الحملة، فقد صبّت في مصلحة البيزنطيّين، ولعلّ أهمّها[3]:

ـ استردَّ البيزنطيّون إقليم قيليقيا الفاصل بينهم وبين بلاد الشام، بحيث فُتحت الطريق أمامهم للانسياب إلى هذه البلاد بسهولة ويُسْر.

ـ جرى احتلال جميع دروب الآمانوس، ومعظم الحصون الضخمة الواقعة في الإقليم الممتدّ بين نهر الفرات وجبال الآمانوس.

ـ حقّق نقفور فوكاس انتصاراً ساحقاً على خصمه سيف الدولة، واستباح عاصمته وغنم أمواله.

ـ على الرغم من أن نقفور فوكاس غضب لجلائه عن حلب بعد أن فشل في تثبيت أقدامه فيها، إلّا أنه لم يشكّ في أن عودة قريبة إلى هذه الجهات سوف تؤدّي إلى الاستيلاء على المدينة بصورة نهائية، بدليل أنه عندما غادر حلب، في (الأول من ذي الحجّة/ ٣١ كانون الأول) منع جنده من نهب المدينة وتخريب حدائقها ومزارعها، وقال

(١) مسكويه: جـ٢ ص١٩٤.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص١٣٥. العريني: ص٤٥٨، ٤٥٩.
(٣) العريني: ص٤٦٠. Schlumberger: p250.

لأهلها: «هذا البلد قد صار لنا، فلا تقصّروا في العمارة، فإنّا بعد قليل نعود إليكم»[1].

ـ أثار ما حدث من سقوط حلب نفوس المسلمين في الموصل، فأغلق أهلها الأسواق، واجتمعوا في المسجد الجامع من أجل ذلك، كما اجتمعوا بالأمير ناصر الدولة، الذي وعدهم بالمضيّ في الجهاد[2].

اجتاز الجيش البيزنطي جبال الآمانوس عند عودته، وعبر أفراده سهول قيليقيا وجبال طوروس، وما كادوا يصلون في أواخر (صفر ٣٥٢هـ/ آذار ٩٦٣م) إلى سمندو بثغر قيليقيا حتى وردت الأنباء بوفاة الامبراطور رومانوس الثاني[3].

كانت صدمة احتلال حلب كبيرة في العالم الإسلامي، لا سيّما وأنها تُعَدُّ مقدمة لحملات أخرى سيقوم بها البيزنطيون على إقليم الجزيرة الفراتية والموصل. والواقع أن الخسارة كانت جسيمة جداً، فقد قُتِل وأُسر الآلاف من المسلمين رجالاً ونساء، وخسرت الأسرة الحمدانية عدداً من أفرادها ورجالها ممّن برزوا على الساحة السياسية والعسكرية، أمثال أبي الطيب داود وابنه، وداود بن علي، كما قُتل كاتب سيف الدولة أبو محمد الفياضي واللغوي أبو الطيّب، وأصاب المؤسّسات الدينية والمدنية من مساجد وعمائر وقصور ودور وأسواق الخراب، نتيجة الحريق والنهب، ودُمِّر قصر سيف الدولة ونُقلت أبوابه المذهّبة إلى القسطنطينية، ما عُدَّ خسارة فنّية كبيرة.

كان سيف الدولة، خلال هذه المحنة، قابعاً في قنسّرين يراقب تطوّر الأحداث، وما كادت الجيوش البيزنطية ترتدّ عن حلب حتى عاد إليها ليجدها خراباً، فانصرف إلى إزالة آثار العدوان من واقع إعادة تعميرها، وحرص على أن يعيد إليها ما تفرّق من سكانها، وعلى الرغم من ذلك، فإنها لا زالت قليلة العدد، فنقل إليها من استطاع جمعه من سكان مدينة قنسرين المجاورة، والتي تعرَّضت هي الأخرى للحرائق على أيدي الجنود البيزنطيّين، وأعاد عمارة أسوارها، وشيَّد من جديد ميناء أنطاكية[4]، ثم التفت إلى إعادة تجميع وتنظيم قوّاته للردّ على التعدّيات البيزنطية؛ فأرسل في عام (٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) ثلاث حملات عسكرية لغزو الأراضي البيزنطية، فدخلتها من ثلاثة محاور مختلفة.

انطلقت الحملة الأُولى من طرسوس، ودخلت الأراضي البيزنطية من درب قيليقيا، وتوغّلت فيها حتى وصلت إلى قونية، واصطدمت أثناء عودتها بقوّة بيزنطية عند الدَّرب بقيادة قسطنطين الملايني وانتصرت عليها[5].

(١) مسكويه: جـ٢ ص١٩٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٠١، هامش ١.
(٣) Schlumberger: p251.
(٤) Ibid: p398.
(٥) مسكويه: جـ٢ ص١٩٨. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٤٤.

وتوجّهت الحملة الثانية إلى ملطية بقيادة نجا غلام سيف الدولة، الذي عاد إلى ميافارقين بعد أن نفّذ مهمّته، فالتقى بغزاة من خراسان، يبلغ عددهم خمسة آلاف رجل، وهم في طريقهم إلى حلب، فلم يمض معهم إلى سيف الدولة[1].

وقاد سيف الدولة الحملة الثالثة، فسبى أكثر من ألفين، ومن المواشي مائة ألف، على الرغم من أنه لم يتوغّل كثيراً في الأراضي البيزنطية لأنه كان مريضاً بالفالج، ويُصاب بحالات إغماء يُظنُّ معها أنه قد فارق الحياة، لذلك عاد إلى حلب من دون أن يتمّ مهمّته[2].

وحدث في بيزنطية أن توفي الامبراطور البيزنطي رومانوس الثاني في (١٦ صفر ٣٥٢هـ/ ١٦ آذار ٩٦٣م)، وأضحى العرش من حقّ ولديه الطفلين باسيل الثاني، الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره، وقسطنطين الثامن، الذي يبلغ سنتين من العمر، فتولّت والدتهما الامبراطورة تيوفانو الوصاية عليهما، يساعدها كبير الوزراء برنجاس الذي لم يكن فيما يبدو على وفاقٍ معها بفعل التنازع على الاستئثار بالسلطة، وقد نجم عن ذلك أن حصل تقارب بين الامبراطورة وبين نقفور الذي يكنُّ الكراهية لبرنجاس، وقد طمع في اعتلاء العرش البيزنطي، وسانده البطريرك بوليكتس.

وحدث في (٧ جمادى الآخرة ٣٥٢هـ/ ٣ تموز ٩٦٣م) أنْ نادى الجيش المعسكر في قيصرية، بتحريض القائدين كوركواس وزمسكيس، بنقفور امبراطوراً، واصطحبته العساكر البيزنطية إلى العاصمة ليتوجّ في كنيسة القديسة صوفيا. وفي (١٥ رجب/ ٩ آب)، وصل الامبراطور الجديد إلى أسكودار، وأخذ يراقب الأوضاع الجارية في العاصمة التي شهدت آنذاك اندلاع ثورة ضد برنجاس، راح يقمعها بالقوّة. وبعد نجاح الثورة والقضاء على برنجاس دخل نقفور العاصمة في (٢٠ رجب/ ١٤ آب)، وتمّ تتويجه بعد يومين، فأعلن رعايته لحقوق ولدي الامبراطور المتوفّى واشتراكهما معه في الحكم، وما كاد يمضي شهر على تتويجه حتى تزوّج تيوفانو[3].

كانت أهمّ مشروعات الامبراطور نقفور فوكاس تحطيم قوّة الحمدانيّين ومدّ حدود الامبراطورية إلى بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية، وقد عيَّن يوحنّا زمسكيس دمستقاً في الشرق[4]، وأرسله على رأس جيش ضخم إلى طرسوس لتأديب أهلها على ما قاموا به من غارات ضدّ الأراضي البيزنطية، وذلك في (أواخر ٣٥٢هـ/ شتاء

(١) مسكويه: جـ٢ ص١٩٨، ٢٠١. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٤٤.
(٢) مسكويه: جـ٢ ص١٩٩.
(٣) الأنطاكي: ص١٠٠، ١٠١. Schlumberger: pp 280, 281. Diehl et Marcais: pp 467, 468.
(٤) الأنطاكي: ص١٠٢.

٩٦٣م). وكان سيف الدولة قد أقعده المرض وأضحى عاجزاً عن قيادة الحملات العسكرية، فتولّى أمراء الثغور قيادة الجهاد ضدّ البيزنطيّين، فراحوا يقومون بغارات غير مثمرة، ما أتاح للدمستق احتلال أذنة التي هجرها سكانها إلى المصيصة، ثم حاصر هذه الأخيرة مدَّة أسبوع، ونقب في سورها ما يزيد على ستين نقباً، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، وصدّه أهلها عنها. وخرج آنذاك جيش من طرسوس تعداده خمسة عشر ألف فارس وراجل بقيادة أميرها، لمساعدة أهل المصيصة، فاصطدم بالجيش البيزنطي عند أرباض أذنة في رحى معركة عُدَّت من بين أعنف المعارك في التاريخ الوسيط، حقّق المسلمون في بدايتها نصراً واضحاً وطاردوا البيزنطيّين، غير أن كميناً بيزنطيّاً استطاع أن يحاصر أربعة آلاف من المسلمين ويقضي عليهم، ومَنْ نجا انحاز إلى تلّ، فهاجمهم يوحنا زمسكيس وقتل معظمهم، واشتهر هذا التلّ منذ ذلك التاريخ باسم تلّ الدم، وذاع خبر هذه الكارثة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأضحى اسم زمسكيس رمزاً للرعب والخوف[1].

ترتّب على غارات النهب والتخريب في قيليقيا أن قلّت المؤن ما دفع كلّاً من الطرفين إلى الانسحاب من المنطقة، وترك يوحنا زمسكيس حاميات عسكرية في بعض الحصون والمواقع، وأشار قبل انسحابه إلى أن عودته إلى بلاده لم تكن عن عجز «ولكن لضيق العلوفة، وشدّة الغلاء»، وهو عائد إلى المنطقة، ونصح المسلمين من أهل المصيصة وأذنة وطرسوس بتركها والنجاة بأنفسهم قبل عودته، وإلّا تعرّضوا للقتل[2]. وتراجع المسلمون من جانبهم إلى ما وراء جبال الآمانوس، على الرغم من أنهم تلقّوا دعماً من القوّة الخراسانية التي قدمت لنجدة سيف الدولة، وقد نهض معها إلى المصيصة، لكن ما جرى من ارتداد البيزنطيّين، وما حدث من قلّة الأقوات وشدَّة الغلاء، دفع بعض أفراد مِنْ هذه القوّة إلى التفرّق في الثغور، وعاد أكثرهم إلى بغداد، وارتدّ سيف الدولة مع أنصاره عائداً إلى حلب[3]، واستردَّ المسلمون المواقع والحصون التي كانت قد وقعت في يد الدمستق البيزنطي.

وبفعل ما اشتهر به الامبراطور نقفور فوكاس من مَيْل لاستعمال القوّة، وحبّ للقتال، إنما يرجع إلى حروبه مع المسلمين في منطقة قيليقيا وشمالي بلاد الشام. وقد قرّر أن يستأنف القتال ضدّ سيف الدولة، فخرج في (أوائل ٣٥٣هـ/ ربيع ٩٦٤م) على رأس جيش ضخم ضمّ أجناساً عديدة مِنْ أبرزها الأرمن والكرج

(١) الأنطاكي: ص١٠٤، ١٠٥. Schlumberger: p404.
(٢) مسكويه: جـ٢ ص٢٠٣. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٤٨.
(٣) مسكويه: جـ٢ ص٢٠٢.

وجماعات من البنادقة والأمالفيّين[1].

توجّه الجيش أولاً إلى عين زربة وأذنة، واستولى عليهما، وسيطر على عشرين حصناً في جوارهما والقريبة من الدروب المؤدّية إلى بلاد الشام. وإذ اجتاز الامبراطور البيزنطي الآمانوس من دون مقاومة، ألفى الطريق مفتوحاً أمامه للولوج إلى شمالي بلاد الشام ومهاجمة حلب، وهي الهدف الأسمى له في هذه المرحلة. غير أنه توقّف فجأة عن الزحف وارتدّ عائداً إلى بلاده، فنزل قلعة دريزيبيون في قيصرية لتمضية فصل الشتاء، والمعروف أنه بنى هذه القلعة لتكون مقرّاً قريباً له من مجرى الأحداث، فما الذي حدث في الأفق العسكري ودفعه إلى هذا التصرّف، وهو الأقوى على الساحة العسكرية؟.

الواقع أنه واجه عقبات عدَّة دفعته إلى تغيير خطّته، لعلَّ أهمها:

- كانت خطّة الامبراطور البيزنطي تقضي بالاستيلاء على المصيصة وطرسوس لتأمين خطوط مواصلاته الخلفية، قبل الزحف إلى حلب، غير أنه واجه صعوبة كبيرة حالت دون الاستيلاء عليهما خلال مدَّة وجيزة.
- قرب حلول فصل الشتاء، حيث يتعذّر تنفيذ العمليات العسكرية.
- تفاقم موجة الغلاء، إذ عندما وصل البيزنطيون إلى المنطقة كانت تشهد موجة حادَّة من الغلاء ازدادت شدَّة بعد وصولهم.
- تعرُّض الجنود البيزنطيّين للوباء حيث مات عدد كبير منهم.

ترك نقفور فوكاس، قبل انسحابه، حاميات عسكرية في المدن التي استولى عليها، كما ترك فرقة عسكرية لحصار المصيصة بقيادة الدمستق يوحنا زمسكيس، استمرّ الحصار مدة ثلاثة أشهر من دون نتيجة، ما اضطرّ الدمستق إلى رفع الحصار واللّحاق بالامبراطور[2].

استأنف الامبراطور نقفور فوكاس في العام التالي (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) عملياته العسكرية للاستيلاء على المصيصة وطرسوس، وعندما علم سكانهما بذلك، أرسلوا يعرضون عليه الاستسلام مقابل الأمان وتأدية الإتاوة، وأن يُرسل بعض أصحابه ليقيم عندهم، فعزم على إجابتهم إلى ذلك، غير أنه نقض ما وعدهم به بعد أن علم بما يعانون من ضعف وضائقة اقتصادية، حيث لا ناصر لهم بفعل انهماك سيف الدولة بالقضاء على فتنة غلامه نجا وتنظيم شؤون الجزيرة الفراتية وأرمينيا، حيث تعذَّر عليه تقديم المساعدة، وقد نفدت أقواتهم، واشتدّ الغلاء عليهم، حتى أنّ سكّان طرسوس أكلوا الكلاب والميتة، فكثر الوباء فيهم، فأرسل أحد قادته على رأس قوّة عسكرية ليحاصر المصيصة، ولم يلبث أن لحق به وتولّى قيادة العمليات العسكرية، فاستولى

(١) Schlumberger: p424.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٥٠.

على المدينة بالقوّة، ودخلها يوم السبت (١٣ رجب/ ١٦ تموز)، ووضع السيف في رقاب أهلها، فكانت مذبحة مروعة، وساق من نجا من الرجال والنساء والصبيان إلى القسطنطينية، وكانوا نحو مائتي ألف شخص[1]، واستسلمت طرسوس بفعل ما ساد بين سكانها من المجاعة والعجز عن المقاومة، فحصلوا بذلك على شروط أفضل. فبعد أن دخل الامبراطور إلى المدينة أمر سكّانها بالخروج منها على أن يحمل كلّ واحد من ماله وسلاحه ما يطيق حمله ويترك ما تبقّى، ففعلوا، وساروا إلى أنطاكية وسط حراسة بيزنطية، كما جرى حمل بعضهم على سفن بيزنطية إلى حيث أرادوا[2]، وبذلك دخلت طرسوس كغيرها من مدن قيليقيا تحت الحكم البيزنطي، وخرجت من أيدي المسلمين.

حوّل نقفور فوكاس طرسوس إلى مدينة بيزنطية نصرانية، فاتَّخذ مسجدها اصطبلاً لدوابه، وأحرق المنبر، ونقل ما كان فيه من قناديل إلى بلاده، وعيَّن عليها حاكماً بيزنطياً، وولّى على المصيصة حاكماً آخر. ولما كان عازماً على اتّخاذ طرسوس قاعدة للوثوب إلى بلاد الشام لقُرْبها من البلاد الإسلامية، فقد عمَّرها وحصَّنها، وجلب المؤن إليها من كل جهة، فرخصت الأسعار، ودخل من بَقِيَ مِنْ أهلها في طاعته، وتنصّر بعضهم[3].

حدث كل ذلك في الوقت الذي كان فيه سيف الدولة منهمكاً في القضاء على الفتن في الجزيرة الفراتية وأرمينيا. وبفعل التطوّر العسكري الذي مال لصالح البيزنطيّين، وسيطرة الامبراطور البيزنطي على المدن الرئيسة في قيليقيا، مال الأمير الحمداني إلى الهدوء وتبادُل الأسرى.

والواقع أن الفداء كان آنذاك ضرورياً، فقد كان في أسر البيزنطيين أميران حمدانيان عزيزان على سيف الدولة، هما أبو الفوارس محمد بن ناصر الدولة، وأبو فراس الحمداني. وأُقيم الفداء على شاطئ الفرات في (رجب ٣٥٥هـ/ حزيران - تموز ٩٦٦م)، وليس على نهر اللامس كما جرت العادة، لأن هذه المنطقة أضحت بحوزة البيزنطيّين، ونُفِّذ على مرحلتين:

جرت المرحلة الأُولى في حصن الهتَّاخ في ديار بكر قرب ميافارقين، وتمّ خلالها

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٥٤. مسكويه: جـ٢ ص٢١٠، ٢١١. الأنطاكي: ص١٠٧. ابن العبري: ص٦٣، ٦٤.

(٢) ابن العبري: ص٦٤. الأنطاكي: ص١٠٧، ١٠٨. لم ينهض أحد من أُمراء المسلمين للتدخل فيما حدث من القتال في قيليقيا سوى كافور الأخشيدي الذي أرسل أسطولاً بحريّاً بقيادة فتح الثملي يحمل المؤن لأهل طرسوس، غير أن البيزنطيّين منعوه من تفريغ حمولته، وتعرّضوا للسفن الأخشيدية أثناء عودتها، وحطَّمت العواصف بعضاً منها.

(٣) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٥٥. ابن العبري: ص٦٤.

تبادل الأميرين الحمدانيين بجماعة من أعيان وبطارقة البيزنطيين، أمثال ابن أخت الامبراطور وأبوه.

وجرت المرحلة الثانية عند مقيلة القريبة من سميساط، وتمّ خلالها تبادل غلمان سيف الدولة بطائفة من البيزنطيين.

ولمّا لم يبق بحوزة سيف الدولة أسرى بيزنطيين، تقرّر أن يشتري ما تبقّى من الأسرى في البلاد البيزنطية، كلّ أسير بثمانين ديناراً بيزنطياً. ولمّا كان عدد هؤلاء يبلغ ثلاثة آلاف، فقد بلغ ما هو مطلوب لافتدائهم مبلغ مائتين وأربعين ألف دينار[1].

شجّع ضعف سيف الدولة الامبراطور البيزنطي على تجديد نشاطه العسكري ضد الأراضي الإسلامية في منطقتين متجاورتين.

ففي الوقت الذي كان فيه الأمير الحمداني يُنظّم الدفاع عن إقليم الجزيرة الفراتية وأرمينيا هاجم جيش بيزنطي هذا الإقليم، فقصد أفراده آمد وحاصروها، غير أنهم لم يتمكّنوا من الاستيلاء عليها، فغادروها إلى دارا، واقتربوا من نصيبين، واستولوا على قافلة قادمة من ميافارقين، وهرب الناس من نصيبين خوفاً على حياتهم، وراسل سيف الدولة الأعراب ليهرب معهم، وكان في نصيبين، فصادف أن البيزنطيين هاجموها قبل هروبه، فأقام بمكانه.

أمّا على الجبهة الشامية، فقد هاجم البيزنطيّون حلب وقراها، وعاثوا فيها فساداً مدة خمسين يوماً، فاستولوا على بالس، وحاصروا منبج، فامتنعت عليهم، فأحرقوا ربضها، وساروا إلى وادي بطنان في طريقهم إلى حلب، فاضطرّ سيف الدولة أن يجنح إلى السِّلم، وراسل الامبراطور البيزنطي من أجل ذلك، على أن يؤدّي له مالاً، فرفض وأصرّ على أن يتنازل له الأمير الحمداني عن نصف بلاد الشام، فرفض الأمير ذلك. وبعد أن عاث البيزنطيون فساداً في أعمال حلب، توجّهوا إلى أنطاكية، وحاصروها مدة ثمانية أيّام، وبذل الامبراطور الأمان لأهلها، فرفضوا وقاوموه بشدّة. وما حصل من تعرُّضْ الجيش البيزنطي إلى نقصٍ في المؤنة والعلوفة، أجبر الامبراطور على الارتداد إلى طرسوس مركز عملياته العسكرية في أواخر (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، ودخل سيف الدولة على إثر ذلك مدينة حلب ومعه جماعة من الخراسانية، غير أنه نشاطهم لم يجرِ إلَّا بعد وفاة سيف الدولة في (١٠ صفر ٣٥٦هـ/ ١٥ كانون الثاني ٩٦٧م)[2]، أمّا نقفور فوكاس، فقد برَّد الجبهة الإسلامية في المشرق ليتفرّغ لقتال البلغار في أوروبا.

(١) الأنطاكي: ص١١٣، ١١٤.

(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٦٤، ٢٧١. ابن العديم: جـ١ ص١٤٤.

الفصل الرابع عشر

خلفاء سيف الدولة ـ الأيام الأخيرة للإمارة الحمدانية

خلفاء سيف الدولة

سعد الدولة أبو المعالي شريف

٣٥٦ ـ ٣٨١هـ/ ٩٦٧ ـ ٩٩١م

تمهيد

شكّلت وفاة سيف الدولة خسارة جسيمة ألمّت بالمسلمين بعامّة، والعرب بخاصّة، لأنه كان قائداً شجاعاً محنّكاً، قضى حياته مجاهداً ومدافعاً عن الحدود الإسلامية ضدّ البيزنطيّين، واستطاع بفضل مهارته العسكرية أن يتصدّى لأعدائه في الداخل والخارج، ولم يكن ابنه وخليفته على المستوى نفسه من الإقدام والشجاعة والتدبير، ما أدّى إلى ضعف الإمارة الحمدانية وتراجع قوّتها، فطمع فيها عمّالها الذين تنازعوا فيما بينهم وخرجوا على أسيادهم، وجيرانها البيزنطيّون الذين استغلّوا تفكُّك وحدتها لاسترداد مزيد من الأراضي الإسلامية، والفاطميون الطامعون في ضمِّ بلاد الشام ونشر نفوذهم ومذهبهم في ربوعه.

وظهر للحمدانيّين عدوّ خطير مرهوب الجانب تمثَّل بالقبائل العربية التي بدأت تؤدّي دوراً هامّاً في بناء علاقاتها مع تلك القوى وفقاً لمصلحتها، نذكر من هذه القبائل: بنو طَيْء في فلسطين، وبنو كلب في أواسط بلاد الشام، وبنو كلاب في شمالي بلاد الشام، وبنو نمير وبنو عقيل في الجزيرة الفراتية.

تولية سعد الدولة حكم الإمارة الحمدانية

خلف سعد الدولة أباه سيف الدولة بعد وفاته، وهو الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة من أولاده[1]، وكان يقيم في ميافارقين نائباً عن أبيه على ديار بكر.

(١) أنجب سيف الدولة أربعة أولاد، هم: أبو البركات، توفي في عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، وأبو الهيجاء، توفي في عام (٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، وأبو المكارم، توفي في عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، =

والمعروف أن سيف الدولة وُلِد في هذه المدينة، واتّخذها مقرّاً لأهله، ودُفن بها في المقبرة التي بناها لنفسه.

وقام قرغويه الحاجب، أقوى غلمان سيف الدولة وأقربهم إليه، بإدارة الشؤون العامة في حلب، ريثما يصل سعد الدولة الذي اسْتُدعي من ميافارقين على عجل.

تركت وفاة سيف الدولة أثراً واضحاً على غلمانه، فانقسموا إلى طائفتين متنازعتين، الأُولى بقيادة تقى أوبقا، والثانية بزعامة بشارة. كان الأول والياً على أنطاكية، فابتزّ أموال الناس حتى تذمَّروا، وشكوا أمرهم إلى قرغويه، فأبعده عن المدينة وأرسله مع تابوت سيف الدولة إلى ميافارقين برفقة بشارة.

وعمد تقى إلى التخلّص من خصمه، فاتّهمه بالتقرّب من حمدان بن ناصر الدولة، وحثّه على مهاجمة حلب والاستيلاء عليها، وكان هذا قد استولى على الرقّة ونصيبين عند وفاة عمِّه، وكتب إلى قرغويه بذلك، فصادر أملاكه بحلب عقاباً له.

تصرّف بشارة تجاه تلك الوشاية بذكاء، فتقرَّب من تقى حتى أضحى قرينه وجليسه، فوثق به وأفضى إليه بنيّته التخلّص من ابن سيّده سعد الدولة والاستيلاء على الحكم، ووعده بمنحة ولاية ميافارقين.

وعندما وصل الرَّكْب إلى ميافارقين اتّصل بشارة سرّاً بسعد الدّولة وحذّره من الخروج من المدينة لاستقبال جثمان والده، وأخبره بنيّة تقى التخلّص منه، فأظهر العلّة وامتنع عن الركوب وأغلق أبواب المدينة. وضرب تقى خيامه خارج أسوار المدينة ولم يدخلها، وتسلّق بشارة في غضون ذلك، الأسوار وحرّض الجند على تقى وفضح مؤامرته، فانفضُّوا مِنْ حوله، وعندما انكشف أمره فرَّ إلى مانزيكرت، وكتب إلى سعد الدولة يطلب العفو والأمان منه، فمنحه إيَّاهما، وعندما حضر بين يديه، قبض عليه، وسلّمه إلى بشارة الذي قتله[1].

بعد أن تخلّص سعد الدولة من هذه المشكلة، سار إلى حلب، تاركاً حكم ميافارقين في يد والدته القويّة أُمّ الحسن، ودخل المدينة في (٢٠ ربيع الأول ٣٥٦هـ/ ٥ آذار ٩٦٧م)[2]، فاستقبله سكانها بكل مظاهر الترحيب، فزيَّنوا المدينة

= وأبو المعالي شريف، وتذكر بعض الروايات ابناً خامساً هو أبو الكتائب، توفي وهو صغير، بالإضافة إلى بنت هي ستّ الناس. ابن ظافر: ص٣٩، ٤٠. وقارن بديوان أبي فراس الحمداني: جـ٣ ص٣٦٠.

(١) ابن ظافر: ص٤٧.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص١٤٦. وقارن بابن ظافر الذي يذكر أن الدخول إلى حلب حصل في شهر رجب: ص٤٨.

وضربوا القباب. ودخل الأمير الحمداني إلى بلاد والده وجلس على العرش الضخم وإلى جواره قرغويه على كرسي، والمدبّر لدولته وزيره أبو إسحاق محمد بن عبد الله بن شهرام كاتب أبيه[1].

التنازع الأسري في الإمارة الحمدانية

حدث بعد وفاة سيف الدولة أن خرج حمدان بن ناصر الدولة على حكم ابن عمِّه، وكان يتولّى نصيبين وماردين والرَّحبة من أعمال الجزيرة الفراتية، فاستغلّ وفاة عمّه وأضاف إلى أملاكه الرقّة والرافقة، من أعمال ديار مُضر التابعة للإمارة الحمدانية في حلب. لم يكن سعد الدولة في وضع يسمح له بالتصدّي لابن عمِّه، في ظلِّ عدم استقرار الوضع الداخلي للإمارة، غير أن الصراع الداخلي في الموصل بين أبناء ناصر الدولة أجبر حمدان على ترك مدينتي الرقَّة والرافقة[2].

ولم يمضِ ثمانية أشهر على وفاة سيف الدولة حتى واجه سعد الدولة مشكلة أكثر خطورة، فقد خرج عليه خاله أبو فراس، وكان آنذاك في حمص، وإذ بعث إليه بالحضور فرفض، انحاز إلى صدد[3] وتحصَّن فيها. ويبدو أنه أبَى أن يكون مجرّد عامل لابن أخته، وهو أكبر منه سنّاً وأقدر على إدارة الشؤون العامّة، وبخاصّة أن له فضائل في الحفاظ على كيان الإمارة الحمدانية، كما استاء من تحكُّم الغلمان واستبداد قرغويه بشؤون الإمارة في ظلّ ضعف سعد الدولة.

ومهما يكن من أمر، فقد ارتاب سعد الدَّولة في تصرّف خاله ورفض الحضور إلى مجلسه، وشكَّ في أمره، فقرَّر التخلّص منه، والواقع أنه دُفِع للقيام بذلك من قِبَل قرغويه الذي خَشِيَ من طموح أبي فراس الذي يُشكّل خطراً على نفوذه، ولعلّه أوْهمه بأنّ خاله يطمع في حكم الإمارة.

وخرج سعد الدولة من حلب متوجّهاً إلى سلمية التي اتّخذها قاعدة انطلاق لحرب خاله، فجمع حوله الأعراب من بني كلاب ومعهم ظافر العقيلي، وكان قد ولّاه على خرشنة، ثم أرسل الجيش بقيادة قرغويه إلى صدد للاصطدام بخاله. وبعد مناوشات لم تستمرّ طويلاً هال أنصار أبي فراس ضخامة جيش قرغويه، فاستأمن معظمهم وانحازوا إليه. ولما وجد أبو فراس نفسه مع قلّة من أعوانه خَشِيَ على نفسه، فاختلط مع الذين استأمنوا، لكن قرغويه عرفه، فأمر أحد غلمانه بقتله، فضربه بدبوس مضرَّس على رأسه، فسقط مِنْ على دابّته، ونزل الغلام فحزّ رأسه، وحمله

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٤٦. (٢) مسكويه: جـ٢ ص٢٥٥.

(٣) صدد: قرية تبعد عن حمص ستين كيلومتراً باتجاه الجنوب الشرقي.

قرغويه إلى سعد الدولة، وذلك يوم السبت في (٢ جمادى الأولى ٣٥٧هـ/ ٤ نيسان ٩٦٨م)، والراجح أن قرغويه تصرّف بعملية القتل من دون علم سيّده[١].

الصراع بين سعد الدولة وغلمانه

طمع قرغويه بخلع طاعة الأسرة الحمدانية وطردها من حلب والاستقلال بهذه المدينة، فانتهز خروج سعد الدولة إلى بالس في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) لصدِّ البيزنطيّين، فاغتصب السلطة وكتب إلى سعد الدولة يقول: «امْضِ إلى والدتك، فإنّ أهل حلب لا يريدونك، ولا يتركونك تعود إليهم»[٢].

والواقع أن قرغويه كان يُخطّط للاستقلال عن الأسرة الحمدانية منذ وفاة سيف الدولة، فاستغلّ ضعف سيّده الذي فَقَدَ ثقة شعبه واحترامه بفعل عدم جديّته في الجهاد والتصدّي للبيزنطيّين، الذين كانوا يهاجمون الأراضي الإسلامية، واستقطب الحلبيين بعد أن أوقفهم على ما تتعرّض له مدينتهم من الخطر البيزنطي، وبما قام به من إصلاحات في القلعة وتحصينها وعمارة أسوار البلدة وتقويتها[٣]. وهكذا طرد قرغويه سيّده واستولى على حلب، وقطع الدعاء له، وتعاون مع غلام آخر يُدعى بكجور على تنفيذ هذه المؤامرة، وذلك في (محرم ٣٥٨هـ/ كانون الأول ٩٦٨م)[٤].

سار سعد الدولة إلى حرّان، فصدَّه أهلها وأغلقوا الأبواب في وجهه ومنعوه من الدخول، إلّا أنهم سمحوا لأصحابه بالدخول لمدَّة يومين للتزوُّد بالأقوات[٥]. ومضى سعد الدولة طريداً إلى أرزن، فمنعه أهلها من الدخول إلى بلدتهم، وهنا وجد نفسه مضطرّاً إلى التماس المساعدة من ابن عمّه أبي تغلب، فعرض عليه هذا أن يقيم في نصيبين، لكنه رفض، فيمّم وجهه صوب ميافارقين للالتجاء إلى والدته، بعد أن انفضّ أتباعه من حوله وانضمّوا إلى ابن عمّه أبي تغلب، فرفضت والدته استقباله، ويبدو أنها خشيت من غلمانه وكتّابه بعد أن بلغها أنهم يتآمرون عليها، فأغلقت أبواب المدينة في وجهه مدة ثلاثة أيام، وهو مُقيم خارجها إلى أن وثقت به وبغلمانه بعد التحقُّق، ففتحت أبواب المدينة، ودخلها[٦].

واقتسم قرغويه وبكجور السلطة في حلب، وجرى الدعاء لهما على المنابر، وكُتب اسم بكجور على السكّة ودُعِي بالأمير، في حين ظلّ سيّده قرغويه يُدعى

---

(١) ابن ظافر: ص٤٨. ابن خلكان: ج٢ ص٦١.
(٢) ابن العديم: ج١ ص١٥٠.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه. ابن ظافر: ص٤٨.
(٥) ابن الأثير: ج٧ ص٢٨٦.
(٦) ابن العديم: ج١ ص١٥٠.

بالحاجب، وهذا يعني أن بكجور فرض نفسه بقوّة شخصيّته، واستأثر بالسلطة[١].

ظلّت بعض المدن في شمالي بلاد الشام على ولائها لسعد الدَّولة، وتُدين بالطاعة له، منها معرَّة النعمان التي يحكمها زهير، وهو أحد غلمان سيف الدولة، فاستدعى سيّده من حماة حيث كان يقيم، فلبّى سعد الدولة دعوته، فسار إلى منبج، فجمع فيها أنصاره وتوجَّه إلى حلب لطرد قرغويه وبكجور منها، وحاصرها في (رمضان ٣٥٨هـ/ تموز ٩٦٩م)، ويبدو أنّ قرغويه كان عاجزاً عن التصدّي لقوّته، فالتمس المساعدة من البيزنطيّين، فأرسلوا إليه جيشاً بقيادة بطرس فوكاس ـ الطربازي ـ ولمّا علم سعد الدولة بقدوم البيزنطيّين فكّ الحصار عنها وانسحب إلى معرَّة النعمان[٢]. استغلّ أبو تغلب بن ناصر الدَّولة حرج موقف ابن عمّه سعد الدولة، فاستولى على حران وانتزع ميافارقين[٣].

أدّى هذا النزاع الحمداني إلى تفتيت وحدة الإمارة، وضياع هيبة الدولة، ما سمح لقرغويه التلقُّب بأمير المسلمين بفضل تأييد البيزنطيّين له، وذلك في عام (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م)[٤].

وما لبث الشِّقاق أنْ وقع بين قرغويه وبكجور بسبب الاستئثار بالسلطة، فقبض الثاني على الأوّل وأوْدعه السجن في قلعة حلب في (ذي الحجّة ٣٦٤هـ/ آب ٩٧٥م)، في ظلّ انصراف الدولة البيزنطية عن تأييد قرغويه، نظراً لِما ساد من الفتن الداخلية في بيزنطية بعد وفاة زمسكيس في عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٦م)، ما يدلّ على قوة بكجور، وتأييد جماعة كبيرة من الجند له، غير أنه لم يتمكّن من كسب تأييد الحلبيّين.

واستدعى أنصار قرغويه سعد الدولة إلى حلب، وكان آنذاك في حمص يراقب تطوّر الأحداث، فسار إليها مع بني كلاب، وقد أغراهم بأن أقطعهم بحمص الإقطاع المعروف بالحمصي، فنزل على معرَّة النعمان وفيها زهير الحمداني قد استولى عليها، وعصى على مولاه، واستبدَّ بأُمورها، فدخلها عنوةً وقبض على زهير بعد أن استسلم له وأرسله إلى أفامية حيث قُتل هناك[٥].

تابع سعد الدولة زحفه إلى حلب، وعندما وصل إليها ضرب الحصار عليها الذي استمر أربعة أشهر، ثم دخلها بمساعدة أهلها الذين ملُّوا الفتن والاضّطرابات، كما

---

(١) ابن العديم: ج١ ص١٥٠، ١٥٢. الأنطاكي: ص١٣٣، ١٣٥.
(٢) ابن العديم: ج١ ص١٥٢. الأنطاكي: ص١٣٣، ١٣٥.
(٣) ابن الأثير: ج٧ ص٢٩٤. ابن القلانسي: ص٢٧.
(٤) ابن العديم: ج١ ص١٥٤.
(٥) المصدر نفسه: ص١٥٨، ١٥٩.

أنهم استاءوا من تعاون بكجور مع البيزنطيّين وقد مكَّنهم من البلاد.

وتحصَّن بكجور بالقلعة، فحاصره سعد الدولة وضيَّق عليه حتى نفدت أقواته، فاستسلم مقابل الأمان له ولأهله، وتوليته على حمص، وذلك في (ربيع الآخر ٣٦٧هـ/ تشرين الثاني ٩٧٧م). وفعلاً، فقد ولَّاه سعد الدَّولة حمص وقلَّده الرقّة والرَّحبة، واستقرّ هو في حلب[١].

وتعرّض سعد الدولة آنذاك لضغط بيزنطي[٢]، فاضطرّ إلى التماس رضى العزيز الفاطمي من جهة وكسب تأييد الفئة الشيعية القويّة في حلب من جهة أخرى، فاعترف بسيادة الفاطميّين، وخطب لهم على المنابر، وأضاف إلى الأذان عبارة «حيّ على خير العمل، محمد وعليّ خير البشر»[٣].

والحقيقة أن سياسة الفاطميّين في بلاد الشام انطلقت من عاملين: عقائدي وسياسي.

فمن حيث العامل العقائدي، فقد استهدفت الدولة الفاطمية الاستيلاء على العالم الإسلامي وإسقاط الخلافة العباسية، وشكّلت حلب طريقاً طبيعيّاً إلى العراق.

ومن حيث العامل السياسي، نلاحظ أن السياسة الفاطمية كانت استمراراً لسياسة مصر الخارجية، على مرِّ العصور، تجاه بلاد الشام التي تُشكِّل حلب حاضرة أجزائها الشمالية. وقد نبعت هذه السياسة من واقع مصر الجغرافي، حيث كان من السهل الهجوم عليها من الشمال الشرقي، وحتى تَحُول دون ذلك، كان الاستيلاء على بلاد الشام ضرورة سياسية وعسكرية لجعلها منطقة حاجزة؛ فنجح الفاطميون في بسط سيطرتهم على جنوبي بلاد الشام، وفشلوا في حكم الشمال، لأنهم واجهوا عقبات عدَّة لم يكن بإمكانهم تجاوزها، لعلّ أهمها:

- بُعْد القاهرة عن حلب.
- تراجع القوة الفاطميّة بسبب المشكلات الداخلية.
- قوّة الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الحادي عشر الميلادي.
- كراهية سكان بلاد الشام للحكم الفاطمي لأسباب دينية - مذهبية، واقتصادية وإدارية.

---

(١) ابن العديم: جا ص١٥٩.

(٢) المعروف أن بيزنطية تطلّعت إلى استعادة بلاد الشام من أيدي المسلمين والاحتفاظ بحلب أو فرض حكم مُوالٍ لها، لأن مثل هذا الوضع كان يمكن استخدامه حاجزاً بينها وبين العالم الإسلامي، وقوّة رادعة للهجوم على أملاكها من الجنوب، وعدَّت خسارة حلب خطوة تمهيدية لخسارة أنطاكية وأجزاء أخرى من آسيا الصغرى.

(٣) ابن العديم: جا ص١٥٩، ١٦٠.

أرغمت هذه الظروف الصعبة الدولة الفاطمية على التغاضي عن سياستها المذهبية، وتبنّي سياسة واقعية، وقد عبَّر عن هذه السياسة الوزير الفاطمي يعقوب بن كِلّس في وصيّته للعزيز، حيث قال: «سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانية، أُمراء حلب، بالدعوة والسكة. . .»[١].

ويبدو واضحاً في هذه الوصية، مدى تأثير القوّتين الحمدانية والبيزنطية في السياسة الخارجية للدولة الفاطمية. وثمّة حقيقتان يمكن الإشارة إليهما:

الأولى: أن الحمدانيّين كانوا آنذاك مرتبطين بالدولة الفاطمية بالخطبة والسكة فقط، ولم يكن هناك ولاة معيّنين من قِبَل الفاطميّين.

الثانية: كان الحمدانيّون يشكّلون مصدر قلق للدولة الفاطمية، نتيجة ولائهم للبيزنطيّين أعداء الفاطميّين.

وعلى هذا الأساس تساهلت الدولة الفاطمية في قيام حكم مستقلّ في حلب.

وعندما تراجع الضغط البيزنطي، نبذ سعد الدولة طاعة الفاطميّين وأعلن ولاءه للبويهيّين في بغداد، فأرسل وفداً إلى عاصمة الخلافة برئاسة الشريف أبي الحسن إسماعيل بن الناصر الحسني لتهنئة عضد الدولة البويهي بانتصاره على بختيار[٢]، فجاءه الردّ من قِبَل الخليفة الطائع في (رجب ٣٦٧هـ/ شباط ٩٧٨م)، بتوليته على ما في يده من الأعمال، ومنحه لقب سعد الدولة، وخلعاً تباهى بها، كما خلع عليه عضد الدولة وخاطبه في كتابه «بسيدي، ومولاي وعدّتي»[٣]. وبذلك أضاع سعد الدولة استقلال الإمارة الحمدانية في حلب، وأضحى تابعاً لدار الخلافة، ونائباً للعباسيّين في بلاد الشام، ويدين بالخضوع لعضد الدولة البويهي.

وتمادى سعد الدولة في سياسته العدائية للفاطميّين، فساعد أفتكين التركي حاكم دمشق، عندما ناهضهم، ومع ذلك فإنه لم يتمتّع بالطمأنينة، وشُغِل بمحاربة بكجور الذي طمع في ولاية دمشق، وأراد استعادة نفوذه في حلب.

والواقع أن بكجور اتّصف بالطموح السياسي، فما إن تسلَّم حكم حمص حتى انصرف إلى عمارتها، وتقوية موقفه، وتنظيم أُموره، فحقَّق الأمن «حتى أنه لم يكن بالشام وضع آمن إلَّا هي وضواحيها»[٤]، وعندما ضربت دمشق آنذاك موجة قحط شديدة، أمدَّها بالغلال وأمّن الطريق الذي يربطها بحمص حتى تصل قوافل المؤن

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٤ ص٢١.

(٢) انظر فيما يتعلق بهذه الأحداث، ابن الأثير: جـ٧ ص٣٥٨ - ٣٦٠.

(٣) ابن ظافر: ص٥٠. ابن العديم: جا ص١٦٠.

(٤) ابن ظافر: ص٥٠.

سالمة[1]، ويبدو أن سلوكه الإنساني هذا كان يُخفي وراءه طموحاً سياسيّاً، بدليل أنه كتب إلى العزيز الفاطمي يطلب منحه ولايتها ومساعدته في الاستيلاء على حلب، فوعده بالإيجاب[2]، والمعروف أن دمشق كانت آنذاك تحت النفوذ الفاطمي ويحكمها القائد التركي أفتكين باسم العزيز.

والواضح أن العزيز، الذي أضحت له السيطرة على جنوبي بلاد الشام ووسطه، ساءه انتظام العلاقة بين سعد الدولة والخلافة العباسية، فتطلَّع إلى الاستيلاء على إمارة حلب، كما أن بيزنطية كانت تتحيَّن الفرص للتدخل مجدّداً في شؤون الإمارة؛ فأرسل الامبراطور باسيل الثاني قوّة عسكرية من اللاذقية بقيادة كرمروك، أغارت على مدن الساحل. وقام الفاطميون بالردِّ على هذه الغارات، ووصلوا إلى نواحي أنطاكية، غير أن قوّاتهم رُدَّت على أعقابها، ووصلت فلولهم إلى طرابلس، فقام واليها نزّال بمهاجمة اللاذقية، وتمكَّن من إلحاق الهزيمة بالقائد البيزنطي وأسره، واستولى على المدينة، وذلك في عام(٣٧٢هـ/ ٩٨٢م). أتاح هذا الانتصار للفاطميّين بأن يُخلِّصوا المدن والحصون الساحلية من أيْدي البيزنطيّين، وتمكَّنوا من الاستيلاء على حصن بانياس[3].

حدث ذلك في الوقت الذي ساءت فيه العلاقة بين سعد الدولة، الذي اتّصف بالتقلّبات السياسيّة، وبين بكجور الطامع في استعادة سيطرته على حلب، فأجبره الأمير الحمداني على التخلّي عن حكم حمص، فكتب بكجور إلى العزيز يطلب منه الوفاء بوعده، فاستجاب لطلبه، وكتب إلى قائده أفتكين في دمشق وإلى منشّا بن إبراهيم الفرّار، كاتب الجيش هناك، بأن يُسلِّما دمشق لبكجور، وأن يمدَّاه بقوّة عسكرية من دمشق لقتال سعد الدولة وقصد بلاده[4].

وعبَّأ بكجور قوّاته، وجنَّد الأعراب، وزحف إلى حلب وحاصرها وأعلم نزّال والي طرابلس بذلك. لم يكن أمام سعد الدولة، لدرء هذا الخطر الذي هدَّد حكمه، سوى التماس المساعدة من البيزنطيين، لأن البويهيّين كانوا آنذاك منهمكين في نزاعاتهم الداخلية التي أفقدتهم وحدتهم[5]، فلم يستطيعوا التدخّل في مجرى الأحداث التي كانت تجري لغير صالحهم في شمالي بلاد الشام، فكتب إلى الامبراطور البيزنطي بشأن ذلك، وخوّفه من أن الفاطميّين إذا نجحوا في أخذ حلب، فإنهم سوف يهاجمون أنطاكية. ولمّا كان استيلاء الفاطميّين على حلب يُهدِّد الدولة

(١) ابن القلانسي: ص٢٨. (٢) المصدر نفسه.
(٣) الأنطاكي: ص١٩٤، ١٩٥. (٤) ابن ظافر: ص٥١.
(٥) انظر فيما يتعلق بهذه النزاعات الداخلية: ابن الأثير: جـ٧ ص٤٣٨، ٤٣٩.

البيزنطيّة بشكل خطير لقربها من حدودها، فقد كتب إلى بارداس فوكاس، قائد جيوش الشرق، يأمره بمساعدته، ما اضطر بكجور إلى الارتداد عن المدينة، وعاد إلى دمشق، وذلك في عام (٣٧٣هـ/ ٩٨٣م)، وأقام الدعوة للعزيز في قنسرين وحمص[1].

وهكذا اتّخذ الصراع الداخلي في الإمارة الحمدانية بُعْداً خارجيّاً من واقع الصراع على بلاد الشام بين القوّتين الكبيرتين البيزنطية والفاطمية، وأنّ مَنْ ينتصر منهما سيُحقِّق مكاسب كبيرة على حساب الحمدانيّين.

وحدث في عام (٣٧٦هـ/ ٩٨٦م) أن اعترف سعد الدولة مرّة أخرى بسيادة العزيز، وأمر بذكر اسمه في الخطبة، ووصلت إليه الخلع فلبسها، كما خطب له بمعرّة النعمان. ولعلّ هذا التقارب بين العاهلين إنما حدث بعد أن حلَّت الهزيمة بالجيوش البيزنطية في البلقان على يد البلغار، وتردَّد صداها في سائر أنحاء المشرق.

أساء بكجور السيرة أثناء حكمه لدمشق ما أدّى إلى تذمّر السكان، كما ساءت علاقته بالوزير الفاطمي يعقوب بن كِلِّس، فوشى به عند العزيز، وأشار عليه بعزله. استجاب العزيز لطلب وزيره وأرسل عسكراً من مصر إلى دمشق بقيادة منير الخادم الصقلبي، فلما وصل إلى ظاهر المدينة خرج إليه بكجور لمقاتلته، غير أنه تعرّض للهزيمة، فطلب الأمان من القائد الفاطمي، فمنحه إيَّاه، فسار إلى الرقّة على نهر الفرات واستولى عليها، وطلب من سعد الدولة أن يُعيده إلى ولايته السابقة حمص فرفض طلبه[2].

الواضح أن بكجور كان ذا نزعات سلطويّة، واتَّسمت سياسته بالتقلّبات السريعة؛ فحاول من مقرّه في الرقّة أن يوطّد سلطانه في تلك الجهات، وأن يستردَّ حلب مستفيداً من تنازع القوى. ولمّا ساءت علاقاته بسعد الدولة مرّة أخرى، قرّر مهاجمته، فاستقطب جماعة من غلمانه الساخطين عليه، وكتب إلى العزيز في مصر يطمعه في حلب، وقال له: «إن حلب دهليز العراق، متى أُخذت كان بعدها أسهل»[3]، وأقام الدعوة له، وطلب منه المساعدة، فأمر العزيز نزَّال والي طرابلس، وسائر ولاته في بلاد الشام أن ينهضوا لمساعدته، عندئذ التمس سعد الدولة المساعدة من الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني[4].

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٦٣. الأنطاكي: ص٢٠٠، ٢٠١. النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب: جـ٢٨ ص١٥٩.
(٢) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٢٢، ٤٢٣، ٤٤٧. (٣) المصدر نفسه: ص٤٤٧.
(٤) المصدر نفسه: ص٤٤٨.

وتوضَّحت آنئذٍ صورة التحالفات العسكرية، فقد تحالف بكجور مع الفاطميّين في حين تحالف سعد الدولة مع البيزنطيّين والدَّيلم والأتراك وبعض العرب من بني كلاب. وعندما حاصر بكجور حلب، وشعر سعد الدولة بالخطر يُهدِّد إمارته حاول إقناع بكجور بالرحيل عن حلب ووقف الحرب على أن يقطعه من الرقَّة إلى حمص، وذكَّره بالحقوق الواجبة عليه تجاه سيّده، لكن بكجور أصرَّ على الحرب، وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية في الناعورة على مسافة ثمانية أميال من حلب في (محرم ٣٨١هـ/ نيسان ٩٩١م)، دارت الدائرة فيها على بكجور وحلفائه، وانتهت بمقتله[1].

والواقع أن بكجور تعرّض خلال المعركة لمصاعب عدَّة لم يستطع تجاوزها وأثَّرت على مقدرته القتالية، نذكر منها:

- نجاح سعد الدولة في استقطاب الأعراب في جيشه قبل المعركة بمنحهم الإقطاعات والعطايا، في الوقت الذي اتّصف فيه بكجور بالبخل، فخذلوه، ونهبوا معسكره، وانضموا إلى القوّات الحمدانية.
- إحجام غلمانه الموجودين في حلب عن نصرته، وهم الذين كاتبوه ووعدوه بالمساعدة.
- عدم وصول النَّجدة الفاطمية.

سار سعد الدولة، بعد أن تخلّص من بكجور، إلى الرقّة التي تحصَّن فيها سلامة الرشيقي غلام بكجور ومعه أسرة بكجور ووزيره أبو الحسن علي بن الحسين المغربي، فطلب من سلامة تسليمه الحصن، فاستجاب لطلبه، إلَّا أنه اشترط بَذْل الأمان لأهل بكجور على أنفسهم وأموالهم وله وللوزير المغربي، فحلف له سعد الدولة يميناً صاغها وزير بكجور. وخرج آل بكجور من الحصن ومعهم أموالهم وأثقالهم، فلما رآها سعد الدولة استكثرها؛ لأنه لم يكن يعرف أن لدى بكجور هذه الأموال الكثيرة، فطمع بها، وشجّعه قاضي حلب ابن أبي الحصين على أخذها بحجّة أن بكجور كان مملوكاً له، وأنّ كل ما يملكه فهو له، ولا حرج عليه فيما يأخذه، ولا حنث في الأيمان التي حلف بها، فأخذ المال جميعاً وقبض عليهم[2].

واشتكى آل بكجور إلى العزيز الفاطمي في مصر علي ما نالهم من أذى على يد سعد الدولة، وطلبوا منه أن يتوسّط لهم ليكفّ عنهم ويُبقي عليهم ويردَّ لهم أموالهم؛

(١) انظر فيما يتعلق بالصراع بين سعد الدولة وبكجور: ابن القلانسي: ص٣٤ ـ ٣٨. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٤٦ ـ ٤٤٨. أبو شجاع، محمد بن الحسين، الملقب ظهير الدين الروذراوري: ذيل تجارب الأُمم: ص٢٠٩ ـ ٢١٥. ابن ظافر: ص٥١، ٥٢.

(٢) ابن ظافر: ص٥٣. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٤٨، ٤٤٩.

فكتب العزيز إلى سعد الدولة كتاباً يأمره بإزالة ما ألحقه بآل بكجور من الأذى وتسييرهم إلى مصر، وهدَّده بالمسير إليه إذا امتنع عن ذلك[1].

يبدو أن العزيز ارتكب خطأً سياسيّاً عندما تدخل في هذه القضية لصالح آل بكجور الذين انتهى أمرهم، وكان الأفضل أن يتفاهم مع سعد الدولة صاحب النفوذ في شمالي بلاد الشام لاستقطابه وإبعاده عن الارتماء في أحضان البيزنطيّين، بدليل أن الأمير الحمداني أهان رسوله واتّخذ موقفاً متشدّداً من طلبه، وتوعَّده بغزو مصر. والراجح أن سعد الدولة تقوَّى بالبيزنطيّين عندما اتّخذ ذلك الموقف المتشدِّد، ما أتاح لهؤلاء حرية التدخل في بلاد الشام وبصفة مشروعة بحجّة مساندة حليفهم الحمداني، الأمر الذي سيكون له أثر فيما بعد.

وفاة سعد الدولة

توفي سعد الدولة ليلة الأحد (٢٦ رمضان ٣٨١هـ/٦ كانون الأول ٩٩١م) بسبب ما أصابه من الفالج، وقد طال مرضه خمسة أشهر، وحُمل تابوته إلى الرقّة حيث دُفن بمشهد في ظاهرها، وقد حكم زهاء خمسة وعشرين عاماً تميّزت بانصرافه إلى ملذّاته ولهوه، بالإضافة إلى النزاعات الداخلية الدامية، واستبداد الغلمان والمماليك، وضياع هَيْبة الإمارة، وتناقص أطرافها لصالح البيزنطيين، وتهديد الفاطميّين المستمرّ بضمِّها، وكان قد عهد إلى ابنه أبي الفضائل ـ سعيد الدولة ـ من بعده، على أن يتولّى لؤلؤ الجراحي الكبير الوصاية عليه[2].

سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد
٣٨١ ـ ٣٩٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٠٢م

تسلَّم أبو الفضائل الحكم بعد وفاة والده وبعهدٍ منه، فبايعه الغلمان والجند ولقَّبوه بـ«سعيد الدولة»، وتجدَّدت في عهده مشكلة تدخل الغلمان في شؤون الدولة واستئثارهم بالسلطة، ولم يلبث أن صار أبو محمد لؤلؤ الكبير السيفي مُدبِّره وصاحب جيشه، وهو من الغلمان، وأضحى الحاكم الفعلي في ظلّ حكم صبي قليل الخبرة، وبخاصة بعد أن زوَّج ابنته إلى سعيد الدَّولة. وقدمت القوات الحمدانية المنتشرة في ربوع الإمارة إلى حلب، كما عادت القوات العسكرية التي كان سعد الدولة قد جهَّزها لغزو مصر، ما أفرغ أطراف الإمارة من أيِّ وجودٍ عسكري

(١) ابن ظافر: ص٥٤، ٥٥. ابن العديم: جـ١ ص١٦٦.

(٢) ابن ظافر: ص٥٤، ٥٥. ابن الأثير: جـ٧ ص٤٤٩، ٤٥٠. ابن العديم: جـ١ ص١٦٦.

حمداني. وانحاز بعض قادة الدولة مع أنصارهم إلى الفاطميّين، فالتجأ وفا الصقلبي مع ثلاثمائة من الغلمان إلى مصر، وكذلك فعل بشارة الخادم الأخشيدي في أربعمائة، ورباح السيفي على رأس قوّة أخرى؛ فاستقبلهم العزيز الفاطمي، وولى وفا عكا، وبشارة طبريّة، ورباحاً قيسارية، وكان أبو الحسن علي بن الحسين المغربي، وزير بكجور وكاتبه، قد التجأ إلى مصر وحثّ العزيز على غزو حلب[1].

بدأ سعيد الدولة حُكْمه بدايةً حسنة، فأجرى بعض الإصلاحات المالية والاقتصادية، ورفع الظلم عن السكان بأن ردَّ إليهم ما كان جدّه سيف الدولة ووالده سعد الدولة قد صادره منهم من الأملاك، وردَّ الخراج إلى رسمه الأول، فاكتسب بذلك محبّة الناس[2].

تأرجحت سياسة سعيد الدولة الخارجية في الموازبة بين القوّتين الكبيرتين الفاطمية والبيزنطية ليحافظ على أراضي إمارته، فحتى يواجه تزايد الضغط الفاطمي على إمارته، تقرَّب من الخلافة العباسية، وحصل منها على ولاية ديار مضر، لكن هذه الخلافة كانت ضعيفة، ولم تستطع تقديم المساعدة المطلوبة للحمدانيّين، ما دفع سعيد الدولة إلى التقرّب من البيزنطيّين، وعندما كان يزداد الضغط البيزنطي يرتمي في أحضان الفاطميّين.

وبدت في عهد سعيد الدولة مظاهر الضعف بشكلٍ واضح على جسم الإمارة، وإن كانت قد بدأت في عهد أبيه سعد الدولة. والواقع أنّ معلوماتنا عن عهد سعيد الدولة تصبح شحيحة بعد عام (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، أي بعد وفاة العزيز الفاطمي، إلّا أن لؤلؤ الكبير كان يدير أمر حلب خلال أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي خلف أباه العزيز[3].

توفي سعيد الدولة ليلة السبت (١٥ صفر ٣٩٢هـ/ ٢ كانون الثاني ١٠٠٢م) مع زوجته مسمومين إمّا على يد إحدى جواريهما أو بإيعاز من لؤلؤ الكبير[4]، والحقيقة، أنّ هذا الأمير الحمداني لم يكن على مستوى الأحداث، وقد بلغت الإمارة الحمدانية في عهده وضعاً متقدّماً من الضعف والتراجع على المستويات كافّة، وراحت تترنَّح تحت وطأة الفاطميّين وضغط البيزنطيّين واستبداد الغلمان.

(١) ابن ظافر: ص٥٥. ابن العديم: جا ص١٦٨. أبو شجاع: ص٢١٧.
(٢) ابن العديم: جا ص١٦٨.
(٣) ابن ظافر: ص٥٧.
(٤) ابن العديم: جا ص١٧٤.

الأيام الأخيرة للإمارة الحمدانية

٣٩٢ ـ ٤٠٧هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠١٧م

كانت وفاة سعيد الدولة بمثابة النهاية الفعلية لحكم الأسرة الحمدانية بحلب، بفعل أن لؤلؤ أضحى حاكم الدولة، يحكم باسم ولدي سعيد الدولة الصغيرين أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف، من دون أن يكون لأيٍّ منهما أثر في السلطة، ولم يلبث أن اتّخذ خطوة جريئة، فأعلن نفسه حاكماً منفرداً على حلب، وأرسل الأميرين الحمدانيّين مع حرم سعيد الدولة إلى مصر، وذلك في عام (٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م)، وساعده ابنه منصور في إدارة الدولة حتى غدا شريكاً له[1].

وضايق لؤلؤ وابنه منصور بقية أفراد الأسرة الحمدانية، ونكّلا بهم، خشية على أنفسهما، وكان أحد هؤلاء، وهو أبو الهيجاء بن سعد الدولة، يعيش في كنف لؤلؤ، ففرَّ إلى بلاد البيزنطيّين، فاستقبله الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني، ومنحه حقّ اللجوء، وأضفى عليه لقباً فخرياً هو ماجستير[2]، والمعروف أن أبا الهيجاء كان متزوّجاً من ابنة ممهّد الدولة المرواني حاكم ديار بكر والموالي للبيزنطيّين، وقد تدخل لدى الامبراطور البيزنطي لصالح صهره.

ولم يلبث لؤلؤ أن توفي (٣٠ ذي الحجّة ٣٩٩هـ/ ٢٧ تموز ١٠٠٩)[3]، ودُفن بحلب في مسجد كان يُعرف باسمه، فغدا ابنه منصور حاكماً منفرداً في حلب. اتّصف هذا الحاكم بقصر النظر السياسي، مغروراً، سكّيراً، ظالماً، فأبغضه الحلبيّون، وشرعوا في البحث عن رجلٍ يُخلِّصهم منه، وقد وجدوا في إعادة الحكم الحمداني الحلّ المنشود، وبخاصة أنّ منصوراً كان ابناً لعبدٍ حمداني خان أسياده واغتصب الحكم، وكان أمامهم أحد خيارين:

الأوّل: استدعاء ولدي سعيد الدولة من القاهرة.

(١) ابن العديم: جا ص١٧٤.
(٢) المصدر نفسه: ص١٧٨. Camb. Med. History, vol IV, prt II p20.
(٣) وفي رواية أنه توفي في الأول من محرم عام (٤٠٠هـ). انظر ابن العديم: جا ص١٧٦.

الثاني: استدعاء أبي الهيجاء من القسطنطينية.

والواقع أنه لم يكن أمام هؤلاء الأمراء من حرّية التحرّك لمغادرة القاهرة أو القسطنطينية من دون موافقة، وأنَّ مَنْح الموافقة يعني تدخّل الدولة التي تمنحها.

واجه الخيار الأول صعوبة تمثّلت بالعلاقات الطيّبة بين منصور والحاكم بأمر الله الفاطمي، فقد أرسل الأوّل ولديه أبا الغنائم وأبا البركات إلى القاهرة في عام (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨م)، أي قبل وفاة لؤلؤ بسنة، فاستقبلهما الثاني بالتّرحاب ومنحهم جوائز كبيرة مع سبع قرى في فلسطين، ولقَّب والدهما مرتضى الدولة[1].

والمعروف أنّ الفاطميّين بذلوا جهوداً حثيثة لإسقاط حكم الأسرة الحمدانية، أمّا وقد سقطت الآن، فإن الطريق أضحى مفتوحاً للاستيلاء على أملاكها، وبخاصة أن حكم منصور يفتقر إلى قاعدة شعبية، لذلك تبنّى الحلبيون الخيار الثاني، واستعانوا بقبيلة بني مروان التي كانت تربطها علاقات جيدة ببيزنطية، فطلب ممهّد الدولة من الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني أن يسمح لأبي الهيجاء بمغادرة القسطنطينية والعودة إلى حلب ليتولّى حكمها. وافق الامبراطور على هذا الطلب من دون تردّد، وقد أمل في إنهاء حكم منصور الضعيف، والقضاء نهائياً على النفوذ الفاطمي في حلب وتمتين علاقتها ببيزنطية، فأعطى أبا الهيجاء الحرية في مغادرة بيزنطية والعودة إلى حلب[2].

وذهب أبو الهيجاء إلى ميافارقين، فاجتمع بحميه، وتلقّى منه مساعدة مادية وقوّة عسكرية تُقدَّر بمائتي مقاتل، واتّصل بشيوخ بني كلاب الذين وعدوه بالمساعدة والتأييد مقابل منحهم الأموال والإقطاعات، وانضمّ بعضهم إليه وهو في طريقه إلى حلب[3].

وعندما علم منصور بتقدّم أبي الهيجاء باتّجاه حلب، تصرّف على محورين:

الأول: حاول فكّ تحالف بني كلاب مع أبي الهيجاء، فوعد شيوخ القبيلة بمقاسمتهم حكم وموارد ولاية حلب، إنْ هم تخلّوْا عن أبي الهيجاء.

الثاني: التمس المساعدة من الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر، ووعده بأنه سيسمح لوالٍ فاطميّ بالإقامة في قلعة حلب.

استجاب الحاكم بأمر الله لالتماس منصور، وأصدر الأوامر إلى قاضي طرابلس، علي بن عبد الواحد بن حيدرة، وواليها، أبي سعادة القائد، أن يقودا القوات المرابطة في طرابلس لدعم منصور، وعندما دخلت هذه القوات إلى المدينة، وصل أبو الهيجاء برفقة قبيلة كلاب إلى أطرافها.

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ص١٧٨.
(٣) المصدر نفسه.

اتّصف الكلابيون، على عادة القبائل البدوية، بالتقلّب السياسي، فهم على استعداد لخدمة أمير ما اليوم، وآخر في اليوم التالي، وفقاً لمنافعهم الشخصية ومصالحهم الخاصّة، فاتّفقوا سرّاً مع منصور ووافقوا على ما عرضه عليهم، ولهذا كانوا على استعداد لخيانة أبي الهيجاء والتخلّي عنه، وعندما اصطدم الفريقان في النقرة خارج أسوار حلب، انسحبوا من صفوف أبي الهيجاء وخانوه، ما أضعف قوّته العسكرية، فتعرّض للهزيمة واضطرّ إلى الفرار إلى الأراضي البيزنطية، ونُهبت خيامه وجميع ما كان معه، وذلك في عام (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٠م)[1].

وزحفت القوات الفاطمية إلى حلب بعد انتهاء المعركة، فأغلق منصور أبوابها في وجهها، في تصرّف غير متوقّع، ووجد القاضي نفسه في وضع لا يسمح له بحصارها، فعاد أدراجه خائباً إلى طرابلس. وهكذا ضرب منصور أعداءه بعضهم ببعض وخرج من دونهم منتصراً[2].

غَضِبَ الحاكم بأمر الله من خيانة منصور، وقرّر إرسال قوّات جديدة إلى حلب، وبعث معها أبا المعالي شريف بن سعيد الدولة الحمداني، وعندما وصلت إلى معرّة النعمان، واجهت مقاومة من أعراب المنطقة، ربما لاختطاف الأمير الحمداني وبيعه لمنصور، ولم تستطع القوات الفاطمية أن تصمد أمامهم، فتراجعت تحت ضغط القتال، وكاد أبو المعالي شريف أن يُقتل لولا أن خلّصه مضيء الدولة نصر الله بن نزّال، وأعاده إلى مصر حيث قضى بقية حياته[3]، ولم يكن لأخيه أبي الحسن عليّ أي دور في الحياة السياسية، لذلك أهمل المؤرخون ذكره.

ويبدو أن منصوراً قد تمكّن بعد مدّة من التفاهم مع الحاكم بأمر الله، بدليل أن العاهل الفاطمي أرسل إليه في (رمضان ٤٠٤هـ/آذار ١٠١٤م) سجلّاً أكّد فيه ولايته على حلب[4]، وهو أول والٍ اعترف بسلطان الفاطميّين بدلاً من الخلافة العباسية.

والواقع أن شمالي بلاد الشام تنازعتها وقتذاك قوى مختلفة، إذ حرص منصور الذي استبدَّ بحكم حلب، من دون الحمدانيّين، على الاحتفاظ باستقلاله واستعان مِنْ أجل ذلك بالقوى المتنازعة من الفاطميّين والبيزنطيّين وبني كلاب، ولما لم يَفِ بما بذله من الوعود لهذه القوى، انصرفوا عن تأييده، وتخلّوا عن مساعدته[5].

وهاجم بنو كلاب برئاسة صالح بن مرداس حلب وأفسدوا فيها انتقاماً من منصور

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٧٨، ١٧٩.
(٢) المصدر نفسه: ص١٧٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) العريني: ص٦٨٠.

الذي لم يفِ بوعوده لهم، ورعت مواشيهم بساتين وحدائق وحقول أهل المدينة، وقطع الكلابيون الأشجار الخضراء، ولم يَدعوا وسيلة تُضعف المدينة وحاكمها إلّا اتّبعوها[١].

وعندما وجد منصور نفسه عاجزاً عن إيقافهم، ومنعهم من متابعة أعمالهم، تظاهر بالوفاء بوعوده. وكبادرة على حُسْن نيّته، دعا أمراءهم وشيوخهم إلى وليمة، فلبّى سبعمائة الدعوة[٢]، فاحتجزهم فور دخولهم، وأغلق الأبواب عليهم، وقتل معظمهم، وقبض على الذين نجحوا بالفرار وأودعهم السجن، وفيهم صالح بن مرداس، وقد أجبره على طلاق زوجته طرود التي اشْتُهرت بجمالها، وتزوَّجها منصور، وقد حصلت هذه الحادثة في (٢ ذي القعدة ٤٠٢هـ/ ٢٧ أيار ١٠١٢م)[٣]، وعندما علمت القبيلة بما حلَّ برجالها، رحلت جنوباً تاركة حلب، وتوجَّهت، بزعامة أحد أمرائها واسمه مقلد بن زائدة، إلى كفرطاب للاستيلاء عليها والاستقرار بها، غير أنها أخفقت وقُتل أميرها على يد بندار الدَّيلمي، وذلك في (أوائل ٤٠٣هـ/ أواسط ١٠١٢م)[٤].

ونجح صالح بن مرداس من الفرار من سجنه في (١ محرم ٤٠٥هـ/ ٣ تموز ١٠١٤م)، والتحق بقبيلته التي احتشدت وراءه ووعدته بالمساندة والطاعة، فزحف إلى حلب وشرع بحصارها. وحاول منصور صدّ صالح وأتباعه بما توافر لديه من قوات، فجرت بعض الاشتباكات المحدودة خارج أسوار المدينة، تمكَّن صالح في إحداها، وهي التي جرت في (١٢ صفر/ ١٣ آب) في يوم شديد الحرارة، من هزيمة قوات منصور، وقَتَل أكثر من ألفي رجل من أهل حلب، ووقع منصور نفسه في الأسر[٥]، غير أن صالحاً لم يتمكَّن من الاستيلاء على المدينة بفعل احتفاظ أخوي منصور وأُمّهما بمقاليد الأمور فيها، وقد ترتّب على ذلك أن دخل الطرفان في مفاوضات بهدف إيجاد تسوية، تدخَّلت فيها شخصيات حلبية كوسطاء، توصل الطرفان في نهايتها إلى اتّفاق يتضمّن:

- إطلاق سراح منصور من الأسر.
- إطلاق سراح سجناء بني كلاب في حلب.
- يُعطي منصور صالحاً مبلغ خمسين ألف دينار ذهب ومائة وعشرين رطلاً حلبياً من الفضّة، وخمسمائة قطعة ثوب من مختلف الأنواع.

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٨٠. زكار، سهيل: إمارة حلب: ص٤٢، ٤٣.
(٢) يذكر ابن العديم أنه قُتل من بني كلاب أكثر من ألف رجل. جـ١ ص١٨٠.
(٣) المصدر نفسه. (٤) المصدر نفسه: ص١٨٠، ١٨١.
(٥) المصدر نفسه: ص١٨٢، ١٨٣.

- يُطْلِق منصور سراح النساء الكلابيات اللائي تزوَّجهنّ - زوجة صالح وسيّدة أخرى - ويُزوِّج ابنته من صالح.
- يصبح صالح شريكاً في المُلك، ويتقاسم مع منصور إمارة حلب.
- يعترف منصور بصالح أميراً على بني كلاب[١].

وتدليلاً على حُسْن نيته، أودع منصور أُمّه وزوجته وأولاده رهائن على المال عند صالح، ودخل منصور إلى حلب يوم السبت (٢٣ صفر ٤٠٥هـ/ ٢٣ أيار ١٠١٤م)[٢].

وما حدث من تمتين صالح سلطته على بني كلاب، فاستولى على منبج وبالس، مرسياً بذلك القاعدة الصالحة لقيام حكم الأسرة المرداسية.

ويبدو أن منصوراً وَفَى ببعض بنود الاتّفاقية، كما هي عادته، وتنكَّر لمعظمها ما دفع صالحاً إلى حصار حلب. والمعروف أن أمير حلب رفض أن يُزوِّج ابنته من صالح، وأن يقتسم معه دخل الدولة. كان الحصار مُحكماً حيث منع صالح دخول المؤن إلى المدينة ما ضايق السكان، وعجز منصور عن القيام بأيِّ إجراء لتخفيف وطأة الحصار، غير أنه التمس المساعدة من الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني، وشرح له عدوان الأعراب على حلب الذي سيهدِّد الدولة البيزنطية إذا لم يُوقَف. استجاب الامبراطور لطلب المساعدة فأرسل قوّة عسكرية، تعدادها ألف جندي أرمني، وردَّ صالح بأن عرض نزاعه مع منصور على الامبراطور، وأقنعه بعدالة موقفه، فأمر بسحب القوات الأرمنية تاركاً منصور يواجه مصيره المحتوم[٣]. وقد أضعف انسحاب القوات البيزنطية موقف منصور وقوّى موقف صالح الذي أرسل أحد أولاده إلى العاصمة البيزنطية ليقدّم الولاء باسمه إلى الامبراطور[٤].

لم يستطع منصور أن يمضي طويلاً في سياسته القائمة على الاستفادة من الفئات المتنازعة على السلطة في بلاد الشام؛ إذ أن الفتنة لم تلبث أن اندلعت في قلعة حلب ذاتها، وأشعلها قائد القلعة، فتح القلعي، وذلك في (رجب ٤٠٦هـ/ كانون الثاني ١٠١٦م)، فقد اتّهمه منصور بالتواطؤ مع صالح بن مرداس، وأمَّن له سبيل الفرار من سجنه، وأنه مصدر متاعبه كلّها.

ويبدو أن منصوراً لم يكن يملك القوّة الضرورية لطرده وإزالة خطره، لذلك لجأ إلى التآمر. وتنبَّه فتح القلعي إلى مؤامرات سيّده، فرفض الذهاب لمقابلته، وأعلن الثورة

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٨٤، ١٨٥.
(٢) المصدر نفسه: ص١٨٥. الأنطاكي: ص٣٢١.
(٣) الأنطاكي: ص٣٢١، ٣٢٢. (٤) المصدر نفسه: ص٣٢٢.

عليه، وتحصَّن بالقلعة، كما أعلن ولاءه لصالح بن مرداس والحاكم بأمر الله الفاطمي[1].

خَشِيَ منصور على نفسه، فهرب مع أولاده وإخوته وبعض غلمانه إلى أنطاكية، الخاضعة للحكم البيزنطي، وذلك ليلة السبت (٢٤ رجب/ ٧ كانون الثاني)، وما إن انتشر خبر فراره، حتى هاجم العامّة قصره، ونهبوا مكتبته[2].

والواضح أنّ هذا الحدث لَقِيَ تأييداً من الحاكم بأمر الله الفاطمي وصالح بن مرداس، بدليل أن الأول أمر واليه على أفامية، وهو علي بن أحمد بن الضيف، أن ينهض برجاله لمساندة فتح القلعي، وتقرّر أن يتولّى صالح بن مرداس جميع الأعمال والضّياع التي سبق أن أقرَّ منصور بالتنازل عنها[2].

وكتب فتح القلعي إلى الحاكم يخبره بما فعل، ويعلن ولاءه له، فشكره الحاكم وعيَّنه والياً على حلب ولقّبه مبارك الدولة وسعيدها، ولقّب علي الضيف سديد الدولة، ولقّب صالح بن مرداس أسد الدولة، وأطلق توقيعاً لأهل حلب بإطلاق المكوس والمظالم والتخلّي عمّا هو مقرّر عليهم من الخراج[3].

لم يلبث التحالف الثلاثي بين فتح القلعي وعلي الضيف وصالح بن مرداس أن تفكَّك بعد طرد منصور من حلب، ذلك أن علي الضيف لم يشأ، بعد أن انضمّ إليه بعض الجنود الفاطميّين وحصل من فتح القلعي على المال للإنفاق عليهم، أن يتخلّى عن حكومة حلب لصالح بن مرداس وعرب بني كلاب، ولقي التأييد من الحلبيّين الذين كرهوا أن يحكمهم البدو. وعارض صالح بن مرداس الاحتلال الفاطمي وحذَّر فتح القلعي ونصحه بأن يتخلّص من الجنود الفاطميّين، وأن يتعاون معه وفقاً لقاعدة المشاركة، وأخبره بأنه لن يدخل حلب بل سيقيم خارجها، ويبقى فتح يتصرّف بالأمور في القلعة. وحتى يُثبِّت الحكم الفاطمي، طلب علي الضيف من الحاكم بأمر الله أن يمدّه بالعساكر، فجاءته الإمدادات من سائر ولاة الشام وزعماء العشائر العربية، غير أن الحاكم عزله من منصبه وولّاه صور، وعيَّن والياً فاطمياً على حلب يُدعى فاتك ولقبه أمير الأمراء عزيز الدولة، فدخل المدينة يوم الأحد في (٣ رمضان٤٠٧هـ/ ٣ شباط ١٠١٧م)[4]، وهو أوّل والٍ فاطميّ معيَّن على مدينة حلب، وبذلك أضحى النفوذ الفاطمي في حلب أمراً واقعاً، وانقرضت الإمارة الحمدانية بعد أن عمَّرت زهاء سبعين عاماً.

---

(١) الأنطاكي: ص٣٢٢. ابن العديم: جـ١ ص١٨٦.
(٢) الأنطاكي: ص٣٢٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٢٥. ابن العديم: جـ١ ص١٨٩.
(٤) الأنطاكي: ص٣٢٦.

العلاقة بين خلفاء سيف الدولة والبيزنطيين

في عهد سعد الدولة

أزالت وفاة سيف الدولة عقبة كبرى من طريق الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس في المشرق الإسلامي؛ إذ إنّ ما تلى من وفاة الأمير الحمداني من حروب بين المسلمين والبيزنطيّين إنما اتّخذ صفة حروب بين الدولة البيزنطية والشرق الإسلامي[1]، ذلك أنّ الأمراء الحمدانيّين أضحوا بعد وفاة سيف الدولة من الضعف ما جعلهم يتعرّضون لضغط البويهيّين الذين تطلّعوا إلى انتزاع الموصل، كما تعرّضوا لضغط الفاطميّين الذين طمعوا في الاستيلاء على حلب، يضاف إلى ذلك، ما وقع من نزاعات داخلية بين أفراد الأسرة الحمدانية، وإحجام الأمراء الحمدانيين عن قيادة جيوشهم بأنفسهم، كما كان يفعل سيف الدولة، وذلك بفعل فتور حماس الجهاد، وتكليف قادتهم القيام بذلك، كما أنهم أخذوا يلجأون إلى بيزنطية للاستعانة بها ضدّ بعضهم البعض.

أتاحت هذه الظروف فرصة طيّبة لبيزنطية لاستئناف نشاطها العسكري والتوسّع في شمالي بلاد الشام، غير أن مشكلاتها على الجبهة الشمالية وانصرافها إلى محاربة البلغار[2]، منعها من القيام بذلك، فشهد عام (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) هدوءاً نسبيّاً، باستثناء بعض المناوشات العسكرية في المناطق الحدودية، فقد شنَّ الخراسانيون الوافدون إلى أنطاكية غاراتهم على جبهتين:

الأولى، التخوم البيزنطية ـ الأرمنية.

الثانية، الجبهة الشامية. فقد ساروا من أنطاكية بصحبة لؤلؤ الكبير السيفي إلى جهة المصيصة، والجهات التي استولى عليها البيزنطيون مؤخراً، فانتصروا، وأسروا عدداً غير قليل من البيزنطيّين، وحصلوا على غنائم وافرة، ثم عادوا إلى أنطاكية[3].

وتغيَّر الوضع العسكري في العام التالي بعد أن حقَّق الامبراطور البيزنطي انتصاراً

---

(١) العريني: ص٤٨٠.
(٢) كان البيزنطيون يؤدّون جزية سنوية للبلغار لقاء ما كانوا يقومون به من حراسة شواطئ الدانوب والوقوف في وجه المجريين ومنعهم من اجتياز أراضيهم للإغارة على أطراف الامبراطورية البيزنطية. وحدث في عام ٩٦٧م أن امتنع الامبراطور نقفور فوكاس عن دفع الجزية المقرّرة؛ إذ رأى فيها امتهاناً لكرامته وتحطيماً لكبريائه، كما أنه وجد نفسه قوياً ليتولّى مهمة التصدّي لهجمات المجريّين في الوقت الذي أضحى فيه ملك البلغار عاجزاً عن تأدية المهمة الموكولة إليه، ما أشعل الجبهة البلغارية.
(٣) الأنطاكي: ص١٢٣.

على الجبهة الشمالية، وأضحى حرّاً للمسير إلى محاربة المسلمين على الجبهة الجنوبية لبلاده، على أمل الوصول إلى بيت المقدس، والمعروف أن الروح الصليبية بدأت تسري في نفوس البيزنطيّين بدءاً من النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

وفي ظلّ هذه الظروف الحرجة التي كان يمرّ بها المسلمون بعامّة، والحمدانيّون بخاصة، قَدِم نقفور فوكاس إلى بلاد الشام في (أواخر ٣٥٧هـ/ خريف ٩٦٨م)، فتغلّب على عسكر حلب بقيادة قرغويه واستولى على معرَّة مصرين بنواحي حلب، وأمَّن أهلها من القتل، وكانوا ألفاً ومائتي نفس، فأسرهم وسيَّرهم إلى بلاده، ثم هاجم معرَّة النعمان، فأحرق جامعها وأكثر دُورها، وفرَّ السكان إلى البراري والجبال للاحتماء بها، ثم سار إلى كفرطاب وشيزر وأحرق جامعها، ثم إلى حماة وحمص، فدخلها وصلّى بكنيستها وأحرق جامعها، وأسر مَنْ وصل مِنْ فلول العسكر وغيرهم، ثم سار إلى عِرقة، فحاصرها تسعة أيام ثم دخلها، وكان لها حصن منيع، فاستولى عليه عنوةً، وأسر مَنْ كان قد لجأ إليه من البلاد المجاورة له، كما أخذ منه مالاً كثيراً، ثم سار إلى طرابلس، ونزل عليها يوم عيد الأضحى (١٠ ذي الحجّة ٣٥٧هـ/ ٥ تشرين الثاني ٩٦٨م)، وأقام عليها تلك الليلة، وأحرق ربضها، ثم اتّخذ الطريق الساحلي، فاستولى على حصون أنطرطوس ومرقية وجبلة، وصالحه أهل أنطاكية على مال دفعوه له، غير أن نفاد المؤن، وصعوبة المسير على الطرق بسبب الأمطار وتفشّي الوباء في عسكره أرغمه على الارتداد، بعد أن ظلّ يستبيح بلاد الشام زهاء شهرين، من دون أن يمنعه أحد أو يتصدّى له[1].

كانت نتيجة هذه الغارات الواسعة تخريب الكثير من المدن والقرى، والاستيلاء على ثمانية عشر منبراً، والحصول على الكثير من الأموال، ووقع في أسره عدد كبير، فميَّز الشبان والصبيان والصبايا، فساقهم إلى بلاده وأعتق العجائز والشيوخ زهاء ألف نفس، فقتل بعضهم وأطلق الآخرين[2].

وحتى يراقب منطقة الحدود عن كثب، بنى حصن بغراس الذي يقع على فم الدرب الرئيس الذي يمتدّ عبر جبال اللّكام من أنطاكية إلى الإسكندرون ثم إلى البحر، ويُشرف على مواقع الأطراف كلّها، ووضع فيه حامية عسكرية قويّة تعدادها ألف مقاتل بقيادة ميخائيل بورتزس (البرجي)، وأمر قادة المواقع في هذه الجهات بطاعته، وجعل من الحصن مخزناً لمحاصيل القرى المجاورة[3]، ثم عيَّن بطرقاً آخر

(١) الأنطاكي: ص١٢٥، ١٢٦. ابن الأثير: جـ٧ ص٢٨٥، ٢٨٦، ويذكرها ضمن أحداث عام (٣٥٨هـ). ابن العديم: جـ١ ص١٤٨، ١٤٩. ابن العبري: ص٦٦.

(٢) الأنطاكي: ص١٢٧. (٣) المصدر نفسه.

على القيادة العليا للحرب ضدّ المسلمين هو ابن أخيه بطرس فوكاس، المعروف في المصادر العربية باسم الطربازي، وتخضع لأوامره كل الحاميات المرابطة في القلاع والمواقع الحصينة المتناثرة في جبال طوروس، وتلك المرابطة في الحصون الواقعة بأعالي بلاد الشام، وحشد تحت إمرته عدداً كبيراً من العساكر، وعهد إليه حماية ما يستولي عليه البيزنطيون من شمالي بلاد الشام وساحلها، بالإضافة إلى الإغارة على الأماكن التي يحلُّ بها المسلمون بحيث لا يجعلهم يخلدون إلى الراحة. والواضح أن إجراءاته هدفت في الدرجة الأُولى الاستيلاء على أنطاكية[1]، بدليل أنه منع السكان من جمع المؤن والذخائر، وأمر قادته بألّا يفتحوها أثناء غيابه، وعهد إلى ميخائيل البرجي بمهمة البقاء أمام أسوارها، ورتَّب في المقاطعات عيشلش السرياني في جماعة يغيرون عليها وعلى ما يليها[2].

وصادف أن دلَّ أحد الجواسيس ميخائيل البرجي على برج أهمل المسلمون حراسته، يمكن اقتحامه ودخول المدينة عبره. وفي ليلة شتاء شديدة الظلام، تساقط فيها الثلج، قاد ميخائيل البرجي ثلاثمائة من جنوده واقتحم البرج واستولى عليه، وأرسل إلى القائد بطرس فوكاس إشارة بأن يتقدّم للاستيلاء على المدينة[3].

والواقع أن أنطاكية التي لم تخضع تماماً لحكم الحمدانيّين، وغلب على أمرها علُّوش الكردي ثم رجل أسود من الرجال الذين كانوا يرابطون في طرسوس من قِبَل الفاطميّين وهو المعروف بالرغيلي، وكان قد قَتَل علُّوش واستولى على الحكم؛ كانت في حال ضعف ووهن بسبب الغارات المستمرّة عليها وعلى أعمالها، وأهمل أهلها حراستها «لأنهم ما كانوا يشعرون أنها تُقصد في ذلك الوقت، ولم يتمكّنوا من جمع رجال يصعدون إلى الجبل ليحفظوا السُّور، فرآه الروم خالياً، فبادروا بالطلوع إليه، فلم يروا أحداً فيه. . . وطرح المسلمون النار بينهم وبين الروم، وفتحوا باب البحر، وخرج منه جماعة من أهلها، وأسر الرُّوم جميع مَنْ فيها، وأطلقوا مَنْ كان بها من النصارى وأقرّوهم فيها»[4].

وهرب الرغيلي من باب البحر مع خمسة آلاف من السكان، وساروا إلى الشام[5]. وتشير الرواية الإسلامية إلى أن جماعة من النصارى من حصن بغراس (لوقا أو بوقا) جرى نقلهم إلى أنطاكية ليساعدوا البيزنطيّين على فتح المدينة، فقاموا بدورٍ فعَّال في تقديم المساعدة وتسهيل مهمّة الجنود البيزنطيّين في اقتحامها[6]، وأن

(١) العريني: ص٤٨٢. Finlay, G: History of Byzantine Empire p307.

(٢) الأنطاكي: ص١٢٨. (٣) المصدر نفسه: ص١٣٤.

(٤) المصدر نفسه. (٥) ابن تغري بردي: جـ٤ ص٢٦، ٢٧.

(٦) ابن الأثير: جـ٧ ص٢٩٠. ابن العديم: جـ١ ص١٥١.

أربعين ألف جندي بيزنطي حاصروا المدينة واقتحموها في (١٣ ذي الحجّة ٣٥٨هـ/ ٢٨ تشرين الأول ٩٦٩م)[١]، بعد أن ظلّت ثلاثمائة وثلاث وأربعين سنة في أيدي المسلمين[٢].

عدَّ الامبراطور نقفور فوكاس الاستيلاء على أنطاكية فوزاً كبيراً وحلماً طالما راوده بوصفها قلب بلاد الشام، والمدينة العظيمة والمنافسة القديمة لبيزنطية، وهي مدينة الله والبطارقة العظام والقدّيسين ومركزالهرطقات، ورأى المؤرخون الغربيون[٣] أنّ سقوط المدينة في أيدي البيزنطيّين إنما هو نذير بأن سقوط بلاد الشام كلّها في أيديهم بات وشيكاً، والواقع أنّ هذا الأمل لم يتحقّق في عهد الأباطرة الذين خلفوا نقفور فوكاس[٤].

وعلى الرغم من انتصاره، فقد حقد الامبراطور نقفور فوكاس على قائده ميخائيل البرجي، إما لأنه فُجِع بحرق المدينة والاستيلاء عليها على هذا الشكل[٥]، وإمّا لأنه خالف أمره في عدم اقتحام المدينة أثناء غيابه، ويبدو أنه كان يودّ أن يكون له شرف الاستيلاء عليها.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أضحت أنطاكية، بعد استيلاء البيزنطيّين عليها، حاضرة لحكومة الطرف الجنوبي، وطالما تعرّضت لغارات المسلمين، ولذا جرى الاهتمام بعمارتها وتحصينها، وتألفت منها وما يجاورها من الأراضي، حكومة عسكرية، تولى أمرها قادة عسكريّون أكفاء، جمعوا في أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية، واتّخذ حاكمها لقب دوق لِمَا لها مِنْ أهمِّية عسكرية[٦].

أضحت حلب، بعد سقوط أنطاكية، الهدف المباشر والمهمّ في سياسة الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس. وعندما علم سعد الدولة بسقوط أنطاكية في أيدي البيزنطيّين، ترك عاصمته وانتقل إلى حمص، تاركاً شؤون المدينة بيد قرغويه الحاجب ذي النوايا السيّئة، فاستبدَّ بشؤون المدينة، وقطع الخطبة لسعد الدولة، وخطب لنفسه ولشريكه في الحكم بكجور وكتب اسمه على السكة، ما أوقعه في نزاع مع الأمير الحمداني.

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٥٠، ١٥١.

(٢) فتحها أبو عبيدة بن الجراح في عام (١٥هـ).

(٣) Schlumberger: p726.

(٤) ظلت أنطاكية ما يزيد على قرن في أيدي البيزنطيين، ولم يخسروها إلّا قبيل الحروب الصليبية، حين فتحها السلاجقة في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م).

(٥) الأنطاكي: ص١٣٦.

(٦) العريني: ص٤٨٣ هامش رقم ٢.

وتهيّأت الفرصة للبيزنطيّين أن يتوسّعوا باتّجاه الجنوب، ذلك أنه ما كادت أنطاكية تسقط في أيديهم، وينشب النزاع بين الأمير الحمداني وقرغويه، حتى هرع بطرس فوكاس إلى حلب تنفيذاً لطلب المساعدة المقدَّم من قرغويه ضدّ سعد الدولة، وعندما علم هذا الأمير بقدوم البيزنطيّين إلى عاصمة بلاده، وكان يحاصرها، انسحب إلى معرَّة النعمان[١].

الواقع أن البيزنطيّين لم يُقدموا لمساعدة قرغويه فحسب إنما جاؤوا طمعاً في الاستيلاء على المدينة، فحاصروها، وقاومهم قرغويه بشدَّة. استمرّ الحصار مدة شهر تقريباً تحصَّن خلالها أهل البلد بالقلعة، وهاجم البيزنطيون المدينة من جهة الشمال ودخلوها، وحاصروا القلعة التي لجأ إليها قرغويه وجنوده، على أن المفاوضات ما لبثت أنْ دارت بين الطرفين وانتهت بعقد معاهدة في (صفر ٣٥٩هـ/ كانون الأول ٩٦٩م) تقرَّر بموجبها عقد هدنة دائمة مقابل[٢]:

- أن يحمل قرغويه إلى الامبراطور البيزنطي، كل سنة، عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التي وقعت الهدنة عليها[٣]، ديناراً قيمته ستة عشر درهماً إسلاميّاً، وسبعمائة ألف درهم.
- شرط الامبراطور البيزنطي، أنّ الأمير على المسلمين قرغويه، والأمر بعده لبكجور، ويُنصِّب الامبراطور بعدهما أميراً يختاره من سكان حلب، وليس للمسلمين أن يُنصِّبوا أحداً.
- لا يؤخذ من نصراني جزية في هذه الأعمال، إلّا إذا كان له بها مسكن أو ضيعة.
- يمنع قرغويه الحملات العسكرية الإسلامية المتوجّهة إلى بلاد البيزنطيّين من المرور في أراضيه حتى وإن اضطرّ إلى استعمال القوّة، وإذا عجز عن ذلك التمس المساعدة من الامبراطور البيزنطي أو من بطرس فوكاس.
- يُعلم قرغويه الامبراطور البيزنطي أو قائد المنطقة البيزنطي بكل تحرّك إسلامي كبير، ليتّخذ البيزنطيّون التدابير الضرورية لمواجهته.

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٥٢.

(٢) أورد ابن العديم نص الاتفاقية ونقلتها عنه سائر المصادر العربية والأوروبية. جـ١ ص١٥٢ ـ ١٥٧.

(٣) هذه المواضع هي: حمص، جوسية، سلمية، حماة، شيزر، كفرطاب، أفامية، معرّة النعمان، حلب، جبل السماق، معرة مصرين، قنسرين، الأثارب، إلى طرف البلاط الذي يلي الأثارب وهو الرصيف، إلى إرحاب، إلى باسوفان، إلى كيمار، إلى برصايا، إلى المرج الذي هو قريب من عزاز، ويمين الحدّ كلّه لحلب، والباقي كلّه للروم. ومن برصايا يميل إلى الشرق، ويتّصل وادي أبي سليمان إلى فجّ سيناب، إلى نافوذا، إلى أوانا، إلى تل حامد، إلى يمين الساجور، إلى مسيل الماء إلى أن يمضي ويختلط بالفرات. انظر: ابن العديم: جـ١ ص١٥٣، ١٥٤.

- يستقبل بكجور الجيوش البيزنطية الغازية ويشيعها عند رحيلها إلى وجهتها، ويُسهِّل لها الحصول على الأقوات والميرة، ولا يُهرِّب مَنْ في الضياع ليبتاع العسكر البيزنطي ما يحتاجون إليه، سوى التبن، فإنه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شيء.
- يخدم قرغويه العساكر البيزنطية إلى الحدّ، فإذا خرجت من الحدّ عاد إلى عمله، ويساعد البيزنطيّين في حربهم لغير المسلمين.
- ليس للمسلمين أن يعترضوا على مَنْ يدخل في دين النصرانية منهم، ومَنْ يدخل مِنَ النصارى في الدِّين الإسلامي، فلا سبيل للبيزنطيّين عليه.
- إذا هرب عبد مسلم أو نصراني، ذكراً كان أو أنثى، من غير الأعمال المذكورة، إليها، فعلى المسلمين تسليمه أو إعطاء صاحبه ثمنه[1]، فإن كان الهارب معمّداً، فليس للمسلمين أن يُمسكوه، بل يأخذ الأمير حقَّه من مولاه ويسلِّمه إليه.
- إن سرق سارق من بلاد البيزنطيّين واختفى هارباً، أرسله الأمير إلى رئيس العسكر الرومي ليؤدّبه، وإن دخل رومي إلى بلد الإسلام فلا يُمنع من حاجته، وإنْ دخل من بلد الإسلام جاسوس إلى بلاد الروم أُخذ وحُبِس.
- يُحظَّر على المسلمين هدم الحصون أو بناء حصون جديدة، وللبيزنطيّين أن يعمّروا الكنائس المخرّبة، وعلى المسلمين تكريم البطاركة والأساقفة الذين يَفِدون إليهم.
- يُقدِّر البيزنطيّون العُشر الذي يؤخذ عن تجارتهم، وبخاصة الذهب والفضّة والدِّيباج الرومي، والقزّ غير معمول، والأحجار، والجواهر، واللؤلؤ، والسندس، وعلى قرغويه وبكجور أن يقوما بالمحافظة على القوافل التجارية البيزنطية، وتقديم الأدلاّء لإرشادها في الطريق، فإذا تعرَّض لها قطّاع الطرق واللّصوص وجب عليهما تعويض الأضرار الناجمة عن ذلك.

وقد شهد على هذا الصلح مع قرغويه وبكجور جماعة من شيوخ حلب، وسلّموا البيزنطيّين رهائن من وجوه الحلبيين ضماناً لتنفيذ المعاهدة.

إنّ قراءة متأنّية لبنود المعاهدة تُطلعنا على الأُمور التالية:

١ ـ إنّ ما انْطوت عليه هذه المعاهدة من حقوق لبيزنطية جعلتها أشبه ما تكون بمعاهدة حماية، فإذا وثق الامبراطور من إخلاص قرغويه وبكجور، حرص على أن

(١) عن الرجل ستة وثلاثون ديناراً، وعن المرأة عشرون ديناراً أوروبية، وعن الصبي والصبية خمسة عشر ديناراً، فإن لم يكن له ما يشتريه، أخذ الأمير من مولاه ثلاثة دنانير، وسلَّمه إليه. ابن العديم: جـ١ ص١٥٥.

يكون له الحقّ في أن يُنصِّب مِنْ بعدهما أميراً يَثِقُ في ولائه لبيزنطية، ولعلّه كان يهدف من وراء ذلك إلى ضمّ حلب تدريجياً إلى ممتلكاته.

٢ ـ أضحى أمير حلب مرتبطاً بالامبراطور البيزنطي بالتزامات عسكرية وسياسية وتجارية بالغة الأهمّية.

٣ ـ حرصت المعاهدة على ألّا يعود الحمدانيون مرّة أخرى إلى حكم حلب، حيث منعت الحلبيّين من أن يقبلوا أميراً من بلاد الإسلام.

٤ ـ دخل في حوزة الامبراطورية البيزنطية قاليقلا وجزء من بلاد الشام ما يقع إلى غرب حلب وشمالها من إقليم العواصم وجبل النصرية، بحيث أضحت حدودها تُتاخم حدود بلاد الشام ومصر[1].

٥ ـ رسمت المعاهدة صورة واضحة للعلاقات السياسية والعسكرية والتجارية والاجتماعية والدِّينية بين المسلمين والبيزنطيّين في ذلك العصر، كما نستشفّ منها على كثرة الكنائس وتنظيماتها الإكليركية في هذه المناطق[2].

٦ ـ غير أن ما انطوت عليه هذه المعاهدة من نصوص تتعلّق بالممتلكات، لم يلبث أن جرى إغفال جانب منها، ذلك أن سعد الدولة امتنع عن تأدية قسط من مال الهدنة عن الممتلكات الواقعة تحت سلطانه حتى معرة النعمان عندما طلب منه قرغويه وبكجور تأديتها إلى البيزنطيين، كما أن البيزنطيّين لم يحتلوا كل المنطقة التي أضحت في أيديهم[3].

والواقع أن ما حدث بين المسلمين من نزاعات داخلية وفتن هيّأ للامبراطور نقفور فوكاس الفرصة للاستيلاء على ما استولى عليه من البلاد، بدليل إشارة ابن الأثير عندما استولى البيزنطيون على مانزيكرت في عام (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م) بأنه «عظمت شوكتهم، وخافهم المسلمون في أقطار البلاد، وصارت كلّها سائبة، لا تمتنع عليهم يقصدون أيّها شاؤوا»[4]. ويشير أيضاً إلى أطماعه «جعل همّته قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها، وتمَّ له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض، فدوَّخ البلاد، وكان قد بنى أمره أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويُخرِّبه، فيُضعف البلاد فيملكها، وغلب على الثغور الجزرية والشامية، وسبى وأسر ما يخرج عن الحصر، وهابه المسلمون هيبة عظيمة، ولم يشكُّوا في أنه يملك جميع الشام، ومصر، والجزيرة، وديار بكر؛ لخلوّ الجميع من مانع»[5]. وذكر يحيى بن سعيد الأنطاكي

(١) العريني: ص٤٨٨.
(٢) السامر: جـ٢ ص١٩٧.
(٣) ابن العديم: جـ١ ص١٥٧.
(٤) الكامل في التاريخ: جـ٧ ص٢٩١.
(٥) المصدر نفسه: ص٢٩٣.

عند تقييمه لنقفور فوكاس بعد استيلائه على مانزيكرت «ولم يشكّ أحد في أن نقفور الملك يفتح جميع الشامات وديار مضر وديار ربيعة وديار بكر وتحصل في يديه، وذلك أنه كان قد بنى أمره على قصد سواد المدن والقرى التي يمرُّها، فيغزوها ويُحرقها ويسبي أهلها ومواشيها، وإذا بلغ وقت الحصاد للزروع، خرج وأحرق جميع الغلّات، وترك أهل المدن يموتون جوعاً، وكان لا يزال يفعل ذلك بهم سنة بعد سنة إلى أن تدفعهم الضرورة إلى تسليم المدن إليه، فملك بذلك الثغور الشامية بأسرها والثغور الجزرية، وقتل مِنْ أهلها وسبى ما لا يحيط بعدده إلَّا الله تعالى، حتى كانت غزواته قد صارت كالنزهة له ولأصحابه... وكان يقصد حيث يشاء ويخرّب كيف أراد من غير أن يلقاه أحد من المسلمين يدافعه عما يريده...»[١].

ويذكر المؤرخ اليوناني ليو الشماس، الذي عاصر هذه الأحداث، أنه كان باستطاعة نقفور، لو لم يُقتل، أن يمدّ حدود امبراطوريته إلى الهند شرقاً وإلى نهاية العالم في الغرب، أي حتى المحيط الأطلسي[٢]. والواقع أن هذه الأقوال فيها الكثير من المبالغة، بدليل أن البيزنطيّين تعرَّضوا لهزيمة قاسية على يد المسلمين، على الجبهة الغربية، عندما فتح هؤلاء جزيرة صقلية وفرضوا سيادتهم عليها، في أواخر عام (٣٥٣هـ/ ٩٦٤م)[٣].

وحدث بعد توقيع المعاهدة أن اغتيل الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس في (٢٩ محرم ٣٥٩هـ/ ١١ كانون الأول ٩٦٩م) على يد زوجته تيوفانو وقريبه يوحنا زمسكيس الذي اشترك في المؤامرة، وتولّى العرش الامبراطوري[٤].

كان يوحنا زمسكيس يضارع نقفور فوكاس في مهارته العسكرية وقيادته الفذَّة، بل إنه يفوقه في الخبرة السياسية، وذلك بفعل ما اشتهر به نقفور من التسرّع في اتخاذ القرارات وتنفيذها، لذلك برع في إدارة الحرب والسياسة ضدّ أعداء الامبراطورية على الجبهتين الشمالية ضدّ الروس والبلغار، والجنوبية ضدّ المسلمين؛ إذ إن الخطر الدائم المنبعث من بلاد الشام أقضَّ مضاجعه، كما أن ازدياد تفشّي الروح الصليبية في المجتمع البيزنطي دفعه إلى مهاجمة فلسطين لانتزاعها من أيدي المسلمين. وبعد أن أمَّن الجبهة الشمالية التفت إلى المشرق الإسلامي، وراح يفكّر في مواصلة الحرب ضدّ المسلمين للتوسّع على حسابهم.

(١) تاريخ الأنطاكي: ص١٣٦، ١٣٧. (٢) Vasiliev: p309.

(٣) انظر: العريني: ص٤٩٠ ـ ٤٩٧، حيث تفاصيل وافية عن الحرب في صقلية.

(٤) الأنطاكي: ص١٣٨، ١٨٦. ابن العبري: ص٦٦، ٦٧. ابن العديم: جـ١ ص١٥٧. وعند العريني تفاصيل وافية ص٥١٢ ـ ٥١٦.

والواقع أنّ ما حدث من استيلاء البيزنطيّين على حلب، وما ترتَّب على ذلك من عَقْد معاهدة جرى الاعتراف فيها بسيادة بيزنطية على الإمارة الحمدانية، وما تلى ذلك من سيطرة البيزنطيّين على معاقل وحصون عديدة لا سيما أنطاكية؛ كل ذلك أثار نفوس المسلمين ودفعهم إلى الردّ؛ فأرسل جعفر بن فلاح القائد الفاطمي أثناء المدة القصيرة التي حكم فيها بلاد الشام باسم المعزّ، جيشاً من دمشق بقيادة غلامه فتوح، لمهاجمة أنطاكية، وذلك في (ربيع الأول ٣٦٠هـ/ كانون الثاني ٩٧١م)، فحاصر المدينة، غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليها، على الرغم من أن الامبراطور يوحنا زمسكيس كان آنذاك منهمكاً في قتال البلغار. غير أنّ ما حدث من مهاجمة القرامطة لبلاد الشام بقيادة الحسن بن أحمد، المعروف بالأعصم، دفعه إلى استدعاء فتوحاً ومَنْ معه من العساكر لقتالهم، فرفع هذا الحصار عن المدينة.

وعلى الرغم من التوسع البيزنطي في قيليقيا وأنطاكية والثغور الشامية وامتداد الحدود البيزنطية باتجاه الجنوب، وأنّ حلب أضحت تُدين بالولاء لبيزنطية، وعلى الرغم من انقسام المجتمع الإسلامي وسوء أوضاع المسلمين الداخلية؛ فإن المسلمين لا يزالون خصماً عنيداً، يُذكُّون روح الجهاد الديني ويشنُّون الغارات على امتداد الحدود، ويُنظِّمون حملات تُلقي الرعب في نفوس سكان الثغور البيزنطية، بل تُنزل الهزيمة بالجيوش البيزنطية، بدليل ما حلَّ بجيوش القائد البيزنطي مليح من هزيمة في منطقة الجزيرة الفراتية[١]. يضاف إلى ذلك بروز خطر جديد تمثَّل بالفاطميين الذين هزموا القرامطة واستولوا على جنوبي بلاد الشام، وتطلّعوا للاستيلاء على شمالها؛ فكان لزاماً على الامبراطور البيزنطي يوحنا زمسكيس أن يعمل على المحافظة على أراضي دولته من هذه الأخطار والتوسّع باتِّجاه الجنوب والسيطرة على بيت المقدس، بخاصة، بوصفها مدينة مقدّسة يقصدها الملايين من الحجّاج النصارى. والواقع أن حملته على جنوبي بلاد الشام وفلسطين بين (عامي ٣٦٤ ـ ٣٦٥هـ/ عام ٩٧٥م)، إنما هاجمت الأراضي التي تُسيطر عليها الدولة الفاطمية.

ولم يلبث يوحنا زمسكيس أن قضى نحبه في (٥ جمادى الأُولى ٣٦٥هـ/ ١٠ كانون الثاني ٩٧٦م) بعد عودته من حملته الشهيرة على بلاد الشام وفلسطين، وخلفه الامبراطور باسيل الثاني.

(١) أغار القائد البيزنطي في عام (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) على أعالي الفرات، وتوغَّل في إقليم الجزيرة، فتصدّى له الحمدانيون في الموصل وهزموه في معركة قرب ميافارقين وأخذوه أسيراً، وتوفي في الأسر بعد نحو عام.

وحدث في بلاد الشام آنذاك أن استطاع سعد الدولة أن يعود إلى إمارة حلب بعد أن ظلَّ مدة طويلة بعيداً عنها منذ أن طرده كل من قرغويه وبكجور، واستقرَّت له الأمور في المدينة منذعام (٣٧١هـ/ ٩٨١م) بفضل ما اشتهر به من مهارة سياسية في تجنُّب خطر كلٍّ من البيزنطيين والفاطميين، فانتهز فرصة ما وقع من اضطرابات في القسطنطينية عقب وفاة يوحنا زمسكيس، فامتنع عن دفع الجزية المفروضة على حلب وفقاً لمعاهدة عام (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م)، ويبدو أنّه قرَّر أن لا يلتزم بمعاهدة لم يوقّعها، فضلاً عن أنها تتعارض مع مصلحة بلاده، ما أثار بيزنطية، فأرسلت جيشاً كبيراً إلى حلب في (جمادى الأولى ٣٧١هـ/ تشرين الثاني ٩٨١م) بقيادة بارداس فوكاس، لإلزام الأمير الحمداني في الاستمرار بدفع الجزية المقرّرة على حلب.

والواقع أن الأمير الحمداني وجد نفسه عاجزاً عن المقاومة، فدخل في مفاوضات مع القائد البيزنطي، وقَبِل أن يؤدّي إلى البيزنطيّين كل سنة أربعمائة ألف درهم فضّة، أي عشرين ألف دينار[1]. وحتى يطمئن إلى أنّ سعد الدولة لا يزال موالياً للبيزنطيّين، في ظل تطلّع الفاطميّين للاستيلاء على حلب، وحتى لا يخلُّ بتعهّداته من واقع الامتناع مجدداً عن دفع الجزية، جدَّد بارداس فوكاس هجماته على حلب في عامي (٣٧٣ و٣٧٥هـ/ ٩٨٣ و٩٨٥م).

ويبدو أن سعد الدولة امتنع مجدداً عن دفع الجزية أو أن الامبراطور باسيل الثاني خَشِيَ من أن تقع حلب في أيدي الفاطميّين، فأرسل جيشاً كبيراً إلى حلب قدَّره المؤرخون بخمسمائة ألف مقاتل بين فارس وراجل بقيادة بارداس فوكاس، وبالغ في تجهيزه بآلات الحصار والمجانيق والعرادات. وقد وعد الامبراطور البيزنطي بضمان الاستيلاء على حلب وهدْم سورها حجراً حجراً، وحمْل سبيها إلى القسطنطينية، وعندما وصل القائد البيزنطي إلى حلب بثَّ سراياه في نواحيها، فارتاع الناس. ومن جهته استعدَّ سعد الدولة للتصدِّي للبيزنطيّين، وجرى اشتباك بين الطرفين في اليوم السابع قُتل خلاله قائد مقدمة الجيش البيزنطي وحاكم الثغور البيزنطية المدعوّ تريثاويل، وكان عُمدة الجيش. وأرسل سعد الدولة قوّة عسكرية هاجمت دير سمعان الحلبي الواقع على الحدود بين حلب وأنطاكية، فلقي عدد من الرهبان مصرعهم، كما وقع كثير منهم في الأسر، بالإضافة إلى التجار الذين لجأوا إليه، وذلك في (١٢ ربيع الآخر ٣٧٥هـ/ الأول من أيلول ٩٨٥م).

ويبدو أن سعد الدولة لم يستطع الصمود طويلاً أمام الهجمات البيزنطية، فطلب من بارداس فوكاس الأمان له ولرعاياه، واستجاب القائد البيزنطي لطلب الصلح،

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص١٦٠.

ولعلّ لذلك علاقة بتجدُّد الحرب بين البيزنطيّين والبلغار في عام (٣٧٦هـ/ ٩٨٦م)، فأراد الامبراطور تبريد الجبهة الإسلامية ليتفرّغ لقتال البلغار، وتقرّر أن يحمل سعد الدولة إلى الامبراطور في كل سنة ما هو مقرّر على الحلبيّين من المال، وقدره عشرون ألف دينار، وأن يؤدّي ما تأخر من الأموال التي التزموا بها من قبل[1].

في عهد سعيد الدولة

يرتبط تاريخ حلب، بعد وفاة سعد الدولة وحتى سقوط الإمارة الحمدانية، بالصراع بين البيزنطيّين والفاطميّين على شمالي بلاد الشام. ففي غمرة هذا الصراع حرص العزيز الفاطمي الاستيلاء على حلب وضمّها إلى ممتلكاته، وبحجّة الانتقام للإهانة التي وجَّهها سعد الدولة إلى رسوله أعدَّ حملة كبيرة عدّتها ثلاثين ألف جندي، وعيَّن على قيادتها منجوتكين التركي.

حاصر منجوتكين مدينة حلب، فبذل له سعيد الدولة أموالاً كثيرة على أن يرحل عنها، ويكون في الطاعة، ويقيم الدعوة للفاطميّين، ويضرب السكة باسم العزيز، ويكتب اسمه على البنود في سائر أعماله، غير أن القائد الفاطمي رفض ذلك[2]. عندئذ التمس أمير حلب المساعدة من الامبراطور البيزنطي، نظراً لِما يربط حلب ببيزنطية من معاهدات[3].

تعرَّضت حلب، في المدة الواقعة بين (رمضان ٣٨١ وشعبان ٣٨٤هـ/ تشرين الثاني ٩٩١ وأيلول ٩٩٤م)، لأشدّ ما وجَّهه الفاطميون من هجمات؛ إذ فرضت جيوش منجوتكين عليها الحصار ثلاث مرات، واستولت على البلاد التابعة لها، وعلى بعض الحصون الواقعة على الحدود بينها وبين أنطاكية، ففي الحصار الذي فرضه منجوتكين في عام (٣٨٢هـ/ ٩٩٢م)، واستمرّ ثلاثة وثلاثين يوماً، أوشكت حلب على الاستسلام[4].

وحدث أثناء تعرُّض حلب للخطر الفاطمي، أن انصرف باسيل الثاني إلى قتال البلغار، وعلى الرغم من الهدنة التي وقَّعها مع العزيز في (رمضان ٣٧٦هـ/ كانون الثاني ٩٨٧م) لمدّة سبع سنوات، والتي لم ينته أجلها بعد؛ كتب إلى واليه على أنطاكية، ميخائيل البرجي، يأمره بالمسير إلى حلب، وفكّ الحصار عنها. وعندما علم منجوتكين بذلك أرسل إلى القائد البيزنطي يُعلمه بأنه إنما يقصد حلب، وأنه لا

---

(١) الأنطاكي: ص٢٠٣ ـ ٢٠٥. ابن العديم: جـ١ ص١٦١، ١٦٢.
(٢) ابن العديم: جـ١ ص١٦٨. (٣) ابن الأثير: جـ٧ ص٤٥٠.
(٤) الأنطاكي: ص٢٢٤.

يتطرّق إلى شيء من البلاد البيزنطية، وأنه لن يجيز لأحد من رجاله أن يُفسد في البلاد البيزنطية، غير أنه لم يحفل بذلك، وأمر باعتقال الرّسول[١].

كان الجيش الفاطمي يفوق في العدد الجيش البيزنطي بعد الإمدادات التي تلقّاها من مصر بحراً عن طريق طرابلس، وعندما شاهد ميخائيل البرجي ضخامته خَشِيَ الدخول في معركة سافرة معه، غير أن الحلبيّين هوّنوا عليه أمره، وأجبروه على خوض الحرب. وحقّق منجوتكين انتصاراً حاسماً على الجيش البيزنطي وحلفائه الحلبيّين عند مخاضة نهر العاصي في (٦ شعبان ٣٨٤هـ/ ١٥ أيلول ٩٩٤م)[٢].

جدَّد منجوتكين بعد انتصاره الحصار على حلب، وأصرَّ على إخضاعها، بدليل أنه بنى بإزائها مدينة لقضاء فصل الشتاء، أقام بها الحمامات والخانات والأسواق والمساجد[٣].

وازدادت الأوضاع الداخلية في حلب تفاقماً، فارتفعت الأسعار، ولم تُجدِ نفعاً تدابير لؤلؤ، عندئذٍ كتب إلى الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني يستنجد به للمرّة الثانية، وأشار عليه أنه متى أُخذت حلب، أُخِذت أنطاكية، ومتى أُخذت أنطاكية، أُخذت القسطنطينية[٤].

أدرك الامبراطور البيزنطي خطورة الموقف، فعزم على المضيّ بنفسه إلى حلب لمساعدتها ضدّ الفاطميّين، وتوجّه على رأس جيشٍ ضخم، قدّره المؤرخون بثلاثة عشر ألف جندي، فوصل إلى أنطاكية في (ربيع الأول ٣٨٥هـ/ نيسان ٩٩٥م)، ثم خرج منها قاصداً حلب، ولمّا اقترب منها أرسل إلى أميرها يُعلمه بقدومه، وفاجأ القوات الفاطمية على حين غرّة، وأجبرها على رفع الحصار عن حلب. وعاد منجوتكين إلى دمشق منهزماً في شهر (ربيع الآخر/أيار)[٥].

واكتفى باسيل الثاني بتجديد معاهدة التحالف مع حلب، وضمّنها شروطاً لصالح النصارى المقيمين في المدينة، ولم يحرص على ضمّ المدينة إلى ممتلكاته على الرغم من نصيحة أخيه وقادته؛ لإدراكه أنّ ذلك يؤدّي إلى اتّحاد المسلمين، على أن الامبراطور البيزنطي استولى على حصن شيزر القريب من حماة، وحمص، وحاصر طرابلس التي امتنعت عليه لحصانتها، كما استولى على حصن أنطرطوس وشحنه

(١) الأنطاكي: ص٢٢٣، ٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٢٦ ـ ٢٢٧. ابن العديم: جـ١ ص١٧١.
(٣) ابن العديم: جـ١ ص١٧١.
(٤) المصدر نفسه: ص١٧٢. الأنطاكي: ص٢٢٨.
(٥) المصدران نفساهما.

بالمقاتلة، ثم عاد إلى أنطاكية[١].

ويبدو أن الخطر لم يَزُلْ عن حلب، إذ عندما علم العزيز بمدى تقدُّم البيزنطيين في شمالي بلاد الشام، وانهزام قائده منجوتكين، قرّر القيام بحملة ضدّ حلب يقودها بنفسه للاستيلاء على المدينة ووضع حدّ لتعدّيات البيزنطيّين؛ وإذ أدرك أمير حلب أنّ النزاع مع العزيز سمح للبيزنطيّين، التمادي في هجماتهم وطلباتهم، رأى أن يبادر إلى مهادنة الفاطميّين، وتوسّط بدر الحمداني في الصلح بينهما، وتضمّنت المعاهدة اعتراف الأمير الحمداني وحاجبه لؤلؤ بحماية العزيز[٢].

ترتَّب على المعاهدة المُبْرمة بين الحمدانيّين والفاطميّين أنْ دعا العزيز إلى جهاد البيزنطيّين، وأعدَّ جيشاً ضخماً لمحاربتهم، وفي نيّته إخضاع حلب لحكمه المباشر متجاوزاً المعاهدة. ولحرصه على توفير المؤن للعساكر، بعد بلوغهم بلاد الشام، طلب من وزيره عيسى بن نسطورس بإعداد أسطول بحري يسير إلى طرابلس في خطّ موازٍ لمسير الجيش البرّي[٣].

أمر عيسى بن نسطورس بجمع الأخشاب من سائر النواحي، وبنى أسطولاً في دار الصناعة بالمقس[٤]، وما إن انتهى العمل من صناعته حتى أُعِدَّ للإقلاع بعد صلاة الجمعة (١٣ ربيع الآخر ٣٨٦هـ/ ٩ أيار ٩٩٦م)، غير أن هذا الأسطول الكبير، الذي كان على أُهبة الاستعداد للرحيل إلى هدفه، لم يلبث بعد أيام قليلة من إعداده وشحنه، أن تعرَّض لحريق مُروِّع، فقد شبّت النار في دار الصناعة بالمقس وأحرقته باستثناء ستّ سفن نجت من الحريق[٥].

وبناءً على أوامر العزيز، شرع عيسى بن نسطورس في إنشاء أسطول آخر، بلغ عدد مراكبه أربعة وعشرين، وانتهى البناء في غضون ثلاثة أشهر، وشحنه بالمقاتلة، وأرسله إلى أنطرطوس بقيادة رشيق العزيزي، نجدة لمنجوتكين، الذي كان يحاصر المدينة لاستردادها من أيدي البيزنطيّين، غير أن هذا الأسطول الجديد لم يلبث أن تعرَّض لعاصفة عاتية حطّمته بالقرب من ميناء طرابلس، وأسر البيزنطيون بعض بحّارته[٦].

ووقع في تلك الأثناء، حادث بالغ الأهمية في مجرى الأُمور، ذلك أن الحملة

(١) الأنطاكي: ص٢٢٨، ٢٢٩. ابن العديم: جـ١ ص١٧٢. ابن تغري بردي: جـ٤ ص١٢١.
(٢) الأنطاكي: ص٢٣٣. (٣) المصدر نفسه.
(٤) المقس: بين يدي القاهرة على النيل، وكان قبل الإسلام يُسمّى أمّ دُنَين، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط. الحموي: جـ٥ ص١٧٥.
(٥) الأنطاكي: ص٢٣٣. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميّين الخلفا: جـ١ ص٢٩٠.
(٦) الأنطاكي: ص٢٣٤، ٢٣٥.

البرّيَّة التي قادها العزيز توقفت في بلبيس[1]، بفعل اشتداد المرض عليه، ولم يلبث أن توفي في (٢٨ رمضان ٣٨٦هـ/ ١٤ تشرين الأول ٩٩٦م)[2]. والواقع أنّ هذه الوفاة أنقذت حلب والامبراطورية البيزنطية من حرب بالغة الخطورة.

في الأيام الأخيرة للإمارة الحمدانية

إن ما وقع من الأحداث في السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري/ السنوات الأُولى من القرن الحادي عشر الميلادي، في شمالي بلاد الشام، كانت بالغة الأهمية في تطوّر العلاقات بين الحمدانيّين والفاطميّين والبيزنطيّين؛ ذلك أن أمير حلب سعيد الدولة توفي في (١٥ صفر ٣٩٢هـ/ ٢ كانون الثاني ١٠٠٢م)، فتولّى الحكم ولداه، أبو الحسن علي وأبو المعالي شريف، فاستبدّ لؤلؤ بالأمر دونهما، واعترف بسيادة الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي خلف والده العزيز. والراجح أن ما التزمت به حلب من دفع الجزية لبيزنطية لا زال جارياً، ومع ذلك فإنّ لؤلؤ قد ساوره الشكّ والقلق من جهة البيزنطيّين، فأخذ يساند خصومهم[3].

وما قام به الأصفر التغلبي في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) من الدَّعوة إلى الجهاد وقتال البيزنطيّين، لَقِيت قبولاً من سكان القرى والبدو في الجزيرة الفراتية، فاستعاد المدن التي وقعت في أيدي باسيل الثاني، مثل شيزر وأرتاح والجهات القريبة من أنطاكية، وكفر عزوز الواقعة في الجنوب الغربي من الرّها[4].

على أنّ هذه الحركة، لم تلق قبولاً عند أمير حلب والحاكم بأمر الله الفاطمي، وقد اشتكاه باسيل الثاني لديه، فأرسل إليه قوة عسكرية من دمشق طردته من شيزر، وطارده دوق أنطاكية، نقفور أورانوس، وتخلّى عنه بنو كلاب، بقيادة وثَّاب بن جعفر النميري صاحب سروج، بل إنه سلَّمه إلى لؤلؤ، فاعتقله بقلعة حلب في (شعبان ٣٩٧هـ/ أيار ١٠٠٧م)[5].

لم يسئ لؤلؤ معاملة الأصفر أثناء سجنه حتى لا يثير عليه سخط أنصاره وأتباعه الذين يقيمون قرب حلب، كما أنه قرَّر اتّخاذه أداة يُهدِّد بها البيزنطيّين من واقع إطلاق سراحه إذا تعرَّضت حلب للخطر من قِبَلهم[6].

وتعرَّضت حلب للفتن والاضطرابات بعد وفاة لؤلؤ واعتلاء ابنه منصور سدّة الإمارة، في ظلِّ الصراع الداخلي بين الأُمراء الحمدانيّين من جهة وبني كلاب من جهة أخرى، ثم الصراع الإقليمي بين الفاطميّين والبيزنطيّين للسيطرة على المدينة حتى وقعت أخيراً في قبضة الفاطميّين، وفرَّ منصور إلى بلاد البيزنطيّين.

---

(١) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. الحموي: جـ١ ص٤٧٩.
(٢) المقريزي: جـ١ ص٢٩١.
(٣) العريني: ص٦٧٧، ٦٧٨.
(٤) ابن العديم: جـ١ ص١٧٥.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) العريني: ص٦٧٨.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

□ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن... بن عبد الواحد الشيباني:

ـ **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧.

□ الأزدي، علي بن ظافر:

ـ **أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور**، تحقيق تميمة الرواف، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٥.

□ الأنطاكي، يحيى بن سعيد:

ـ **تاريخ الأنطاكي**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، طرابلس ـ لبنان، ١٩٩٠م.

□ ابن برد، أحمد بن عبد الرحمٰن:

ـ **ذيل الولاة والقضاة للكندي**، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣.

□ البلاذري، أبو الحسن:

ـ **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

□ البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل:

ـ **البدء والتاريخ**، تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

□ البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد المديني:

ـ **سيرة أحمد بن طولون**، تحقيق محمد كردعلي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

□ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:

ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.

❑ التنوخي، أبو علي الحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم:

- **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، مطبعة أمين هندية، مصر، ١٩٢١م.

❑ الجهشياري، محمد بن عبدوس:

- **كتاب الوزراء والكتّاب**، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١، القاهرة ١٩٣٨م.

❑ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:

- **معجم البلدان**، دار صادر - دار بيروت، بيروت.

❑ ابن خرداذبة، عبد الله بن عبد الله:

- **المسالك والممالك**، نشر دي غويه، لندن، ١٨٨٩م.

❑ ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:

- **العبر وديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

❑ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم:

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

❑ ابن خياط، أبو عمرو بن أبي هبيرة خليفة:

- **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف، ط ١، ١٩٦٧م.

❑ ابن الداية، أبو جعفر أحمد بن يوسف:

- **سيرة أحمد بن طولون**، نشر فولرز، برلين، ١٨٩٤م.

❑ ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم:

- **أخبار سيبويه المصري**، نشر محمد وحسين الديب، القاهرة، ط ١، ١٩٣٣م.

❑ ابن الزيات، شمس الدين أبو عبد الله:

- **الكواكب السيارة**، المطبعة الأميرية، مصر، ١٩٠٧م.

❑ ابن سعيد الغرناطي، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك:

- **المُغرب في حلى المغرب**، الجزء الأول القسم الخاص بمصر، تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، مصر، ١٩٥٣م.

❑ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن بن محمد بن عثمان:

- **تاريخ الخلفاء**، تحقيق أحمد إبراهيم زهوة وسعيد بن أحمد العبدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.

❑ أبو شجاع، الروذراوري:

- **ذيل تجارب الأمم**، تحقيق آمدروز، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

❑ الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى:

- **أخبار الراضي بالله والمتقي بالله**، نشر هيورث، القاهرة، ١٩٣٥م.

❑ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:

- **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.

❑ ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا:

- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.

❑ ابن العبري، غريغوريوس الملطي:

- **تاريخ الزمان**، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

❑ ابن العديم، كمال الدين عمر بن هبة الله:

- **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٩٩٧م.

❑ ابن عذارى، أبو محمد عبد الله محمد المراكشي:

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الأجزاء الثلاثة الأُولى، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ٥، ١٩٩٨م.

❑ عماد الدين، إدريس:

- **عيون الأخبار وفنون الآثار**، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت.

❑ ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد:

- **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، باهتمام تقي بينش، مشهد، ١٣٦٣ شمسي هجري.

❑ أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان:

- **ديوان أبي فراس**، تحقيق سامي الدهان، دمشق، بيروت، ١٩٤٤م.

❑ قدامة بن جعفر:

- **كتاب الخراج**، ملحق بكتاب المسالك والممالك، بريل، ١٩٠٣هـ.

❑ ابن القلانسي، حمزة بن أسد:

- **ذيل تاريخ دمشق**، بيروت، ١٩٠٨م.

❑ القلقشندي، أحمد بن علي:

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

❑ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء:

- **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠م.
- **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م.

❑ الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب:

- **الولاة والقضاة**، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن:
  - **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت.
- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد:
  - **تجارب الأمم**، طبعة آمدروز، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:
  - **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٩٩٨م.
  - **اتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميّين الخلفا**، الأول، تحقيق جمال الدين الشيال، الثاني والثالث، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦
  - **إغاثة الأُمّة بكشف الغمّة**، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٧م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
  - **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب العلمية، ١٣٤٧هـ.
  - **الواقدي، محمد بن عمر بن واقد:**
  - **فتوح الشام**، دار الجيل، بيروت.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب:
  - **تاريخ اليعقوبي**، تحقيق عبد الأمير مهنّا، مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ب ـ المراجع:

- بروي، إدوارد:
  - **الشرق الأدنى، ازدهاره وأزماته، القرنان التاسع والعاشر**، فصل في كتاب تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، بإشراف موريس كروزيه.
- بينز، نورمان:
  - **الامبراطورية البيزنطية**، تعريب حسين مؤنس ومحمود زايد، القاهرة، ١٩٥٠م.
- حسن، إبراهيم حسن وطه شرف أحمد:
  - **عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- الدشراوي، فرحات:
  - **الخلافة الفاطمية بالمغرب**، تعريب حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.

- الدوري، عبد العزيز:
  - **العصر العباسي الأوّل**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، بيروت ٢٠٠٦م.
- رنسيمان، ستيفن:
  - **الحضارة البيزنطية**، تعريب عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م.
- زكار، سهيل:
  - **إمارة حلب**، دار الكتاب العربي، سوريا.
- زيود، محمد أحمد:
  - **العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي**، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٩م.
- السامر، فيصل:
  - **الدولة الحمدانية في الموصل وحلب**، جـ١، مطبعة الإيمان بغداد، ط ١، ١٩٧٠، جـ٢، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٣م.
- طقوش، محمد سهيل:
  - **تاريخ الدولة العباسية**، دار النفائس، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٤م.
  - **تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- عدوان، أحمد:
  - **الدولة الحمدانية**، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ليبيا، ط ١، ١٩٨١م.
- العدوي، إبراهيم:
  - **الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية**، القاهرة ١٩٥١م.
- عريب بن سعيد:
  - **صلة تاريخ الطبري**، القاهرة.
- العريني، السيد الباز:
  - **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية،بيروت، ١٩٨٢م.
- العش، يوسف:
  - **تاريخ عصر الخلافة العباسية**، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠.
- ڤازيلييف:
  - **العرب والروم**، تعريب محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
- فوزي، فاروق عمر:
  - **الخلافة العباسية**، دار الشروق، فلسطين، ط ١، ١٩٩٨م.

- كاشف، سيدة إسماعيل:
  - **مصر في عصر الأخشيديين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.
- كردعلي، محمد:
  - **خطط الشام**، دمشق، ١٩٣٨م.
- لسترينج، كي:
  - **بلدان الخلافة الشرقية**، تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.
- اللميلم، عبد العزيز محمد:
  - **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م.
- محمود، حسن أحمد:
  - **حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني**، دار الفكر العربي، القاهرة.
- محمود، حسن أحمد وأحمد إبراهيم الشريف:
  - **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٥.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Bury, J.B:
  * **A History of the Eastern Roman Empire**, London, 1912.
  * **The Imperial Administrative System in the Ninth Century**, London, 1921.
- Cambridge Medieval History, vol IV.
- Canard, M:
  * **Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie**, T.I, Paris, 1953.
- Dieh, ch et Marcais, G:
  * **Le Monde Oriental 395 - 1081**, Paris, 1936,.
- Finaly, G:
  * **History of Byzantine Empire**, London, 1856.
- Ostrogorsky, G:
  * **A History of the Byzantine States**, trans by Hsey, Oxford, 1956.
- Rambaud, A:
  * **l'Empire Grec au dixième siècle, Constantin Porphyrogenète**, Paris, 1870.
- Schlumberger, G:
  * **Un Empereur Byzantin au dixième siècle**, Necephore phocas, Paris, 1890.
- Vasiliev, A:
  * **The Byzantine Empire**, Madison, 1856 - 1857.

محتوى الكتاب

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث عشر: سيف الدولة الحمداني ٣٣٣ ـ ٣٥٦هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٦٧م	٢٧٧
العلاقة مع البيزنطيّين	٢٧٧
طبيعة ميدان المواجهات العسكرية	٢٧٧
ـ الثغور والعواصم الإسلامية	٢٧٧
ـ الثغور البيزنطية	٢٨٢
ـ أهمية الثغور البيزنطية	٢٨٥
التنظيمات العسكرية	٢٨٦
ـ تنظيمات الجيش الحمداني	٢٨٦
ـ تنظيمات الجيش البيزنطي	٢٨٨
النهضة السياسية في بيزنطية	٢٩٠
مراحل المواجهات العسكرية بين سيف الدولة والبيزنطيين	٢٩١
ـ المرحلة الأولى: الصراع على أرمينيا	٢٩١
ـ المرحلة الثانية: الصراع على شمالي بلاد الشام	٢٩٤
الفصل الرابع عشر: خلفاء سيف الدولة ـ الأيام الأخيرة للإمارة الحمدانية	٣١٧
خلفاء سيف الدولة	٣١٧
سعد الدولة أبو المعالي شريف ٣٥٦ ـ ٣٨١هـ/ ٩٦٧ ـ ٩٩١م	٣١٧
تمهيد	٣١٧
تولية سعد الدولة حكم الإمارة الحمدانية	٣١٧
التنازع الأُسري في الإمارة الحمدانية	٣١٩
الصراع بين سعد الدولة وغلمانه	٣٢٠
وفاة سعد الدولة	٣٢٧
سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد ٣٨١ ـ ٣٩٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٠٢م	٣٢٧
الأيام الأخيرة للإمارة الحمدانية ٣٩٢ ـ ٤٠٧هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠١٧م	٣٢٩
العلاقة بين خلفاء سيف الدولة والبيزنطيين	٣٣٥
في عهد سعد الدولة	٣٣٥
في عهد سعيد الدولة	٣٤٥
في الأيام الأخيرة للإمارة الحمدانية	٣٤٨
ثبت المصادر والمراجع	٣٤٩
أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية	٣٤٩
أ ـ المصادر	٣٤٩
ب ـ المراجع	٣٥٢
ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية	٣٥٤
محتوى الكتاب	٣٥٥

رقم: 506 - 08



تاريخ

الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين

تتناول الدراسة في هذا الكتاب تاريخ ثلاث إمارات إسلامية استقلّت عن الخلافة العباسية أيام ضعفها، فقد أتاح ضعف الخلفاء ودخول شعوب غير عربية في الإسلام، مع تعصبها لقومياتها إلى نشوء نوع من اللامركزية في الحكم، ولكن مختلف تلك الإمارات بقيت مرتبطة شكلياً وروحياً بالخليفة في بغداد. وربما كان ذلك طبيعياً؛ لاتساع رقعة الدولة وتسرب الشعوبية إلى أجهزة الحكم وبخاصة الجيش.

والإمارات التي تناولها المؤلف بالدراسة في هذا الكتاب هي: الإمارتان: الطولونية والإخشيدية في مصر، والإمارة الحمدانية في الموصل وحلب.

والمؤلف أستاذ جامعي متخصص في التاريخ الإسلامي، يمتاز برشاقة العبارة، وسهولة التعبير، وله مؤلفات كثيرة نشرتها دار النفائس تباعاً في السنوات الأخيرة.

الناشر

ISBN 978-9953-18-456-2

